أغاني الحياة

أغاني الحياة

الخيال الشعري..

مذكرات

أبو القاسم الشابي

أغاني الحياة

تحقيق وتقديم
الدكتور نور الدين صمّود

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994

© جميع الحقوق محفوظة
لدار المغرب العربي ـ تونس

استهـلال وتقديـم

في مستهل عام 1989 تم الإعلان عن ميلاد جائزة أدبية عربية جديدة.. جائزة لم تؤسسها دولة أو منظمة أو مؤسسة اقتصادية أو سياسية أو عسكرية.. بل أسسها أديب شاعر ورجل أعمال عصامي هو عبد العزيز سعود البابطين.. ولأنه حقق بها حلماً كان يراوده ويلازمه منذ فجر شبابه فقد جعلها أدبية محضة خالصة لوجه الشعر والأدب بعيدة عن كل المؤثرات والتأثيرات.. لا شرط لها ولا مطلب غير شرط الإبداع ومطلب الإجادة والتفوق، ولذلك سميت هكذا: «جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» ولا تسند إلا إلى الشعراء وإلى النقد الخاص بالشعر دراسةً وتنظيراً.

كان موسمها الأول في الشهر الخامس من عام 1990 وكان من الفائزين في هذا الموسم شاعر من العراق وآخر من تطوان في أقصى المغرب.

وفي القاهرة المعزية ـ مقر الجائزة ـ كان احتفالها بموسمها الأول (مايو / أيار 1990) والثاني (1991) والثالث (1992) على التوالي باعتبارها بدأت جائزة سنوية.. ثم تقرر أن تتضاعف مقادير جوائزها الأربعة وأن تكون كل عامين لإعطاء مهلة كافية للمترشحين أولاً وللجان التحكيم

ثانياً وللأساتذة الباحثين ثالثاً.

والواقع أن عام 1992 كان عاماً تجديدياً وحاسماً في تاريخ الجائزة، فقد تقرر فيه:

1 ـ أن تتحول إلى مؤسسة كبرى للإبداع الشعري.
2 ـ أن تتضاعف جوائزها الأربع.
3 ـ أن تحمل كل دورة اسم شاعر عربي معاصر من رواد التجديد وكبار الشعراء.
4 ـ أن يكون احتفال توزيع الجوائز مصحوباً بندوة أدبية يخصص معظمها للشاعر المحتفى به، ولقضية شعرية معاصرة.
5 ـ أن تنشر أعمال الشاعر الكاملة وعدداً من أهم الكتب عنه.
6 ـ والقرار التاريخي كان العمل على إصدار معجم خاص بالشعراء العرب الأحياء.

ولئن توالت أعمال المؤسسة وقراراتها الإيجابية في خدمة الشعر العربي قديمه وحديثه والمعاصـــر منه بوجه خاص، فإن إنجازاتها في دورتها الثالثة (القاهرة ديسمبر ـ 1992) قد كانت من نوع فريد ومتميز إلى أبعد الحدود:

1 ـ حملت اسم الشاعر الطلعة محمود سامي البارودي.
2 ـ أعادت طبع جميع أعماله ومؤلفاته الأدبية، وأهمها ديوانه (في جزءين كبيرين) ومختاراته الأدبية (في أربع مجلدات كبار).
3 ـ نشرت دراسات جديدة عنه وببليوغرافيا شاملة لما كتبه وما كتب عنه.

ولم ينصرم عام 1992 حتى كانت المؤسسة قد قررت أيضاً (بفضل رعاية مؤسسها وراعيها الشاعر الأستاذ عبد العزيز سعود البابطين) ما يلي:

1 ـ أن يكون الموسم الرابع موسم الشاعر العبقري الفذ «أبو القاسم الشابي».

2 ـ أن تنظم دورته في أكتوبر 1994 وفي قطر مغاربي ثم تحدد أن تكون مدينة فاس مقراً للاحتفال بتوزيع الجوائز وللدورة.

3 ـ أن تعقد ندوة أدبية يخصص نصفها لدراسة أدب الشابي وباقيها لقضية شعرية معاصرة.

4 ـ أن يُعاد نشر كافة مؤلفاته بتقديم جديد وتحقيق جامعي، مع نصوص جديدة له لم يسبق نشرها من قبل (انظر كتاب نثر الشابي).

5 ـ نشر مجموعة كبيرة وجديدة من الكتب عنه.

وها نحن قد أنجزنا ذلك كله.. قبل أن يحل بيننا شهر أكتوبر بدورته الفريدة واحتفاله الكبير.

ولا نترك القارىء ونودعه للدورة وللاحتفال قبل أن نستعرض معه عناوين هذه الأعمال الأدبية الفريدة لهذه المناسبة الكبيرة وهذا الحدث الفريد النادر:

أولاً: آثار الشابي:

1 ـ أغاني الحياة

تحقيق وتقديم، د. نور الدين صمود.

2 ـ الخيال الشعري عند العرب

تحقيق وتقديم، د. عبد السلام المسدي.

3 ـ مذكرات الشابي

تحقيق وتقديم، د. كمال عمران.

4 ـ رسائل الشابي

إعداد وتعليق صديقه المرحوم محمد الحليوي.

5 ـ نثر الشابي...

إعداد وتعليق أبو القاسم محمد كرو.

ثانياً: مؤلفات عنه:

1 ـ دليل الباحثين عن الشابي.
ببليوغرافيا خاصة به تضم أكثر من (2000) عنوان بمختلف اللغات.
أعدها خصيصاً: أبو القاسم محمد كِرّو وكمال عمران.

2 ـ الشابي في مرآة معاصريه.
شهادات كتبها معاصروه عنه، من إعداد أبو القاسم محمد كرو.

3 ـ رسائل حول الشابي.
إعداد أبو القاسم محمد كرو.

ثالثاً: الشابي: صور وكلمات

كتاب فني مصور يوثق لحياة الشابي وأطوارها ـ عائلياً واجتماعياً وأدبياً ـ مع وثائق نادرة بخط الشابي.

جميع تلك الآثار والمؤلفات أخرجت في ست مجلدات ممتازة ستكون ـ بلا شك ـ حدثاً أدبياً نادر المثال.. وقد صادف إنجاز ذلك كله والاحتفال به (الذكرى الستون) لوفاة الشابي (9/10/ 1934 ـ 9/10 1994).

وختاماً.. لا بد من أن نتوجه بشكر عميق وكبير وخاص إلى راعي المؤسسة والحاني عليها حنو الوالد على فلذة كبده الأستاذ الشاعر عبد العزيز سعود البابطين الذي لم يكن في هذه المؤسسة وفي جميع إنجازاتها ـ رجل أعمال أو حساب ـ بل كان دائماً رجل سخاء وحدب وصاحب قلب شغوف بكل إنجاز أدبي جديد وبكل عمل طريف ومبتكر.

أبو القاسم محمد كِرّو
(المشرف والمنسق)
عضو مجلس الأمناء

مقدمة هذه الطبعة

بقلم: د. نور الدين صمود

ظهرت نماذج من شعر أبي القاسم الشابي لأول مرة مجموعة في المجلّد الأول من كتاب (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) لزين العابدين السنوسي (الطبعة الأولى سنة 1346 هـ - 1927 م من صفحة 209 إلى صفحة 251)[1] حيث نشرت له سبع وعشرون بين قصيدة وقطعة (مسبوقة بترجمة كتبها مؤلف الكتاب من صفحة 202 إلى 208). بعض تلك القصائد موحد القافية وبعضها متنوعها منها العمودي الشكل ومنها المتفاوت الأطوال الشبيه بالموشحات...

وكانت سنُّ الشابي، عند ظهور شعره في هذا الكتاب ثمانية عشر عاماً، وكانت هذه النماذج دالة على نبوغه المبكر وشاعريته الممتازة، رغم ما في بعض تلك النماذج من هِناتٍ طفيفةٍ لا يمكن أن ينجوَ منها شاعر مبتدئ في أول الطريقه. وميعةِ الشباب.

وعند ظهور مجلة (أبوللُو) لأحمد زكي أبي شادي بالقاهرة سنة 1932 اتصل الشابي بهذه المجلة ونشر فيها نماذج من روائع شعره كان أولها قصيدة: «صلوات في هيكل الحب» 1933، وطلب أبو شادي من الشابي أن

(1) الطبعة الأولى ـ مطبعة العرب بتونس.

يكتب له مقدمة ديوانه (الينبوع) فاستجاب لهذا الطلب، وتواصلت العلاقة بين صاحب المجلة والشابي وهكذا بدأ يفكر في طبع ديوانه في القاهرة، وبدأ يجمع ديوانه لهذا الغرض، وقد راسل صديقه محمد الحليوي، وأعلمه بأنه بصدد اختيار القصائد التي سيثبتها في هذا الديوان، وأشار إلى أنه لا ينوي أن يُثبت فيه كلَّ ما نشره من شعر، وقال له بالحرف الواحد من رسالة طويلة: (أما الآن فإني أنتخب القصائد التي سأنشرها فيه، وأجمع تواريخها لأرتِّبَها على حسبها، وإنّ قسماً كبيراً مما نشر لي لا أريد نشره لأنني أراه لا أهمية له، إما في روحه أو في أسلوبه، ولأنني أرى فيه سذاجةً كسذاجةِ الأطفال، أبتسم لها الآن وأعجبُ لنفسي كيف سوَّلت لي نشره في حينه، ولكن هي الأيام[1]. . . .).

وهذه الفقرة تدل على أن الشابي وضعَ تواريخَ قصائده تحتها ورتّب الديوانَ حسبها وذلك ما لا نجده في الطبعة الأولى.

وفي الرسالة رقم 32 بتاريخ جوان 1934 أعلَمَ الشابي صديقَه الحليوي بأنه يقوم كل مساء بنسْخ قصائد الديوان بصورة واضحة ليقدمه إلى الطبع في مصر، بفضل حماس صديق يأتي لهذا الغرض من مكان غير قريب، ليملي عليه ما يَكتب، وفي آخر هذه الرسالة قال له: إني أتممت نسخ الديوان. . . كما قال له: (. . . وقد راسلت أبا شادي بعد أن عينت له مقدار ما سيكون في الديوان من الشعر).

وفي رسائل الشابي والحليوي أكثر من فقرة تتعلق بهذا الديوان، ولكن الشابي مات بعد إنهاء جمع الديوان بحوالي سنة ولم يُطبع ديوانه في حياته، وظل مخطوطاً إلى سنة 1955 حيث نشرته (دار الكتب الشرقية) بـ (تونس) وتـمّ الطبـع فـي (دار مصـر للطبـاعـة) ـ القـاهـرة وهـو بعنـوان «أغـانـي الحيـاة» وقد استُهِلَّ الديوانُ بهذه الكلمة لشقيقه محمد الأمين الشابي: «هذا ديوان أبي القاسم الشابي نُخرجه كما أعدَّه، وعلى الترتيب الذي اختاره له، فلم نتصرف

(1) رسائل الشابي، الرسالة رقم 29 بتاريخ 1933/12/19.

فيه إلا بإضافة القصائد التالية التي لم يُثبتْها الشاعرُ وهي: (نظرة في الحياة)، (أنشودة الرعد)، (في الظلام)، (أيها الليل)، (شِعري)، (أيها الحب)، (أغنية الأحزان)، (جدول الحب).

وكان الشاعر يتعهد شعره بالمراجعة من حين لآخر، فيُصلح منه، وسيُدرك مدى هذا التنقيحَ كلُّ من يتسنَّى له أن يقابل بين ما قد نشر من شعره، وبين هذا الديوان)[1].

والملاحظ أنهم أضافوا قصيدة بعنوان (تونس الجميلة) في أول الديوان كان قد نشرها في كتاب (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) تحت عنوان: (الصوت الكئيب) ج 1 ص 248 ولم يَستبْقِ الشابي منها لديوانه إلا البيتين الأخيرين، وقدَّمَ الأخير على ما قبله 13 ـ 12. وقد فعل مثل ذلك بالنسبة لأكثرَ من قصيدة مثل قصيدة: (الحياة) التي تتكون من سبعة عشر بيتاً: (كتاب السنوسي ج 1 ص 237 ـ 238) ولم يثبت منها، فيما اختاره من ديوانه، إلا ثلاثة أبيات هي 10. 11 ـ 12. . . (الطبعة الأولى ص 15) وقد قام بحذف بعض أبيات من قصائده المنشورة وكان يُعوِّضها بأخرى في بعض الأحيان. . . ثم ظهرت الطبعة الثانية من ديوان الشابي (أغاني الحياة) في الدار التونسية للنشر سنة 1966.

وقد كتبتُ إثر صدور هذه الطبعة دراسة مطولة بعنوان (محاولة تحقيق وإحصاء لشعر الشابي) ذكرت فيها أنه يمكن إضافة قصائد أخرى إلى الطبعة الموالية ودلَلْتُ على أماكن وجودها.

ثم ظهرت الطبعة الثالثة سنة 1970 وقد أُضيفت إليها إحدى عشرة قصيدة ـ قالها في صباه ـ ولم تشر الدار إلى أنها اهتدت إليها بواسطة مقالتي، بدليل أنها سهت عن إثبات إحدى القصائد بسبب غلط مطبعي في دراستي المذكورة، والقصيدة الوحيدة التي نشرت في تلك الطبعة لأول مرة ولم تُعرف من قبل هي التي نُشرت في آخرها (ص 302 ـ 303) بعنوان (أنسيم

(1) الطبعة الأولى من أغاني الحياة، ص 3.

يهـبُّ؟) وهي ردّ على تهنئة بالزواج من أحد أقاربه.

ثم أعيد طبع الديوان على هذا الشكل عدة مرات في نفس الدّار المذكورة...

والملاحظ أن قصائد الديوان قد أعيد ترتيبها ابتداء من الطبعة الثالثة حسب تواريخها التي كان يؤرخها الشاعر بالتاريخ الهجري، وقد وقعت مقارنتها بالتاريخ الميلادي.

وفي أواخر سنة 1972 قابلتُ صاحبَ دار العودة في مدينة طرابلس الغرب فأعلمني باعتزامه نشر ديوان (أغاني الحياة) للشابي مفتَتحاً بدراسة وتقديم للدكتور عز الدين إسماعيل (ص 7 إلى 47) وأنه لذلك سيحذفُ المقدمةَ التي ظهرت في الطبعات السابقة للديوان، فأعلمته بأن تلك المقدمة لشقيق الشاعر وفيها تعريف بمسيرة حياة الشاعر مع أسرته، ولها قيمة تاريخية، وأطلعتُه على نسختي التي عليها تعاليقُ وإضافاتٌ من شعر الشابي لم تنشر من قبل، فأخذها وأثبت في آخر طبعته تحت عنوان (إضافات جديدة) القطع والقصائد التي أثبتُّها في نسختي: (دار العودة صفحة 539 إلى 545) وقد أشار إلى أنه (قد جمعها لدار العودة الشاعر التونسي نور الدين صمود (ص 539) وأثبتَ (ترجمة حياة الشاعرِ التي كتبَها شقيقُ الشاعر محمد الأمين الشابي (من ص 549 إلى صفحة 566).

وعندما طلبتْ مني مؤسسةُ البابطين القيامَ بتحقيق ديوان (أغاني الحياة) والتعليق عليه، رأيت من اللازم الإشارة إلى هذه الجزئيات المتعلقةِ بديوانِ الشابي والتنبيه إلى ما يلي بالنسبة لهذه الطبعة:

1 ـ سنحاول التوفيق بين الديوان، كما رتَّبه الشابي، عند إعداده للطبع، وبين الترتيب الذي فرضته تواريخ القصائد، وذلك بإثبات القصائد التي أثْبتها صاحبها.

وكانت تلك إرادة الشابي كما ذكر في رسائله.

2 ـ إضافة بعض القصائد التي نرى أن مستواها الفني يخول لها الظهور في الديوان.

3 ـ حذف القصائد أو المقاطع التي نَرى أن مستواها لا يؤهّلها للظهور والنشر في هذا العمل الهام، وفي ذلك احترام لرغبة الشاعر الذي أشار إلى إسقاط القصائد التي لم يعد راضياً عنها.

4 ـ التعليق على القصائد التي تحتاج إلى تعليق توضيحي يبين مكانها من كتاب السنوسي والتنقيحات التي أجريت عليها ـ إن لزم الأمر ـ خاصة في العناوين وما إلى ذلك...

إنّ القصائد التي أُضيفت إلى طبعات الديوان فيها الضعيف الذي قرر الشاعرُ نفسُه حذفَها ـ سواء ما سبق نشره أو لم يسبق ـ لذلك لا نرى موجباً لنشره لأنها تسيء إلى شاعريته. وسأكتفي بالإشارة إلى ما رأينا حذفه:

1 ـ (الغزال الفاتن) تاريخها 1923/2/23 بحرها: مجزوء الخفيف. عدد أبياتها، 24، مطلعها:

بـذَرَ الحُـبُّ بَـذْرَهُ فـي فُـؤادي فَـأَوْرَقَـا

2 ـ «فَمُنِّي بِوَصْلٍ» تاريخها: 1923/5/23 بحرها: الطويل. عدد أبياتها: 11، مطلعها:

أزِيْنَبُ قَلْبي هـائِـمٌ ذو صَبَـابَـةٍ وَجَذْوَةُ نارِ الْحُبِّ حَشْوُ حُشَاشَتِي

3 ـ «حَبَّذا الْبَدْرُ»، تاريخها 1923/6/15 بحرها: الخفيف. عدد أبياتها 11، مطلعها:

أسْفَـرَ الْبَـدْرُ عَـنْ لِثَـامِ الْغَمـامِ فَـأضَـاءَ الْفَضـاءَ فَيْـضُ ابْتِسـامِ

4 ـ «النـادِبَـةُ» تـاريخهـا: ؟/ ؟/ 1923/ـ 1 ذو القعـدة 341 هـ بحـرهـا: الكامل، عدد أبياتها 23، مطلعها:

هلَعَتْ قُلوبُ الْعالَمِينَ بِأسْرِهَا وَتَصَـدَّعَـتْ لِقَسـاوَةِ الأزْمـانِ

5 ـ (. . .؟؟؟) تاريخها 1923/7/27 بحرها: الخفيف. عدد أبياتها الباقية 10. مطلعها:

أيُّهـا الشِّعْـرُ! يـا أنِيـنَ شُعُـوري وَسَمِيـري إمَّـا تُبَـتُّ حِبـالـي (!)

6 ـ (. . .؟؟؟) تاريخها 1923/12/10، بحرها: البسيط: عدد أبياتها الباقية 13. مطلعها:

مـالِـي وَلِلْـوطَـنِ الْمُـزْوَرِّ جَـانِبُـهُ مَا الدَّارُ إلاَّ التِّي يَنْمُو بِهَا أملي

7 ـ «فتاة الحي»، تاريخها 1924/7/17 بحرها: الوافر. عدد أبياتها 16 مطلعها:

أدِيـري كـأْسَ خَمْـرِكِ واغْبِقِينَـا فَنِعْـمَ الشُّـرْبُ شُـرْبُ الْمُغْبِقِينَـا!

8 ـ «بين خمر الهوى وخمر الدنان»، تاريخها 1924/7/30 بحرها: الخفيف. عدد أبياتها 14، مطلعها:

يا رَعَى اللَّهُ مَجْلِساً فِيهِ طَافَتْ شُغْلَـةُ الـدَّنِّ فـي أكُـفِّ الْقيـانِ

9ـ«وعُوُدُ الْغَواني»، تاريخها 1924/8/11بحرها: الرمل. عدد أبياتها 4مطلعها

علَّلَتْني بِارْتِشافِ الضَّرَبِ مِنْ جَنَى ثَغْرٍ جَميلٍ أشْنَبِ

10 ـ «في القَرارَة»، تاريخها 1924/8/21 بحرها: الخفيف، عدد أبياتها 19 ومطلعها:

بـدْرُ حُسْـنٍ لَـهُ مـن السِّحْـرِ دَارَهْ مُـذْ رَأيْنـا الْعِـذارُ خَـطَّ عِـذَارَهْ!

11 ـ «صيحة الحب» تاريخها 1925/8/30 بحرها: الرمل. عدد أبياتها 25. مطلعها:

نسْمَـةٌ هَبَّـتْ علـى ضَـوْءِ الْقَمَـرْ نَفَخَـتْ فـي نَـايِ أحْـزانِ الْخَلَـدْ

12 ـ «تونس النادبة»، تاريخها 1925/2/3 بحرها: الرمل. عدد أبياتها 51. مطلعها:

بيْـنَ أفنـانِ الـرِّيـاضِ الـزّاهِـرَهْ! وَغِيـاضٍ صـاغَهَـا كَـفُّ الْجَمـالْ

13 ـ «الصيحَةُ»، تاريخها 1925/6/13 بحرها: المجتث، عدد أبياتها 20. مطلعها:

يـــا قَـــوْمُ عَيْنـــيَّ شـــامَـــتْ لِـــلْجَهْـــلِ فـــي الْجَـــوِّ نَـــارَا

14 ـ «ليت شعري» تاريخها 1925/7/1 بحرها: مجزوء الرمل. عدد أبياتها: 14. مطلعها:

مَـزَّقَـتْ ثَـوْبَ سُكـونِ اللّيْـلِ أنَّـاتُ كَلِيـمْ

15 ـ «جمال الحياة»، تاريخها 1925/7/19. بحرُها: مجزوء الرمل. عدد أبياتها: 16. مطلعها:

سِـرْتُ فـي الـرَّوْضِ وَقَـدْ لاَحَـتْ تبـاشِيـرُ الصَّبَـاحْ

16ـ«أيها البدر»، تاريخها1925/7/22. بحرها: الرمل. أبياتها: 18. مطلعها:

أيُّهـــا الْبَـــدْرُ ألاَ تُسْمِعُنـــي رنَـــمَ الْحَـــقِّ بِـــأغـــوارِ الْحَيـــاة ؟

17 ـ «أنشودة الحب»، تاريخها 1926/1/19، بحرها: الرمل. عدد أبياتها 24. مطلعها:

وقَـفَ الْكَـوْنُ يُصَلِّـي قـانِتـاً رَاكِعاً في مَعْبَدِ الْحُزْنِ الرَّكُودْ

18 ـ «لَوْ تَعْلَمون....»، تاريخها 1927/11/25، بحرها: البسيط. عدد أبياتها 8، مطلعها:

لوْ تَعْلَمونَ بَني قَوْمي الَّذي كَتَمُوا عَنْكُم لأضْرَمْتُم الدُّنيا ومَا فيها

19 ـ «تَحْتَ رَسْمي»، تاريخها 1928/1/1. بحرها: المتقارب. عدد أبياتها 6. مطلعها:

لئِنْ حَجَبَ الْمَوتُ عَنْ ناظريَّ شُفوفَ الْحياةِ وَمركُومَهَا...

20 ـ «في فجاج الآلام»، تاريخها 1928/4/1، بحرها: المجتث. عدد

أبياتها 54، مطلعها:

يـــا لابْتِســـامَـــةِ قَلْـــبٍ مَطْلُـــولَـــةٍ بِـــدُمُـــوعِـــهْ

(وهي سداسيات)

21 ـ «خفقات الوتر» تاريخها 1928/10/18 بحرها: الرمل، عدد أبياتها 34 مطلعها:

فكّري يـا ربَّـةَ القلْب الحَطِيمْ

22 ـ «الحلم المعسول»، تاريخها 1931/10/21 بحرها: المجتث، عدد أبياتها 32 مطلعها:

أبْصَـــرْتُ حُلْمـــاً جَميـــلاً يَـــا لَيْتَـــهُ كـــانَ صَحْـــوَا

23 ـ «الحبُّ السماويّ»، تاريخها 1931/11/26 بحرها: المتقارب، عدد أبياتها 10. مطلعها:

عشِقْتُك لاَ طَمَعاً في الْوِصالِ فَـذَلِـك عِنْـديَ إحْـدَى الْكُبَـرْ

24 ـ «أنسيمٌ يهب»، تاريخها 1931 بحرها: الخفيف. عدد أبياتها 14. مطلعها:

أنَسِيـــمٌ يهُـــبُّ فـــي الأسْحـــارِ بَيْـــنَ تَغْـــرِيـــدِ بُلْبُـــلٍ وهَزَارِ؟

25 ـ (ومِنْ مداعباته؟) تاريخها: مجهول. بإمضاء ابن ثابت. بحرها: الخفيف. عدد أبياتها 5. مطلعها:

أرْسَلُـــوهُ لِجَلْـــبِ فَحْـــمٍ إلَيْهِـــمْ فَأتَى بِالْيَرَاعِ مِنْ فَرْطِ وَجْدِ...

وقد ترددنا في حذف بعض القصائد والقِطع الأخرى، ولكنا أبقيناها لأننا رأينا أنها لا تقل أهمية عن بعض ما أثبته الشاعر بنفسه، ولأننا نريد أن يأخذ القارىء صورةً عن تطور شاعريّته، وعلّقنا على بعض القصائد والأبيات والكلمات بما رأيناه يُقدِّم مزيداً من التعريف والتوضيح.

ونرجو أن نكون بهذا العمل قد قدمنا ديوان «أغاني الحياة»، وما أُضيفَ إليه من شعر، على الصورة المرضية. وأُلاحظ أن هذه المقدمة لم تَتناول إلا النواحيَ الشكلية المتعلقةَ بشعره، ولم تتحدث عن مضامين شعره وأسلوب شعره، وأماكن التجديد فيه، فذلك ليس هنا مجاله، ويكفي أن نكون، بهذا التحقيق والاختيار والتنسيق والتعليق، قد وضعنا شعر الشابي في صورة صالحة للدراسة الصحيحة.

رحم الله أبا القاسم الشابي فقد كان وما زال شاعراً يجلب الاهتمام ويحرك الأقلام.

د. نور الدين صمود
1994/5/9

ملاحظات هامة

أرّخَ الشابي قصائده بالتاريخ الهجري، لكن طبعة الديوان الأولى لم تطبع، مع قصائده، تواريخُها، وقد قام المرحوم محمود الباجي بمقارنة التواريخ الهجرية بالتواريخ الميلادية بطلب من الدار التي طبعت الطبعة الثانية... وأثبتت أسماء الشهور حسب التسميات المستعملة في تونس والمعرّبة عن الفرنسية، وقد فكرنا في إضافة التسميات المستعملة في المشرق العربي تحت كل قصيدة، لكنا رأينا أن هذه التسميات غير متفقة فيه، لذلك آثرنا الاكتفاء بهذه القائمة المشتملة على أسماء الشهور مع أرقامها ليستفيد منها كل من يريد معرفة تواريخ قصائد الديوان دون تكرار أو إطالة، وأرقام الشهور تكفي من يستعمل هذه الأسماء:

	معربة عن الفرنسية	الشهور في مصر	الشهور في الشام
1	جانفي	يناير	كانون الثاني
2	فيفري	فبراير	شباط
3	مارس	مارس	آذار
4	أفريل	أبريل	نيسان
5	ماي	مايو	أيّار
6	جوان	يونيو	حزيران

7	جويليه	يوليو	تموز
8	أوت	أغسطس	آب
9	سبتمبر	سبتمبر	أيلول
10	أكتوبر	أكتوبر	تشرين الأول
11	نوفمبر	نوفمبر	تشرين الثاني
12	ديسمبر	ديسمبر	كانون الأول

والملاحظ أن التواريخ الميلادية في الكتاب تتقدم بيوم في جميع القصائد تقريباً عما هو مثبت في جهاز الكومبيوتر المستعمل لمقارنة التواريخ الهجرية والميلادية.

أيّها الحبّ[1]

[الخفيف]

أيهـا الحـب! أنـت سـر بـلائـي ... وهمـومـي، وروعتـي، وعنـائـي
ونحـولـي، وأدمعـي، وعَـذابـي ... وسقـامـي، ولـوعتـي، وشقـائـي

* * *

أيهـا الحـب! أنـت سـرّ وجـودي ... وحيـاتـي، وعـزّتـي، وإبـائـي
وشعـاعـي مـا بيـن ديجـور دهـري ... وأليفـي، وقُـرتـي، ورجـائـي
يـا سـلافَ الفـؤاد! يـا سُـم نفسـي ... في حياتي يا شدتي! يا رخائي!
ألهيـبٌ يثـور فـي روضـة النفـس ... فيطغـى، أم أنـت نـور السمـاء؟
أيها الحب قد جرعتُ بك الحُز ... ن كؤوساً، وما اقتنصتُ ابتغائي
فبحـق الجمـال، يـا أيهـا الحـ ... ـب حنانيْك بي! وهـوِّن بـلائي
ليت شعري! يا أيها الحب، قل لي: ... مِنْ ظلام خُلقت، أم من ضياء؟[2]

30 ذو الحجة 1342
غرة أوت 1924 م = [الخميس 1924/7/31]

---

(1) من القصائد التي لم يضعها الشاعر في ديوانه وأضافها شقيقه محمد الأمين الشابي إلى الطبعة الأولى وهي في كتاب السنوسي، ج 1: 244.

(2) ختمت القصيدة في كتاب السنوسي هكذا:

[ليـت شعـري بـأنـة القلـب قـل لـي: ... مـن ظـلام خلقـت أم مـن ضيـاء؟
أتـــرى أنـــت جنـــة أم جحيـــم؟ ... لست أدري، بل أنت كالكهرباء]

خلّه للموت[1]

[الرمل]

كـلُّ قلـبٍ حَمَـلَ الخسْـفَ، ومـا ... مــلَّ مِــن ذُلِّ الحيــاةِ الأرذلِ
كـلُّ شعـبٍ قـد طغـتْ فيـه الـدّمـا ... دُونَ أنْ يثْــأرَ للحــقِّ الجَلــي
خَلِّــهِ للمــوتِ يَطـويـهِ... فمـا ... حَظُّــه غيــرُ الفنــاءِ الأنْكــلِ

1 محرم 1343

2 أوت 1924 = [الجمعة 1924/8/1]

(1) نشرت في «الأعمال الكاملة» ج 1، ص 319 في آخر قصيدة بعنوان: «أيها البدر» وهي ذات ستة مقاطع من هذا النوع، قيل عنها إنها تنشر لأول مرة وهي هناك بتاريخ 1 محرم 1344 هـ = 1925/7/22 م.

كهرباء الغرام[1]

[الخفيف]

كَهْـرَبـاءُ الغـرام فـي الأعيـن النُّجْـ ـلِ، وتيَّـارُهَـا بسلـك الجفـونِ
يـرسـل اللَّحْـظَ للْقُلـوبِ كَنُـورٍ فـإذا مَسَّهَـا، فنَـارُ المنـونِ
فـإذا مـا انجلـى نقـابُ الأمـانـي صـار صَبّـاً، مُـدَلهـاً، ذا فتـون
يقـرع السِّـنّ حُـرْقـةً وابتهـالاً ويصيـر الحبـور ليـلَ شجـونِ

25 محرم 1343

26 أوت 1924 = [الاثنين 1924/8/25]

(1) عن «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر»، تونس 1927 م، 1346 هـ [الطبعة الأولى، ج 1] ص 232.

الفتنة السّاحِرة

[الكامل]

قلبي تردى من على صهوات خيـ ـــل الهـوى، فغـدا أسيـر فتـاة[1]
معطـار، غاسقـة الفـروع، عليلة الأ جفـــان، سـاحـرة بعيـن مهـــاة
تـرنـو، فتغـزو كـل قلـب ثـابـت بشفـــار أشفـــار، وحـــد قنـــاة
مـــاء الحيـــاة بخـــدهـــا متمـــوج كتمـــوج الأنـــوار بـــالمشكـــاة
مسكيـــة الأنفـــاس وَهْنـــاً، بضـــةُ الأطـــــراف، آنســـةٌ بقلـــب صَفـــاة
خرساء، وسواس السوار، ضعيفةٌ أعطـافُهـا، وضعيفـةُ الخطـوات[2]
تعنـــو لهـــا أسْـــدُ العـــريـــنِ ذليلـــةً وتخـــرُّ، خشيـــةَ طعنـــةِ اللحظـــات

في 30 محرم سنة 1343
31 أوت 1924 = [السبت 1924/8/30]

---

(1) من القصائد التي نشرت في كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر لزين العابدين السنوسي 1346 هـ = 1927 م ـ ج 1، ص 246 والملاحظ أن البيت غير مصرع، وكلمة (غدا) كتبت ألفها مقصورة في كل الطبعات.

(2) هذا البيت لم يثبته الشاعر في كتاب السنوسي.

إيّـاك[1]

[مجزوء الكامل]

إيَّـــــاكَ والتَّحـــــديـــــق مِـــــن خِلَـلِ البـراقـع لِلْحَـوَرْ
وتطـــــاوُل الأعنـــــاق نحـــــو جمـال رَبَّـاتِ الخَفَـرْ
فـــالحـــبّ فـــي طغيـــانـــه كـــالسَّيْـــل إمَّـــا ينهمـــرْ
فَلَقَـــدْ حَسَـــوْتُ زُعَـــافَـــهُ وخَبَـــرْتُ منـــه المُسْتَتِـــرْ

30 محرم 1343
31 أوت 1924 = [السبت 1924/8/30]

---

(1) عندما كتبت عن الطبعة الثانية لديوان الشابي أشرت إلى القصائد العشر التالية وإلى قصيدة أخرى سهت عنها المطبعة عند طبع المقال في الفكر، فأضافتها الدار التي نشرت الديوان إلى الطبعة الثالثة والطبعات الموالية لها، وغفلت عن القصيدة التي وقع في شأنها الخطأ المطبعي وهي (الفتنة الساحرة) التي اعتبرت في «الأعمال الكاملة» مما نشر لأول مرة وهي في كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ط 1، ج 1 ص 246.
(*) [عن «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» تونس 1927م = 1346 هـ الطبعة الأولى ج 1] ص 229.

النّجوى[1]

[الرمل] المذيل

قِفْ قليلاً، أيها الساري القمر! واصطبِرْ
يا سميري! في أوَيْقاتِ الكدر والضّجرْ

واسقِني من جدول النورِ البديع قدحا
عَلَّني أفهم هَيْنُومَ[2] الربيع إن صحا

كم فؤادٍ إذ تولته الشجونُ والهمومْ
بثّ أسلاكَك، والدمع هَتون ما يرومْ

إن تكُنْ تضحكُ سُخراً بالبشر يا قمرْ!
فَلَكَمْ أحْزنَكَ الدهرُ الخَطِر بالنُّكُرْ

أيها القاموسُ[3] يا صوتَ الحياة! وصداها
وأغانيها العِذَابَ الشاديات ونِداها!

---

(1) لم يثبتها الشاعر وأضافتها الدار التونسية للنّشر إلى الطبعة الثانية.
(2) هينوم: كلام لا يُفهم.
(3) القاموس: البحر.

مـا لأمـواجـكَ يُطْغيهَـا الغـرور فتَثـــــور
ثـم تـأوي نحـوَ هـاتيك الصخـور كالكسير؟
أتُـراهـا تـذكـر الأمـسَ الجميـل وســلامَـه
فتحيـــي ذلـــك المجـــدَ النبيـــل بـابتسـامـة
وتغنـــــي، ثـــــم لا تلبَـــــثُ أن تحتـويهـا
لـــوعـــةُ اليـــوم، فتبكـــي وتئِـــنُّ لشقـاهـا؟

8 رمضان 1343

2 أفريل 1925 = [الاربعاء 1925/4/1]

تونس الجميلة[1]

[الخفيف]

لستُ أبكي لعسف ليلٍ طويل، أو لـربـعٍ غـدا العفـاءُ مـراحَـهْ
إنمـا عبـرتـي لخطـبٍ ثقيـلٍ قـد عـرانـا، ولـم نجـد مـن أزاحـهْ
كلّمـا قـام فـي البـلاد خطيـب مـوقـظٌ شعبَـه يـريـد صـلاحَـهْ
ألبسـوا روحـه قيمـصَ اضطهـادٍ فـاتـكٍ شـائـك يـردُّ جِمـاحَـهْ
أخمـدوا صـوتَـه الإلهـيَّ بـالعسـ ـف، أمَـاتُـوا صُـدَاحـه ونُـواحـهْ
وتـوخَّـوْا طـرائـق العَسـف والإر هـاق تَـوّاً، ومـا تـوخَّـوْا سَمـاحَـهْ
هكذا المخلصون في كل صوبٍ رشقـاتُ الـرّدى إليهـم مُتـاحـهْ
غيـر أنّـا تنـاوبتنـا الـرّزايـا واستباحت حمانا أيّ استباحهْ[2]

* * *

(1) لم يثبت منها الشاعر غير البيتين الأخيرين في صدر ديوانه، وقدم الأخير على ما قبله، ووضعهما تحت عنوان «من وراء الظلام» وأثبتها شقيقه كاملة في الطبعة الأولى.

وهي موجودة في كتاب السنوسي. ج 1:248 تحت عنوان: «الصوت الكئيب» مع شيء من التحوير والزيادة.

(2) وزن العجز لا يستقيم ولعل الصواب: واستُبيح الحمى وأيّ استباحهْ.

أنـا يـا تـونـس الجميلـةُ فـي لـجِّ الهـوى قـد سبحـت أيّ سِبـاحـهْ
شِـرْعتـي حُبُّـكِ العَميـقُ وإنّـي قـد تـذوّقْـتُ مُـرّه وقَـراحـهْ
لسـتُ أنصـاع لِلنّـواحي ولـو متـــــتُ وقـامـتْ على شبـابـي المنـاحـهْ
لا أبـالـي . . . وإنْ أُرِيقَـتْ دِمـائي فَـدِمَـاءُ العشّـاق دَوْمـاً مُبـاحـهْ
وبطـول المَـدى تُـريـكِ الليـالـي صـادقَ الحُـبِّ والـوَلاَ وسَجـاحـهْ
إنّ ذا عصـــرُ ظلمـــةٍ غيـــر أنّـــي مـن وراء الظـلام شمـتُ صبَـاحـهْ
ضَيّـع الـدهـرُ مَجْـدَ شعبـي ولكـنْ ستـردُّ الحيـاةُ يـومـاً وشـاحـهْ

10 ذو القعدة 1343

2 جوان 1925 = [الاثنين 1925/6/1]

شعري[1]

[المجتث]

شعـــري نُفـــاثـــة صـــدري ... إن جـــاش فيـــه شعـــوري
لـــولاه مـــا انجـــاب عنـــي ... غيـــمُ الحيـــاة الخطيـــر[2]
ولا وجـــدتُ اكتئـــابـــي ... ولا وجـــدتُ ســـروري[3]
بـــه تـــرانـــي حـــزينـــاً ... أبكـــي بـــدمـــعٍ غـــزيـــر
بـــه تـــرانـــي طـــروبـــاً ... أجـــرّ ذيـــلَ حُبـــوري

* * *

لا أنظـــم الشعـــرَ أرجـــو ... بـــه رضـــاء الأميـــر
بمـــدحـــة أو رثـــاءٍ ... تُهْـــدى لـــرب الســـريـــر
حسبـــي إذا قلـــتُ شعـــراً ... أن يـــرتضيـــه ضميـــري

* * *

مـــا الشعـــر إلا فضـــاء ... يَـــرِفُّ فيـــه مقـــالـــي
فيمـــا يســـرّ بـــلادي ... ومـــا يســـرُّ المعـــالـــي

(1) من القصائد التي لم يضعها الشاعر في ديوانه وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى.
(2) جر الخطير بالمجاورة وإلا فهو مرفوع لأنه نعت للغيم لا للحياة.
(3) في المطبوع (وجدتَ) بتاء الخطاب المفتوحة ولعل الأصوب بتاء المتكلم المضمومة.

ومـــا يثيـــر شعـــوري مـــن خـــافقـــات خيـــالـــي

* * *

لا أقـــرض الشعـــر أبغـــي بـــــه اقتنـــــاص نـــــوال
الشعـــر إن لـــم يكـــن فـــي جمـــــالـــــه ذا جـــــلال
فـــإنمـــا هـــو طيـــف يَسْعَـــى بـــوادي الضّـــلال[1]
يقضـــي الحيـــاة طـــريـــداً فـــي ذِلـــة، واعتـــزال

* * *

يـــا شعـــر! أنـــت مِـــلاكـــي وطـــارِفِـــي، وتِـــلادي
أنـــا إليـــك مُـــراد وأنـــت نعـــم مـــرادي
قـــف، لا تَـــدَعْنِـــي وحيـــداً ولا أدعـــك تنـــادي
فهـــل وجـــدت حُســـامـــاً يُنـــاط دون نجـــاد؟

* * *

كـــم حطّـــم الـــدهـــرُ ذا هِـــمَّـــةٍ كثيـــرَ الـــرّمـــاد
ألقـــاه تحـــت نعـــالٍ مـــن ذلّـــة وحـــداد
رفقـــاً بـــأهـــل بـــلادِي! يـــا مَنجنـــون العـــوادي![2]

21 ذو القعدة 1343

13 جوان 1925 = [الجمعة 1925/6/12]

---

(1) في المطبوع الظِّلال.

(2) المنجنون: الدولاب.

ولم تفهم فحورت في بعض الطبعات الموالية إلى [يا مجنون] ولا معنى له هنا.

في الظلام[1]

[الرمل] المذيل

رفرفت في دُجية الليل الحزين زُمـــرةُ الأحـــلامْ
فوق سرب من غمامات الشجون ملـــؤهـــا الآلام

* * *

شخَصت، لما رأت، عينُ النجوم بعثـــةَ العُشّـــاق
ورمتْهـا مـن سمـاهـا بِـرجُـوم تسكـب الأحـراق![2]

* * *

كنـت إذ ذَاك علـى ثـوْب السكـون أنثـــر الأحـــزان
والهـوى يسكـب أصـداء المنـون فـــي فـــؤادٍ فـــانْ

* * *

(1) من القصائد التي لم يضعها الشاعر في ديوانه وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى. وهي في كتاب السنوسي 1: 242.
(2) هذا المقطع لم ينشر في كتاب السنوسي.

ســاكتــاً مثــل جميــع الكــائنــاتْ راكـــدَ الألحـــان
هــائــمٌ قلبــي بــأعمــاق الحيــاة تـــائـــهٌ، حيـــران

* * *

إنّ للِحـــبّ علـــى النـــاس يَـــدَا تقصـــف الأعمـــار
ولـــه فجـــر علـــى طـــول المـــدى ســـاطـــعُ الأنـــوار

* * *

ثـــورةُ الشـــرّ وأحـــلامُ الســـلام، وجمـــالُ النـــور
وابتسامُ الفجر في حزن الظلام، فـــي العيـــون الحـــور

5 ذو الحجة 1343
27 جوان 1925 = [الجمعة 1925/6/26]

من حديث الشيوخ

[الطويل]

ألاَ إنّ أحـــــلامَ الشّبـــــاب ضئيلـــــةٌ
تحطّمهـــا مثـــلَ الغصـــون المصائـــبُ[1]

ســألــتُ الــدّيــاجــي عــن أمــانــي شبيبتــي
فقــالــت: «تــرامَتْهــا الــرّيــاحُ الجــوائــبُ»

ولمــا ســألــتُ الــريــح عنهــا أجــابنــي[2]:
«تلقّفهـــا سيـــلُ القَضـــا، والنـــوائـــبُ»

«فصارت عفاءً، واضمحلّت كذرّةٍ
على الشاطيء المحموم، والموجُ صاخبُ»

15 محرم 1344
5 أوت 1925 = [الأربعاء 1925/8/4]

---

(1) نشرها الشاعر في كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر لزين العابدين السنوسي، ج 1 ص 243 وقبلها بيْتان هما:

لقد خدعتني في الحياة شبيبتي ولكنني قد حنكتني التجاربُ
فقد كنت أُلقي للدجي برغائبي فأبصرها فوق الدنا تتخاطب

ولكن أحلام الشباب... إلخ.

وعجز البيت الأخير (على شاطىء الأيام والموج صاخب). وهي هناك بعنوان «كلم الشيوخ».

(2) الصواب: أجابتني وذكّرها للوزن.

ليلة عند الحبيب[1]

[الرمل]

أنَـا مـأسُـورٌ لِـذاتِ الحُجُـبِ ... بِنِبـالٍ صُـوّبـت عـن كَثَـبِ

كـاعِـبٍ، هيفـاءَ، بَـضٍّ، طَفلـة ... دُمْيَـة منهـا جميـعُ العَجَـبِ

خطـرت تمشـي بـروضٍ زاهـرٍ ... مِشيَـةَ الخيـل بِـوَحْـل السَّبسـبِ

وَرَنَـتْ نحـوي بطـرْفٍ فـاتِـرٍ ... ينفـث السِّحـرَ بجفـنٍ أهـدبِ

ونبـالٍ صَـوّبَتْهَـا، جَمَّـةٍ ... نحـوَ قلبـي الهـائـم المضطـربِ

تُـرسـل اللَّيـل بفـرعٍ فـاحِـمٍ ... ضاع من جنْحيه نشرُ الزونب[2]!

* * *

لسـتُ أنسَـى ليلـةً حـالكـةً ... سُـرْبِلَـتْ زرقـاؤُهَـا بـالسُّحُـبِ

لَبِسَـتْ ثـوبَ ظـلامٍ دامـسٍ ... وسكـونٍ هـائـلٍ ذي رَهَـبِ

ليلـةً قـد خضتُهَـا، منفـرداً ... فـي ديـاجـي جـوفِ ذاكَ الغَيْهَـبِ

سـار بـي مُهْـرِيَ فيهـا عَنَقـاً ... وزمـانـاً سيـره ذو خَبَـبِ

---

(1) قصة شعرية حاول فيها أن يحاكي قصة عمر بن أبي ربيعة التي رواها في رائيته المشهورة مع حبيبته نُعْم ومطلعها:

أمـن آل نُعْـم أنـت غـادٍ فمُبكِـرُ ... غـداة غـدٍ؟ أم رائـح فمُهَجِّـرُ؟

لكنه أوجزها ولم يجارها في البحر والروي. وأثبتناها للمقارنة.

(2) لعلها: الزرنب.

عَـاديـاً بـي، مُتْهِمـاً، أوْ مُنجـداً ... حـاذِفـاً نحـر الفضـا بـالحَصَـبِ

فَعشـوتُ النّـارَ فـي صـدرِ الحِمَـى ... وحـدهـا تخفـق بيـن الحُجُـبِ

فدخَلتُ الحيّ، والسّترُ الدجى ... وَوَلَجـتُ الخِـدْرَ واللّيـل صبـي

ورفعـتُ السِّتْـرَ، فـافتـرّ الـدّجَـى ... عـن جمـالٍ سـاحـرٍ مُحْتَجِـبِ

فقضيْنـا ليلـة، جـادت بهـا ... راحـةُ الـدّهْـر، الضنيـن القلّـبِ

تحت ظِلّ الحب، والليل الذي ... ضمّنـا فـي كَفّـه، يسخـرُ بـي

هكـذا. . . حتّـى إذا روّعنـا ... ذَنَبُ الصّبح، كذنْب العقرب (!)

قَبّلتْنـي، ولهيـبُ الألـم الـ ... ـمـرّ فـي مَـدْمَعِهَـا المُنْسَكِـبِ

مثـل طَـلٍّ، فـوقَ وَرْدٍ، ويلتـي! ... مِـنْ جَـرَى طلْعـةِ ذاك الـذّنَـبِ[1]

ثـمّ قـالـت: يـا حبيبي! سرْ على ... كَـلإِ الـرّحمـان، فـي المُنقَلَـبِ!

فتَـوادَعْنَـا، وكـلٌّ قلبُـهُ ... فـي جحيـمٍ مـؤلـمٍ، ملتهِـبِ

20 صفر 1343

8 سبتمبر 1925 = [الخميس 1924/9/19]**

---

(1) «أي من جراء» وقصرها للوزن.

(*) [عن «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» تونس 1346هـ = 1927 م الطبعة الأولى ج 1] ص 245 ـ 246.

(**) الفرق بين التاريخين كبير.

نظرة في الحياة[1]

[المجتث]

إن الحيـــــاة صِـــــراعٌ ... فيهـــا الضعيـــف يُـــداسْ
مـــا فـــاز فـــي مـــاضغَيْهـــا[2] ... إلا شـــديـــد المـــراسْ
للخِـــبِّ فيهـــا شجـــونٌ ... فكـــن فتـــى الاحتـــراسْ
الكـــونُ كـــونُ شقـــاءٍ ... الكـــون كـــون التبـــاسْ
الكـــون كـــون اختـــلاقٍ ... وضجّـــة واختـــلاسْ
سِيَّـــان عنـــديَ فيـــه السُّـــرورُ ، والابتئـــاسْ

* * *

بيـــن النـــوائـــب بـــونٌ ... للنـــاس فيـــه مـــزايـــا
البعـــض لـــم يـــدر إلا الْـــ ... ـبِلَـــى ينـــادي البـــلايـــا
والبعـــض مـــا ذاق منهـــا ... ســـوى حقيـــر الـــرزايـــا
إن الحيـــــاة سُبـــــاتٌ ... سينقضـــي بـــالمنـــايـــا
ومـــا الـــرُّؤَى فيـــه إلا ... آمـــالنـــا ، والخطـــايـــا
فـــإن تيقـــظ كـــانـــت ... بيـــن الجفـــون بقـــايـــا

* * *

---

(1) من القصائد التي أضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى ولم يضعها الشاعر في ديوانه.
(2) أي: في فكيْها.

إن السكينـــــــــــة رُوح فـي الليـل ليسـت تُضـامْ

والـــرُّوح شعلـــة نـــور مـــن فـــوق كـــل نظـــامْ

لا تنطفـــي بـــريـــاح الإرهـــاق أو بـــالحســـامْ

بـــل قـــد يعُـــج لظـــاهـــا سيـــلاً، ويطغـــى الضِّـــرامْ

كـــل البـــلايـــا... جميعـــاً تفنـــى ويحيـــا الســـلامْ!

والـــذل سُبَّـــةُ عـــارٍ لا يـــرتضيـــه الكـــرام!

* * *

الفجـر يسطَـع بعـد الـــــــــدجـى، ويـأتـي الضيـاءْ

ويـــرقـــد الليـــل قســـرا علـــى مِهـــاد العفـــاءْ

وللشعـــــوب حيـــــاة حينـــاً وحينـــاً فنـــاءْ

واليـــأس مـــوت ولكـــن مـــوت يثيـــر الشقـــاءْ

والجـــدُّ للشعـــب روح تـــوحـــي إليـــه الهنـــاءْ

فـــإن تـــولَّـــتْ تصـــدّت حيـــاتـــه للبـــلاءْ

12 ربيع الأول 1344

30 سبتمبر 1925 = [الثلاثاء 1925/9/29]

الحياة

[الخفيف]

إن هــذي الحيــاةَ قيثــارة اللــه، وأهــلُ الحيــاة مثــل اللُّحــونِ[1]
نَغَـمٌ يَسْتَبِـي المشـاعـر كـالسحـر، وصـــوتٌ يُخِـــلُّ بـــالتَّلحيـــنِ
واللَّيــالــي مغــاورٌ، تُلْحِــدُ اللَّحْـ ـن وتقضِي على الصّدى المسكينِ

5 جمادى الثانية 1344
21 ديسمبر 1925 = [الأحد 1925/12/20]

(1) نشرها الشاعر في كتاب زين العابدين السنوسي الآنف الذكر... وهي هناك تشتمل على سبعة عشر بيتاً وهذه الأبيات هي: 9 ـ 10 ـ 11 منها مع تغيير طفيف هو: (قيثارة الدهر) التي صارت (قيثارة الله) و (نغم يخل بالتلحين) بتسكين العين التي صارت (صوت يخلّ بالتلحين).

أنشودة الرعد[1]

[مجزوء الرمل]

في سكون الليل لمّا عانق الكونَ الخشوعْ
واختفى صوتُ الأماني خلف آفاق الهجوعْ

* * *

رتّل الرعد نشيداً ردّدته الكائناتْ
مثل صوت الحق إن صا (م) ح بأعماق الحياةْ

* * *

يتهادى بضجيج في خلايا الأوديهْ
مثل جبّارِ بني الْجِنِّ بأقصى الهاويهْ[2]

* * *

(1) من القصائد التي لم يضعها الشاعر في ديوانه وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى.
(2) في كتاب السنوسي: [مثل جبار من الجن..] ولم يغير فيها عند وضعها في الديوان غير هذه الكلمة. أما بقية القصائد المنشورة في كتاب السنوسي فقد غير فيها كثيراً عند نشرها في الديوان.

فســـألـــتُ الليـــل، والليـــــــــــل كئيـــبٌ، ورهيـــبْ
شـــاخصـــاً بـــالليـــل والليـــــــــــل جميـــلٌ، وغـــريـــبْ:

* * *

«أتُـــــرى أنشـــــودة الـــــرعـــــــــد أنيـــــنٌ وحنيـــــنْ
رنَّمتهـــــــا بخشـــــــوع مهجـــة الكـــون الحـــزيـــن؟

* * *

أم هـــــي القـــــوة تسعَـــــى بـــــاعتســـــاف واصطخـــــاب
يتـــــراءى فـــــي ثنـــــايـــــا صـــــوتهـــــا روحُ العـــــذاب؟»

* * *

غيـــــر أن الليـــــل قـــــد ظـــــــــــلّ رَكُـــــوداً[1]، جـــامـــدَا
صـــامتـــاً مثـــل غـــديـــر القفـــــــــــر، مـــن دون صـــدى!

15 شعبان 1344
28 فيفري 1926 = [السبت 1926/2/27]

(1) الرَّكود: يعني الراكد (!).

غَرفة من يمّ[1]

[البسيط]

ضعـفُ العـزيمـة لَحْـدٌ، فـي سكينتـه
تقضِـي الحيـاةُ، بَنَـاهُ اليـأسُ والـوجَـلُ
وفـي العـزيمـة قُـوّاتٌ، مُسَخَّـرةٌ
يخِـرُّ دون مـداهـا الشـامـخُ الجبَـلُ!
والنـاس شخصـان: ذا يسعـى بـه قَـدَمٌ[2]
مـن القنـوطِ، وذا يسعَـى بـه الأمـلُ
هـذا إلـى المـوت، والأجـداث سـاخـرةٌ
وذا إلـى المجـد، والـدُّنْيَـا لَـهُ خَـوَلُ[3]
مـا كـلُّ فعـل يُجِـلُّ النـاسُ فـاعلَـه
مجـداً، فـإنّ الـورى فـي رأيهِـم خطَـلُ

---

(1) نشرت في كتاب السنوسي في قسمين الأول تحت عنوان: «الأمل والقنوط» ج 1 ص 238 والثانية تحت عنوان «الحرب» ص 240 وحور فيها بعض الأبيات والكلمات.

(2) القدم: مؤنثة وقد تذكر.

(3) خول: أي خدم.

ففـي التمـاجـد تمـويـةٌ، وشعـوذَةٌ،
وفـي الحقيقـة مـا لا يـدركُ الـدّجَـلُ
مـا المجـدُ إلاّ ابتسـامـات يفِيـض بهـا
فـمُ الـزمـان، إذا مـا انسـدّتِ الحِيَـل
وليـس بـالمجـد مـا تشقـى الحيـاة بـه
فيحسـدُ اليـومُ أمْسـاً، ضمّـه الأزَلُ
فمـا الحـروب سـوى وحْشيَّـةٍ، نهضـتْ
فـي أنفُـس النـاس، فـانقـادتْ لهـا الـدول
وأيقظـت فـي قلـوب النـاسِ عـاصفـةً
غـام الـوجـودُ لهـا، وارْبَـدّت السُّبُـلُ
فـالـدّهـر منتعـلٌ بـالنـارِ، ملتحـفٌ
بـالهـوْلِ، والـويْـلِ، والأيـامُ تَشْتَعِـلُ
والأرض داميَـةٌ، بـالإثـم طـاميـة،
ومـارِدُ الشـرِّ فـي أرجـائهـا ثَمِـلُ
والمـوْتُ كـالمـارد الجبَّـار، منتصـبٌ
في الأرض، يخطف من قد خانه الأجل
«وفـي المهـامـه أشـلاء، ممـزّقـة
تتلـو علـى القفـر شعـراً، ليـس يُنْتَحَـلُ»

13 رمضان 1344
27 مارس 1926 = [الجمعة 1926/3/26]

لولا الخُطوب...

[الطويل]

ولــولا خطــوب مــزقتنــي نيــوبهــا
وشدت على قلبي مخالبُها الحُمْرُ...
لــوجهــت نفســي وجهــة تحمــدونهــا
ولــو قــام فــي منهــاجهــا الجبــل الــوعــرُ

(ذو الحجة) 44/12/25 [13 هـ]
4 جويليه 1926[1] = [الاثنين 1926/7/5]

(1) الملاحظ أن الفرق هنا بزيادة يوم لا بالنقص كما وقع في كامل الديوان.

مأتم الحب

[رمل منهوك ومجزوء]

ليـت شعـري!

أيُّ طيـــــــر

يسمـــع الأحـــزان تبكـــي بيـــن أعمـــاق القلـــوب

ثـم لا يهتـف فـي الفجـر بـــرنَّـــات النحيـــب

بخشوع، واكتئاب؟

* * *

لســـت أدري

أيُّ أمـــــــر

أخـــرس العصفـــور عنِّـــي، أتُـــرى مـــات الشعـــورْ

فـي جميـع الكـون، حتـى فـي حُشـاشـات الطيـورْ؟

أمْ بكى خلف السحاب؟

* * *

في الدياجي

كم أناجي

مَسْمَع القبرِ، بغصّات نحيبي، وشجوني

ثم أصغي، علّني أسمع ترديد أنيني

فأرى صوتي فريد!

* * *

فأنادي:

«يا فؤادي»

«مات من تهوى! وهذا اللحد قد ضمّ الحبيب»

«فابكِ يا قلب بما فيك من الحزن المذيب»

«ابْكِ يا قلب، وحيد!»

* * *

ذلّ قلبي،

مات حبّي!

فاذرفي يا مقلة الليل الدراري عبرات

حول حبّي، فهو قد ودّع آفاق الحياة

بعد أن ذاق اللهيب

* * *

وانـــدبيـــه،

واغسليـــــه،

بـدمـوع الفجـر، مـن أكـواب زهـر الـزّنْبَـق

وادفنيـــه بجـــلال، فـــي ضفـــاف الشفـــق

ليرى روح الحبيب

23 محرم 1345

3 أوت[1] 1927 = [الاثنين 2/8/1926]

(1) في المطبوع خطآن لأن السنة 1926 أيضاً.

الكآبة المجهولة[1]

[المنسرح]

(أنـــا كئيـــبٌ
أنـــا غـــريـــبٌ)

كـــآبتـــي خـــالفـــت نظـــائـــرهـــا
غـــريبـــةٌ فـــي عـــوالـــم الحـــزَن
كـــــآبتـــــي فكـــــرةٌ مُغَـــــرِّدةٌ
مجهـــولـــةٌ مـــن مســـامـــع الـــزمـــن

لكننـــي قـــد سمعـــت رنّتهـــا
بمهجتـــي، فـــي شبـــابـــيَ الثَّمِـــل
سمعتُهـــا، فـــانصـــرفـــتُ مكتئبـــاً
أشـــدو بحُـــزنـــي، كطـــائـــر الجبـــل

سمعتهـــــا أنّـــــةً يـــــرجِّعُهـــــا
صـــوتُ الليـــالـــي، ومهجـــةُ الأزل

---

(1) القصيدة الوحيدة التي كتبها الشابي على البحر المنسرح وقوله؛ (أنا كئيب أنا غريب) خارج عن الوزن وبتنوين: (كئيبٌ وغريبٌ) يصبح مساوياً لشطر من أحد أضرب المنسرح.

سمعتهـا صـرخـةً مُضَعْضَعَـةً
كجـدولٍ فـي مضـايـق السبـل
سمعتهـا رنّـةً، يعـانقُهـا
شـوقٌ إلـى عـالـم يضعضعهـا
ضعيفـةً مثـل أنّـةٍ صعـدتْ
مـن مهجـةٍ هـدّهـا تـوجُّعهـا

كـآبـةُ النـاس شعلـةٌ، ومتـى
مـرّت ليـالٍ خبَـتْ مـع الأمـد
أمّـا اكتئـابـي فلـوْعـةٌ سكنـتْ
روحِـي، وتبقـى بهـا إلـى الأبـد

* * *

(أنـا كئيـبٌ، أنـا غـريـبٌ)
وليـس فـي عـالـم الكـآبـة مَـنْ
يحمـلُ مِعشـارَ بعـضِ مـا أجـدُ
كـآبتـي مُـرَّةٌ، وإن صـرخـتْ
روحـي فـلا يسمعنّهـا الجسـد

كـآبتـي ذات قسـوة صهَـرت
مشـاعـري فـي جهنـم الألـم
لـم يسمـع الـدّهـرُ مثـل قسْـوتهـا
فـي يقظـة قـط، لا، ولا حلُـمِ

كـــآبتـــي شُعلـــةٌ مـــؤجَّجـــةٌ،
تحـــت رمـــاد الكـــون تستعِـــر[1]
سيعلـــم الكـــونُ مـــا حقيقتهـــا
ويطلـــع الفجـــر يـــوم تنفجـــر

* * *

كـــآبـــةُ النـــاس شعلـــةٌ، ومتـــى[2]
مـــرّت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابـــي فلـــوعـــةٌ، سكنـــت
روحـــي، وتبقـــى بهـــا إلـــى الأبـــد

27 محرم 1945
7 أوت 1926 = [الجمعة 1926/8/6]

(1) هذا البيت غير متّزن، وأرجّح أن يكون صوابها: [رماد السكون] خلافاً لجميع الطبعات إذ بذلك يصبح موزوناً.
(2) هذا المقطع مكرر.

شكوى اليتيم

[المتقارب]

على ساحل البحر، أنّى يضجُّ صراخُ الصباحِ ونَوْحُ المسا
تنهَّدتُ من، مهجةٍ أُترعت بدمع الشقاء وشوْك الأسى
فضاع التنهّدُ في الضجّةِ
بما في ثناياه من لوْعة
فسرتُ وناديتُ: «يا أمُّ! هيّا
إليّ! فقد سئمتني الحياة»

* * *

وجئت إلى الغاب، أسكبُ أوجا عَ قلبي نحيباً، كلفْح اللّهيبْ
نحيباً تَدافع في مهجتي وسالَ يَرنُّ بندب القلوب
فلم يفْهم الغابُ أشجانَهُ
وظلّ يُرَدِّد ألحانَهُ
فسرتُ وناديْتُ: «يا أمُّ هيَّا
إليّ! فقد عذبتني الحياة»

وقمتُ على النَّهر، أُهْرِق دمعاً تَفجّر من فيضِ حُزْني الأليمْ
يسيرُ بصَمتٍ على وجْنتيّ ويلمع مثل دموع الجحيم

فما خفَّف النهرُ من عدْوِه
ولا سكت النهرُ عن شدْوِه
فسرتُ، وناديتُ: «يا أمّ! هيّا
إليّ! فقد أضجرتني الحياة»

* * *

ولمّا ندبتُ ولم ينفَعِ
ناديْتُ أمّي فلم تسمعِ
رجعتُ بحزني إلى وحدتي
وردّدْتُ نَوحِي على مِسمعي
وعانقتُ في وحدتي لوْعتي
وقلت لنفسِي: «ألا فاسكتي!»

21 صفر 1345
31 أوت 1926 = [الاثنين 1926/8/30]

الزنبقة الذاوية[1]

[المتقارب]

أزَنْبَقَــةَ السفْــح؟ مــالــي أراكِ تعــانقــكِ اللــوعــةُ القــاسيــهْ؟
أفي قلبكِ الغضِّ صوتُ اللهيب، يــرتِّــلُ أنشــودة الهــاويــهْ؟

* * *

أأسمَعــكِ الليــلُ نــدبَ القلــوب أأرشفَــكِ الفجــرُ كــأسَ الأسـى؟
أصــبّ عليــك شعــاعُ الغــروب نجيــعَ الحيــاة، ودمــعَ المســا؟

* * *

أأوقفــكِ الــدهــرُ حيــث يُفجِّـ ـرُ نَوْحُ الحياة صُدوعَ الصدورْ؟
وَيَنبَثــقُ الليــل طيفــاً، كئيبــاً رهيباً، ويخفــقُ حــزنُ الــدهــورْ؟

* * *

(1) نشرها الشاعر في كتاب السنوسي ج 1، ص 235 بعنوان [الزنبقة الذابلة] وفيها تحويرات كثيرة.

إذا أضجرتكِ أغاني الظلام فقد عذّبتني أغاني الوجومْ
وإن هجرتكِ بناتُ الغيوم، فقد عانقتني بنات الجحيم

* * *

وإن سكب الدهر في مِسمعيْكِ نحيبَ الدجى، وأنينَ الألمْ
فقد أجّج الدهرُ في مهجتي شُواظاً من الحَزَن المشتعل

* * *

وإن أرشفتْكِ شفاهُ الحياة رُضابَ الأسى، ورحيقَ الألمْ
فإنّي تجرّعتُ من كفِّها كُؤوساً، مؤجَّجَةً، تضطرم

* * *

أصيخي! فما بين أعشار قلبي يرِفّ صدى نوحكِ الخافتِ
معيداً على مهجتي بحفيفِ جناحيه صوتَ الأسى المائتِ

* * *

وقد أترع الليلُ بالحب كأسي وشعشعها بلهيب الحياة
وجرّعني من ثُمالاته مرارةَ حزنٍ، تُذيب الصّفاة

* * *

إلـــيّ! فقـــد وحّـــدت بيننـــا قســـاوةُ هـــذا الـــزمـــان الظلـــومْ
فقـد فجّـرتْ فـيّ هـذِي الكلـومَ كمـا فجّـرت فيـكِ تلـك الكلـوم

* * *

وإن جـــرفتنـــي أكـــفُّ المنـــون إلى اللحْدِ، أو سحقتكِ الخطوبْ[1]
فحـزنـي وحـزنـكِ لا يبـرحـانِ أليفيْـنِ رغـم الـزمـان العصيـب

* * *

وتحـــتَ رواق الظـــلام الكئيـــب إذا شمـل الكـونَ روحُ السحَـرْ[2]
سيُسمَـع صـوتٌ، كلحـن شجـيٍّ تطـايَـرَ مـن خَفقـات الـوتـر

* * *

يـــردِّدُه حُـــزنُنـــا فـــي سكـــون على قبرنـا، الصامتِ المطمئنْ
فنـرقُـد تحـت التـراب الأصـمِّ جميعـاً علـى نغمـات الحـزَنْ

9 جمادى الأولى 1345
15 نوفمبر 1926 = [الأحد 14/11/1926]

---

(1) (أو) يقتضيها الوزن والمعنى (من كتاب السنوسي).
(2) في كتاب السنوسي أربعة أبيات أخرى عوض هذه الأبيات الأربعة الأخيرة وهي:

فيصـدح عنـد سكـوت الـدجـى إذا نسيتنـــا عـــذارى السحـــر
صـدى يتهـادى، كنغْـم! شجـيٍّ تطـايـر مـن خفقـات الـوتـر
يـرنمـه شجْـونـا المستكيـن لـدى القبـر، تحـت ظـلا ل المسا
فنهجـع تحـت الثـرى الهـاجـع جميعـاً علـى نغمـات الأسـى

إلى جانب تحويرات طفيفة أخرى في الأبيات السابقة.

يا شعر

[مجزوء الكامل]

يـا شعـرُ أنْـتَ فـمُ الشعـور، وصـرخـةُ الـروح الكئيـبْ
يا شعر أنت صدى نحيب القلب، والصّب الغريب

* * *

يـا شعـر أنـت مـدامـعٌ علِقـتْ بـأهـداب الحيـاةْ
يـا شعـر أنـت دمٌ، تفجّـر مـن كلـوم الكـائنـات

* * *

يـا شعـر! قلبـي ـ مثلمـا تـدري ـ شقـيٌّ، مظلـمُ
فيـه الجـراحُ، النُّجْـلُ، يقطـر مـن مغـاورهـا الـدمُ

* * *

جمـدت علـى شفتيـه أرزاءُ الحيـاة العـابسـه
فهـو التعيـسُ، يُـذيبـه نَـوْحُ القلـوب البـائسـهْ

* * *

أبداً ينوح بحرقةٍ، بين الأماني الهاويهْ
كالبلبل الغرِّيد ما بين الزهور الذاويهْ

* * *

كمْ قد نصحتُ له بأن يسلو، وكمْ عزّيتُه
فأبى، وما أصغى إلى قولي، فما أجْديته

* * *

كم قلت: «صبراً يا فؤادُ! ألا تكُفُّ عن النحيبْ؟»
«فإذا تجلّدتِ الحياةُ تبدّدتْ شُعَلُ اللهيب»

* * *

«يا قلب! لا تجزع أمامَ تصلُّبِ الدهر الهصورْ»
«فإذا صرختَ توجُّعاً هزأتْ بصرختكَ الدهورْ»

* * *

«يا قلب! لا تسخط على الأيام، فالزهر البديعْ»
«يصغي لضجّات العواصف قبل أنغام الربيع»

* * *

«يا قلب! لا تقنعْ بشوك اليأس من بين الزهورْ»
«فوراءَ أوجاع الحياة عذوبةُ الأمل الجسور»

«يـا قلـب! لا تسكـبْ دمـوعَـكَ بـالفضـاء فتنـدمِ»
«فعلـى ابتسـامـات الفضـاء قسـاوةُ المتهكِّـمِ»

* * *

لكـنّ قلبـي ـ وهـو مُخْضـلُّ الجـوانـب بـالـدمـوعْ ـ
جـاشـتْ بـه الأحـزانُ، إذ طفحـت بهـا تلـك الصـدوع

* * *

يبكـي علـى الحلـم البعيـد بلـوعـةٍ، لا تنجلـي
غـرِداً، كصَـدّاح الهـواتـف فـي الفـلا، ويقـول لـي:

* * *

«طهِّـرْ كُلُـومَـك بـالـدمـوع، وخلِّهـا، وسبيلَهـا»
«إن المـدامـع لا تُضيـع حقيـرهـا وجليلهـا»

* * *

«فَمِـنَ المـدامـع مـا تـدفّـعَ جـارفـاً حَسَـك الحيـاهْ»
«يـرْمـي لهـاويـة الـوجـود بكـل مـا يبنـي الطغـاهْ»

* * *

«ومـن المـدامـع مـا تـألّـق فـي الغيـاهـب كـالنجـوم»
«ومـن المـدامـع مـا أراح النفـسَ مـن عـبء الهمـوم»

فـارحَـم تعـاسته، ونُـحْ معـه علـى أحـلامِـهِ
فلقـد قضـى الحلـمُ البـديـعُ علـى لظـى آلامِـهِ

* * *

يـا شعـر! يـا وحْـيَ الـوجـود الحيّ! يـا لُغَةَ المـلايِكْ
غـرِّدْ، فـأيَّـامـي أنـا تبْكـي علـى إيقـاع نـايـكْ

* * *

ردِّدْ علـى سمـع الـدجـى أنَّـاتِ قلبـي الـواهيـهْ
واسكـب بـأفجـان الـزهـور دمـوعَ قلبـي الـداميـهْ

* * *

فلعـلّ قلـب الليـل أرحـم بـالقلـوب البـاكيـهْ
ولعـلّ جفـنَ الـزهـر أحفـظُ للـدمـوع الجـاريـهْ

* * *

كـم حـرّكـت كـفُّ الأسـى أوتـارَ ذيّـاك الحنيـنْ
فتهـاملـتْ أحـزانُ قلبـي فـي أغـاريـد الأنيـــن

* * *

فَلَكَـمْ أرَقْـتُ مـدامعـي، حتـى تقـرّحـتِ الجفـونْ
ثـمّ التفـتّ، فلـم أجـد قلبـاً يقـاسمنـي الشجـون

فعسى يكون الليل أرحم، فهو مثلي يندبُ
وعسى يصون الزهر دمعي، فهو مثلي يسكب

* * *

قد قنَّعتْ كفُّ المساء الموتَ بالصّمت الرهيب،
فغدا كأعماق الكهوف، بلا ضجيج أو وجيب

* * *

يأتي بأجنحة السكون، كأنه الليل البهيم
لكنّ طيفَ الموت قاسٍ، والدجى طيفٌ رحيم

* * *

ما للمنيّة لا ترقُّ على الحياة النائحه؟
سِيَّان أفئدةٌ تئنّ، أو القلوب الصادحه

* * *

يا شِعرُ! هل خُلِق المَنون بلا شعورٍ كالجماد؟
لا رعشة تعرو يدَيْه إذا تملَّقَه الفؤاد؟

* * *

أرأيتَ أزهارَ الربيع، وقد ذوتْ أوراقها
فهوَت إلى صدر التراب، وقد قضت أشواقُها؟

أرأيــت شحــرورَ الفــلا، متــرنّمــاً بيــن الغصــون
جمــد النشيــدُ بصــدره، لمّــا رأى طيــفَ المنــون؟

* * *

فقضــى، وقــد غــاضــت أغــاريــدُ الحيــاة الطــاهــرهْ
وهــوى مــن الأغصــان، مــا بيــن الــزهــور البــاسـرْه؟[1]

* * *

أرأيــتَ أمَّ الطفــل تبكــي ذلــك الطفــلَ الــوحيــد
لمّــا تنــاولــه، بعنــفٍ، ســاعــدُ المــوت الشــديــد؟

* * *

أسمعــتُ نَــوْحَ العــاشــق الــولهــانِ، مــا بيــن القبــور
يبكــي حبيبتَــه؟ فيــا لمصَــارع المــوت الجســور!

* * *

طفحــتْ بــأعمــاق الــوجــود سكينــةُ الصبــر الجليــد
لمّــا رأى عــدل الحيــاة يضمّــه اللحــدُ الكنــود

* * *

فتَــدفّقــتْ لحنــاً، يــردّده علــى سمــع الــدهــور
صــوتُ الحيــاة بضجــة. . . تسعــى علــى شفــة البحــور

(1) المقطبة أو المتغيرة اللون!

يـا شعـرُ! أنـتَ نشيـدُ أمـواج الخضـم السـاحـرهْ
النـاصعـات، البـاسمـات، الـراقصـات، الطـاهـرهْ

* * *

السـافـرات، الصـادحـات مـع الحيـاة إلـى الأبـد؟
كعـرائـس الأمـلِ الضحـوك، يَمِسْـنَ مـا طـال الأمَـد

* * *

هـا أنّ أزهـارَ الـربيـع تبسّمـتْ أكمـامُهـا
يـرنـو إلـى الشَّفـق البعيـدِ، تغُـرُّهـا أحـلامُهـا

* * *

فـي صـدرهـا أمـلٌ، يحـدِّق نحـو هـاتيـك النجـوم
لكنّـه أمـلٌ، ستلحـده جبـابـرةُ الـوجـوم

* * *

فلسـوْف تغمـض جفنهـا، عـن كـل أضـواء الحيـاة
حيـث الظـلام مُخَيِّـمٌ فـي جـوِّ ذيـاك السبـات

* * *

هـا أنهـا همسـت بـآذان الحيـاة غـريـدَهـا
قتلـتْ عصـافيـرُ الصبـاح، صُـداحهـا ونشيـدَهـا

يـا شعـرُ! أنـت نشيـد هـاتيـك الـزهـور البـاسمـهْ
يـا ليتنـي مثـلُ الـزهـور، بـلا حيـاة واجمـه

* * *

إن الحيـاة كئيبـةٌ، مغمـورة بـدمـوعهـا!!
والشمسُ أضجرها الأسى، في صحوها وهجوعها

* * *

فتجـرّعـت كـأسـاً دِهـاقـاً، مـن مشعشعـة الشَّفـق
فتمـايلـتْ، سَكـرى إلـى كهـف الحيـاة. . ولـم تُفِـق

* * *

يـا شعـرُ! أنـتَ نحيبهـا لمّـا هَـوَتْ لسبُـاتهـا
يـا شعـرُ أنـتَ صُـداحهـا، فـي مـوتهـا وحيـاتهـا

* * *

انظـر إلـى شفـق السمـاء، يفيـض عـن تلـك الجبـالْ
بشعـاعـه الخـلّاب، يغمـرهـا ببسْمـات الجمـالْ

* * *

فيثيـر فـي النفـس الكئيبـة عـاصفـاً لا يـركـد
ويـؤجّـج القلـبَ المعـذّبَ شعلـةً لا تخمـد

يـا شعـرُ! أنـت جمـال أضـواء الغـروب السـاحـره
يـا همـسَ أمـواج المسـاء، البـاسمـاتِ الحـائـره

* * *

يـا نـايَ أحـلامـي الحبيبـةِ! يـا رفيـقَ صبَـابتـي
لَـولاكَ مـتُّ بلـوعتـي، وبشقـوتـي، وكـآبتـي

* * *

فيـكَ انطـوتْ نفسـي، وفيـكَ نفخـتُ كـلّ مشـاعـري
فـاصـدح علـى قمـم الحيـاة بلـوعتـي، يـا طـائـري

14 رجب 1345
18 جانفي 1927 = [الاثنين 1927/1/17]

إلى الطاغية

[الطويل]

يقولون: «صوت المستذَلّين خافتٌ وسمع طغاة الأرض [أطرش] أصْخَمُ[1]
وفي صيْحة الشعب المسخَّر زعزعٌ تَخِرُّ لها شمُّ العروش، وتُهْدَمُ
ولَعْلَعةُ الحق الغضوب لها صدى ودمدمة الحرب الضروس لها فمُ
إذ التفّ حول الحقّ قوم فإنّه يصرِّمُ أحداثَ الزّمان ويُبْرم

* * *

لك الويل يا صَرْحَ المظالم من غدٍ إذا نهض المستضعفون، وصمّموا!
إذا حطَّم المستعبَدون قيودَهم وصبُّوا حميم السخط أيّان تعلم..!
أغرّك أن الشعب مُغْضٍ على قذى وأنّ الفضاء الرّحْبَ وسنانُ، مظلم؟
ألا إنّ أحلامَ البلاد دفينةٌ تجمجم في أعماقها ما تجمجم

(1) نشرت الأبيات الأربعة الأولى منها في كتاب السنوسي تحت عنوان (لعلعة الحق) ج 1 ص 214 بشيء من التغيير وأضاف بيتين ثم قصيدة أخرى نشرها في كتاب السنوسي بعنوان (الحق) ص 212 وحور فيها بعض التحوير وقدم وأخر بعض أبياتها. وفي المطبوع: [أطرش أضخم] بالضاد المعجمة وهي بالصاد العاطلة بخط الشاعر. وأثبتها بالضاد محمد قوبعة عند تحليل القصيدة في كتاب «قراءات في النص الأدبي»، ص 89 وما بعدها.

ولكـن سيـأتـي بعـد لأْي نشـورُهـا ... وينبثــق اليــوم الــذي يتــرنّــم
هر الحق يُغفي . . ثمّ ينهض ساخطاً ... فيهدمُ ما شاد الظِّلام[1]، ويَحْطِمُ
غدا الرّوْع، إن هبّ الضعيفُ ببأسه ... ستعلــم مــن مِنَّــا سيجــرفــه الــدّمُ
إلـى حيـث تجنـي كفُّـه بـذرَ أمْسِـه ... ومُــزدَرِعُ الأوجــاعِ لا بــد ينــدم
ستجرع أوصابَ الحياة، وتنتشي ... فتصغـي إلـى الحـق الـذي يتكلـم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التي ... قَـرارتهـا صـابٌ مَـريـرٌ، وعلقـم
إذا صُعِـقَ الجبّـارُ تحـت قيـوده ... يصيـخ لأوجـاع الحيـاة ويفهـم!!

15 شعبان 1345
18 فيفري 1927 = [الخميس 1927/2/17]

(1) الظلام بكسر الظاء: الظلم، تعليق بالطبعة الأولى لعله للشاعر وتصحّ بالفتح.

السآمة[1]

[المتقارب]

سئمتُ الحياة، وما في الحياة ... وما إن تجاوزْتُ فجرَ الشبابْ
سئمتُ الليالي، وأوجاعَها ... وما شعْشَعتْ من رحيق بِصاب
فحطَّمت كأسِي، وألقيتُها ... بوادي الأسى وجحيم العذاب
فأنّتْ، وقد غمرتْها الدموع ... وقرّتْ، وقد فاض منها الحبَاب
وألقى عليها الأسى ثوْبَه ... وأقبرَها الصمتُ والإكتئاب

* * *

فأين الأماني وألحانُها؟ ... وأين الكؤوس؟ وأين الشراب؟
لقد سحقتْها أكفُّ الظلام ... وقد رشفتْها شفاهُ السراب

* * *

فما العيش في حوْمةٍ بأسُها ... شديدٌ، وصدّاحها لا يُجاب
كئيبٌ، وحيدٌ بآلامِه ... وأحلامِه، شدْوُهُ الانتحاب

(1) نشرت في كتاب السنوسي بعنوان: «الملل الأليم» وعجز البيت الأول: «ولما تجاوزت فجر الشباب». ج 1 ص 219.

ذوتْ فـي الـربيـع أزاهيـرهـا فنِمْـنَ، وقـد مصَّهُـنَّ التـرابْ[1]
لَـوَيْـنَ النُّحـورَ علـى ذِلّـةٍ ومُتْـن، وأحـلامَهـنّ العِـذاب[2]
فَحـالَ الجمـالُ، وغـاض العبيـرُ وأذْوى الرّدَى سحرَهُنّ العُجاب[3]

15 رمضان 1345
19 مارس 1927 = [الجمعة 18/3/1927]

(1) في كتاب السنوسي: . . . فنمنَ وأحلامهنَّ العذاب.
(2) في كتاب السنوسي: . . . ونمن وقد مصهن التراب.
(3) في كتاب السنوسي: . . . وأذوى الردى جفْن تلك الكعاب.

أغنية الأحزان[1]

[الرمل] المذيَّل

غنِّني أنشودةَ الفجر الضَّحوكْ
أيها الصدّاحْ!
فلقد جرّعني صوتُ الظلام
ألَماً علّمني كرهَ الحياة
إن قلبي مَلّ أصداء النواح
غنّني، ياصاحْ!

* * *

حطّمت كفُّ الأسى قيثارتي
في يد الأحلام
فقضت صَمتاً، أناشيدُ الغرامْ
بين أزهار الخريف الذاويهْ
وتلاشت في سكون الاكتئاب
كصدى الغرِّيد

* * *

(1) من القصائد التي لم يضعها الشابي في ديوانه. وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى. وتنقسم في كتاب السنوسي إلى قسمين: الأول تحت عنوان (نشيد الآمل) ص 213 والثاني تحت عنوان (أغنية الأحزان) ص 230 وحور فيهما كثيراً.

كُفّ عن تلك الأغاني الباسمهْ

أيهـــا العصفـــورْ!

فحياتي ألِفَتْ لحنَ الأسى

من زمان قد تقضَّى، وعَسَى

أن يثير الشَّدوُ، في صمت الفؤادْ،

أنّـــةَ الأوتـــار...!

* * *

لا تغنيني[1] أغاريد الصباحْ

بلبـــلَ الأفـــراح!

ففؤادي وهو مغمور الجراح

بتباريح الحياة الباكيه

ليس تستهويه ألحان السرور

وأغـــاني النـــور

* * *

إنّ مَنْ أصغى إلى صوت المَنون

وصـــدى الأجـــداث

ليس تستهويه ألحانُ الطيورْ

بين أزهار الربيع الساحرهْ

(1) الصواب: «لا تغنني» لأنه يخاطب البلبل وهو مذكر ولكن الوزن يختل عندئذ.

وابتسامات الحياة، السافرهْ

عن جلال الله!

* * *

غنني يا صاحِ، أنّاتِ الجحيمْ

واسقني الآلام

أترِع الكأسَ بأوجاع الهموم

واسقني، إني كرهتُ الابتسام

غنِّني ندبَ الأماني الخائبهْ

والليالي السود

* * *

غنِّني صوت الظلام المكتئبْ

إنّني أهواهْ

هاكَ كأس القلب فأملأها نُواح[1]

واسكب الحُزنَ بها حتَّى الصباحْ!

إنها من طينة الحزن المَرير

صاغها الخَلّاق

---

(1) في كتاب السنوسي: هاك كأس الحب فاترعه نواح!
واسكب الحزن به حتى الصباح
إنه من طينة الحزن المرير
صاغه الخلاق

بثستِ الأفراح، أفراح الحياة

إنهـــــا أحـــــلام

تخلب اللبّ بألحانٍ عِذابْ

وأغاريدَ، كأملاك السما

ثم لا تلبث أن تذوي كما

تذبل الأزهار

* * *

خبِّريني، ما الذي خلف الغيوم...؟

ربـــةَ الأحـــلامْ

أفتَى الهولِ، وجبَّار الهموم؟

أم عروس الأملِ العذبِ الشرود

تتهادى بين لألاء الصباح؟

كمَـــلاك النـــورْ

* * *

أنا في درب الحياة الغامضه

تائـــهٌ، حيـــران

بينما أبصر في وجه الحياة

ظلمةَ الأحزان في ظلّ الألمْ

إذ أرى فـي جفنهـا نـوراً، بـديـعْ

بـــاسمـــاً، فتّـــانْ

* * *

هـا أنـا أسمـع فـي قلـب الحيـاة

صيحـــــــــةَ الآلام

مُـرّةً تنسـاب، مـن قلـب حطيـم

مـلأ الحـزنُ أقـاصيـه دمـوعْ

هـا أنـا أسمـع أصـوات السـرور

كَضَّـــــت[1] الأيـــــام

23 شوال 1345

26 أفريل 1927 [الأربعاء 1927/4/25]

(1) لعلّها: (كظت) بالظاء أي ملأت.

الدموع[1]

[الخفيف]

ينقضي العيش بين شوق ويأس ... والمنى بين لوعة وتأسّ
هذه سُنَّةُ الحياة. ونفسي ... لا تودُّ الرحيق في كأس رِجس
مُليء الدهر بالخداع، فكم قد ... ضلَّلَ الناسَ من إمام وقَسّ
كلما أسأل الحياة عن الحق ... تكفُّ الحياةُ عن كل همس
لم أجد في الحياة لحناً بديعاً ... يستبيني سوى سكينة نفسي
فسئمت الحياة، إلاّ غِراراً ... تتلاشى به أناشيدُ يأسي
[حجبت شقوة الدهور على جفني ... شعاع الرجاء من قبل رمسي][2]
ناولتني الحياة كأساً دِهاقاً ... بالأماني، فما تناولتُ كأسي
وسقتني من التعاسة أكواباً ... تجرعْتُها، فيا شدّ تعسي!
إن في روضة الحياة لأشواكاً ... بها مُزِّقت زنابق نفسي

* * *

ضاع أمْسي وأين منِّيَ أمسي؟ ... وقضى الدهرُ أن أعيش بيأسي؟

(1) ظهرت في كتاب السنوسي 1: 211 وحذف منها وغير كثيراً من الكلمات.
(2) البيت من المرجع السابق وسقط من جميع طبعات الديوان.

وقضى الحبُّ في سكون مريعٍ ساعةَ الموت بين سخط وبؤس
لم تُخَلِّفْ ليَ الحياة من الأمس سوى لوعةٍ، تهبُّ وترسي[1]
تتهادى ما بين غصّات قلبي بسكونٍ وبين أوجاع نفسي
كخيال من عالم الموت، ينساب بصمتٍ ما بين رمْسٍ ورمْس
تلك أوجاعُ مهجةٍ، عذّبتْها في جحيم الحياة أطيافُ نحس
[تلك أحلام غورِ روحٍ كئيبٍ كَرِهَ العيش من نعيم وبؤس][2]

19 ذو الحجة 1345
20 جوان 1927 = [الأحد 1927/6/19]

(1) في كتاب السنوسي لم تبق وأصلحها في الديوان.
(2) سقط هذا البيت من جميع الطبعات وأخذناه من كتاب السنوسي.

أيها الليل[1]

أيها الليل! يا أبا البؤس والهَوْ ... لِ! ويا هيكل الحياة الرهيبِ[2]
فيك تجثو عرائس الأمل العذ ... ب، تُصلِّي بصوتها المحبوب
فيُثير النشيدُ ذكرى حياة ... حجبتها غيوم دهر كئيب
وترف الشجون من حول قلبي ... بسكون، وهيبة، وقطوب
أنت يا ليل! ذرّةٌ، صعدت للـ ... ـسكون، من موطيء الجحيم الغصوب
أيها الليل! أنت نغْم شجيٌّ ... في شفاه الدهور، بين النحيب!
إن أنشودة السكون، التي ترتجّ ... في صدرك الرَّكود، الرحيب
تُسمع النفسَ، في هدوء الأماني ... رنةَ الحق، والجمال الخَلُوب
فتصوغ القلوبُ، منها أغاريدا ... تهز الحياة هزَّ الخطوب[3]
تتلوّى الحياة، من ألم البؤ ... س، فتبكي، بلوعة ونحيب
وعلى مِسمعيك، تنهلّ نوحاً ... وعويلاً مُرّاً، شجونُ القلوب
فأرى برقعاً شفيفاً، من الأو ... جاع، يُلقي عليكَ شجوَ الكئيب
وأرى في السكون أجنحة الجبَّـ ... ـار، مخضَّلةً بدمعٍ صَبِيبِ

---

(1) من القصائد التي لم يضعها الشابي في ديوانه وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى.
(2) في المطبوع: يا هيكل الحياة بدون واو، والوزن يقتضيها وهي كذلك في كتاب السنوسي ج 1 ص 215.
(3) صرف (أغاريداً) للوزن، والوزن يستقيم أيضاً بعدم صرفها: أغاريدَ.

فلـك اللـه! مـن فـؤاد رحيـم ولـك اللـه! مـن فـؤاد كئيـب
يهجع الكون، في طمأنينة العصـ ـفور، طفلاً بصدركَ الغريب
وبأحضانك الرحيمة يستيقظ، في نضـرة الضحـوك، الطـروب
شـادياً، كـالطيـور بـالأمـل العـذ ب، جميـلاً، كبهجـة الشـؤبـوب
يـا ظـلام الحيـاة! يـا روعـةَ الحـز ن! ويـا مِعـزفَ التعيس الغـريـب
إن فـي قلبـك الكئيـبِ، لمـرتـادا لأحـلام كـل قلـب كئيـب
وبقيثـارة السكينـة، فـي كفّيْـكَ، تنهـلّ رنّـةُ المكـروب
فيـك تنمـو زنـابـق الحُلُـم العـذ ب، وتذوِي لدى لهيب الخطوب
خلـف أعمـاقـك الكئيبـة تنسـا ب ظِـلال الـدهـور، ذاتَ قطـوب
وبفَـوْديـك، فـي ضفـائـرك السـ ـود، تـدبُّ الأيـام أيَّ دَبِيـبِ

* * *

صـاحِ! إن الحيـاة أنشـودة الحـز ن، فـرتِّـلْ علـى الحيـاة نحيبـي
إن كأس الحيـاة مترعـة بالـدمـ ـع، فاسكب على الصباح صبيبي!
إنّ وادي الظـلام يطفـح بـالهـو ل، فمـا أبعـد ابتسـام القلـوب!
لا يغُـرّنّـك ابتسـام بنـي الأر ض فخلـف الشعـاع لـذعُ اللهيـب
أنـت تـدري أن الحيـاة قطـوبٌ وخطـوب، فمـا حيـاة القطـوب؟
إن فـي غيبـة الـدهـور، تبـاعـاً لخَطيـب يمـرّ إثـر خطيـب

* * *

سَدّدَتْ في سكينة الكون، للأعما ق، نفسي لحظاً بعيدَ الرُّسوب

نظـــرة مزّقـت شغـــاف الليـــالي فـــرأت مهجـة الظـلام الهَيـــوب
ورأت في صميمهـا، لـوعـة الحـز ن، وأصغـت إلـى صُـراخ القلـوب
لا تحـاول أن تنكـر الشجـو، إنـي قـد خبـرت الحيـاة خُبْـرَ لبيـب
فتبـــرّمتُ بالسكينـــة والضجـــــــة، بل قد كرهتُ فيها نصيبي. . .
كـن كمـا شـاءت السمـاء كئيبـاً أيُّ شـيءٍ يسـر نفـس الأريـب؟
أنفـوسٌ تمـوت، شـاخصـةً بـالهـو ل، فـي ظلمـة القنـوط العصيـب؟
أم قلوب محطَّماتٌ على ساحلِ لُـــــــجٍّ الأسى، بموج الخطوب؟
إنمـا النـاس فـي الحيـاة طيـورٌ قـد رمـاهـا القضـا بـوادٍ رهيـب
يعصـف الهـولُ فـي جـوانبـه السـو د فيقضـي علـى صَـدَى العنـدليـب

* * *

قد سألتُ الحياة عن نغمة الفجـــــــر، وعن وَجْمة المساء القَطوب
فسمعتُ الحياة، في هيكل الأحزا ن، تشـدو بلحنهـا المحبـوب
مـا سكـوتُ السمـاء إلا وجـومٌ مـا نشيـد الصبـاح غيـر نحيـب
ليـس فـي الـدهـر طـائـرٌ يتغنـى فـي ضفـاف الحيـاة غيـرَ كئيـب
خضَّـب الاكتئـابُ أجنحـةَ الأيـا م، بـالـدمـع، والـدم الأُسكـوب
وعجيب أن يفرح الناس في كهـــــف الليالي، بحزنها المشبوب!

* * *

كنـت أرنـو إلـى الحيـاة بلحـظٍ بـاسـم، والـرجـاء دون لغـوب
ذاك عهـد حسبتـه بسمـة الفجـــــــر، ولكنـه شعـاع الغـروب

ذاك عهـد، كـأنـه رنَّـة الأفـرا ح، تنسـاب مـن فـم العنـدليـب
خفقت ـ ريثما أصختُ لها بالقلـ ـب، حينـاً ـ وبُـدِّلَـتْ بنحيـب
إن خمـر الحيـاة ورديـة اللـو ن، ولكنهـا سِمـام القلـوب[1]

* * *

جَـرفـتْ مـن قـرارة القلـب أحـلا مي، إلى اللحد، جائراتُ الخطوب
فتـلاشـت علـى تخـوم الليـالـي وتهـاوت إلـى الجحيـم الغضـوب
وثـوى فـي دُجُنَّـة النفـس، ومـضٌ لـم يـزل بيـن جَيْـأَةٍ وذُهـوب[2]
ذِكريات تميس في ظُلمة النـــــفس، ضئالاً، كرائعاتِ المشيب

* * *

يـا لقلـب تجـرع اللـوعـة المـر ة مـن جـدول الـزمـان الـرهيـب!
ومضـت فـي صميمـه شُعْلَـةُ الحـز ن، فَعَشَّتْهُ من شعاع اللهيب[3]. . .

23 ذو الحجة 1345

24 جوان 1927 = [الخميس 23/6/1927]

---

(1) في كتاب السنوسي: (سموم) 1:218.
(2) في جميع الطبعات (جَيْئَةٍ) والتصحيح من كتاب السنوسي 1:218.
(3) في كتاب السنوسي (فغشته) بالغين المعجمة.

المجْدُ

[الطويل]

يَـودُّ الفتـى لـو خـاض عـاصفـة الـردى

وصـدّ الخميـس المجْـرَ والأسَـدَ الـوَرْدَا

ليـدرك أمجـاد الحـروب، ولـو درى

حقيقتَهَـا مـا رام مـن بينْهـا مجْـدا

فمـا المجـد فـي أن تُسكِـرَ الأرض بـالـدِّمـا

وتـركـبَ فـي هيجـائهـا فـرَسـاً نهْـدا

ولكنـه فـي أن تصـدّ بهمَّـةٍ

عـن العـالـم المـرزوءِ، فيْـضَ الأسـى صـدّا

2 صفر 1346

غرة أوت 1927 = [الأحد 1927/7/31]

الحُبّ

[البسيط]

الحبُّ شعلةُ نورٍ ساحرٍ، هبطتْ ... من السماء، فكانتْ ساطعَ الفلَقِ
ومزّقت عن جفون الدّهر أغشِيَةً ... وعن وجوه الليالي بُرقُعَ الغسق
الحـــبّ روحُ إلهِـــيٌّ، مجنّحـــةٌ ... أيـــامُـــه بضيـــاء الفجـــر والشّفـــق
يطوف في هذه الدنيا، فيجعلها ... نجْماً، جميلاً، ضحوكاً، جدّ مؤتلق
لولاه ما سُمِعتْ في الكون أغنيةٌ ... ولا تـآلـفَ فـي الـدنيـا بَنُـو أفُـقِ
الحبُّ جدولُ خمرٍ، مَن تذوّقه ... خاض الجحيمَ، ولم يُشْفِق من الحرق
الحـب غـايـة آمـال الحيـاة، فمـا ... خوْفي إذا ضمّني قبري؟ وما فَرَقي؟

29 صفر 1346
28 أوت 1927 = [السبت 1927/8/27]

جَدْول الحب[1]
بين الأمس واليوم

[مجزوء الكامل]

بـالأمـس قـد كـانـت حيـاتـي كـالسمـاء البـاسمـهْ
واليـومَ، قـد أمسـت كـأعمـاق الكهـوف الـواجمـهْ

* * *

قـد كـان لـي مـا بيـن أحـلامـي الجميلـة جـدولُ
يجـري بـه مـاء المحَبَّـة طـاهـراً، يتسلسـلُ

* * *

تسعـى بـه الأمـواجُ بـاسمـةً كـأحـلام الصِّبـا
بيضـاء، نـاصعـةً ضحـوكـاً مثـل أزهـار الـرُّبـى

* * *

ميَّـاسـةً كعـرائـس الفـردوس بيـن حُقـولِـه
تتلـو أنـاشيـد المُنـى فـي مَـدِّه وقُفـولـهِ

(1) من القصائد التي لم يضعها الشابي في ديوانه وأضافها شقيقه إلى الطبعة الأولى. وهي في كتاب السنوسي ج 1 ص 251.

هُوَ جَدْوَلُ الحب الذي قد كان في قلبي الخَضِلْ
بمراشف الأحلام منطلقاً، يسير على مَهَلْ

* * *

يتلو على سمعي أغاريدَ الحياة الطاهرهْ
ويُثير في قلبي أناشيدَ الخلود الساحرهْ

* * *

تقف العذارى الخالداتُ... عرائس الشعرِ البديعْ
في ضفّتَيْه، مُردِّداتِ نغمةَ الحلم الوديع

* * *

يلمسن من قيثارة الأحلام أوتار الغزلْ
فتفيض ألحانُ الصبابة عذبةً، مثل الأمل

* * *

وتطير بالبَسَمات والأنغام أجنحةُ الصدى
في ذلك الأفُق الجميل، وذلك النّسَم الرُّخا

* * *

وهناك حيث تُعانق البسماتُ أنغامَ الغزلْ
يتمايل الحلمُ الجميل... كبسمة القلب الثّمِلْ

هُـوَ جـدولٌ، قـد فجَّـرتْ يَنبـوعَـه فـي مهجتـي
أجفـانُ فـاتنـة أرتنيهـا الحيـاة لشقـوتـي

* * *

أجفـان [فـاتنـةٍ] تـراءَتْ لـي علـى فجـر الشبـاب[1]
كعروسة من غانيات الشعر، في شَفَق السحاب[2]

* * *

ثـم اختفـت خلـف السمـاء، وراءَ هـاتيـك الغيـومْ
حيـث العـذارى الخـالـداتُ، يمِسْـنَ مـا بيـن النجـوم

* * *

ثـم اختفـت أوّاه! طـائـرةً بـأجنحـة المنـون
نحـو السمـاء، وهـا أنـا فـي الأرض تمثـال الشجـون

* * *

قـد كـان ذلـك كلـه بـالأمـس! بـالأمـس البعيـد...
والأمـس قـد جـرفتـه مقهـوراً يـدُ المـوت العتيـد

* * *

(1) في المطبوع: «جفان، تراءت».. والوزن لا يستقيم فأصلحناه من كتاب السنوسي، ج 1 ص 252.
(2) في المطبوع: (الحساب) وهو خطأ.

قد كان ذلك تحت ظلّ الأمس، والماضي الجميل
قد كان ذلك في شعاع البدر من قبل الأفول

* * *

واليوم إذ زالت ظلال الأمس عن زَهري البديع
وتجَلْبَبَ الزّهرُ الجميلُ بظُلمة الليل المُريع

* * *

ذبلت مراشفُه، فأصبح ذاوياً، نضو الكلوم
وهوى لأنّ الليل أسمعه أناشيد الوجوم. . .

* * *

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة[1]
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

* * *

إذْ أصبح النبع الجميل يسير في وادي الألمْ
متعثّراً بين الصخور، يغور في تلك الظُّلَم

* * *

(1) أعاد المقطع الأول هنا.

جَفَّــتْ بــه أمــواجُ ذيَّــاك الغــرام الآفــلِ
فتـدفّقـتْ فيـه الـدمـوعُ بصَـوبهـا المتهـاطـل

قـد حجَّبتـه غيـومُ أحـزان الـوجـود القـاتمـهْ
قـد أخـرستـه مـرارةُ القلـب التعيـس الظـالمـه

* * *

جَمـدتْ علـى شفتيـه أنغـام الصبـابـة والهـوى
وقضتْ أغاني الحب، في أعماقه، لمّا هوى

* * *

وعدت به الأمواجُ، جامدةَ الملامح، قاتمه
قـد أسكَتَتْهـا لـوعـة الـرُّوح الحـزيـن الـواجمـهْ

* * *

غـاضـت أمـانيهـا، وغـار بهـا الجمـال السـاحـرُ
فـأصـابهـا ـ لهفـاً عليـه ـ الإكتئـاب الكـافـرُ

* * *

فـي ضِفّتَيْـه عـرائـسُ الأشعـار تنصـبُ مـأتمـا
يُهرقن فيه الدمعَ، حتى يلطمَ الدمعُ الدّما

* * *

فيسيـــل ذاك المـــدمـــعُ الـــدّامـــي لقلـــب الجـــدول
حيـــث المـــرارةُ، والأســـى، بيـــن الـــزهـــور الـــذُّبَّـــل

وَيَنُحـــنَ حتـــى يُفعـــم الآفـــاقَ صـــوتُ الانتحـــابْ
فتسيـــر أصـــداءُ النّيـــاحـــة نحـــو أطبـــاق الضَّبـــاب

* * *

وهنـــاك مـــا بيـــن الضَّبـــاب الأقتـــم الســـاجـــي الكئيـــبْ
تهتـــزُّ آلامـــي، وتختلـــج الكـــآبـــةُ، بـــالنّحيـــب

* * *

2 ربيع الأول 1346
30 اوت 1927 = [الاثنين 1927/8/29]

سر مع الدهر

[الخفيف]

سـر مـع الـدهـر، لا تصـدَّنَّـك الأهـوال، أو تُفْـزِعنَّـكَ الأحـداثُ
سـر مـع الـدهـر، كيفمـا شـاءت الـدنيـا، ولا يخـدعنَّـك النفَّـاث
فـالـذي يـرهـبُ الحيـاة شقـيٌّ سخـرتْ مـن مصيـره الأجـداث

10 ربيع الأول 1346
7 سبتمبر 1927 = [الثلاثاء 1927/9/6]

في سكون الليل

[مجزوء الرمل]

أيُّها الليـل الكئيبْ!

أيُّها الطّيف الغريب!

مِـن وراء الهَـوْل، مـن خلـف نقـاب الظلُمـاتْ

مــن خــلايــاك تــراءت لِــيَ أحــزانُ الحيــاة

هَــا أنــا أرنــو فــألْفِيــكَ كجَبَّــارٍ حطيــمْ

ســاكنــاً، جَلَّلَــكَ الحـزنُ، وأضنــاك الـوُجـومْ

هــاجعــاً طَــافَــتْ بــأعْشَــارِكَ أحـلام غِضَــابُ

صــامتــاً. تصغـي لأنَّـات الأسـى، والانتحـاب

رَابِضــاً كــالهــول فــي إحـدى زوايـا الهــاويـه

ســاكبــاً فـي راحـة الفجـر، الـدُّمـوعَ الـداميـه

ضلّ مَنْ سمَّاكَ، يا ليلَ بني الحزن، بهيم[1]

إنَّمَــا أنــت بمــا تحـويـه مـن شَجْـوٍ، رحيـم

ما الذي خلْف الغيومْ. . . ؟

ما الذي خلف النجوم. . ؟

مــا الــذي يَكْتُمُــهُ الــدهــر، ويُخفيــه الغَــدُ؟

مــا الــذي يحجبــه غيــمُ الحيــاةِ. . . الأرْبَــدُ؟

---

(1) في المطبوع: (يا ليل نبي الحزن(!) بهيم).

مـا الـذي خلفـك يـا لَيْـل أحـربٌ أمْ سـلامْ؟
مـا الـذي خلفـك؟ يـا ليـلُ ! أنـور؟ أم ظـلامْ؟
هـل سيبـدو الفجـرُ بَسَّـامـاً، كَعَـذراء الخُلُـود
تَـالِيـاً أنشـودَةَ الحـبّ، علـى سمـع الـوجـودْ؟
أمْ سيبـــدو مِـــنْ وراء الأُفْـــقِ. جَبَّـــاراً عنيـــدْ
يُنْـذِرُ الأيَّـام بـالشّـر، وبـالهـول المَـرِيـدْ؟
هـل سيبـدو الفجـرُ، يـا ليـلُ! إذا جـاء الغـدُ
وجنـــاحـــاه إذا رَفّ اللَّهيـــب الأسْـــودُ؟
أيُّهَا القلبُ الدَّهاقْ
بشجون لا تطـاقْ
أيُّها المحزونُ يا (يا) شاعر الدهر الكئيب![1]
إنَّمـا أنشـودة الـدّهـر نـواح، ونحيـبْ
هَيَّـا يَـا لَيْـلُ لِنَسْعَـى نحـو هـاتيـك الفـلاةْ[2]
حيـث تقضـي بسكـون، زهـرات نـاضـراتْ
إنّ مـا بيـن أزاهيـر الفـلاة الـواجِمَـه
شـاعـراً أضجـره، حُـزْنُ الحَيـاةِ السَّـاهمـه
وعلـى التُّـرْبِ الـذي اخْضـلّ بـأنـداء الغَمـامْ
خَطّ: «دعني في سباتي وعلى الدنيا السَّلامْ»

17 ربيع الثاني 1346 12 اكتوبر 1927[3]

---

(1) الوزن يقتضي تكرار حرف النداء: (يا).

(2) الوزن يقتضي عدم مد ألف (هيا).

(3) عن «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» تونس 1346 هـ 1927 م الطبعة الأولى ج 1 ص 250/249.

دموع الألم

[الخفيف]

حسرات تُهيجها الذكرياتُ ودموع تُفيضُها الشَّهَقَاتُ
وشجون تثير في القلب آلاَ مـاً تغنِّي بصوتها الأنَّاتُ
مَنْ لقلبٍ إذا تنهَّد حُزْناً صدّعته الشجونُ والغصّات؟
مَن لنفس إذا استحرَّ أساها جمدت في كلومها العبرات؟[1]
كُلَّما مَضّها الزمانُ بِرُزْءٍ عذّبَتْهَا بصوتها الذكريات
ما أمضّ الحياة إن ساوَرَتْهَا بين هُوّاتِ يأسها الحسرات
أمل ضائع وقلب عنيد مزّقَتْهُ الخطوبُ والصّعَقَات

* * *

ما ندبتُ الحياة إلاّ وسمعي مِلْؤهُ من نشيجها شهقات
كلَّمَا طافت الحياة حواليَّ هَوَتْ من جفونها العبرات
ما كَرهتُ الحياة إلا لأن الناسَ في راحة الردى حَصَواتُ

(1) في حوليات الجامعة التونسية علق توفيق بكار على هذا البيت حيث نشرت كلمة (كلومها) في «النهضة» (علومها) فقال: ولعله «عيونها».

وهـي جَبَّـارة تـدوسُ بَنِيهـا وتُغَنِّـي وهُـمْ لَـدَيْهَـا رُفَـاتُ
غَيْـرَ أنِّـي رأيتُهَـا وهـي تبكـي فـأفـاقـت بمهجتـي الـزفـراتُ
آلمتنـي شجـونهـا فتعـذّبـــــــتُ وطـارت بغبطتـي الهبـواتُ
وشَجَتْنِي دمُوعُها فتألَّمْـــــــتُ وغاضت بمهجتي البسماتُ

* * *

عشتُ في حَوْمَةِ الدّهور بآرا ئِـي شقيـاً ومـا تَسُـرّ الحيـاةُ
وغَداً إنْ قَضيتُ غاضت شجوني وطـواني لـدى القبـور السُّبَـاتُ
فَنَسِيـتُ الشقـاءَ والـدمـع واليـأ سَ ونامت بمهجتي الحركاتُ
وقضى في سكينتي طائرُ الحزْ نِ وأغفـت بصـدرِهِ النـدبَـاتُ
هكـذا يُلْجِـمُ المنـونُ فـؤادي وتَهُـبّ الحقـائـقُ الخـالـداتُ

8 جمادى الأولى 1346
[الخميس] 15 ديسمبر 1927

(*) نشرت في حوليات الجامعة التونسية بالعدد الثاني سنة 1965 ص 154 وفي آخرها التعليق التالي: (النهضة يوم الأربعاء، 25 جانفي 1928).

الذكرى

[مجزوء الكامل]

كنَّا كزوجيْ طائر، في دوْحة الحبّ الأمينْ
نتلو أناشيدَ المنى بين الخمائل والغصون
متغرِّدَين مع البلابل في السهول وفي الحزون
مَلأ الهوى كأس الحياة لنا، وشعشعها الفُتون
حتَّى إذا كدنا نُرشَّفُ خمرها، غَضِبَ المنون!
فتخطّف الكأسَ الخَلوبَ، وحطَّم الجام الثمين
وأراق خمر الحبّ في وادي الكآبة والأنين
وأهاب بالحبِّ الوديع، فودّع العُشّ الأمين
وشدا بلحن الموتِ في الأفق الحزين المستكين
ثم اختفى خلف الغيوم، كأنه الطيف الحزين . . .

* * *

يا أيها القلب الشجيّ! إلام تُخرسك الشجون!
رحماكَ قد عذّبتني بالصّمت والدمع الهتون
مات الحبيب، وكلُّ ما قد كنتَ ترجو أن يكون!

فاصبرْ على سخط الزّمان، وما تصرِّفه الشؤون
فلَسَوْفَ يُنقذك المنونُ، ويفرح الروح السجين . .

* * *

وِرْدُ الحيـاة مُـرَنَّـقٌ، والمـوت مـورده مَعيـن
ولربَّما شاق الرّدى الداجي، وأعماقُ المنون
قلبـاً تـروِّعـه الحيـاة، ولا تُهـادنـه السِّنـون
ومشاعراً حسْرَى، يسيرُ بها القنوط إلى الجنون

29 جمادى الأولى 1346
24 نوفمبر 1927 = [الأربعاء 1927/11/23]

إلى البُلبل

[مجزوء الرمل]

أيُّهـا البلبـل يـا شـاعـر أحـلام الـربيـعْ
غَنِّـي إنّ علـى صـوتـك أنـداءَ الـدمـوعْ
غَنِّـي فهـو يـريـني أمـلَ القلـبِ الصـريـعْ

* * *

تـائـهَ الفكـرِ يـنـاجـي حيـرةَ الفكـر الشـريـدْ
بخشـــــوعٍ وسكـــــونٍ وحنيـــــنْ
يتـــكـــلَّـــمْ

* * *

انفُـضِ الطـلّ ففـي الطـلّ حيـاةٌ حـائـرهْ
شَـرّدَتْهـا عـن فـؤاد اللَّيـل كـفّ جـائـره
وتَغَـــرّدْ إنّ للـــوردة عينـــاً فـــاتـــره

* * *

أغمضتْهَـا راحـةُ الليـل فقـد هَـبّ الصبـاحْ

إنَّمَـــا أنـــتَ حَيـــاة ســـاحـــرهْ
تتـــــرنَّـــــم

* * *

رَتِّـل التَّغْـريـدَ شعـريّـاً علـى سمـع الـزهـور
واتـرك الـرنـة تهفـو حـول أوراد الغـديـرْ
فعـروس النهـر قـد هَبَّـتْ يناغيهـا الخـريـرْ

* * *

وتَصَبَّـتْ نسمـةُ الفجـر الشعـاعَ المستطيـرْ
مِثـــل هفَّـــاف الغيـــوم الســـابحـــة
فـــي ضحـــاهـــا

* * *

إنّ ألحـــانَ الظـــلامِ المـــرةَ المكتئبـــهْ
تتـــوارى بسكـــون خلـــف تلـــك الأسْحِبَـــه!
سَئِـــمَ الـــوردُ أنيـــن اللَّـــوعـــة المنتحبـــه

* * *

فـانشـد اللَّحـن رخيمـاً يطـربُ الكـونَ رنيمُـه[1]
وادفـــن الحســـرة فـــي اللَّحْـــدِ الـــرحيـــبْ
ورؤاهـــــــــا

(1) يحسن حذف الفاء الهمزة لأن الهمزة قطعية فيصير: أنشد...

فيكَ يا بلبلُ ما في الشعر من وحي لعوب
فيك ما في الفجر من رِقَّة لألاء طروب
فيك ما في الكون من فنّ ومن سحر خَلُوبْ

* * *

فيك ما في الزهرة الغضة، من شعر الدموع
فيك ما في الدمعة المنحدره
من معان

* * *

فيك يا طيرُ تَوَجَّسْتُ أغاريد الحَياه
وتَسَمَّعْتُ لِصَوْتٍ ضَلَّ عن قلبي صداه
فغدَا ينشده، لكنّه خاب وتَاه

* * *

فتهاوى مُضْرَمَ الغلَّةِ مشبوباً صداه
لأغاريد الحَيَاة الضائعه
ولُغَاها

* * *

إن في صوتكَ أوتارَ السماءِ الساجِعَهْ

وبـأعمـاقـك أحـلامَ الحيـاةِ الـرائعـهْ
وبـآفـاقـك فجـراً مـن حيـاة راتعَـهْ

* * *

في ريـاض الطهـر في تلـك المغـاني الخـالـده
وبـأجفـانـك أضـواءٌ عِـذاب[1]
مـن سمـاهـا

* * *

انفُـث الشعـرَ ففـي شعـرك روح خـالـده
كلَّمَـا هَبَّـتْ علـى تلـك الـزهـور الـراقـده
أيْقَظَـت فـي صـدرهـا نبـضَ الحيـاة الهـاجـده

* * *

فـاستفـاقـت تتغنَّـى بـأغَـانٍ سـاجيـه
وعلـى أجفـانهـا سحـر نضيـرْ
وأمـانِ

* * *

أنـتَ لحـن سـاحـر قـد جسَّـم الـدهـرُ صـداه

(1) الإصلاح من «حوليات الجامعة التونسية» عدد 2 سنة 1956 ص 157 حيث نشرت للمرة الثانية.

فَغَـدا يهتـف صـدّاحـاً بـأنغـام هـواه
رَامِقـاً فـي نَضْـرةِ الأزهـار أطيـافَ مُنَـاه

* * *

سـاكبـاً مـن قلبـه الطَّـافـح بـالـوحـي لُحـونـه
فـي فـؤاد الـوردة المستمعـه
يتـأنّـى

* * *

مِـنْ نَشيـد القلـب فـي ظـلّ الحَيـاة الشـاعـره
مِـنْ دمـوع الحـبّ مـن سحـر الأمـانـي النـاضـره
مـن لظـى اللَّـوعـة فـي تلـك الأغـانـي الحـائـره

* * *

فـي عيـون الخُـرَّدِ العيـن ضيـاء ضـاحكـا[1]
صـاغـكَ الـدهـرُ مـلاكـاً سـاحـرا
بـرنيمـه

* * *

أنـتَ قلـبُ الشـاعِـر المتـرعُ بـالحـبّ النميـرْ
سـاءه مـوطنـه الضّنْـكُ ومـأواه الحقيـرْ
فَهَفَـا والشـوقُ يُـدْنيـه إلـى النـور النضيـر

(1) شكلت (الخرد) بضم الخاء والراء جمع خريدة: أي حسناء.

ثُـمّ أمْسَـى بيـن أفنـان الغِيَـاض العـازفـه
شـاعِـراً يُستمطـر الـوحـيُ الجَميـلْ
مـن حَيـاتِـهْ

*

صَـوْتُـكَ المشبـوبُ مـن نـار الحيـاة الخـالـده
جـائشـاً بـالنَّغمـة السكـرى الطـروب الشـارده
يبعـثُ الآمـالَ بـالنفـس اليـؤوس الخـامـده

* * *

مثلمـا تنبعـث البسمـةُ مـن جفـن الحَيَـاة
حِينمـا يستيقـظ الفجـر الجَميـلْ
مـن سُبَـاتِـهْ

* * *

15 جمادى الثانية 1346
8 ديسمبر 1927 = [السبت 1927/12/9]

(*) نشرت بالنهضة في 1 فيفري 1928 ثم نشرت في العدد الثاني من حوليات الجامعة التونسية العدد الثاني سنة 1956، ص 155 ـ 158.

الطفولة

[مجزوء الكامل]

للـه مـا أحلـى الطفـولـة! إنهـا حلـم الحيـاة
عهدٌ كمعسول الرؤى ما بين أجنحة السّبات. . .
تـرنـو إلـى الـدنيـا، ومـا فيهـا بعيـن بـاسمـهْ
وتسير فـي عـدوات واديهـا بنفـس حـالمـهْ. . .

* * *

إن الطفـولـة [زهـرة][1] تهتَـزُّ فـي قلـب الـربيـعْ
ريَّـانـةٌ مـن ريِّـق الأنـداء فـي الفجـر الـوديـع
غنَّـت لهـا الـدنيـا أغـانـي حبِّهـا وحبـورهـا
فتـأوّدت نَشـوى بـأحـلام الحيـاة ونـورهـا

* * *

إن الطفــولــة حقبــةٌ شعــريَّــةٌ بشعــورهــا
ودموعها، وسرورها، وطموحها، وغرورها

(1) كلمة زهرة يقتضيها الوزن والمعنى.

لم تمش في دنيا الكآبة، والتعاسة، والعذاب
فتُرى على أضوائها ما في الحقيقة من كِذاب

12 رجب 1346
5 جانفي 1928 = [الأربعاء 1928/1/4]

قالت الأيام

[السريع]

يـــا أيهـــا الســـادر فـــي غَيِّـــهِ!
يـــا واقفـــاً فـــوق حُطـــام الجِبـــاهْ!
مهـــلاً! ففـــي أنّـــاتِ مَـــن دُستَهـــمْ
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوي صداه. . .

* * *

لا تـــأمنـــنّ الـــدهـــر، إمَّـــا غفـــا
فـي كهفـه الـداجـي، وطـالـت رُؤاه
فـــإن قضـــى اليـــومُ ومـــا قبلـــه
ففـــي الغـــد الحـــيِّ صبـــاحُ الحيـــاهْ

* * *

يـــا أيهـــا الجبـــار! لا تـــزدري[1]
فـــالحـــق جبَّـــارٌ، طـــويـــل الأنـــاهْ
يغفـــي، وفـــي أجفـــانـــه يقْظـــةٌ
تـرنـو إلـى الفجـر الـذي لا تـراهْ. . .

15 رجب 1346
8 جانفي 1928 = [السبت 1928/1/7]

(1) الوزن يقتضي إثبات حرف العلة والنحو يقتضي حذفه، ولو قال: (لا تحتقرْ) لأرضى النحو والعروض.

المساء الحزين

[المتقارب]

أظلّ الوجودَ المساءُ الحزين ... وفي كفِّه مِعزف لا يُبين
وفي ثَغره بسمات الشجون ... وفي طرفه حسرات السِّنين
وفي صدره لوعة لا تَقِرُّ ... وفي قلبه صعقات المنون
وقبَّله قُبَلاً صامتات ... كما يلثمُ الموتُ وَرْدَ الغصون
وأفضى إليه بوحي النجوم ... وسر الظلام، ولحن السكون
وأوْحى إليْه مزاميرَه ... فغنَّتْ بها في الظلام الحُزُون

* * *

وعلّمه كيف تأسَى النفوس ... ويقضي يَؤوساً لديها الحنين
وأسمعه صرخات القلوب ... وأنهله من سُلاف الشؤون
فأغفى على صدره المطمئن ... وفي رُوحه حلُم مستكين
قويٌّ، غلوبٌ، كسحر الجفون ... شجيٌّ، لعوبٌ، كزهر حزين
ضحوكٌ، وقد بلّلته الدموع ... طروبٌ، وقد ظَلّلتْه الشجون
تعانقه سكرات الهوى ... وتحضنُه شهقات الأنين
يشابهُ رُوحَ الشباب الجميل ... إذا ما تألّق بين الجفون

أعـــاد لنفســـي خيـــالاً جميـــلاً ... لقـد حجبتـه صـروف السنيـن(!)
فطـافـت بهـا هجسـات الأسـى ... وعـادت لهـا خطـوات الجنـون

* * *

أظـلّ الفضـاءَ جنـاحُ الغـروب ... فـألقـى عليـه جمـالاً كئيـبْ
وألبسـه حلّـةً مـن جـلالٍ ... شجـيٍّ، قـويٍّ جميـلٍ، غلـوبْ
فنامت على العُشب تلك الزهورُ ... لمرأى المساء الحزين الرهيب
وآبـت طيـورُ الفضـاء الجميـل ... لأوكـارهـا، فـرِحـاتِ القلـوب
وقـد أضـرمـت بـأغـاريـدهـا ... خيـالَ السمـاء الفسيـح الـرحيـب
وولّـى رعـاةُ السَّـوام إلـى الـ ... ـحيِّ يُزجونها في صُمات الغروب
فَتَنْغُـو، حنينـاً لحُمـلانهـا ... وتقطـفُ زهْـرَ المـروج الخصيـب
وهـم ينشـدون أهـازيجهـم ... بصـوت، بهيـجٍ، فَـرُوحٍ، طـروب
ويَسْتَمْنِحُـونَ مـزاميـرهـم ... فتمنحهـم كـلّ لحـنٍ عجيـب
تطيـر بـه نسمـاتُ الغـروب ... إلـى الشفَـق المستطيـر الخَلـوب
وتـوحـي لهـم نظـراتُ الصبـايـا ... أنـاشيـد عهـد الشبـاب الـرطيـب
وأقبـل كـلٌّ إلـى أهلـه ... سوى أمَلِي، المستطار، الغريب
فقـد تـاه فـي مَعْسبَـات الحيـاة ... وسُـدّتْ عليـه مناحِـي الـدروب[1]
وظـلّ شـريـداً، وحيـداً، بعيـداً ... يغـالـب عُنْـف الحيـاة العصيـب
وقـد كـان مـن قبـلُ ذا غبطـةٍ ... يـرفـرف حـول فـؤادي الخصيـب

* * *

(1) لعلها: (معبسات) من العبوس.

ولمَّـــا أظـــلّ المســـاءُ السمـــاءَ وأسكـر بـالحـزن روحَ الـوجـودْ
وقفـت، وسـاءلْتُـهُ: «هـل يـؤوب لقلبـي ربيـعُ الحيـاة الشَّـرُود؟»
«فتخفـقُ فيـه أغـانـي الـورود ويخضرُّ فردوسُ نفسي الحصيد؟»
«وتختـال فيـه عـروس الصبـاح وتمـرح نَشْـوى بـذاك النشيـد؟»
«ويرجع لي من عراص الجحيم سلامُ الفؤاد، الجميلُ، العهيد؟»
«فقـد كبَّلَتْـه بنـاتُ الظـلام وألقيْنَـه فـي ظـلام اللحـود؟»
فـأصغـى إلـى لَهَفِـي المستمـرِّ وخـاطبنـي مـن مكـانٍ بعيـد:
«تعـودُ ادِّكـاراتُ ذاك الهـوى ولكـنّ سحـر الهـوى لا يعـود»
فجـاشـتْ بنفسِـي مـآسـي الحيـاة وسخـطُ القنـوط القـويُّ المَـريـد
ولمَّـا طغـت عصفَـاتُ القنـوط فمـادتْ بكـلِّ مكيـن، عتيـد (!)
أهبـتُ بقلبـي، الهلـوع، الجـزوع وقدكان من قبلُ جلْداً، شديد:
«تجلَّـد، ولا تستكـنْ للَّيـالـي فمـا فـاز إلاّ الصبـور، الجليـد»
«ولا تـأسَ مـن حـادثـات الـدهـور فخلـف الـديـاجيـر فجـرٌ جـديـد»
«ولـولا غيـومُ الشتـاء الغِضـابُ لمـا نضَّـدَ الـرّوضُ تلـك الـورود»
«ولـولا ظـلام الحيـاة العبـوسُ لمـا نسـج الصبـحُ تلـك البـرودْ»

27 رجب 1346

20 جانفي 1928 [الخميس 1928/1/19]

الأديب[1]

[الكامل]

إنّ الأديـب كـزهـرة نفّـاحـة تعنـو إليهـا الصـادحـات وتسجـد
بـلْ بلبـلُ مـا بيـن أنسـام المنـى تلقـاه صـدّاحَ الصـدى يتغـرّد
تُشجيـه ذكـرى مجـد شعـب باذخ مـلأ الفضـاء تلهبـاً لا يخمـد
فينـوح منتحِبـاً علـى مـا لـم يعـد إلا ادّكـاراً مـؤلمـاً يتجـدّد
ويقـوده الـوهـم الجميـل للجّـة الأحـلام منهـا ينتقـي وينضّـد
فيصـوغ مـن درر الخيـال قـلائـداً منهـا السعـادة فـي الـورى تتخلّـد
وإلـى ملـذات الغـرام ووهمـه تصبـو أمـانيـه فـلا يتـردّد
فيبـثّ للطيـر المغـرّد سـرّه ولـذلـك النهـر الـذي لا يهجـد
إن هـزّ بـالكـفّ اليـراعـة أسْبَلَـتْ دمعـاً هـو السحـرُ الحـلالُ الأيّـدُ

---

(1) هذه القصيدة كانت نشرت باسم (محمود خروف) مرتين: الأولى في جريدة «النهضة» يوم 16 فيفري 1928، والثانية في جريدة «الصباح» في 3 مارس 1966.

ويؤكد الشاعر نور الدين صمود نسبتها إلى الشابي فيورد أدلة لإثبات ما ذهب إليه. ثم يقول: إن السيد خروف يعترف ويقسم بأن القصيدة بأكملها للشابي. انظر مجلة «الفكر» العدد العاشر جويليه 66، ص 6 ـ 7 من موضوع (محاولة تحقيق وإحصاء لشعر الشابي) لنور الدين صمود. وكذلك كتابنا: «دراسات في نقد الشعر» الدار العربية للكتاب ط 1 سنة 1988، ص 61 ـ 64.

أوجـاس أطـراف النجـوم بلمحـة رجعـت وفيهـا خـاطـر يتـوقّـد
ويطـوف مـا بيـن الـزهـور كـأنـه ملـك حـواليـه الكـواعـب تحشـد
وبمرشف الأزهار يسقى الراح من أيـدي النسيـم فينتشـي ويعـربـد
إن رام تقبيـل الثغـور بـدا لـه ثغـر الأقـاح مبلْبـلاً يتـودّد[1]
إن رام نجـوى فـالبـلابـل جمّـة بيـن الـريـاض مـدى الـزمـان تغـرّد
أو شـاقـه سحـر العيـون فـإنّ فـي تلـك السهـول جـآذِراً لا تُكمـد

(1) في جميع الطبعات (مُبَلْبَلاً) ولعل المعنى يقتضي كلمة: (مُبَلَّلاً).

بقايا الخريف

[المتقارب]

كـرهـتُ القصـورَ، وقطّـانَهـا ... ومـا حـولَهـا مـن صـراعٍ عنيـفْ
وكيـدِ الضعيـف لسعـي القـويِّ ... وعصـف القـويِّ بجهـد الضعيـف
وجـاشـت بنفسـي دمـوع الحيـاة ... وعجَّـتْ بقلبـي ريـاح الصـروف
لقلـب الفقيـر الحطيـم الكسيـر ... ودمـع الأيـامـى السفيـح الـذريـف
ونَـوْحِ اليتـامـى علـى أمهـات ... تـوارَيْـن خلـف ظـلام الحُتـوف
فسرْتُ إلى حيث تأوي أغاني الرّ ... بيـع، وتـذوي أمـانـي الخـريـف
وحيـث الفضـا شـاعـرٌ، حـالـمٌ ... يـنـاجـي السهـول بـوحـي طـريـف
وقـد دثَّـرتـه غيـومُ المسـاء بظـلٍّ ... حـزيـن، ضـريـجٍ، شفيـف
وبيـن الغصـون التـي جـرّدتهـا ... ليالي الخريف، القويِّ العَسُوف
وقَفْتُ، وحوْلِي غـديـرٌ، مَـواتٌ ... تمـادتْ بـه غَفَـواتُ الكهـوف
قضتْ في حفافيْه تلك الزُّهور ... فكّفنهـا بـالصقيـع الخـريـف
سـوى زهـرةٍ شقيـتْ بـالحيـاةِ ... ومَلْبَثِهـا بـالمُقـام المخيـف
يـروِّعهـا فيـه قصـفُ الـرعـود، ... ويحـزنهـا فيـه نـدْبُ الـزفيـف
وَينْتـابُهـا فـي الصبـاح السّـديـمُ ... وفـي الليـلِ حلـمٌ، مُـريـعٌ مخيف
وتُـرْهِبُهـا غـاديـات الغمـام ... وتُـؤْلمهـا كـلُّ ريـح عصـوف
فتَـرْنـو لمـا حـولهـا مـن زهـور ... ومـا ثـمّ إلا السحيـقُ الجفيـف

فتبكي بكاء الغريب، الوحيد ... بِشجْوٍ كظيمٍ، ونَوْحٍ ضعيف
تباكي به لُبَّها المستطارَ ... وترثي به ما طوتْه الحتُوف
وتشكو أساها بياضَ النهارِ ... وتندُبُ حظّ الحياة السخيف
ولكنْ لقد فقدتْ في الوجود ... رفيقاً مُصيخاً، وقلباً رؤوف!
فما ثَمّ إلا الصخورُ القواسي ... وإلاّ الصّدى المستطارُ الهتوف
فجادتْ بروحٍ شقيٍّ شجيٍّ ... لقد عذّبته الليالي صنوف!
وماتتْ، وقد غادرتها بقاعٍ ... من الأرض ضَنْكٍ، حياةُ الصروف
فبانت حيالَ الغدير الأصمِّ ... وقد أخرس الموتُ ذاك الحفيف
وقد خضّبتْها غيومُ المساء ... كغانية ضرّجتها السيوف
فسلْها: «تُرى كيف غاض الأريجُ؟ ... وكيف ذَوَى سحرُ ذاك الرفيف؟»
«وكيف خبتْ بسماتُ الحياة ... بأجفانها، وعراها الكسوف؟»
«وكيف لَوَتْ جِيدَها الحادثاتُ ... وألْوَتْ بذاك القوام اللطيف؟»
ذكرت بمضجعها المطمئنِّ ... ومرقدها في السَّفِير الجفيف
مصارعَ أمالِيَ الغابرات ... وخيْبَتَها في الصراع العنيف
فقلّبْتُ طرفي بمهْوَى الزهور ... وصعَّدته في الفضاء الأسيف
وقلت: «هُو الكونُ مَهْدُ الجمال ... ولكنْ لكل جمالٍ خريف!..»
وأطرقتُ، أصغي لهمس الأسى ... وقد غَشِيَ النفسَ همٌّ كثيف
وغاضتْ ثُمالةُ نور النهار ... وأرْخى ظلامُ الوجود السجوف

6 رمضان 1346
27 فبفري 1928 = [الأحد 1928/2/26]

أغنية الشاعر

[البسيط]

يـا ربَّـة الشعـرِ والأحـلام، غنِّينـي فقد سئمت وُجُوم الكون من حين
إن الليالي اللواتي ضمَّخت كبدي بالسِّحر أضحتْ مع الأيام ترميني
ناختْ بنفسي مآسيها، وما وجدتْ قلبـاً عطـوفـاً يُسلِّيهـا، فعـزِّينـي!
وهـدّ مـن خلَـدي نَـوْحٌ، تـرجِّعـه بَلْوى الحياة، وأحزانُ المساكين
علـى الحيـاة أنـا أبكـي لشقـوتهـا فمَـن إذا مـتُّ يبكيهـا ويبكينـي؟
يا ربة الشِّعرِ، غنِّيني، فقد ضجرت نفسي من الناس أبناء الشياطين
تبـرّمـت بِبَينـي الـدنيـا، وأعـوزهـا في معزف الدهر غرِّيد الأرانين
وراحـةُ الليْـلِ مـلأى مـن مـدامعـه وغـادة الحـب ثكلـى، لا تغنِّينـي
فهـل إذا لُـذت بـالظلْمـاءِ، منتحبـاً أسلو؟ وما نَفْعُ محزون لمحزون؟
يا ربة الشعر! إني بائسٌ، تعسٌ عدِمتُ ما أرتجي في العالم الدُّون
وفـي يـديْـكِ مـزاميـرٌ يخـالجهـا وحي السماء؛ فهاتيها، وغنّيني
ورتِّلـي حـوْلَ بيـت الحـزن أغنيـةً تجلُو عن النفس أحوانَ الأحايين
فـإن قلبـيَ قبـرٌ، مظلـمٌ، قُبِـرتْ فيه الأماني، فما عادت تناغيني
لولاكِ في هذه الدنيا لما لمستْ أوتـارَ روحـيَ أصـواتُ الأفـانيـن

ولا تغنَّيْتُ مأخوذاً . . . ولا عذُبتْ لـيَ الحيـاةُ لـدى غـضّ الـريـاحيـن
ولا أصخْت إلى الأصداء، راقصةً بين الكهوف، على عزف الشياطين
ولا ازدهى النفسَ في أشجانها شفقٌ يُلـوِّنُ الغيْـمَ لهـواً أيَّ تلـويـن
ولا استخَفّ حياتي، وهي هائمةٌ، فجْرُ الهوى في جُفون الخُرّدِ العِين

16 رمضان 1346

8 مارس 1928 = [الأربعاء 7/3/1928]

مناجاة عصفور

[الكامل]

يـا أيهـا الشـادي المغـرِّد ههنـا ... ثَمِـلاً بغبطـة قلبـه المسـرورِ

متنقِّـلاً بيـن الخمـائـل، تـاليـاً ... وحْـيَ الـربيـع الساحـر المسحـور

غـرِّدْ، ففـي تلـك السهـول زنـابـقٌ ... تـرنـو إليـك بنـاظـرٍ منظـور

غـرِّدْ، ففـي قلبـي إليـك مـودّةٌ ... لكـنْ مـودّة طـائـرٍ مـأسـور

هجرته أسراب الحمائم، وانْبَرَت ... لعـذابـه جنِّيـةُ الـديجـور. . .

غـرِّدْ، ولا تـرهـبْ يميني، إنني ... مثـل الطيـور بمهجتـي وضميـري

لكن لقد هاض التراب ملامعي ... فلبثـتُ مثـلَ البلبـل المكسـورِ[1]

أشـدُو بـرنّـاتِ النيـاحـة والأسـى ... مشبـوبـةً بعـواطفـي وشعـوري

غـرِّدْ، ولا تحفـل بقلبـي، إنـه ... كـالمعـزف، المتحطِّـم، المهجـور

* * *

رتِّـلْ علـى سمـع الـربيـع نشيـدَهُ ... واصـدحْ بفيْـضِ فـؤادك المسجـور

وانشـد أنـاشيـد الجمـال، فـإنهـا ... روحُ الوجود، وسلوة المقهور[2]

---

(1) هاض الجناح والعَظم كسره، فهو مهيض (ملامعي: أجنحتي) ويقال لجناحي الطائر: مِلمعاه، والملمع: الجناح.

(2) «أنشد» مزيد والأمر منه: (أنشد) بهمزة قطع والوزن يقتضي همزة وصل.

أنـا طـائـر، متغـرِّدٌ، متـرنِّـمٌ ... لكـن بصـوت كـآبتـي وزفيـري
يهتـاجنـي صـوتُ الطيـور، لأنَّـه ... مُتَـدَفِّـقٌ بحـرارة وطَهـور
ما في وجود الناس من شيءٍ به ... يَـرْضَـى فـؤادي أو يُسَـرُّ ضميـري
فـإذا استمعـتُ حـديثَهـم ألْفَيْتُـهُ ... غثّـاً، يفيـض بـركـةٍ وفتـور
وإذا حضـرتُ جمـوعَهـم الفيتنـي ... مـا بينهـم كالبلبـل المـأسور
متوحِّداً بعواطفي، ومشاعري، ... وخواطري، وكآبتي، وسروري
يَنْتَـابُنِـي حَـرَجُ الحيـاة كـأننـي ... منهـم بـوهـدة جنـدل وصخـور
فـإذا سكـتُّ تضجَّـروا، وإذا نطقـ ... ـت تذمَّروا من فكرتي وشعوري
آهٍ مـن النـاس الـذيـن بلَـوتُهُـم ... فقلـوتهـم في وحشتي وحبـوري!
مـا منهـمُ إلا خبيـث غـادر ... متـربِّـص بـالنـاس شَـرّ مصيـر
ويـودُّ لـو ملـك الـوجـودَ بـأسـره ... ورمى الورى في جاحم مسجور
لِيَبُـلَّ غلّتـه التـي لا تـرتـوي ... ويكـض[1] نَهمـه قلبـه المغفـور
وإذا دخلـتُ إلـى البـلاد فـإنّ أفـ ... ـكاري ترفرف في سفوح الطُّور
حيـث الطبيعـة حلـوةٌ فتَّـانـةٌ ... تختـال بيـن تبـرُّج وسفـور
مـاذا أودُّ مـن المـدينـة، وهـي غـا ... رقـةٌ بمـوّار الـدّم المهـدور؟
مـاذا أودُّ مـن المـدينـة، وهـي لا ... تـرثـي لصـوت تفجُّـع المـوتـور؟
مـاذا أودُّ مـن المـدينـة، وهـي لا ... تَعْنـو لغيـر الظـالـم الشـرِّيـر؟
مـاذا أودُّ مـن المـدينـة، وهـي مُـرْ ... تـادٌ لكـل دعـارة وفجـور؟

* * *

(1) لعلها: يكظ أي يشبع.

يـا أيهـا الشـادي المغـرِّد ههنـا ... ثمِـلاً بغطبـة قلبـه المسـرور!
قبِّـلْ أزاهيـر الـربيـع، وغنِّهـا ... رنَمَ[1] الصباح الضاحك المحبور
واشرب من النَّبع، الجميل، الملتوي ... مـا بيـن دَوْحِ صنـوبَـرٍ وغـديـر
واتـركْ دمـوع الفجـر فـي أوراقهـا ... حتـى تُـرشّفهـا عـروسُ النـور
فلـربمـا كـانـت أنينـا صـاعـداً ... فـي الليـل مـن متـوجّـع، مقهـور
ذرفتـه أجفـان الصبـاح مـدامعـاً ... ألآقـةً، فـي دوحـة وزهـور. . .

27 محرم 1347
16 جويليه 1928 = [الأحد 1928/7/15]

(1) الرنم: الصوت والتّرنُّم.

يا رفيقي

[الخفيف]

يـا رفيقـي! وأيـن أنـت؟ فقـد أعمـت جفـونـي عـواصـفُ الأيـامِ
ورمتْنـي بمهمـهٍ، قـاتـمٍ، قفـرٍ، تُغَشّيـه داجيـاتُ الغمـام..
خُـذْ بكفّـي، وغنّنـي، يـا رفيقـي، فسبيـل الحيـاة وعـرٌ أمـامـي
كلّمـا سِـرْتُ زلّ بـي فيـه مهـوى، تتضـاغَـى بـه وحـوشُ الحِمـام
شعبّتْـه الـدهـور، وانطمـس النُّـور، وقـامـتْ بـه بنـاتُ الظـلام
راقصـاتٍ، يَخْلُبْـنَ فـي حلَـكِ الليـل، ويلعبـن بـالقلـوب الـدوامـي
غنّنـي، فـالغِنـاء يَـدرأ عنّـا السـاحِـرَ الجـنَّ... سـاكـنَ الآجـام

* * *

قـد تفكـرتُ فـي الـوجـود، فـأعيـانـي، وأدبـرتُ آيِسـاً لظـلامـي
أنشُـدُ الـرّاحـة البعيـدةَ، لكـن خـاب ظنّـي وأخطـأت أحـلامـي
فمعـي فـي جـوانحـي أبَـدَ الـدهـر فـؤادٌ إلـى الحقيقـة ظـامـي
مـا تـراخـى الـزّمـان إلاّ وألقـى فـي طـوايـاه قَبْضَـةً مـن ضِـرام
تتلظّـى، يـدَ الحيـاة، وزادتْ مُعضـلاتُ الـدُّهـور والأعـوام[1]
أظمـأتْ مهجتـي الحيـاةُ، فهـل يـومـاً تبـلُّ الحيـاةُ بعـض أُوامـي؟

(1) يد الحياة: أي «مدى الحياة» وانظر آخر بيت في قصيدته الأخيرة (أنسيم يهب) في الطبعة الثالثة حيث قال: (يد الأدهار) وفي التعليق: (أي أبد الدهر).

يـا رفيقـي! مـا أحسِـبُ المنبـعَ المنشـودَ إلا وراءَ ليْـلِ الـرِّجـام
غنِّـني، يـا أُخَـيّ، فـالكـوْنُ تَيْهـاءُ، بهـا قـد تمـزّقـت أقـدامـي[1]
غنِّـني، علَّـني أُنيـمُ همـومـي، إنَّـني قـد مِلِـت مـن تهيـامـي

* * *

يـا رفيقـي! أمـا تفكَّـرْتَ فـي النـاس، ومـا يحملـون مـن آلام؟
فلقـدْ حـزّ فـي فـؤاديَ مـا يَلْقَـوْن مـن صـولـة الأسـى الظّـلّام
فـإذا سـرّنـي مـن الفجـر نُـورٌ سـاءنـي مـا يُسِـرُّ قلـبُ الظَّـلام
كـم بقلـب الظـلام مـن أنَّـةِ تهفـو بغُصـات صِبْيَـةٍ أيتـام
ونشيـجٍ مُضَـرّمٍ مـن فتـاةٍ، أبهظتْهـا قـوارعُ الأيـام
ونُـوَاحٍ يفيـضُ مـن قلـب أمٍّ فُجعـتْ فـي وحيـدهـا البسّـام،
فَطَمَ الموتُ طفلَها، وهو نورٌ في دجاها، من قبل عهد الفِطام
وأنيـنٍ مـن معـدم، ذي سقـام، عضَّـهُ الـدهـر بـالخطـوب الجِسـام
مـا إخـال النُّجـوم إلاّ دمـوعـاً، ذَرَفَتْهـا محـاجـرُ الأعـوام
فلقـد ضـرّم الشجـونَ بنـوهـا، فـإذا بـالشّجـون سيـلٌ طـام!
وإذا بـالحيـاة فـي ملعـب الـدهـر تـدوس الـرؤوسَ بـالأقـدام
وإذا الكـون فِلـذةٌ مـن جحيـمٍ، تتغـذّى بكـل قلـبٍ دام
وهُـمُ فـي جحيمهـمْ يتنـاغَـوْن بمـا فـي الـوجـود مـن أنغـام!
عجبـاً للنفـوس، وهـي بـواكٍ، عجبـاً للقلـوب، وهـي دوام
كيف تشدو وفي محاجرها الدمع، وتلهو ما بينَ سُودِ الموامي؟![1]

(1) تيهاء: صحراء، متاهة. موماة: ج موامي.

يـا رفيقـي! لقـد ضللـتُ طـريقـي، وتخطَّـت مَحَجَّتـي أقـدامـي خـذ بكفـي، فـإننـي تـائـهٌ، أعمـى، كثيـر الضـلال والأوهـام وانفـخ النّـايَ، فـالحيـاة ظـلامٌ، مـا لمـرتـاده مـن الهـول حـام مِـلءُ آفـاقـه فحيـحُ الأفـاعـي، وعجيـجُ الآثـام والآلام فـانفـخ النَّـايَ، إنـه هِبَـةُ الأمـلاك للمستعيـذ بـالإلهـام واغـذُذِ السَّيْـرَ، فـالنهـارُ بعيـدٌ، وسبيـلُ الحيـاة جـمُّ الظـلام. . .

27 محرم 1347
16 جويليه 1928 = [الأحد 1928/7/15]

إلى الموت

[المتقارب]

صبـيَّ الحيـاة، الشقـيّ العنيـدْ ألا قـد ضللـتَ الضـلال البعيـدْ!!
أتُنشـدُ صـوتَ الحيـاة الـرخيـمَ، وأنـت سجيـنٌ بهـذا الـوجـودْ؟!
وتطلـب وَرْدَ الصبـاح المخضّـ ـب من كفّ حقلٍ، جديبٍ، حصيدْ؟!
إلـى المـوت! إن شئـتَ هَـوْنَ الحياة، فخلف ظلام الردى ما تريد..

* * *

إلى الموت! يا ابن الحياة التعيسَ ففي الموت صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت؟ إن عذبّتك الدهور ففي الموت قلبُ الدهور الرحيم
إلى الموت! فالموت رُوحٌ جميل، يـرفـرف مـن فـوق تلـك الغيـوم
فَـروحـاً بفجـر الخلـود البهيـج، ومـا حـولـه مـن بنـات النجـوم..

* * *

إلـى المـوت! فـالمـوت جـامٌ رويٌّ لمـن أظمـأتـه سَمُـومُ الفـلاة
ولسـتَ بـراوٍ ـ إذا مـا ظمئِـتَ ـ مـن المنبـع العـذب قبـل الممـات
فمـا الـدمـع إلا شـراب الـدهـور، ومـا الحـزن إلا غـذاءُ الحيـاة
إلى الموت! فالموت مَهْدٌ وثير تنـام بـأحضـانـه الكـائنـات

* * *

إلى الموت! إن حاصرتكَ الخطوبُ وسـدّتْ عليـكَ سبيـلَ السـلامْ
ففـي عـالـم المـوت تنضـو الحيـاةُ رداءَ الأسـى، وقنـاعَ الظـلام
وتبـدو، كمـا خُلِقَـتْ غضّـةً يفيـض علـى وجههـا الابتسـام
تعيـدُ عليهـا ظِـلاَل الخلـود، وتهفـو عليهـا قلـوبُ الأنـام

* * *

إلـى المـوت! لا تخـش أعمـاقـه ففيهـا ضيـاء السمـاء الـوديـع
وفيهـا تميـس عـذارى السمـاء، عـواريَ، ينشـدن لحنـاً بـديـع . .
وفـي راحهـنّ غصـونُ النخيـل يحـرِّكْنهـا فـي فضـاءٍ يضـوع . .
تضـيء بـه بسمـات القلـوب، وتخبـو بـه حسـرات الـدمـوع

* * *

هو الموت طيفُ الخلودِ الجميلُ ونصـف الحيـاة الـذي لا ينـوحْ
هنالكَ . . . خلف الفضاء البعيد، يعيـش المنـونُ القـويُّ الصَّبُـوحْ
يضـمُّ القلـوب إلـى صـدره، ليـأسـوَ مـا مضّهـا مـن جـروح
ويبعـثَ فيهـا ربيـعَ الحيـاة، ويُبهجَهـا بـالصبـاح الفَـروح

24 صفر 1347
12 أوت 1928 = [السبت 1928/8/11]

إلى عازف أعمى

[مخلّع البسيط]

أدركـــتَ فجـــر الحيـــاة أعمـــى ... وكنـــتَ لا تعـــرف الظـــلامْ
فـأطبقـت حـولـك الـدّيـاجـي ... وغـــام مـــن فـــوقـــك الغمـــام
وعشـتَ فـي وحشـةٍ، تقـاسـي ... خـــواطـــراً، كلّهـــا ضـــرام
وغـــربـــةٍ، مـــا بهـــا رفيـــقٌ ... وظلمـــةٍ، مـــا لهـــا ختـــام
تشـــقُّ تِيـــهَ الـــوجـــودِ فـــرداً ... قـــد عضّـــك الفقـــر والسقـــام
وطـــأردت نفســـك المـــآسـي ... وفـــر مـــن قلبـــك الســـلام

* * *

هـــوِّن علـــى قلبـــك المعنَّـــى ... إن كنـــت لا تبصـــر النجـــومْ
ولا تـــرى الغـــابَ، وهـــو يلغـــو ... وفـــوقـــه تخطـــر الغيـــوم
ولا تـــرى الجـــدولَ المغنِّـــي ... وحـــولـــه يـــرقـــص الغَمِيـــمْ[1]
فكلُّنـــا بـــائـــس، جـــديـــر ... بـــرأفـــة الخـــالـــق العظيـــم
وكلُّنـــا فـــي الحيـــاة أعمـــى ... يســـوقـــه زعـــزعٌ عقيـــم
وحـــولـــه تـــزعـــق المنـــايـــا ... كـــأنهـــا جِنَّـــة الجحيـــم

(1) في المطبوع: الغيم.

يـــا صـــاح! إن الحيـــاة قفـــرٌ مـــروِّعٌ، مـــاؤه ســـرابْ
لا يجتنـــي الطَّـــرْفُ منـــه إلاّ عـــواصـــفَ[1] الشـــوك والتـــراب
وأسعـــدُ الناسِ فيـــه أعمـــى لا يبصـــر الهـــول والمصـــاب
ولا يـــرى أنفُـــسَ البـــرايـــا تـــذوب فـــي وقْـــدة العـــذاب
فـــاحمَـــد إلٰـــهَ الحيـــاة، واقنـــعْ فيهـــا بـــألحـــانـــك العِـــذاب
وعِـــشْ، كمـــا شـــاءت الليـــالـــي مـــن آهـــة النَّـــاي والـــرّبـــاب

28 صفر 1347
18 أوت 1928(*) = [الأربعاء 15/8/1928][2]

(1) في المطبوع: عواطف الشوك.
(2) الفرق بين التاريخين أربعة أيام.

صوت تائه

[الكامل]

قضَّيتُ أدوارَ الحياة، مفكِّراً ... في الكائنات، معذّباً، مهموما
فوجدتُ أعراسَ الوجود مآتماً ... ووجدت فردوسَ الزمان جحيما
تدوي مخارمه بضجَّة صرصرٍ ... مشبوبة، تَذَرُ الجبال هشيما
وحضرتُ مائدةَ الحياة فلم أجد ... إلاّ شراباً، آجناً، مسموما
ونفضتُ أعماق الفضاء، فلم أجد ... إلا سكوناً، مُتْعِباً محموما
تتبخَّرُ الأعمار في جَنَبَاتِه ... وتموتُ أشواقُ النفوس وُجوما
ولمست أوتار الدهور، فلم تُفِضْ ... إلاّ أنيناً، دامياً، مكلوما
يتلو أقاصيص التعاسة والأسى ... ويُصيرُ أفراح الحياة هموما

* * *

شُرِّدْتُ عن وطَنِي السماويِّ الذي ... ما كان يوماً واجماً، مغموما
شُرِّدْتُ عن وطني الجميل. أنا الشقيّ، فعشت مشطورَ الفؤاد يتيما..
في غُربةٍ، روحيَّةٍ، ملعونةٍ ... أشواقُها تقضي عِطاشاً، هِيما..
يا غربةَ الرُّوحِ المفكِّرِ! إنه ... في الناس يحيا، سائماً، مسؤوما
شُرِّدتُ للدنيا.. وكلُّ تائهٌ ... فيها يُروِّعُ راحلاً ومقيما

يدعو الحياة، فلا يُجيبُ سوى الرّدى ليـدُسَّـه تحـت التـراب رميمـا
وتظـل سـائـرةً، كـأنّ فقيـدهـا مـا كـان يـومـاً صـاحبـاً وحميمـاً!

* * *

يا أيُّها الساري! لقد طال السُّرى حتَّامَ ترقب في الظلام نجوما..؟
أتخالُ في الوادي البعيدِ المُرْتَجَى؟ هيهـات! لـن تلقـى هنـاك مَـرُومـا
سـر مـا استطعـت، فسـوف تُلْفِـي ـ مثلمـا
خلَّفـتَ ـ مَمْشـوقَ الغصـون حطيمـا

3 ربيع الأول1347
20 أوت 1928 = [الأحد 19/8/1928]

قبضة من ضباب[1]

[مجزوء الكامل]

مهما تأملتُ الحياة، وجُبت مجهلَها الرهيبْ
ونظرتُ حولي، لم أجد إلا شكوكَ المُستريب
حتى دَهِشْتُ، وما أفدتُ بدهشتي رأياً مُصيب
لكنّني أجهدت نفسي، وهي باديةُ اللُّغوب
ودفعتُها وهي الهزيلةُ في مُغالبة الكُروب
في مهْمَهٍ متقلّب، تُخشى غوائلُه، جديب
فإذا أصابت من مناهله شراباً تستطيب
أروتْ جوانحها، وذلك حسبُها كيما تؤوب
ومن ارتوى في هذه الدنيا تَسنَّمها خطيب؟[2]
أوْلاَ فقد ركِبتْ من الأيام مركَبها العصيب . .
وقضتْ كما شاء الخلودُ، وفي جوانحها اللهيب!

5 جمادى الأولى 1347
20 أكتوبر 1928 = [1928/10/19]

---

(1) من القصائد التي أضافتها الدار التونسية إلى طبعتها الثانية.
(2) أي اعتلاها خطيباً.

نشيد الأسى

[مجزوء الكامل]

يـا ليـت شعـري! هـل لليـل النفـسِ مـن صبـحٍ قـريـبْ؟
فتقـرّ عـاصفـةُ الظـلام، ويهجَـع الـرعـدُ الغضـوب
ويـرتِّـلَ الإنسـانُ أغنيـةً مـع الـدنيـا، طـروب

* * *

مـا للـريـاح تهـبُّ فـي الـدنيـا، ويـدركهـا اللُّغـوب
إلاّ ريـاحـي، فهـي جـامحـةٌ، تمـرُّدُهـا عصيـب؟
مـا لـي تعـذِّبنـي الحيـاة كـأننـي خَلْـقٌ غـريـب؟
وتهُـدُّ مـن قلبـي الجميـل؟ فهـل لقلبـي مـن ذنـوب؟
وإذا سـألـتُ: «لِـمَ الـوجـود، وكلُّـه هـمٌّ مـذيـب؟»
قـالـت: «نـواميسُ السمـاء قضـتْ، ومـالـك مـن هـروب؟»
آهٍ علـى قلبـي! وإن شَقيَـتْ كشقـوتـه قلـوب
أنقـى مـن المـوج الـوضـيء، ومـن نشيـد العنـدليـب
لـم تقتـرفْ إثـمَ الحيـاة، وكـان مـأواهـا اللهيـب

يـا مهجـةَ الغـاب الجميـلِ ألـمْ يصـدِّعْـكِ النحيـب؟
يـا وجْنَـةَ الـورد الأنيـقِ ألمْ تشوِّهـكِ النُّـدوب؟
يـا جـدولَ الـوادي الطـروب ألـم يرنِّقْـكَ القطوب؟
يـا غيْمـةَ الأفُـق الخضيـب ألمْ تمزِّقكِ الخطوب؟
يـا كوكـبَ الشفـقِ الضحـوك أما ألمّ بك الشحوب؟
هـا أنـت ذا فـي الأفْـق تضحـكُ، لا تهـمُّ، ولا تخيـب
تُلقِـي علـى قُنَـن الجبـال رداء لألاءٍ قشيـب
لتنـامَ أورادُ الجبـال الشُـمِّ، فـي مَهْـدٍ عجيـب
ولكـي تغنّيـك الجـداولُ لحنَهـا العـذب الحبيـبِ
وتـرى جمـالـك مـن بنـات الغـاب مِعطـارٌ، لَعـوب!
معشـوقـةٌ، فـي فـرعهـا تـاجٌ مـن الـورد الخضيـب
تتلـو أنـاشيـدَ الـربيـع، كـأنهـا نجـوى القلـوب
يـا كـوكـبَ الشفـق الضحـوك! وأنـت مُبْتَهـلُ الكئيـب
لُـحْ فـي السمـاء! وغـنِّ أبنـاء الشقـاوة والخطـوب
أنشـودةً تَهَـبُ العـزاءَ لكـل مُبتئـسٍ غـريـب
فـالطيـر قـد أغفـتْ، وأسكـتَ صـوتَهـا الليـلُ الهَيـوب
وابسـطْ جنـاحـكَ فـي الـوجـود، فـإنّـه عـذبٌ، خَلُـوب
متـألِّـقٌ بيـن النجـوم، كـأنّـه حُلـم طـروب
وانْشـرْ ضِيـاءكَ سـاطعـاً، لِيُنِيـرَ أعمـاق القلـوب
فعلـى جـوانبهـا مـن الأحـزان ديجُـورٌ رهيـب

مـــا للميـــاهِ نقيّـــةٌ حـــوْلِـــي، ويَنبـــوعـــي مَشُـــوب؟
مـــا للصبـــاح يعـــود للـــدنيـــا، وصُبْحِـــي لا يـــؤوب؟
مـــا لـــي يضيـــقُ بـــيَ الـــوجـــود، وكـــلُّ مـــا حـــولـــي رحيـــب؟
مـــا لـــي وَجِمْـــتُ وكـــلُّ مـــا فـــي الغـــاب مغتَـــرد[1] طـــروب؟
مـــا لـــي شقِيـــتُ، وكـــلّ مـــا فـــي الكـــون أخَّـــاذٌ عجيـــب:
فـــي الأرض أقـــدام الـــربيـــع تـــلامـــس السهـــلَ الجـــديـــب
فـــإذا بـــه يحيـــا، ويُنبـــت رائـــق الـــزهـــر الـــرطيـــب
وهنـــاك أنـــوار النهـــار تُطـــلُّ مـــن خلـــف الغـــروب
فتخضِّـــب الأمـــواج، والآفـــاق، والجبـــل الخصيـــب
إن الـــوجـــودَ الـــرحْـــبَ، والغـــابـــات، والأفُـــقَ الخضيـــب
لـــمْ تخـــبُ أشـــواق الحيـــاة بهـــا، فغـــادرهـــا القطـــوب
أمـــا أنـــا ففقـــدتهـــا، والليـــل مُـــرْبَـــدٌّ، رهيـــب
والرِّيحُ تعصفُ بالورود... فعشت سخريةَ الخطوب..

* * *

مهمـــا تضـــاحكـــت الحيـــاة فـــإننـــي أبـــداً كئيـــب
أصغـــي لأوجـــاع الكـــآبـــة، والكـــآبـــة لا تجيـــب
فـــي مهجتـــي تتـــأوّهُ البلـــوى، ويعتلـــج النَّحيـــب
ويضـــجُّ جبَّـــارُ الأســـى، وتجيـــش أمـــواج الكـــروب

(1) مغترد: صيغة غير مستعملة.

إنـي أن الـــرُّوح الـــذي سيظَـــل فـــي الـــدنيـــا غـــريـــب
ويعيـــــش مضطلعـــــاً بـــــأحـــــزان الشبيبـــــة والمشيـــــب

13 جمادى الأولى 1347
28 أكتوبر 1928 = [السبت 1928/10/27]

قلت للشعر

[الخفيف]

أنـت يـا شعـر، فلـذةٌ مـن فـؤادي ... تتغنّـى، وقطعـةٌ مـن وجـودي
فيـك مـا في جـوانحي مـن حَنينٍ ... أبـديّ إلـى صميـم الـوجـود
فيـك مـا في خـواطـري مـن بكـاء ... فيـك مـا في عـواطفي مـن نشيـد
فيك ما في مشاعري من وُجومٍ ... لا يُغَنِّـي، ومـن سـرور عهيـد
فيـك مـا فـي عـوالمـي مـن ظـلامٍ ... سـرمـديّ، ومـن صبـاحٍ وليـد
فيـك مـا فـي عـوالمـي مـن نجـوم ... ضاحكات خلف الغمَام الشّرود
فيك ما في عوالمي من ضباب ... وسـراب، ويقظـة، وهجـود
فيـك مـا فـي طفـولتـي مـن سـلامٍ ... وابتسـامٍ، وغبطـةٍ، وسعـود
فيـك مـا فـي شبيبتـي مـن حنيـنٍ ... وشجـون، وبهجـة، وجمـود
فيك ـ إن عانق الربيع فؤادي ـ ... تتثنّـى سنـابلـي وورودي
ويغنِّـي الصبـاحُ أنشـودة الحـب، ... علـى مسمـع الشبـاب السعيـد
ثـم أجنـي فـي صيْـف أحـلامـيَ ... السـاحـر مـا لـذّ مـن ثمـار الخلـود
فيك يبدو خريف نفسي مَلُولاً، ... شـاحـبَ اللـون، عـاريَ الأملـود
جلّلتْـه الحيـاةُ بـالحَـزَن الـدّا ... مـي وغَشَّتْـهُ بـالغيـوم السـود
فيـك يمشـي شتـاءُ أيّـامـيَ البـا ... كي، وتُرغي صواعقي ورعودي

وتجفُّ الزهور في قلبيَ الدا جي، وتهوي إلى قرار بعيد. . .
أنت يا شعر قصة عن حياتي أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر - إن فرحتُ - أغاريدي - وإن غنَّت الكآبةُ - عودي
أنت يا شعر كأسُ خمرٍ عجيب أتلهَّى به خلال اللحود. . !
أتحسَّاه في الصباح، لأنسى ما تقضَّى في أمسيَ المفقود
وأناجيه في المساء، ليُلْهِيَني مرآهُ عن ظلام الوجود
أنا لولاك لم أطق عنَتَ الدّهر ولا فُرْقة الصباح السّعيد
أنت ما نِلْتُ من كهوف الليالي وتصفَّحتُ من كتاب الخلود
فيك ما في الوجود من حَلكٍ، دا جٍ، وما فيه من ضياءٍ، بعيد
فيك ما في الوجود من نَغَمٍ، حلوٍ، وما فيه من ضجيج، شديد
فيك ما في الوجود من جبل، وعْرٍ وما فيه من حضيضٍ وهِيد[1]
فيك ما في الوجود من حسكٍ، يُدْمِي، وما فيه من غضيضِ الورود
فيك ما في الوجود. حبّ بنو الأرض قصيدي، أم لم يُحبُّوا قصيدي
فسواءٌ على الطيور - إذا غنَّتْ - هُتافُ السَّؤوم والمستعيد
وسواء على النّجوم - إذا لاحت - سكونُ الدجى وقصفُ الرعود
وسواء على النسيم أفي القفر تَغَنَّى أمْ بين غضِّ الورود
وسواء على الورود، أفي الغيران فاحتْ، أم بين نهدٍ وجيد

13 جمادى الأولى 1347
28 أكتوبر 1928 = [السبت 1928/10/27]

---

(1) وهيد: الواو من أصل الكلمة وليست للعطف والمعنى: حضيض منخفض. والصواب حذف الفاصلة بعد حضيض إذ لا يُفصل بين النعت والمنعوت.

يا ابن أمي

[المتقارب]

خُلقتَ طليقاً كطيف النسيم ... وحرًّا كنور الضحى في سماهْ
تغرِّد كالطير أيْن اندفعت ... وتشدو بما شاء وحيُ الإله
وتمرحُ بين ورود الصباح ... وتنعَم بالنور، أنَّى تراه
وتمشي ـ كما شئتَ ـ بين المروج، ... وتقطف ورد الرُّبَى في رُباه

* * *

كذا صاغكَ الله، يا ابن الوجود ... وألقتك في الكون هذي الحياه
فمالك ترضى بذلّ القيود ... وتَحني لمن كبَّلوك الجباه؟
وتُسكتُ في النفس صوت الحياة الـ ... ـقويَّ إذا ما تغنَّى صداه؟
وتطبق أجفانك النيِّرات ... عن الفجر، والفجرُ عذبٌ ضياه؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف، ... فأين النشيد؟ وأين الإياه؟
أتخشى نشيد السماء الجميل؟ ... أترهب نور الفضا في ضحاه؟
ألا انهضْ وسر في سبيل الحياة ... فمن نام لم تَنتَظِرْهُ الحياه؟
ولا تخشَ ممَّا وراء التلاع . . ... فما ثَمّ إلا الضحى في صباه. . .

وإلا ربيـعُ الـوجـود الغـريـرُ، يطـرِّزُ بـالـوردِ ضـافـي رداه. . .
وإلا أريـجُ الـزهـور الصِّبـاحِ، ورقْـصُ الأشعَّـةِ بيـن الميـاه. . .
وإلا حَمـامُ المـروج الأنيـقُ، يغـرِّدُ، منطلقـاً فـي غنـاه. . .
إلـى النُّور! فـالنـور عـذْبٌ جميـلٌ إلـى النـور! فـالنـور ظِـلُّ الآلـه

10 رمضان 1347
20 فيفري 1929 = [الثلاثاء 1929/2/19]

أغاني التائه

[الرمل]

كـان فـي قلبـيَ فجـرٌ، ونجـومْ، وبحـــارٌ، لا تُغَشِّيهـــا الغيـــومْ
وأنـــاشيـــدُ، وأطيـــارٌ تحـــومْ وربيـعٌ، مُشْـرِقٌ، حلـوٌ، جميـلْ
كـــان فـــي قلبـــي صبـــاحُ وإيـــاهْ وابتسامات، ولكن... وأأساه!
آه! مـــا أهـــول إعصـــارَ الحيـــاهْ! آه مـــا أشقـــى قلـــوب النـــاس! آه!

كـــان فـــي قلبـــي فجـــرٌ، ونجـــومْ،
فـــإذا الكـــلُّ ظـــلام وســـديـــم...،
كـــان فـــي قلبـــيَ فجـــرٌ، ونجـــومْ

يـا بنـي أمِّـي! تُـرى أيـن الصبـاح؟ قـد تقضّـى العُمْـرُ والفجْـرُ بعيـدْ
وطغـى الـوادي بمشبُـوب النُـواحْ وانقضـتْ أنشـودة الفضْـل السعيـد
أيـن نـايـي؟ هـل تـرامتْه الـريـاح؟ أين غابي؟ أين محراب السجود.؟
خبِّروا قلبي ـ فما أقسى الجراح! ـ كيف طارتْ نشوةُ العيش الحميد؟

يـا بنـي أمِّـي! تُـرى أيـن الصبـاح؟
أوراء البحـر؟ أم خلـفَ الـوجـود؟
يـا بنـي أمِّـي! تُـرى أيـن الصبـاح؟

ليت شعري! هلْ سَتُسْلِيني الغداةْ وتُعـزِّينـي عـن الأمـس الفقيـد؟
وتُـــرينـــي أن أفـــراح الحيـــاة زُمَـرٌ تمضـي، وأفـواجٌ تعـود؟
فـإذا قلبـي صبـاح، وإيـاه. . . وإذا أحـلامـيَ الأولـى ورود. . .
وإذا الشُّحـرور حلـو النَّغمـات. . وإذا الغـاب ضيـاءٌ ونشيـد. . ؟

ليـت شعـري! هـل ستسلينـي الغـداة
أم ستنســانــي، وتبقينــي وحيــد؟
ليـت شعـري! هـل تعـزِّيني الغـداة؟

15شوال 1347
27 مارس 1929 = [الثلاثاء 26/3/1929]

إلى قلبي التائه

[مجزوء الرمل]

مـا لآفـاقـك يـا قلبـيَ سُـوداً، حـالكـاتْ؟
ولأورادكَ بيـن الشـوك صُفـراً، ذاويـات؟
ولأطيـارك لا تلغـو؟ فـأيـن النّغمـات؟
مـا لمـزمـارك لا يشـدو بغيـر الشَهقـات؟
ولأوتـارك لا تخفـق إلا شـاكيـات
ولأنغـامـك لا تنطـق إلا بـاكيـات
ولقـد كـانـت، صبـاحَ الأمـس، بيـن النّسمـات
كعـذارى الغـاب، لا تعـرف غيـر البسمـات؟
هـو ذا يـا قلبـيَ البحـر، وأمـواج الحيـاة!
هـو ذا القـارب مشـدوداً إلـى تلـك الصَّفـاة!
هـو ذا الشـاطـيء! لكـن أيـن رُبَّـانُـكَ؟ مـات!
أيـن أحـلامـك يـا قلبـي؟ لقـد فـات الفـوات!
تلـك أطيـارٌ، أنيقـاتٌ، طِـرابٌ، فـرِحـات
غـرّدتْ، ثـم تـوارتْ فـي غيـابـات الحيـاة

أنـت يـا قلبـيَ قلـبٌ، أنضجتـه الـزفـرات
أنـت يـا قلبـيَ عُـشٌّ، نفـرت عنـه القطـاة
فـأطـارتـه إلـى النهـر الـريـاحُ العـاتيـات
فهـو فـي التيَّـار أوراق، وأعـواد عُـراة
أنـت حقـلٌ، مُجْـدبٌ، قـد هـزأت منـه الـرعـاة
أنـت ليـلٌ، مُعْتِـمٌ، تنـدب فيـه البـاكيـات
أنـت كهـف، مظلـمٌ، تـأوي إليـه البـائسـات
أنـت صَـرْحٌ، شـاده الحـب علـى نهـر الحيـاة
لبنـات الشعـر . . . ، لكـن قـوّضتـه الحـادثـات
أنـت قبـرٌ، فيـه مـن أيـامـيَ الأولـى رُفـات
أنـت عـودٌ، مـزّقـتْ أوتـارَه كـفُّ الحيـاة
فهـو فـي وحشتـه الخـرسـاء، بيـن الكـائنـات
صـامـتٌ كـالقبـر، إلا مـن أنيـنِ الـذكـريـات
أنـت لَحْـنٌ سـاحـرٌ، يخبـط فـي التّيـهِ المَـوَات
أنت أنشودةُ فَجْرٍ . . . ، رتَّلتْها الظلمات . . .

* * *

أيهـا السـاري مـع الظلمـة، فـي غيـر أنـاة
مُطرقاً، يخبطُ في الصحراء، مكبوحَ الشَكاة
تهْـتَ فـي الـدنيـا، ومـا أُبْـتَ بغيـر الحسـرات

صــلِّ يــا قلبــي إلــى اللــه، فــإن المــوت آت
صــلِّ فــالنّــازعُ لا تبقــى لــه غيــر الصــلاة

10ذو القعدة 1347
20 أفريل 1929 = [الجمعة 1929/4/19]

اكثرت يا قلبي فماذا تروم؟

[السريع]

يـا قلبـيَ الـدامـي! إلاَمَ الـوُجـومْ؟
يكفيـك! إن الحـزن فـظٌّ، غَشـوم
هـذي كـؤوسـي مُـرَّةً، كـالـردى
مـا مِلْـؤُهـا إلا عصيـر الهمـوم
وذاك نـايِـي صـامـتٌ، واجـمٌ
يُصغـي إلـى صـوت الغـرام القـديـم
يـا قلبـيَ البـاكـي إلام البُكَـا؟
مـا فـي فضـاء الكـون شـيء يـدوم
فـانْثُـرْ غُبـارَ الحـزن فـوق الـدجـى
واسمعْ إلى صوت الشباب الرخيم
وانْقُـرْ علـى دفِّ الهـوى لحنَـه
وارقص مع النور الضَّحوك الوسيم
يـا قلبـيَ الـداجـي! إلام الـوُجـوم؟
إن لَـمْ أَلُـمْ قلبـي فَمَـنْ ذا أَلـوم؟

مـالـك لا تُصغـي لغيـر الأسـى؟
مـالـك لا تَـرْنُـو لغيـر الكلُـوم؟
مـالـك قـد أصبحـتَ لا تصـرفُ الـ
أيّـام إلا فـي شِعـاب الجحيـم؟
أمـا تـرى البلبـل فـي غـابـه
يشدو وفوق الغاب تخطو النجوم؟
أمـا تـرى الأسحـار تبـدو بهـا الْـ
غاباتُ كالأحلام ـ خلْفَ السديم
أمـا تـرى الآمـال فـي سحـرهـا؟
أمـا تـرى الليـل يناغـي النّجـوم؟

* * *

يـا قلبـيَ الـداجـي! إلام الـوُجـوم؟
أكثـرت يـا قلبـي، فمـاذا تـروم؟
هـل تحسـبُ الأيـامَ فـي زَحْفِهـا
تـرثـي لمـن قـد هـدّمَتْـهُ الـرّجـوم،
كـلا! فـإن الـدهـر يمضـي ولا
يلـوي علـى مـا خلفـه مـن كليـم
واليـمُّ لا يـرثـي لمـن طمَّـه
والسيـل لا يبكـي لنـوح الهشيـم

ففقدْتُ روحاً، طاهراً، شهماً، يجيش بكل خير
وفقدتُ قلباً، همُّه أن يستوي في الأفْق بدْري
وفقدتُ كفّاً، في الحياة يصُدُّ عنِّي كل شر
وفقدتُ وجهاً، لا يُعَبِّسه سوى حزني وضُرّي
وفقدتُ نفساً، لا تَني عن صوْن أفراحي وبشري
وفقدت رُكنِي في الحياة، ورايَتي، وعمادَ قصري

* * *

يا موت! قد مزّقت صدري
وقصمْتَ بالأرزاء ظهري

يا موت! ماذا تبتغي منِّي وقد مزّقتَ صدري؟
ماذا تودُّ، وأنت قد سوّدتَ بالأحزان فكري
وتركتني في الكائنات أئنُّ، منفرداً بإصْري
وأجوبُ صحراء الحياة، أقول: «أيْنَ تُراهُ قبري؟»
ماذا تَوَدُّ من المعذّب في الوجود بغير وِزر؟
ماذا تَوَدُّ من الشقيِّ بعيشه، النَكِد، المُضر؟
إن كنتَ تطلبني فهاتِ الكأسَ، أشربُها بصبر
أو كنتَ ترقبني فهاتِ السَّهمَ، ارشقه بنحري
خذني إليك، فقد تبخَّرَ في فضاءِ الهمِّ عُمري...
وتهدّلتْ أغصانُ أيامي، بلا ثَمَرٍ وزهْر

وتنـاثـرتْ أوراق أحـلامـي علـى حسَـك الممـر . . .
خذني إليك! فقد ظمِئْتُ لكأسكَ[1]، الكدِرِ، الأمرِّ . .
خذني فقد أصبحتُ أرقُبُ في فضاكَ الجَوْنِ فجري
خذني، فما أشقى الذي يقضي الحياة بمثل أمري . . .

* * *

يـــا مـــوت! قـــد مـــزّقْـــتَ صـــدري
وقصمـــــــتَ بـــــالأرزاء ظهـــــري

يا موت! قد شاع الفؤاد، وأقفرتْ عرصات صدري
وغـدوت أمشـي مطـرقـاً مـن طـول مـا أثقلـت فكـري
يا موت! نفسي ملّت الدنيا، فهل لم يأت دورْي؟

26ربيع الأول 1348
غرة أكتوبر 1929 = [الاثنين 1929/9/30]

(1) الكأس مؤنثة وذكرها للوزن والقافية.

إلى الله

تعرض لقلب الإنسان، الذي لا تنتهي أطواره، أزمات نفسية ثائرة، يعصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة، وتتزعزع معها كل قواعد الإيمان والحق والجمال، فيشعر المرء كأنما أنبتَّ ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى، فأصبح غريباً في هاته الدنيا الغريبة في نفسه، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب المملّ الذي لا يجدر بالعطف ولا بالبقاء. ولكن من رحمة الأقدار أنها حال عارضة لا تدوم إلا كما تدوم عاصفة البحر. تكدر صفاءه، وتحيل جماله إلى شناعة، وأنغامه إلى عويل، وانسجامه إلى فوضى، ثم تقر العاصفة وتسكن ويرجع البحر إلى زرقته الصافية، وألحانه المتزنة، وجماله الساحر الأبدي. وتحت تأثير هذه الحالة النفسية الجامحة نظمت القصيد التالي، ونفسي سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب.

(الخفيف)

يـا إلـه الـوجـود! هـذي جـراح ... في فؤادي، تشكو إليك الدواهي

هـذه زفـرةٌ يُصَعِّـدهـا الهـمُّ ... إلـى مسمـع الفضـاء السـاهـي

هـذه مهجـة الشقـاء تنـاجيـك ... فهـل أنـت سـامـع يـا إلٰهـي؟

أنـتَ أنـزلتني إلـى ظلمـة الأرض ... وقـد كنـتُ فـي صبـاحٍ زاه

كالشعاع الجميل، أسبَحُ في الأفْق ... وأصغـي إلـى خـريـر الميـاه

وأغنِّي بين الينابيع للفجر ... وأشدو كالبلبل التيَّاه
أنتَ أوصلتني إلى سبل الدنيا ... وهذي كثيرة الاشتباه
ثم خلَّفْتَني وحيداً، فريداً ... بين داعٍ من الرياح وناه
أنتَ أوقفتني على لُجَّة الحزن ... وجَرّعتني مرارة «آه»!
أنتَ أنشأتني غريباً بنفسي ... بين قومي، في نشوتي وانتباهي
أنتَ كرّهْتَني الحياة وما فيها ... وحَبَّبْتَني جُمُودَ الساهي!
أنتَ جَبَّلْتَ بين جنْبيّ قلباً ... سرمديّ الشُّعور والانتباه
عبقريّ الأسى: تعذِّبه الدنيا ... وتُشجيه ساحرات الملاهي!
أنت عذّبتني بدِقَّةِ حسِّي ... وتعقَّبْتَني بكل الدواهي
بالأسى، بالسقام، بالهم، بالوحشة ... باليأس، بالشقا المتناهي
بالمنايا تغتال أشْهى أمانيّ ... وتُذوِي محاجري، وشفاهي
فإذا من أُحِبُّ حفنة تُرْب ... تافهٍ، من ترائب وجباه
وإذا فتنةُ الحياة وسحرُ الكون ... ضَرْبٌ من الغمام الزاهي
يتلاشى فوق الخضم: ويبقى اليمُّ ... كالعهد مُزْبِدَ الأمواه...

* * *

يا إله الوجود! مالك لا ترثي ... لحزن المعذّب الأوّاه؟
قد تأوّهتُ في سكون الليالي ... ثم أطبقتُ في الصباح شفاهي
وتغزّلتُ بالحياة، وبالحبِّ ... وغنَّيتُ كالسعيد اللاّهي
وزرعتُ الأحلام في قلبيَ الدامي، وحوّطتها بكل انتباهي
ثم لما حصدت لم أجن إلاّ الشوكَ ... ماذا تُرى فعلتُ؟ إلٰهي!

يـا ريـاحَ الـوجـود! سيـري بعنـفٍ وتغنَّـــيْ بصـــوتـــك الأوّاه

وانفحيني من روحِك الفَخْم ما يُبْلِغُ صـــوْتـــي آذَانَ هـــذا الإلٰـــه!

فهو يُصغِي إلى القويِّ، ولا يُصـ ـغي لصـوتٍ بيـن العـواصـف واه

وانثُـري الـوردَ للثلـوج بِـدَاداً واصعقـــي كـــلّ بلبـــل تيَّـــاه

فـالـوجـود الشقـيُّ غيـر جـديـر بـالأغـانـي، وبـالجمـال الـزّاهـي

واسحقـي الكـائنـات كـوْنـاً بكـوْنٍ قبـــلَ أن تنتهـــي أذلّ تنـــاه

فـالإلٰـه العظيـم لـم يخلـق الـدنيـا سـوى للفنـاء تحـت الـدواهـي

* * *

يـا ضميـر الـوجـود! يـا عـالـم الأرواح! يـا أيهـا الفضـاء السـاهـي!

يـا خِضـمّ الحيـاةِ، يـزخـر فـي الآفـاق فـي التـرب، فـي قـرار الميـاه!

خبـرونـي، هـل للـورى مـن إلـه، راحـمٍ - مثـل زعمهـم - أوّاه

يخلـق النـاسَ بـاسمـاً، ويـواسيهـم، ويـرنـو لهـم بعَطـفٍ إلهـي

ويـرى فـي وجـودهـم روحَـه السـامـي، وآيـات فنِّـه المتنـاهـي

إننـي لـم أجـده فـي هـاتـه الـدنيـا، فهـل خلـف أفقهـا مـن إلٰـه؟!

* * *

مـا الـذي قـد أتيـتَ يـا قلبـيَ البـاكـي؟! ومـاذا قـد قلتِـه يـا شفـاهـي
يـا إلهـي! قـد أنطـق الهـمُّ قلبـي بـالـذي كـان. . . فـاغتفـر يـا إلٰهـي!
قَـدَمُ اليـأسِ والكـآبـةِ داسـتْ قلبـيَ المُتْعَـبَ، الغـريـبَ، الـواهـي
فتشظَّـى، وتلـك بعـضُ شظـايـاه. . . فسـامـحْ قنـوطَـه المتنـاهـي
فهـو يـا ربِّ معبـدُ الحـقِّ، والإيمـان والنـورِ والنقـاءِ الإلٰهـي[1]
وهـو نـايُ الجمـالِ، والحـبِّ، والأحـلام، لكـن قـد حطّمتْـه الـدواهـي

25جمادى الأولى 1348
29 أكتوبر 1929 = [الاثنين 26/3/1929]

(1) إله والإله وإلهي كتبت كلها في الأصل بالألف: إلاه. . . .

النبي المجهول

[الخفيف]

أيها الشعب! ليتني كنتُ حطَّابا ... فـأُهْـوي علـى الجـذوع بفـأسـي!
ليتني كنتُ كالسيول، إذا سالت ... تهـدُّ القبـورَ: رمسـاً بـرمـس!
ليتنـي كنـت كـالـريـاح، فـأطـوي ... كـلّ مـا يخنـق الـزهـور بنحسـي!
ليتنـي كنـت كـالشتـاء، أُغَشِّـي ... كـلّ مـا أذبـلَ الخـريـفُ بقـرسـي!
ليت لي قوّةَ العواصف، يا شعبي ... فـأُلقـي إليـك ثـوْرَةَ نفسـي!
ليت لي قوةَ الأعاصير، إن ضجَّتْ ... فـأدعـوك للحيـاة بنبسـي!
ليت لي قوةَ الأعاصير..! لكن ... أنت حيٌّ، يقضي الحياة برمس..!
أنـت رُوحٌ غَبِيَّـةٌ، تكـره النُّـورَ ... وتقضِي الدهورَ في ليْل مَلس..
أنت لا تدرك الحقائق، إن طافتْ ... حـواليك، دون مـس وجـسٍّ...
في صباح الحياة ضَمَّخْتُ أكوابي ... وأتـرعتُهـا بخمْـرةِ نفسـي...
ثـمّ قـدّمتُهـا إليـكَ، فـأهـرقْـتَ ... رحيقي، ودُسْتَ يا شعبُ كأسي!
فتألّمْتُ...، ثُم أسكتُّ آلامي، ... وكفكفـتُ مـن شعـوري وحسـي
ثـم نضـدْتُ مـن أزاهيـر قلبـي ... بـاقـة لـمْ يَمَسَّهـا أيُّ إنْسِـي..
ثـم قـدّمتُهـا إليـك، فمـزّقْـتَ ... ورودي، ودُستَهـــــا أيّ دوس

ثـم ألبستَنـي مـن الحـزن ثـوبـاً وبشـوك الجبـال تـوّجـتَ رأسـي

* * *

إنني ذاهبٌ إلى الغاب، يا شعبي لأقضـي الحيـاةَ، وحـدي، بيـأس
إننـي ذاهـب إلـى الغـاب، علِّـي في صميم الغابات أدفن بؤسي
ثم أنساكَ ما استطعتُ، فما أنتَ بـأهـلٍ لخمـرتـي ولكـأسـي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي، وأُفْضـي لهـا بـأشـواق نفسـي
فهي تدري معنى الحياة، وتدري أنّ مَجْـدَ النفـوس يقظـةُ حـسّ
ثُمّ أقْضي هناك، في ظلمة الليل، وألْقِـي إلـى الـوجـود بيـأسـي
ثم تَحْت الصَّنَوبَرِ، الناضر، الحلو، تخُـطُّ السيـول حفـرةَ رمسـي
وتظَـلُّ الطيـور تلغُـو علـى قبْـرِي ويشـدو النسيـمُ فـوقـي بهمـس
وتظَـلُّ الفصـولُ تمشـي حـوالـيّ كمـا كُـنّ فـي غضـارة أمسـي

* * *

أيها الشعب؟ أنتَ طفل صغير، لاعـبٌ بـالتـراب والليـلُ مُغْـس!
أنتَ في الكون قوّةٌ، لم تَسُسْها فكـرةٌ، عبقـريَّـةٌ، ذات بـأس
أنـت فـي الكـون قـوةٌ، كبَّلتْهـا ظلماتُ العصور، من أمس أمس . .
والشقـيُّ الشقـيُّ مـن كـان مثلـي فـي حسـاسيَّـتي، ورِقّـةِ نفسـي

* * *

هكـذا قـال شـاعـرٌ، نـاولَ النـاسَ رحيـقَ الحيـاة فـي خيـر كـأس

فأشاحوا عنها، ومرُّوا غضاباً ... واستخفُّوا به، وقالوا بيأس:

«قد أضاع الرشاد في ملعب الجن ... فيا بؤسه، أصيب بمسِّ»

«طالما خاطبَ العواصِفَ في الليل ... وناجى الأموات في غير رمس»

«طالما رافقَ الظلام إلى الغاب ... ونادى الأرواحَ من كل جنس»

«طالما حدّثَ الشياطين في الوادي، ... وغنّى مع الرياح بجَرس»

«إنه ساحرٌ، تعلّمهُ السحرَ ... الشياطينُ، كلّ مطلعِ شمس»

«فابعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكل ... إنّ الخبيثَ منبعُ رجس»[1]

«أطردوه، ولا تُصيخوا إليه ... فهو روحٌ، شرِّيرةٌ، ذات نحس»

* * *

هكذا قال شاعرٌ، فيلسوف، ... عاش في شعبه الغبيِّ بتعْس

جَهِلَ الناسُ روحَه، وأغانيها ... فساموا شعورَه سوْمَ بخس

فهو في مذهب الحياة نبيٌّ ... وهو في شعبه مصابٌ بمسّ

هكذا قال، ثمّ سار إلى الغاب ... ليحيا حياةَ شعر وقُدس

وبعيداً... هناك... في معبد الغاب ... الذي لا يُظِلُّه أي بؤس

في ظلال الصنوبر الحلو، والزيتون ... يقضي الحياة: حَرْساً بحرس

في الصباح الجميل، يشدو مع الطير ... ويمشي في نشوة المتحسِّي

نافخاً نايه حواليْه تهتزُّ ... ورودُ الربيع من كلِّ قَنس

شَعْرُه مُرْسَلٌ، تداعبه الريحُ ... على منكبيْه مثل الدمقس

---

(1) فأبعدوا: همزتها قطعية ووصلها للوزن ويحسن حذف الفاء لإقامة الوزن والصرف.

والطيورُ الطِّرابُ تشدو حواليه ... وتلغو في الدوح، من كل جنس
وتراه عند الأصيل، لدى الجدول، ... يرنو للطائر المتحسِّي
أو يغنِّي بين الصنوبر، أو يرنو ... إلى سُدْفَة الظلام الممسي
فإذا أقْبَل الظلامُ، وأمستْ ... ظلماتُ الوجود في الأرض تُغسي[1]
كان في كوخه الجميل، مقيماً ... يسأل الكون في خشوع وهمس
عن مصبِّ الحياة، أين مداه؟ ... وصميمِ الوجودِ، أيَّانَ يُرسي؟
وأريجِ الورود في كلِّ وادٍ ... ونشيدِ الطيور، حين تمسي
وهزيمِ الرياح، في كل فجٍّ ... ورسوم الحياةِ من أمس أمس
وأغاني الرعاةِ أين يُوارِيها ... سكونُ الفضا، وأيَّان تمسي؟؟

* * *

هكذا يصرف الحياة، ويُفني ... حَلَقاتِ السنين: حَرْساً بحرس
يا لها من معيشةٍ في صميم الغاب ... تُضحي بين الطيور وتمسي!
يا لها من معيشة، لم تُدنّسْها ... نفوس الورى بخبث ورِجس
يا لها من معيشة، هيَ في الكون ... حياة غريبة، ذات قُدس

20شعبان 1348

21 جانفي 1930 = [الاثنين 1930/1/20]

---

(1) أغسى الليل: أظلم.

الأبد الصغير

[البسيط]

يـا قلـب! كـم فيـك مـن دُنْيـا محجَّبَـةِ
كـأنَّهـا، حيـن يبـدو فجـرُهـا «إرَمُ»[1]
يـا قلـبُ! كـمْ فيـك مـن كـونٍ، قـد اتّقـدتْ
فيـه الشُّمـوس وعـاشـتْ فَـوقـهُ الأمـمُ
يـا قلـبُ! كـمْ فيـكَ مـن أفـقٍ تُنَمَّقُـهُ
كـواكـبٌ تتجلَّـى، ثُـمَّ تَنعـدِمُ
يا قلبُ! كمْ فيكَ من قبرٍ، قد انطفأتْ
فيـه الحيـاةُ، وضجَّـتْ تحتـهُ الـرِّمَـمُ
يـا قلـبُ! كـمْ فيـكَ مـن غـابٍ ومـن جَبَـلٍ
تَـدوِي بـه الـريـحُ أو تسمـو بـه القِمـمُ
يا قلبُ! كمْ فيكَ من كهفٍ قد انبجست
منـه الجـداولُ تجـري مـا لهـا لُجُـمُ

(1) إرم: مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالي مسحور، فزعمت أنها بنيت على ضفة الجنة: أرضها من مسك وقصورها من خالص الذهب واللؤلؤ والمرجان، وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام... وأنها لا زالت إلى يومنا هذا في صحراء العرب، ولكنها محجوبة لا يراها أحد. [التعليق للشاعر]

تمشـي . . ، فتحمـلُ غُصنـاً مُـزْهِـراً نضِـراً
أوْ وَرْدَةً لـــمْ تَشَـــوِّهْ حُسنَهـــا قَـــدَمُ
أو نحلـــةً جـــرّهـــا التيَّـــارُ مُنَـــدفِعـــاً
إلـــى البحـــارِ، تُغنّـــي فـــوقـــه الـــدِّيَـــمُ
أو طـــائـــراً ســـاحـــراً مَيْتـــاً قـــد انْفجـــرتْ
فـــي مُقلتَيْـــه جـــراحٌ جمَّـــةٌ ودمُ
يـــا قلـــب! إنـــك كـــونٌ مُـــذْهِـــشٌ عَجَـــبٌ
إنْ يُسْـــأل النـــاسُ عـــن آفـــاقـــه يَجِمُـــوا
كـــأنـــك الأبَـــدُ المجهـــول . . ، قـــد عَجَـــزَتْ
عنـــكَ النُّهَـــى، واكفَهَـــرّتْ حـــولـــك الظُّلَـــمُ

* * *

يـــا قلـــبُ! كـــمْ مـــن مســـرّاتٍ وأخْيِلـــة
وَلـــذّة، يَتَحَـــامَـــى ظِلّهـــا الألـــمُ
غَنَّـــتْ لفَجـــرِك صـــوتـــاً حـــالمـــاً، فَـــرِحـــاً
نَشْـــوَانَ ثـــم تَـــوارتْ، وانْقَضـــى النَّغـــمُ
وكـــم رأى لَيْلُـــك الأشبـــاحَ هـــائمـــةً
مـــذعـــورة تتهـــاوى حـــولهـــا الـــرُّجُـــمُ
ورَفْـــرَفَ الألـــمُ الـــدّامـــي، بـــأجنحـــةٍ
مـــن اللهيـــب، وأنّ الحـــزنُ والنَّـــدَمُ

وكـمْ مشـت فـوقـك الـدُّنيـا بـأجمعهـا
حتَّـى تـوارتْ، وسـار المـوتُ والعـدمُ
وشيَّـدَتْ حـولـك الأيـامُ أبنيـةً
مـن الأنـاشيـد تُبْنَـى، ثـم تنهـدِمْ

* * *

تمضـي الحيـاةُ بمـاضيهـا، وحـاضـرِهـا
وتـذْهَـبُ الشمـسُ والشُّطْـآنُ والقمـمُ
وأنـتَ، أنـتَ الخِضـمُّ الـرّحْـبُ، لا فـرَحٌ
يَبْقَـى علـى سطحـكَ الطَّـاغـي، ولا ألَـمُ

* * *

يـا قلـبُ! كـم قـد تملّيْـت الحيـاةَ، وكـمْ
رقّصتهـا مَـرَحـاً مـا مَسَّـكَ السَّـأمُ
وكـمْ تـوشّحْـتَ مـن ليـلٍ ومـن شَفَـقٍ
ومـن صبـاحٍ تُـوشِّـي ذَيْلَـهُ السُّـدُمُ
وكـم نسجْـتَ مـن الأحـلام أرديـةً
قـد مـزّقَتْهـا الليـالـي، وهْـيَ تَبْتَسِـمُ
وكـم ضَفَـرْتَ أكـاليـلاً مُـورّدَةً
طـارتْ بهـا زَعْـزَعٌ تـدوِي وتَحْتَـدِمُ

وكـــمْ رسمـــتَ رســـومـــاً، لا تُشـــابهها
هـــذي العـــوالـــمُ، والأحـــلامُ، والنُظُـــم
كـــأنهـــا ظُلَـــلُ الفِـــرْدَوْسِ، حـــافِلـــةً
بـالحـورِ، ثـم تـلاشَـتْ، واختفـى الحُلُـمُ

* * *

تبلُـــو الحيـــاةَ فتُبْلِيهـــا وتخلعهـــا
وتستجـــدّ حيـــاةً، مـــا لهـــا قِـــدمُ
وأنـــتَ أنـــتَ شبـــابٌ خـــالـــدٌ، نضِـــرٌ
مثـــل الطبيعـــة: لا شيـــبٌ ولا هـــرَمُ

20 رمضان 1348
19 فيفري 1930 = [الثلاثاء 1930/2/18]

صفحة من كتاب الدموع[1]

[المتدارك]

غنّـــاه الأمـــسُ، وأطـــربـــه وشجـاه اليـومُ، فمـا غـدُه؟[1]
قـد كـان لـه قلـبٌ، كـالطفـل، يـــدُ الأحـــلام تهـــدهِـــده
مُـذْ كـان لـه مَلَـكٌ فـي الكـو ن جميـــلُ الطلْعَـــة، يعبـــده
فـي جَـوْفِ الليـل، ينـاجيـه وأمـــامَ الفجـــر، يمجّـــده
وعلـــى الهضبـــات، يغنّيـــه آيـــاتِ الحـــب، ويُنشـــده
لـولاه لمـا عَـذُبَـتْ فـي الكـوْ ن مصـــادره ومـــوارده[2]
ولَمَـا فـاضـتْ بـالشِّعْـر الحـيِّ مشـاعـره وقصـائـده[3]
تمشـي فـي الغـاب فتَتْبَعُـه أفـــراح الحُـــبّ، وتنشـــده
ويـــرى الآفـــاق فيُبْصِـــرهـــا زُمـراً فـي النُّـور، تُـراصـده[4]
ويـــرى الأطيـــارَ، فيحسبُهـــا أحـــلامَ الحـــب تغـــرده
ويـــرى الأزهـــار، فيحسبهـــا بسمـــاتِ الحـــب تـــوادِدُه[5]

---

(1) معارضة لقصيدة الحصري الشهيرة:

يـا ليـل الصـب متـى غـده أقيـام السـاعـة مـوعـده

التي عارضها عشرات من الشعراء من أشهرهم أحمد شوقي بقصيدته:

مضنـــاك جفـــاه مـــرقـــده وبكـــاه ورحـــم عـــوده

فيخـــال الكـــونَ ينـــاجيـــه! وجمـــالَ العـــالـــم يسعـــده!
ونجـــومَ الليـــل تضـــاحكـــه! ونسيـــمَ الغـــاب يطـــارده![6]
ويخـــال الـــوردَ يـــداعبـــه فـــرِحـــاً، فتعـــابثـــه يـــده!..
ويـــرى الينبـــوع، ونَضـــرتَـــه، ونسيـــمُ الصُّبْـــح يجعِّـــده
وخـــريـــرُ المـــاءِ لـــه نغَـــمٌ نسمـــاتُ الغـــاب تـــردّده
ويـــرى الأعشـــاب وقـــد سمقـــت بيـــن الأشجـــار تشـــاهـــده[7]
ونِطـــافُ الطِّفـــل تُنَمِّقُهـــا فيجـــل «الحـــبّ» ويحمـــده(!)

* * *

يـــا لـــلأيـــام! فكـــم ســـرّتْ قلْبـــاً فـــي النـــاس لتكمـــدَه[*]
هـــي مثـــل العـــاهـــر، عـــاشقُهـــا تسقيـــه الخمـــر..، وتطـــرده!
يعطيـــكَ اليـــومُ حـــلاوتَهـــا كـــالشّهـــد، ليسلبَهـــا غـــدُه!

* * *

بـــالأمـــس يعـــانقهـــا فـــرِحـــاً ويضـــاجعُهـــا، فتُـــوَسِّـــده
واليـــومَ، يُســـايـــرهـــا شبَحـــاً أضنـــاه الحـــزنُ، ونكّـــده[*]
يتلـــو فـــي الغـــاب مـــراثيَـــه وجـــذوعُ السَّـــرْوِ تســـانـــده[8]
ويمـــاشـــي النـــاس، ومـــا أحـــد منهـــم يشجيـــه تفـــرُّده
فـــي ليـــل الـــوحشـــةِ مَسْـــراه وبكهـــف الـــوحـــدة مـــرقـــده
أصـــوات الأمـــس تعـــذِّبـــه وخيـــال المـــوت يُهـــدِّده

بـالأمـس لـه شفَـقٌ فـي الكـو ... ن يضـــيءُ الأفْـــقَ تـــورُّده
واليـــومَ، لقـــد غشَّـــاه الليـ ... ـــلُ فمـا فـي العـالـم يُسْعـده
غنَّـــاه الأمـــسُ وأطـــربـــه ... وشجـاه اليـوم، فمـا غـده؟[1]

10 محرم 1349
7 جوان 1930 = [الجمعة 1930/6/6]

(1) من (1) إلى (9) في هذه الأبيات أتى بألف تأسيس لم تلتزم في أبيات القصيدة..
(**) في هذين البيتين إقواء بفتح الدال مع القوافي المضمومة.

إلى عذارى أفروديت

الجمال المنشود

[الخفيف]

يا عذارى الجمال والحب والأحلام بل يا بَهَاء هذا الوجودِ!
قد رأينا الشعورَ منسدلاتٍ كَلَلَتْ حسنَها صِباحُ الورود
ورأينا الجفون تبسم.. أو تحلم بالنور، بالهوى، بالنشيد...
ورأينا الخدودَ، ضرّجَها السِّحْرُ فآها من سحر تلك الخدود!
ورأينا الشفاهَ تبسم عن دنْيا من الورد، غضّةٍ، أُمْلود
ورأينا النهودَ تهتزُّ كالأزهار في نشوة الشباب السعيد
فتنةٌ، توقظ الغرام وتذكيه ولكن ماذا وراء النهود؟
ما الذي خلْف سحرها الحالم السكران في ذلك القرار البعيد..؟
أنفوس جميلةٌ، كطيور الغاب تشدو بساحر التغريد
طاهرات، كأنها أرَجُ الأزهار في مولد الربيع الجديد؟
وقلوبٌ مُضيئة، كنجوم الليل ضَوّاعةٌ، كغضِّ الورود؟
أم ظلامٌ، كأنه قِطَعُ الليل، وهولٌ يُشِيبُ قلبَ الوليد
وخِضَمُ، يموج بالإثم والنُّكر والشر، والظلال المديد؟[1]

(1) لعلها والضِّلال.

لستُ أدري، فرُبّ زهرٍ شذِيٍّ قاتل رغم حُسْنِه المشهود
صانكنّ الإله من ظلمةِ الروح ومن ضِلّة الضمير المَريد
إن ليلَ النفوس ليلٌ مُريعٌ سرمديُّ الأسى، شنيع الخلود
يرزح القلب فيه بالألم المُرّ ويَشقى بعيشه المنكود
وربيع الشباب يُذبله الدهر ويمضي بحسنه المعبود
غير باقٍ في الكون إلاّ جمال الرُّوح غضّاً على الزمان الأبِيد

22 صفر 1349
19 جويليه 1930 = [الجمعة 1930/7/18]

طريقُ الهاوية

يا عذارى الجمال، والحب، والأحلام، بل يا بهاءَ هذا الوجود!
خُلِقَ البلبلُ الجميلُ ليشدو وخلقتنّ للغرام السعيد
والوجودُ الرحيبُ كالقبر، لولا ما تُجَلِّينَ من قُطوب الوجود
والحياةُ التي تخِرُّ لها الأحلامُ موتٌ مثقّلٌ بالقيود. . .
والشبابُ الحبيبُ شيخوخةٌ تسعى إلى الموت في طريق كؤود. . .
والربيعُ الجميلُ في هاته الدنيا خريفٌ يُذْوِي رفيف الورود. . .
والورودُ العِذابُ في ضفّة الجدول شوكٌ، مُصفّحٌ بالحديد. . .
والطيورُ التي تُغنّي، وتقضي عَيْشَها في ترنُّمٍ وغريد؟
إنها في الوجود تشكو إلى الأيّام عبءَ الحياة بالتغريد. . .
والأناشيد؟ إنها شهقاتٌ تتشظّى من كل قلب عَمِيد. . .
صورةٌ للوجود شوْهاءُ، لولا شفَقُ الحسن فوق تلك الخُدود

* * *

يا زهور الحياة، للحبّ أنتنّ ولكنه مُخيفُ الورود
فسبيلُ الغرام جمُّ المهاوي وافرُ الهول، مستترابُ الصعيد
رغمَ ما فيه من جمال، وفنٍّ عبقريّ، ما إنْ له من مزيد
وأناشيدَ، تُسْكِرُ المَلأ الأعلى وتُشْجِي جوانحَ الجلمود

وأريـجٍ، يكـاد يـذهـب بـالألبـاب مـا بيـن غـامـضٍ وشـديد!
وسبيـلُ الحيـاة رحْـبٌ، وأنتـنّ اللـواتـي تفـرشنـه بـالـورود
إن أردتُـنّ أن يكـون بهيجـاً رائـع السحـر، ذا جمـالٍ فـريـد
أو بشـوكٍ، يُـدمـي الفضيلـة والحـبّ ويقضـي علـى بهـاء الـوجـود
إن أردتُـنّ أن يكـون شنيعـاً، مظلَـم الأفْـقِ ميِّـتَ التغـريـد

22 صفر 1349
19 جويليه 1930 = [الجمعة 1930/7/18]

يا حُماة الدين[1]

[الطويل]

لقد نام أهلُ العلم نوماً مغنطَساً ... فلم يسمعوا ما ردّدَتْهُ العوالم[2]
ولكنّ صوتاً صارخاً، متصاعداً ... من الروح يَدري كنهَه المتصامِمُ
سيُوقِظُ منهم كلّ مَن هو نائمٌ ... ويُنْطِقُ منهم كلَّ مَن هو واجِم

* * *

سكتُّم حُماةَ الدين! سكتَةَ واجِم ... ونِمتم بملء الجَفن، والسيلُ داهم
سكتّم، وقد شِمتم ظلاماً، غضونُه ... علائمُ كفرٍ ثائرٍ ومعالم
مواكب إلحادٍ وراء سكوتِكم ... تضِجّ، وها إن الفضاء مآثم
أفيقوا فَلَيْلُ النومِ ولّى شبابُه ... ولاحت لِلألاَءِ الصباح علائم
فدونَ ضجيج الفاسقين سكينةٌ ... هي الموت، مما أورثتْه التّمائم
عوائدُ تُحيي في البلاد نوائبا ... تقُدّ قوام الدين، والدين قائم
أفيقوا، وهُبّوا هَبَّةً ضَيْغَمِيَّةً ... ولا تُحجموا فالموتُ في الجُبْن جاثم
فدون نقابِ الصَّمت تنمو ملامح ... تبرقعت الشرّ الذي لا يقاوَم

(1) من القصائد التي أضافتها الدار التونسية إلى الطبعة الثانية.
(2) مغنطساً أو ممغنطاً أي مغناطيسياً.

فقد فتّ في زَند الديانة معشرٌ أثاروا على الإسلام مَن قد يهاجم
فوالحقِّ، ما هذي الزوايا وأهلُها سوى مصنعٍ فيه تُصاغُ السخائم
لَحَى الله قوماً، لم يُبالوا بِأسْهُمٍ يُصوِّبها نحو الديانةِ ظالم

16 جمادى الأولى 134[1]
[الأربعاء 1930/10/8]

(1) هكذا بالأصل المكتوب بخط الشاعر [هي سنة 1349 هـ وتسلسل التواريخ يدل على ذلك].

شجون

[الخفيف]

عجباً لي! أودُّ أن أفهم الكـو نَ ونفسي لم تستطع فهم نفسي!
لم أُفِدْ من حقائق الكون إلاّ أنني في الوجود مُرْتادُ رمس
كلُّ دهر يمُرُّ يفجع قلبي ليت شعري! أيْنَ الزمان المُؤَسِّي!
في ظلام الكهوف أشباحُ شؤمٍ وبهذا الفضاء أطيافُ نحس
وخلالَ القصور أنَّاتُ حُزْنٍ وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس!
والقضاءُ الأصمُّ يعتسف النّاسَ ويَقْضي ما بين سيف وقوس!

* * *

هذه صورة الحياة، وهذا لونُها في الوجود، من أمس أمس
صورةٌ للشقاء دامعة الطر ف ولونٌ يسودُّ في كل طِرس

5 جمادى الثانية 1349
28 أكتوبر 1930 = [الاثنين 1930/2/27]

الأشواق التائهة

[الخفيف]

يـا صميـمَ الحيـاة! إنـي وحيـدٌ مـذلـجٌ، تـائـه، فـأيـن شـروقُـكْ؟
يـا صميـم الحيـاة! إنـي فـؤادٌ ضائع، ظاميءٌ، فأين رحيقك؟

* * *

يـا صميم الحياة! قد وجَم النَّايُ وغـام الفضـا، فـأيـن بـروقـك؟
يـا صميـم الحيـاة! أيـن أغـانيـك! فتحـت النجـوم يُصغِـي مَشـوقـك

* * *

كنـتُ فـي فجـرك، المـوشَّـح بـالأحـلام، عِطْـراً، يَـرِفُّ فـوق ورودكْ
حـالمـاً، ينهـل الضيـاءَ، ويُصغـي لـكَ فـي نشـوةٍ بـوحـي نشيـدك

* * *

ثـمّ جـاء الـدجـى. . ، فـأمسيـتُ أوراقـاً، بـداداً، مـن ذابـلات الـورودِ
وضبـابـاً مـن الشّـذى، يتـلاشـى بيـن هـول الـدجـى وصمـت الـوجـودِ

* * *

كنتُ في فجركَ المغلَّف بالسحر، فَضَاءً من النشيد الهادي
وسحاباً من الرُّؤى، يتهادى في ضمير الآزال والآبادِ

* * *

وضياءً، يعانق العالَمَ الرحب، ويسري في كل خافٍ وباد
وانقضى الفجرُ. فانحدرتُ من الأفق تراباً إلى صميم الوادي

* * *

يا صميم الحياة! كم أنا في الدنيا غريبٌ! أشقى بغربة نفسي
بين قومٍ، لا يفهمون أناشيدَ فؤادي، ولا معانيَ بؤسي

* * *

في وجودٍ مكبَّل بقيودٍ، تائهٍ في ظلام شكّ ونحس
فاحتضِنِّي، وضُمَّني لك ـ كالماضي ـ فهذا الوجودُ علّةُ يأسي

* * *

لم أجد في الوجود إلا شَقَاءً، سرمديّاً، ولذّةً، مضمحلَّهْ[1]
وأمانيَّ، يُغرق الدمعُ أحلاها، ويُفني يمُّ الزمان صداها

* * *

(1) خالف بين قوافي هذه الرباعية فجعل الأولى كالرابعة وسوى الثانية بالثالثة.

وأناشيدَ، يأكل اللَّهَبُ الدّامي مسرّاتها، ويُبْقِي أساها
وورود‌اً، تموت في قبضة الأشواك، ما هذه الحياة المُمِلَّه؟!

سأمٌ هذه الحياة مُعَادٌ وصباحٌ، يكرُّ في إثر ليلِ
ليتني لم أَفِدْ إلى هذه الدنيا، ولم تسبح الكواكب حولي!

* * *

ليتني لم يعانق الفجر أحلامي، ولم يلثم الضياءُ جفوني!
ليتني لم أزل ـ كما كنت ـ ضوءاً، شائعاً في الوجود غيرَ سجين!

5 شعبان 1349
26 ديسمبر 1930 = [الخميس 1930/12/25]

أحلام شاعر

[الخفيف]

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا ... سعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات ... بين الصنوبر الميَّاد
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف ... نفسي عن استماع فؤادي
أرقبُ الموتَ، والحياةَ، وأصغِي ... لحديث الآزال والآباد
وأغنِّي مع البلابل في الغاب، ... وأصغِي إلى خرير الوادي
وأناجي النجومَ والفجرَ، والأطيارَ ... والنهرَ، والضياءَ الهادي
عِيشةً للجمال، والفن، أبغيها ... بعيداً عن أمَّتِي وبلادي
لا أغنِّي نفسي بأحْزَانِ شعبي ... فهو حيٌّ، يعيش عَيْشَ الجماد!
وبحسبي من الأسى ما بنفسي ... من طريفٍ مُسْتَحْدَثٍ، وتِلاد
وبعيداً عن المدينة، والناس ... بعيداً عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك ... ومن ذلك الهُراء العادي

أيْنَ هُو من خرير ساقية الوادي وخفْقِ الصدى، وشدو الشادي[1]
وحفيفِ الغصون، نمَّقها الطلُّ وهمسِ النسيم للأوْراد؟
هذه عِيشةٌ تقدِّسها نفسي وأدعو لمجدها، وأنادي

16 ذو القعدة 1349
4 افريل 1931 = [الجمعة 3/4/1931]

(1) هو: تقرأ : (هُو) بالمد دون تحريك الواو وللوزن.

قيود الأحلام

[الكامل]

وأوَدّ أن أحيـا بفكـرة شـاعـر ... فأرى الوجودَ يضيق عن أحلامي

إلاّ إذا قطّعـت أسبـابـي مـع الـ ... ـدنيا وعشتُ لوحدتي وظلامي

في الغاب، في الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعةُ، والجمال السامي

وأعيـشُ عِيشـةَ زاهـدٍ مُتَنَسِّـكٍ ... مـا إنْ تُـدَنِّسـه الحيـاة بـذام

هَجَـرَ الجماعـة للجبـال، تـورُّعـاً ... عنها وعـن بطـش الحيـاة الـدامـي

تمشـي حـواليـه الحيـاة كـأنّهـا الـ ... ـحلـمُ الجميـل، خفيفـةَ الأقـدام

وتَخِـرُّ أمـواج الـزمـان بهيبـةٍ ... قـدسيَّـةٍ، فـي يمِّهـا المتـرامـي

فـأعيـش فـي غـابـي حيـاةً، كلهـا ... للفـنِّ لـلأحـلام، لـلإلهـام

لكننـي لا أستطيـع، فـإن لـي ... أمّـاً، يصـدُّ حنـانُهـا أوهـامـي

وصِغـارَ إخـوانٍ يـرون سـلامهـم ... فـي الكـائنـات معلَّقـاً بسـلامـي

فقدوا الأب الحاني فكنتُ لضعفهم ... كهْفـاً يَصُـدُّ غـوائـلَ الأيـام

ويَقيهـمُ وَهَـجَ الحيـاة، ولفحَهـا ... ويَـذود عنهـمْ شِـرّةَ الآلام

فـأنـا المكبَّـلُ فـي سـلاسـلَ، حيَّـةٍ ... ضحَّيْـتُ مـن رأفِـي بهـا أحـلامـي

وأنا الذي سكنَ المدينة، مُكْرَهاً ... ومشـى إلـى الآتـي بقلـبٍ دام

يصغي إلى الدنيا السخفية راغماً ... ويعيش مثلَ الناس بالأوهام
وأنا الذي يحيا بأرض، قفرةٍ ... مدحوّةٍ للشكِّ والآلام . . .
هجمتْ بيَ الدنيا على أهوالها ... وخِضمِّها الرحب، العميق الطامي
من غير إنذارٍ فأحملَ عُدّتي ... وأخوضه كالسابح العوّام
فتحطّمتْ نفسي على شطآنه ... وتأجّجتْ في جوِّه آلامي

* * *

الويل في الدنيا التي في شرْعِها ... فأسُ الطّغام كريشةِ الرسّام؟[1]

7 صفر 1350
24 جوان 1931 = [الثلاثاء 1931/6/23]

(1) في الطبعة الأولى فأس «الطغام» وأراه أصوب وصحفت في جميع الطبعات الموالية فأصبحت «الطعام» حتى في الطبعات التي ظهرت مزيفة باسم الطبعة الأولى وفيها أيضاً: «الويل في الدنيا» عوض للدنيا.

(؟)

[الطويل]

أرى هيكـلَ الأيـامِ يعلـو، مُشيَّـداً ولا بـد أن يـأتـي علـى أُسِّـه الهـدمُ
فيُصبِـح مـا قـد شيَّـد اللـه والـورى خراباً، كأنّ الكلَّ في أمسه وهم!
فقل ليَ: «ما جدْوَى الحياةِ وكرْبها وتلك التي تذوِي، وتلك التي تنمو؟»
«وفـوْجٍ، تغـذِّيـه الحيـاةُ لِبَـانَهـا وفوْجٍ يُرى تحت التراب له ردم؟»
«وعقْلٍ، من الأضواء في رأس نابغ وعقلٍ، من الظلماء يحمله فَدْم؟»
«وأفئـدةٍ حسـرى، تـذوب كـآبـة وأفئدةٍ سكرى، يَرِفُّ لها النجم؟»
لِتَعْسِ الورى، شاء الإله وجودَهم فكان لهم جهلٌ، وكان لهم فهمُ!!

25 ربيع الأول 1350

10 أوت 1931 =[الجمعة 9/9/1931]

رثاءُ فجر

[مجزوء الكامل]

يـا أيهـا الغـاب، المُنَمَّـقُ بـالأشعـةِ والـورودْ!
يـا أيهـا النّـور النقـيُّ! وأيُّهـا الفجـر البعيـد!
أيـن اختفيـت؟ ومـا الـذي أقصـاكَ عـن هـذا الـوجـود
آهِ! لقـد كـانـت حيـاتـي فيـك حـالمـةً، تميـد
بيـن الخمـائـل، والجـداول، والتـرنّـم، والنشيـد
تُصغِـي لنجـواكَ الجميلـةِ، وهـي أغنيـةُ الخلـود
وتعيـش فـي كـونٍ مـن الغَفَـلات، فتَّـانٍ، سعيـد
آهِ! لقـد غنّـى الصبـاحُ، فـدَمْـدَمَ الليـلُ العتيـد
وتـألّـق النجـمُ الـوضـيءُ، فـأعتْـمَ الغيـمُ الـركـود
ومضى الرّدى بسعادتي، وقضى على الحب الوليد

1 جمادى الأولى 1350

14 سبتمبر 1931 = [الأحد 13/9/1931]

أنا أبكيك للحب

[مجزوء الرمل]

لستُ يا أمسيَ أبكيك لِمَجْدٍ أو لجاهْ
سلبتْه منِّيَ الدُّنيا، وبزّتْني رداهْ
فأنا أحتقرُ المجدَ وأوهامَ الحياهْ

* * *

أو لعُمْرٍ، بلغتْ منه اللّيالي منتهاهْ
وتلاشتْ في خضمِّ الزّمَنِ الطاغي قواهْ
فأنا ما زلت في فجر شبابي أو ضُحاه

* * *

لا، ولا أبكيكَ يا أمسي، إذا ما قلت: «آهْ»
لنعيمٍ، لم يَنَلْ قلبيَ منه مُشْتهاهْ
فبنُو الأيام في الدنيا كما شاء الإله

* * *

إنمـــا أبكيـــك للحـــبِّ، الـــذي كـــان بَهـــاهْ
يمـــلأ الـــدنيـــا فـــأنّـــى ســـرتُ فـــي الـــدُّنيـــا أراهْ
فـــإذا مـــا لاحَ فَجْـــرٌ، كـــان فـــي الفجـــر سنـــاهْ
وإذا غـــرّد طيـــرٌ، كـــان فـــي الشـــدْو صـــداه
وإذا مـــا ضـــاع عِطْـــرٌ، كـــان فـــي العطـــر شـــذاهْ
وإذا مـــا رفّ زهـــرٌ، كـــان فـــي الـــزّهـــر صِبَـــاهْ
فهـــو فـــي الكـــون جمـــالٌ، يَمـــلأ الأفْـــقَ ضِيـــاهْ
وتُـــوشِّـــي هـــذه الأكـــوانَ بـــالسِّحـــر رُؤاهْ
وهـــو فـــي قلبـــي ـ الـــذي عـــانقـــه الفجـــر ـ إلٰـــه!
عبْقـــريُّ السِّحـــرِ، ممـــراحٌ وديـــعٌ فـــي سمـــاهْ
يَنْســـجُ الأحـــلامَ فـــي قلبـــي بـــأضـــواء الحيـــاهْ
ويُغنِّينـــي، فـــأنسَـــى فـــي مســـرّاتِ غِنـــاهْ
كـــلَّ مـــا فـــي الكـــون مـــن حـــزنٍ وأفـــراحٍ، عَـــداهْ

8 جمادى الأولى 1350

21 سبتمبر 1931 =[الأحد 20/9/1931]

أبناء الشيطان

[الخفيف]

أيُّ نـاس هـذا الـورى؟ مـا أرى إلاّ بـرايـا، شقيَّـةً، مجنـونـهْ
جبَّلتْها الحياةُ في ثورة اليأسِ من الشر، كيْ تجنّ جنونه
فأقامت له المعابدَ، في الكون، وصلَّت له وشادت حصونهْ

* * *

كـم فتـاةٍ، جميلـةٍ، مَـدَحـوهـا وتغنَّـوْا بهـا لكـيْ يُسْقِطُـوهـا
فإذا صانت الفضيلةَ عابوها، وإن باعت الخنا عبدوها
أصبحَ الحسنُ لعنةً، تهبط الأرض، ليغوَى أبناؤُها وذووها

* * *

وشقيّ، طاف المدينةَ، يستجدي ليحيا، فخيَّبوه احتقارا
أيقظوا فيه نزعةَ الشرِّ، فانقضّ على الناسِ فاتكاً جبَّارا
يبذر الرُّعب في القلوب، ويُذكِي- حيثما حلّ -في الجوانح نارا

* * *

ونبـيءٍ قـد جـاء للنـاس بـالحـق، فكـالـوا لـه الشتـائـم كيْـلا
وتنادَوْا به: «إلى النار! فالنار بروح الخبيث أحرى وأوْلى»
ثُمّ ألقوْه في اللهيب، وظلُّوا يملأون الوجودَ رُعباً وهوْلاَ

* * *

وشعـوبٍ ضعيفـةٍ، تتلظَّـى فـي جحيـم الآلامِ عـامـاً فعـامـا
والقـويُّ الظلـوم يَعْصِـرُ مِـن آلامهـا السُّـودِ لـذةً ومُـداما
يتحسَّاه ضاحكاً.. لا يراها خُلِقَت في الوجود إلاّ طعاما!

* * *

وفتـاةٍ حسبتُهـا مَعْبَـدَ الحـبِّ، فـألفيـت قلبَهـا مَـاخُـورا!
ونبيـلٍ وجـدتـه فـي ضيـاء الفجـر قلبـاً مـدنَّسـاً شـرِّيـرا!
وزعيـمٍ أجلّـه النَّـاسُ حتـى ظـنّ فـي نفسـه إلٰهـاً صغيـرا!

* * *

وخبيثٍ، يعيشُ كالفأسِ، هدّاماً، ليُعْلِي بينَ الخراب بناءَهْ[1]
وقمـيءٍ، يطـاوِلُ الجبَـلَ العـالِـي، فللّـه مـا أشـدّ غبـاءَهْ!
ودنـيءٍ، تـاريخُـه فـي سِجِـلِّ الشـرِّ: إفـكٌ، وقِحَّـةٌ، ودنـاءهْ

* * *

(1) في الطبعة الأولى (ليعلو بين الخراب بناءه) وهو خطأ إذ يجب ضم همزة القافية لأن (بناءه) تصبح نائب فاعل مرفوعة: (بناؤه) وفي ذلك إقواء والصواب ما جاء في الطبعة الثانية.

كـان ظنّـي أن النفـوس كِبـارٌ فـوجـدتُ النفـوس شيئـاً حقيـرا
لـوّثتْـهُ الحيـاةُ ثـمّ استمـرّتْ تبـذرُ العـالَـمَ العـريـضَ شـرورا
فـــاحصـــدوا الشَّـــوْكَ . . ، يـــا بنيهـــا وضِجُّـــوا
وامْـــــــلأوا الأرض والسمـــــــاء حبـــــــورا

17 جمادى الأولى 1350

30 سبتمبر 1931 = [الثلاثاء 29/9/1931]

صلوات في هيكل الحب

[الخفيف]

عذبةٌ أنتِ كالطفولةِ، كالأحلام كاللّحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمْراء كالورد، كابتسام الوليد
يا لها من وداعةٍ وجمال وشباب مُنَعَّم أُمْلود!
يا لها من طهارةٍ، تبعثُ التقديـ ـسَ في مهجة الشقيِّ العنيد! . . .
يا لها رقَّةً يكادُ يَرفُّ الوَرْ دُ منها في الصّخرة الجلمود!
أيُّ شيء تُراكِ؟ هل أنتِ «فينيسُ» تهادتْ بين الورى من جديد
لِتُعيدَ الشبابَ والفرح المعسولَ للْعالم التعيسِ العميد!
أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر ض ليُحْيي روحَ السلام العهيد!
أنتِ. . ما أنتِ؟ أنت رسمٌ جميلٌ عبقريٌ من فنِّ هذا الوجود[1]
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبود
أنتِ. . ما أنتِ؟ أنتِ فجرٌ من السحر تجلّى لقلبِيَ المعمود
فأراه الحياةَ في مونِق الحسن وجلّى له خفايا الخلود
أنتِ روح الربيع، تختال في الدنيا فتهتزُّ رائعاتُ الورود

(1) الوزن يقتضي (أنت) الثالثة وهي ساقطة من المطبوع.

وتهبُّ الحياةُ سكرى من العطر ويدوي الوجودُ بالتغريد
كلما أبْصرتْكِ عيناىَ تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنّشيد
خَفَقَ القلبُ للحياة، ورفّ الزّهرُ في حقل عمريَ المجرود
وانتشتْ روحيَ الكئيبةُ بالحبِّ وغنتْ كالبلبل الغرِّيد
أنتِ تُحيينَ في فؤاديَ ما قد مات في أمسيَ السعيدِ الفقيد
وتَشيدينَ في خرائبِ روحي ما تلاشى في عهديَ المجدود
من طموح إلى الجمالِ إلى الفنِّ إلى ذلك الفضاء البعيد
وتَبُثّين رقة الشوق، والأحلامِ والشدوِ، والهوى، في نشيدي
بعد أن عانقتْ كآبةُ أيّامي فؤادِي، وألجمتْ تغريدي
أنت أنشودة الأناشيد غنّاكِ إلٰه الغناءِ، رَبُّ القصيد
فيكِ شبّ الشَّبابُ، وشَّحهُ السِّحْرُ وشدوُ الهوى، وعِطْرُ الورود
وتراءى الجمالُ، يرقص رقصاً قُدُسياً، على أغاني الوجود
وتهادتْ في أفْقِ روحِكِ أوزانُ الأغاني، ورقّةُ التغريد
فتمايلتِ في الوجود، كلحْنٍ عبقريٍّ الخيالِ حلوِ النشيد:
خطواتٌ، سكرانةٌ بالأناشيد، وصوتٌ، كرجْع ناىٍ بعيد
وقوامٌ، يكاد ينطق بالألحان في كلِّ وقفةٍ وقعود
كلُّ شيءٍ موقعٌ فيكِ، حتى لَفْتَةُ الجيد، واهتزازُ النّهود
أنتِ. . ، أنتِ الحياةُ في قدْسها السامي، وفي سحرها الشجيِّ الفريد
أنتِ. . أنتِ الحياةُ، في رِقّةِ الفجر وفي رونق الربيع الوليد[1]

(1) في المطبوع «في رونق الربيع. . .» وأضفنا الواو للوزن.

أنتِ . . أنتِ الحياةُ، كلَّ أوانٍ في رُواءٍ من الشباب جديد
أنتِ . . أنتِ الحياةُ فيك وفي عيـ ـنَيْكِ آياتُ سحرها المَمْدود
أنتِ دنيا من الأناشيد والأحْلام والسحْر والخيال المديد
أنتِ فوْق الخيال، والشِّعرِ، والفنِّ وفوْقَ النُّهَى وفوق الحدود
أنتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصباحي وربيعي، ونَشْوَتي، وخلودي

* * *

يا ابنةَ النُّور، إنني أنا وَحْدي مَن رأى فيك رَوْعةَ المعبود
فدَعيني أعيشُ في ظلّك العذب وفي قرب حُسنك المشهود
عِيشةً للجمال، والفن، والإلهام والطُّهْر، والسنَى والسجود
عِيشةَ الناسك البتُول يُنَاجي الرّ بَ في نشْوَةِ الذُّهول الشديد
وامنحيني السلامَ والفرحَ الرو حيَّ يا ضَوْءَ فجريَ المنشود
وارحميني، فقدْ تهدّمتُ في كو نٍ من اليأس والظلام مَشيد
أنقذيني من الأسى، فلقد أمسيتُ لا أستطيع حملَ وجودي
في شعاب الزمان والموت أمشي تحت عِبءِ الحياة جَمَّ القيود
وأماشي الورَى ونفسيَ كالقبر، وقلبي كالعالم المهدود:
ظُلْمَةٌ، ما لها ختامٌ، وهولٌ شائعٌ في سكونها الممدود
وإذا ما اسْتَخفّني عَبَثُ الناس تبسَّمتُ في أسًى وجُمُود
بسمةً مُرّةً، كأنّيَ أستلُّ من الشوْكِ ذابلاتِ الورود
وانْفخي في مشاعري مَرَحَ الدنيا وشُدّي من عزميَ المجهود
وابعثي في دمي الحرارةَ، عَلّي أتغنَّى مع المُنى مِن جديد

وأبُـثُّ الـوجـودَ أنْغـامَ قلـبٍ بُلْبُلـيّ، مكبَّـلٍ بـالحـديـد
فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدِّفءِ حيـاةَ المُحطّـم المكـدود
أنْقـذيني، فقـد سئمتُ ظـلامي! أنْقـذيني، فقـد مللتُ ركـودي؟

* * *

آهِ يـا زهـرتي الجميلةَ لـو تـدريـن مـا جَـدّ فـي فـؤادي الـوحيـد
في فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أكوانٌ مـن السحـر ذاتُ حسـن فـريـد
وشمـوسٌ وضّـاءةٌ ونجـومٌ تنثـر النـورَ فـي فضـاءٍ مـديـد
وربيـعٌ كـأنـه حُلُـمُ الشـاعـرِ فـي سَكْـرةِ الشبـاب السعيـد
ورياضٌ لا تعرف الحَلكَ الداجي ولا ثـورةَ الخـريـف العتيـد
وطيـورٌ سحـريـةٌ تتنـاغَـى بـأنـاشيـدَ حلـوةِ التغـريـد
وقصورٌ كأنها الشَّفَق المخْضُوب أو طلعـةُ الصبـاح الـوليـد
وغيـومٌ رقيقـة تتهـادى كـأبـاديـدَ مـن نُثَـارِ الـورود
وحيـاةٌ شعـريّـةٌ هـي عنـدي صـورةٌ مـن حيـاة أهـل الخلـود
كـلُّ هـذا يشيـده سحـرُ عينيـك وإلهـامُ حسنـك المعبـود
وحـرام عليـكِ أن تهـدمـي مـا شـادهُ الحُسـنُ فـي الفـؤاد العميـد
وحـرام عليـك أن تسْحَقـي آمـالَ نفـسٍ تصبـو لعيـشٍ رغيـد
منـكِ تـرجـو سعـادةً لـم تجـدهـا فـي حيـاة الـورى وسحـر الـوجـود
فـالإلـه العظيـمُ لا يَـرْجُـمُ العَبْـدَ إذا كـان فـي جـلال السجـود

30 جمادى الأولى 1350

13 أكتوبر 1931 = [الاثنين 12/10/1931]

أراكِ

[المتقارب]

أراكِ، فتحلـــو لـــديّ الحيـــاة ... ويمـــلأ نفســـي صبـــاحُ الأمـــلْ
وتنمـــو بصـــدري وُرودٌ عِـــذابٌ ... وتحنـــو علـــى قلبـــيَ المشتعـــلْ
ويفْتِنُنـــي فيـــكِ فيـــضُ الحيـــاة ... وذاك الشبـــابُ الـــوديـــعُ، الثمِـــل
ويفتننـــي سحـــرُ تلـــك الشفـــاه ... تـــرفـــرف مـــن حـــولهـــن القُبَـــل
فـــأعبُـــدُ فيـــكِ جمـــالَ السمـــاء، ... ورقّـــةَ وَرْدِ الـــربيـــع، الخضِـــل
وطُهْـرَ الثلـوج، وسِحْـرَ المـروج ... مُـــوَشّحَـــةً بشعـــاع الطَّفَـــلْ

* * *

أراكِ، فـــأُخْلَـــقُ خَلْقـــاً جـــديـــداً ... كـــأنّـــيَ لـــم أبْـــلُ حـــربَ الـــوجـــودْ
ولـــم أحتمـــل فيـــه عِبئـــاً، ثقيـــلاً ... مـــن الـــذكـــريـــات التـــي لا تَبيـــدْ
وأضغـــاثِ أيـــامـــيَ، الغـــابـــرات ... وفيهـــا الشقـــيُّ، وفيهـــا السعيـــدْ
ويغْمُـــرُ روحِـــي ضيـــاءٌ، رفيـــقٌ ... تُكلّلـــــه رائعـــــاتُ الـــــورود
وتُسْمِعُنـــي هـــاتـــه الكـــائنـــاتُ ... رقيـــقَ الأغـــانـــي، وحُلْـــوَ النشيـــد
وتـــرقـــص حـــولِـــي أمـــانٍ، طِـــرابٌ ... وأفـــراحُ عُمْـــرٍ خَلِـــيٍّ سعيـــد

* * *

أراكِ، فتخفق أعصابُ قلبي ... وتهتزُّ مثلَ اهتزاز الوتَرْ
ويُجرِي عليها الهوى، في حُنُوٍّ ... أناملَ، لُدْناً، كرَطْب الزهر
فتخطو أناشيدُ قلبيَ، سكْرَى ... تغرِّدُ، تحت ظِلال القمرْ
وتملأني نشوةٌ، لا تُحَدُّ ... كأنِّيَ أصبحتُ فوقَ البشرْ
أوَدُّ بروحي عناقَ الوجودِ ... بما فيه من أنفُسٍ، أو شجر
وليلٍ يفرُّ، وفجرٍ يكرُّ ... وغَيْمٍ، يُوَشِّي رداءَ السحر

11 جمادى الثانية 1350

24 أكتوبر 1931 = [الجمعة 23/10/1931]

فكرة الفنان

[الكامل]

عش بالشّعور، وللشعور، فإنما ... دنيـاكَ كـونُ عـواطـفٍ وشعـور
شِيدَتْ على العطفِ العميق، وإنها ... لتجـفُّ لـو شِيـدتْ علـى التفكيـر
وتَظَـلُّ جـامـدةَ الجمـال، كئيبـةً ... كـالهيكـلِ، المتهـدِّم، المهجـور
وتظَـل قـاسيـةَ المـلامـحِ، جَهْمَـةً ... كـالمـوتِ، مُقْفِـرَةً، بغيـرِ سـرور
لا الحُـبُّ يـرقـص فـوقهـا متغنِّيـاً ... للنـاس، بيـن جـداولٍ وزهـور
مُتَـوَرِّدَ الـوجَنـاتِ سكـرانَ الخطى ... يهتـزُّ مـن مَـرَحٍ، وفـرْط حبـور
متكلّـلاً بـالـوَرْدِ، ينثـر للـورى ... أوراقَ وردِ «اللـذة» المنضـور
كـلّا! ولا الفـنُّ الجميـلُ بظـاهـرٍ ... في الكون تحت غَمامةٍ من نور[1]
مُتَوشِّحاً بالسِّحْر، ينفُخ نايَه الـ ... ـمشبوبَ بين خمـائلٍ وغـديـر
أو يلمس العودَ المقدّسَ، واصفاً ... للمـوت، لـلأيـام، للـديجـور
ما في الحياة من المسرة، والأسى ... والسِّحْـر، واللَّـذات، والتغـريـر
أبـداً ولا الأمـلُ المُجَنَّـحُ مُنْشِـداً ... فيهـا بصـوت الحـالـم، المحبـور
تلك الأناشيد التي تَهَبُ الورى ... عـزْمَ الشبـابِ، وغبْطـةَ العصْفـور

(1) في الطبعة الثانية والثالثة (غمامة) وفي الأولى (عمامة).

واجعل شعورَك، في الطبيعة قائداً ... فهو الخبير بتيهها المسحور
صَحِبَ الحياةَ صغيرةً، ومشى بها ... بين الجماجم، والدمِ المهدور
وعَدَا بها فوق الشواهِق، باسماً ... متغنِّياً، من أعصُرٍ ودهور
والعقلُ، رغمَ مَشِيبه ووَقاره، ... ما زال في الأيام جدّ صغير
يمشي . . فتصرعه الرياح، فَيَنْثَني ... مُتَوجِّعاً، كالطائر المكسور
ويظلُّ يسألُ نفسه، متفلسفاً ... مُتَنَطِّساً، في خِفَّةٍ وغرور
عمَّا تُحَجِّبُهُ الكواكبُ خلفَها ... من سرِّ هذا العالَم المستور
وهو المهشَّمُ بالعواصف . . ! يا لَهُ ... من ساذجٍ، متفلسفٍ، مغرور!

* * *

وافتحْ فؤادكَ للوجود، وخلِّه ... لليمِّ للأمواج، للدّيجور
للثَّلج تنثُرُهُ الزوابعُ، للأسى ... للهول، للآلام، للمقدور
واتركه يقتحم العواصف . . ، هائماً ... في أفْقها، المتلبدِ، المقرور
ويخوض أحشاءَ الوجود . . ، مُغَامِراً ... في ليلِها، المتَهيِّبِ، المحذور
حتى تعانقَه الحياةُ، ويرتوِي ... من ثغرِها المتأجّجِ، المسجور
فتعيشَ في الدنيا بقلب زاخِرٍ ... يقِظِ المشاعِرِ، حالمٍ، مسحور
في نشوةٍ، صُوفيَّةٍ، قدسيةٍ ... هيَ خير ما في العالم المنظور

25 جمادى الثانية 1350

7 نوفمبر 1931 = [الجمعة 6/11/1931]

سرّ النهوض

[البسيط]

لا ينهض الشعبُ إلاّ حين يدفعه عزمُ الحياة، إذا ما استيقظتْ فيه
والحَبُّ يخترق الغبراءَ، مندفعاً إلـى السمـاء، إذا هبَّـتْ تنـاديـه
والقيْـدُ يـألَفُـهُ الأمـواتُ، مـا لبثـوا أمَّـا الحيـاةُ فيُبْليهـا وتُبْليـهِ

1 رجب 1350

12 أكتوبر 1931 = [الأربعاء 11/11/1931]

قلبُ الأم

[مجزوء الكامل]

يـا أيُّهـا الطفـلُ الـذي قـد كـان كـاللّحـن الجميـلْ
والـوردةِ البيضـاءِ، تعبَـق فـي غيـابـات الأصيـلْ

* * *

يـا أيُّهـا الطفـلُ الـذي قـد كـان فـي هـذا الـوجـودْ،
فَـرِحـاً، ينـاجـي فتنـةَ الـدنيـا بمعسـول النّشيـد

* * *

هـا أنـتَ ذا «قـد» أطبقـتْ جفنَيْـكَ أحـلامُ المَنـونْ[1]
وتطـايـرتْ زُمَـرُ المـلائـكِ حـولَ مضجعِـكَ الأميـنْ

* * *

ومضـتْ بـروحـكَ للسمـاء عـرائـسُ النُّـورِ الحبيـبْ
يحملْـنَ تيجـانـاً، مُـذَهَّبَـةً، مـن الـزّهَـرِ، الغـريـبْ

* * *

(1) أضفنا (قد) لهذا البيت لأن الوزن يستقيم بها وهي كذلك في الطبعة الأولى.

هـــا أنـــت ذا قـــد جَلَّلَتْـــكَ سكينـــةُ الأبـــدِ الكبيـــرْ
وبكتـــك هـــاتيـــك القلـــوبُ، وضمَّـــك القبـــرُ الصغيـــر

* * *

وتفـــرّق النـــاسُ الـــذيـــن إلـــى المقـــابـــر شيَّعـــوك
ونسُـــوكَ مـــن دنيـــاهُـــمُ، حتـــى كـــأنْ لـــم يعـــرفـــوك

* * *

شغلتهُـــمُ عنـــك الحيـــاةُ، وحـــربُ هـــذي الكـــائنـــاتْ
إنّ الحيـــاةَ ـ وقـــد قضيْـــتَ قُبَيـــلَ معـــرفـــةِ الحيـــاةْ ـ

* * *

بحـــرٌ، قـــرارتُـــه الـــرّدى، ونشيـــدُ لُجَّتـــه، شكـــاةْ
وعلـــى شـــواطئـــه القلـــوبُ تئـــنُّ، داميـــةً عُـــراةْ

* * *

بحـــرٌ، تجيـــشُ بـــه العـــواصـــفُ فـــي العشيّـــةِ والغـــداةْ
وتُظِلُّـــهُ سُحُـــبُ الظـــلام، فـــلا سكـــونَ ولا إيـــاةْ

* * *

نَسِيَتْـــكَ أمـــواجُ البُحيَـــرَةِ، والنجـــومُ الـــلاّمعـــةْ
والبلبـــلُ الشـــادي، وهـــاتيـــك المـــروجُ الشـــاسعـــةْ

* * *

وجـــداولُ الـــوادي النضيـــرِ بـــرقصهـــا وخـــريـــرهـــا
ومســـالـــكُ الجبـــل الصغيـــر بعُشْبهـــا وزُهـــورهـــا

* * *

حتَّـــى الـــرفـــاقُ . . فـــإنهـــم لبثـــوا مـــدّى يتســـاءلـــونْ
فـــي حيـــرةٍ مشبـــوبـــةٍ: «أيـــن اختفـــى هـــذا الأميـــن»؟!

* * *

لكنّهـــم علِمـــوا بـــأنـــك فـــي الليـــالـــي الـــداجيـــةْ
حملتْـــكَ غِيـــلانُ الظـــلام إلـــى الجبـــال النـــائيـــةْ

* * *

فنسُـــوكَ مثـــلَ النـــاس . . وانصـــرفـــوا إلـــى اللهـــو الجميـــلْ
بيـــنَ الخمـــائـــلِ، والجـــداولِ، والـــروابـــي، والسُّهـــولْ

* * *

ونسُـــوا وداعـــةَ وجهـــك الهـــادي، ومنظَـــرَك الـــوسيـــمْ
ونسُـــوا تَغَنِّيـــكَ الجميـــلَ بصـــوتـــك الحُلـــوِ، الـــرخيـــمْ

* * *

ومضَـــوْا إلـــى المَـــرْج البهيـــج، يطـــاردون طيـــورَهُ
ويُـــزحـــزِحـــون صُخـــورَهُ، ويعـــابثـــون زهـــورَهُ

* * *

ويُشيِّـدون مـن الـرمـال البيـضِ، والحصَـب النضيـرْ
غُـرفـاً، وأكـواخـاً تكلِّلُهـا الحَشـائـشُ والـزهـورْ

* * *

ويُنضِّـدون مـن الـرُّبـى، بيـن التضـاحـك والحبـور
طـاقـاتِ وردٍ، آبـدٍ، تُـزري بـأوراد القصـور

* * *

يُلقـونهـا فـي النهـر، قـربـانـاً لآلهـة السـرورْ
فتسيـر فـي التيَّـار، راقصـةً علـى نَغَـم الخـريـر

* * *

كـلٌّ نسُـوكَ، ولـم يعـودوا يـذكـرونـكَ فـي الحيـاةْ
والـدّهـر يـدفـنُ فـي ظـلام المـوتِ حتـى الـذكـريـاتْ

* * *

إلا فـؤاداً، ظـلّ يخفُـقُ فـي الـوجـود إلـى لقـاكْ
ويـودُّ لـو بَـذَلَ الحيـاة إلـى المنيَّـةِ، وافْتـداك

* * *

فـــإذا رأى طفـــلاً بكـــاكَ، وإنْ رأى شبَحـــاً دعـــاكْ
يُصغـي لصـوتـك فـي الـوجـود، ولا يـرى إلاّ بهـاك

* * *

يصغـي لنغمتـكَ الجميلـةِ فـي خـريـر السـاقيـهْ
فـي رنّـةِ المـزمـارِ، فـي لَغْـوِ الطيـور الشـاديـهْ

* * *

فـي ضجـةِ البحـر المُجَلجِـل، فـي هَـديـر العـاصفـهْ
فـي لجَّـة الغـابـات، فـي صـوت الـرعـود القـاصفـهْ

* * *

فـي نُغْيـة الحمَـل الـوديـع، وفـي أنـاشيـد الـرعـاةْ
بيـن المُـروج الخضـرِ والسَّفْـح المجلّـلِ بـالنبـاتْ

* * *

فـي آهـة الشـاكـي، وضـوضـاء الجُمُـوعِ الصـاخبـهْ
فـي شهْقـة البـاكـي يـؤجّجُهـا نُـواحُ النـادبـهْ

* * *

فـي كـلِّ أصـواتِ الـوجـودِ: طَـروبِهـا وكئيبِهـا
ورخيمِهـا، وعنيفهـا، وبغِيضهـا، وحبيبِهـا

* * *

ويــراك فــي صُــوَرِ الطبيعــة: حلــوِهــا، وذميمهــا
وحــزينهــا وبهيجِهــا، وحقيــرِهــا وعظيمِهــا

* * *

فــي رقّــة الفجــرِ الــوديــعِ، وفــي الليــالــي الحــالمــهْ
فــي فتنــة الشفــقِ البــديــع، وفــي النجــوم البــاسمــهْ

* * *

فــي رقْــصِ أمــواجِ البُحيْــرة تحــت أضــواء النجــومْ
فــي سِحْــر أزهــارِ الــربيــع، وفــي تهــاويــل الغيــوم

* * *

فــي لَمْعــة البــرق الخَفُــوق، وفــي هُــوِيِّ الصــاعقــهْ
فــي ذِلّــة الــوادي، وفــي كِبْــر الجبــال الشــاهقــهْ

* * *

فــي مَشهــدِ الغــاب الكئيــبِ، وفــي الــورود[1] العــاويــهْ
فــي ظُلْمــة اللّيــلِ الحــزيــن، وفــي الكهــوف العــاريــهْ

* * *

(1) الورود (الأُسُود): جمع ورد: الأسد.

أعَـرفـتَ هـذا القلْـبَ فـي ظلمـاءِ هـاتِيـك اللحـودْ؟
هـو قلـبُ أمِّـكَ، أمِّـك السَّكْـرَى بـأحـزانِ الـوجـود

* * *

هـو ذلـك القلـب الـذي سيَعيـشُ كـالشّـادي الضـريـرْ
يشـدُو بشكْـوَى حـزنِـه الـداجـي إلـى النفـس الأخيـر

* * *

لا ربَّـةُ النسيـان تـرحـمُ حـزنَـه وتـرى شقـاهْ
كـلا! ولا الأيَّـامُ تُبْلِـي فـي أنـاملهـا أسـاه

* * *

إلا إذا ضفـرَتْ لـه الأقـدارُ إكليـلَ الجنـون
وغـدا شقيّـاً ضـاحكـاً، تلهـو بمـرآه السنـونْ

* * *

هـو ذلـك القلـبُ الـذي مهمـا تقلّبـتِ الحيـاةْ
وتـدفّـعَ الـزمَـنُ المُـدَمْـدِمُ فـي شِعـابِ الكـائنـاتْ

* * *

وتغنَّتِ الدُّنيا، وغرّد بلبلُ الغاب الجميلْ
سيظلُّ يعبُدُ ذكرياتِكِ: لا يَمَلُّ، ولا يميلْ

* * *

كالأرض، تمشي فوق تُربتها المسرّةُ، والشبابْ
والليلُ، والفجرُ المُجَنَّحُ، والعواصفُ والسحابْ

* * *

والحُبُّ تَنبتُ في مواطِنه الشقائقُ، والورودْ
والموتُ تُحْفَرُ - أينما يخطو - المقابرُ واللحودْ

* * *

وتمرُّ بين فجاجها اللّذاتُ، حالمةً، تميدْ
سكرى.. وأشواقُ الورى ترنو إلى الأُفق البعيدْ...

* * *

وتظلُّ ترقص للأسى، لِلّهْوِ، أشباح الدهورْ
حتّى يواريَها ضبابُ الموت في وادي الدُّثورْ

* * *

وتظلُّ تُورِقُ، ثمّ تُزْهِرُ، ثمّ ينشرها الصباحْ
للموتِ، للشوْك المُمَزَّقِ، للجداول، للرياحْ

* * *

بَسمـــاتُ ثَغْـــرٍ، حـــالـــمٍ، يفتـــرُّ فـــي سهْـــوِ الســـرورْ
وورودُ روْضٍ، بـــاســـمٍ، يُصغِـــي لألحـــان الطيـــور

* * *

وتظـــلُّ تخفـــقُ، ثـــم تشْـــدُو، ثـــم يطـــوِيهـــا التـــرابْ
قُبَـــلٌ، وأطيـــارٌ، تُغـــرِّدُ للحيـــاةِ، وللشبـــابْ

* * *

وتظـــلُّ تمشِـــي فـــي جِـــوَارِ المـــوتِ أفـــراحُ الحيـــاةْ! . .
ويغـــرِّدُ الشحـــرورُ مـــا بيـــن الجمـــاجـــم والـــرُّفـــاتْ

* * *

والأرضُ حـــالمـــةٌ: تغنِّـــي بيـــن أســـراب النجـــومْ
أنشـــودةَ المـــاضـــي البعيـــد. . وســـورةَ الأزَلِ القـــديـــم. .

5 شعبان 1350

16 ديسمبر 1931 = [الثلاثاء 15/12/1931]

حديث المقبرة

«وهو حوارٌ فلسفي، مَدَارُه الحياة»

«والموت، والخلود والكمال»

في ليلة مظلمة، من ليالي الصيف، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة في سفح الجبل، وفي ذلك السكون الشامل، والظلام المركوم، أخذ يمشي بين أشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى في صمت الدهور.

وبين القبور الخرساء الجاثمة تحت أضواء النجوم، حيث يتحدث كل شيء بجلال الموت وتفاهة الحياة، جلس الشاعر بأقدام متعبة، ونفس ثائرة، وأجفان قد أذبلتها الأحزان، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة، وتتابعت أمامه رسوم الأيام الكثيرة، ما نام منها في قلب الأزل وما لم يزل ينمو في أحشاء الأبد الكبير، وجاشت في قلبه هاته الصور[1] والخواطر، وعجت في صدره عجيج الأمواج الثائرة، فألقاها إلى الليل في النشيد التالي:

«الشابي»

[المتقارب]

أتفنَى ابتسامـاتُ تلـك الجفـون؟ ويخبـو تـوهُّـجُ تلـك الخـدود؟

(1) في المطبوع: «العصور والخواطر».

وتـذوي وُرَيْـدات تلـك الشفـاه؟ وتهوِي إلى الترب تلك النهود؟
وينهــدُّ ذاك القــوامُ الــرشيــق وينحـلُّ صـدرٌ، بـديـعٌ، وجيـد
وتـربـدُّ تلـك الـوجـوه الصِّبـاحُ وفتنــةُ ذاك الجمــال الفــريــد
ويغبــرُّ فــرْعٌ كجُنْــح الظــلام أنيـقُ الغـدائـر، جعـدٌ، مـديـد
ويُصبــحُ فــي ظلمــات القبــور هبـاءً، حقيـراً، وتُـرْبـاً، زهيـد
وينجــاب سحــرُ الغــرام القــويِّ وسُكرُ الشباب، الغرير، السّعيد

* * *

أتُطـوَى سمـواتُ هـذا الـوجـود؟ ويـذهـب هـذا الفضـاء البعيـد؟
وتهلِـك تلـك النجـومُ القُـدامـى؟ ويهــرَم هــذا الــزمــان العهيــد؟
ويقضـي صبـاحُ الحيـاة البـديـعُ؟ وليلُ الوجود، الرهيبُ العتيد؟
وشمــسٌ تــوشِّــي رداءَ الغمــام؟ وبــدرٌ يضــيء، وغيــمٌ يجــود؟
وضـوءٌ، يـرصِّـع مـوجَ الغـديـر؟ وسِحْــرٌ، يطــرِّز تلــك البــرود؟
وبحــرٌ فسيــحٌ، بعيــد القــرار، يضــجُّ، ويــدوي دويَّ الــوليــد؟
وريــحٌ، تمــرُّ مــرورَ المــلاك، وتخطو إلى الغاب خطْوَ الرعود؟
وعـاصفـةٌ، مـن بنـات الجحِيـم، كــأنّ صــداهــا زئيــرُ الأســود
تعــج، فتــدوِي حنــايــا الجبــال وتمشي، فتهوِي صخور النُّجود؟
وطيــرٌ، تغنِّــي خــلال الغصــون وتهتــف للفجــر بيــن الــورود؟
وزهــرٌ، ينمِّــقُ تلــك التــلالَ وينهَـلُ مـن كـلّ ضـوءٍ جـديـد؟
ويعبَــق منــه أريــجُ الغــرام ونفحُ الشباب، الحيِيِّ، السعيد؟

أيسطو على الكلِّ ليلُ الفناء ... ليلهُو بها الموتُ خلفَ الوجود . .
وينثرها في الفَراغِ المخيف ... كما تنثر الوردَ ريحٌ شَرود
فينضب يمُّ الحياة، الخضمُّ ... ويَخمد روحُ الربيع، الوَلود
فلا يلثم النورُ سِحْرَ الخدود ... ولا تُنْبِتُ الأرضُ غضّ الورود؟

* * *

كبيرٌ على النفس هذا العفاءُ! ... وصعبٌ على القلب هذا الهمود!
وماذا على القَدَر المستمرِّ ... لو استمرَأ الناسُ طعمَ الخلود
ولم يُخْفَروا بالخراب المحيط ... ولم يُفْجَعوا في الحبيب الودود
ولم يَسلكوا للخلود المرجَّى ... سبيلَ الرّدى، وظلامَ اللّحود
فدامَ الشبابُ، وسحرُ الغرام، ... وفنُّ الربيعِ، ولطفُ الورود
وعاش الورى في سلامٍ، أمينِ ... وعيشٍ، غضيرٍ، رخيٍّ، رغيد؟
ولكنْ هو القدرُ المستبدُّ ... يَلذُّ له نوْحُنا، كالنّشيد!

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول فجاءت تزور جسمها الذي أصبح رمة بالية في أحشاء التراب، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته الظامئة، فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات:

تبرّمتَ بالعيش خوف الفناء ... ولو دمتَ حياً سئمتَ الخلود
وعشت على الأرض مثل الجبال ... جليلاً، رهيباً، غريباً، وحيد

فلم ترتشف من رُضاب الحياة ولم تصطبح من رحيق الوجود
وما نشوة الحبّ عند المحبِّ وما سحر ذاك الربيع الوليد
ولم تدر ما فتنةُ الكائنات وما صرخة القلب عند الصدود
ولم تفتكر بالغد المستراب ولم تحتفل بالمرام البعيد
وماذا يُرجِّي ربيب الخلود من الكون ـ وهو المقيم البعيد ـ؟
وماذا يودُّ، وماذا يخافُ من الكونِ ـ وهو المقيم الأبيد ـ؟
تأمَّلْ.. فإنّ نظام الحياة نظام، دقيق، بديع، فريد
فما حبَّبَ العيش إلاّ الفناءُ ولا زانَه غيرُ خوف اللحود
ولولا شقاءُ الحياة الأليم لما أدركَ الناسُ معنى السعود
ومن لم يرُعْه قطوبُ الدياجيرِلم يغتبطْ بالصباح الجديد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف والأشباح، فقال يحاورها:

إذا لم يكن من لقاء المنايا مناصٌ لمن حلّ هذا الوجود
فأيُّ غَناءٍ لهذي الحياة وهذا الصراع، العنيف، الشديد
وذاك الجمال الذي لا يُمَلُّ وتلك الأغاني، وذاك النشيد؟؟
وهذا الظلام، وذاك الضياء وتلك النجوم، وهذا الصعيد
لماذا نمرُّ بوادي الزمان سِراعاً، ولكنّنا لا نعود
فنشرب من كل نبعٍ شراباً ومنه الرفيع، ومنه الزهيد

ومنه اللذيذ، ومنه الكريه، ومنه المشيد، ومنه المُبيد
ونحمل عِبْئاً من الذكريات وتلك العهود التي لا تعود
ونشهد أشكال هذي الوجوه وفيها الشقي، وفيها السعيد
وفيها البديع، وفيها الشنيع، وفيها الوديع، وفيها العنيد
فيُصبح منها الوليُّ، الحميم، ويصبح منها العدوُّ، الحَقُود
وكلٌّ - إذا ما سألْنا الحياةَ - غريبٌ لعمري بهذا الوجود
أتيناه من عالَمٍ، لا نراه فُرادى، فما شأن هذي الحُقُود؟
وما شأنُ هذا العداء العنيفِ؟ وما شأن هذا الإخاء الودود؟

* * *

روح الفيلسوف:

خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهلاً لمجد الخلود
وَتُطْهَرَ أرواحُنا في الحياة بنار الأسى. . . . . [1]
ونكسب من عثرات الطريق قُوَىً، لا تُهدُّ بدأب الصعود
ومجداً، يكون لنا في الخلود أكاليلَ من رائعات الورود

* * *

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح، في طريقها إلى العالم المجهول؛ فطارت معها روح الفيلسوف، وخلفت عالم الشك والكآبة لابنائه البائسين. وظل الشاعر يردد بينه وبين نفسه:

(1) بياض بالأصل والمسودة. (تعليق الطبعة الأولى).

«خلقنـــا لنبلـــغ شـــأوَ الكمـــال ونُصبـــح أهـــلاً لمجـــد الخلـــود»

ولكن أفكاره الثائرة التي لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهفة فقال يناجي روح الفيلسوف التي حسبها ما زالت قريبة منه:

ولكـــن إذا مـــا لبسنـــا الخلـــود ونلنـــا كمـــال النفـــوس البعيـــد
فهـــل لا نَمَـــلُّ دوام البقـــاء؟ وهـــل لا نـــودُّ كمـــالاً جـــديـــد
وكيـف يكـونـنّ هـذا «الكمـال»: مـــاذا تـــراه؟ وكيـــف الحـــدود؟
وإنّ جمـالَ «الكمـال» «الطُّمـوحُ» ومـا دام «فكـراً» يُـرَى مـن بعيـد
فمـــا سِحـــره إنْ غـــدا «واقعـــاً» يُحَـــس، وأصبـــح شيئـــاً شهيـــد؟
وهـل ينطفي في النفوس الحنين وتصبـح أشـواقنـا فـي خمـود
فـلا تطمـح النفـس فـوق الكمـال وفـوق الخلـود لبعـض المـزيـد؟
إذا لـم يَـزُل شـوْقُهـا فـي الخلـود فـذاك لعمـري شقـاء الجـدود
وحربٌ، ضروس، ـ كما قد عهدتُ ونصـــرٌ، وكســـرٌ، وهـــمٌّ مديـــد
وإنْ زال عنهـــا فـــذاك الفنـــاء وإنْ كـان فـي عـرَصَـات الخلـود

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه في عالم بعيد لا يسمع نجواه، وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب.

26 ذو القعدة 1350
3 أفريل 1932 = [السبت 1932/4/2]

في ظل وادي الموت

[الخفيف]

فنحـن نمشـي، وحـولنـا هـاتـه الأكـوا
ن تمشـــي. . . لكـــن لأيّـــة غـــايـــهْ؟
نحـن نشـدو مـع العصـافيـر للشمـس
وهـــذا الـــربيـــع ينفـــخ نـــايـــه
نحـــن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــوت
ولكـــن مـــاذا ختـــام الـــروايـــهْ
هكـــذا قلـــت للـــريـــاح فقـــالـــت:
«سل ضمير الوجود: كيف البدايه؟»

* * *

وتغشّـــى الضبـــابُ نفســـي، فصـــاحـــت
فـــي مَـــلالٍ مُـــرٍّ: «إلـــى أيـــن أمشـــي»؟
قلت: «سيري مع الحياة. .» فقالت:
«مـا جنينـا، تُـرى، مـن السيْـر أمـس؟

فتهـافـتُ كـالهشيـم ـ علـى الأرض

ونـاديـت: «أيـن يـا قلـب رفشـي؟»

«هـاتِـه، علّنـي أخـطّ ضـريحـي»

«فـي سكـون الـدجـى وأدفـن نفسـي»[1]

* * *

«هـاتِـهِ فـالظـلام حـولـي كثيـف...»

«وضبـاب الأسـى مُنيـخٌ عليَّـا...»

«وكـؤوس الغـرام أتـرعهـا الفجـر..»

«ولكـن تحطَّمـتْ فـي يـديَّـا...»

«والشبـاب الغـريـر ولَّـى إلـى المـاضـي»

«وخلَّـى النحيـبَ فـي شفتيَّـا..»

«هـاتـه، يـا فـؤادُ إنـا غـريبـان..»

«نصـوغ الحيـاة فنـاً شجيـاً...»

* * *

(1) لا يظنن ظان أنه خلط بين السين والشين في قوافي هذه الرباعية، لأنه جعل الأولى كالثالثة والثانية كالرابعة.

«قـد رقصنـا مـع الحيـاة طـويـلاً . . .»

«وشـدوْنـا مـع الشبـاب سنينـا . . .»

«وعَـدوْنـا مـع الليـالـي حُفـاةَ . . .»

«فـي شِعـاب الحيـاة حتـى دَمينـا . . .»

«وأكلنـا التّـراب حتَّـى مللنـا . . .»

«وشـربنـا الـدمـوعَ، حتَّـى روِينـا . . .»

«ونثـرنـا الأحـلامَ والحُـبّ والآلامَ . . .»

«واليـأسَ، والأسـى، حيـث شينـا . . .»

* * *

«ثم ماذا؟ هذا أنا: صرتُ في الدنيا»

«بعيـداً عـن لهـوهـا وغِنـاهـا»

«فـي ظـلام الفنـاء، أدفـن أيّـامـي»

«ولا أستطيـع حتّـى بكـاهـا؟»

* * *

«وزهـورُ الحيـاة تهـوِي، بصمـتٍ»

«مُحْـزِنٍ، مُضجـرٍ، علـى قـدميَّـا»

«جَـفّ سحرُ الحيـاة، يـا قلبيَ البـاكـي»

«فهيَّـا، نُجَـرِّبِ المـوت . . هيَّـا . . !»[1]

28 ذو القعدة 1350، 5 أفريل 1932 = [الاثنين 1932/4/4]

---

(1) لم يوحد قوافي هذه الرباعية.

الساحرة

[الخفيف]

راعهـا منـه صَمْتُـه ووُجُـومُـهْ ... وشَجـاهـا شُحـوبُـهُ وسُهـومُـهْ
فـأمَـرّتْ كفّـاً علـى شَعْـره العـا ... ري بـرفـق، كـأنهـا ستُنِيمُـهْ
وأطلّـتْ بـوجههـا البـاسـم الحلْـ ... ـو علـى خـدِّه وقـالـتْ تلـومُـهْ:
«أيهـا الطـائـر الكئيـب تَغَـرّدْ ... إنّ شَـدْوَ الطيـور حلـوٌ رخيمُـهْ»
«وأجِبْنِـي فـدتـك نفسـيَ ـ مـاذا؟ ... أمصـابٌ؟ أم ذاك أمْـرٌ تـرومـه؟»
«بـل هـو الفـنُّ واكتئـآبُـه، والفنَّـان(م) ... جـمٌّ أحـزانُـه وهمـومـه»[1]
«أبـداً يحمـل الـوجـود بمـا فيـه(م) ... كـأنْ ليـس للـوجـود زعيمُـهْ»:
«خـلِّ عـبءَ الحيـاة عنـك، وهيَّـا ... بمحيّـاً، كـالصبـح، طلّـقٍ أديمُـه
«فكثيـر عليـك أن تَحْمـل الـدنيـا ... وتمشـي بـوقـرهـا لا تَـريمـه»
«والوجود العظيم أُقْعِدَ في الماضي ... ومـا أنـت ربُّـه فتقيمـه»
«وامش في روضة الشباب طَروباً ... فحـواليـك وَرْدُه وكـرومـه»
«واتـلُ للحـب والحيـاة أغـانيـك ... وخـلِّ الشقـاء تَـدْمـى كلـومـه»
«واحتضنِّـي، فـإننـي لـك، حتـى ... يتـوارى هـذا الـدجـى ونجـومـه»
«ودع الحُبّ يُنشدُ الشعر للّيل.. ... فكـم يُسكـر الظـلامَ رنيمُـهْ...»!

---

(1) لم يمد الهاء في كلمة «اكتئابه» للوزن والشائع مدها لأن ما قبلها متحرك.

«واقطف الورد من خدودي وجيدي ونهودي . . ، وافعل به ما ترومه»
«إن لِلْبيت لهوَه، الناعمَ الحلوَ ولِلْكون حربُه وهمومُهْ»
وارتشفْ من فمي الأناشيدَ سَكَرى، فالهوى ساحرُ الدلال، وَسِيمه»
«وانْسَ فيّ الحياةَ . . فالعمرُ قفْرٌ، مرعبٌ إنْ ذَوى وجفّ نسيمه»
«وارْمِ لليل، والضبابِ بعيداً فَنَكَ العابسَ، الكئيرَ وُجومه»
«فالهوى، والشباب، والمرح المعسول تشدو أفنانُه ونسيمه(!)»
«هي فنُّ الحياة، يا شاعري الفنّان بل لُبُّ فنِّها وصميمُهْ»
«تلك يا فيلسوف، فلسفة الكوْ ن، ووَحْيُ الوجودِ هذا قديمه»
«وهي إنجيليَ الجميلُ، فصدِّقْه وإلاّ . . . فلِلْغرام جحيمه . .»
فرماها بنظرة، غَشِيَتْها سكرةُ الحُبِّ والأسى وغيومُهْ
وتلاها ببسمة، رشفتها منه سكرانةُ الشباب، رؤومُهْ
والتقتْ عندها الشفاهُ . . ، وغنَّتْ قُبَلٌ، أجفلتْ لديها همومُهْ
ما تريد الهمومُ من عالَمٍ، ضاءت مسرّاتُه، وغنَّتْ نجومُهْ؟

* * *

ليلةٌ أسبلَ الغرامُ عليها سحرَه، الناعمَ الطريرَ نعيمُهْ
وتَغنَّى في ظلّها الفرَحُ اللاّهي فجفّ الأسى وخرّ هشيمُهْ
أغرق الفيلسوفُ فلسفة الأحزان في بحرها . . ، فمن ذا يلومُه!

* * *

إن في المرأة الجميلةِ سحرا عبقرياً، يُذْكي الأسى، ويُنيمُهْ

15 ربيع الأول 1351 — 19 جويليه 1932 = [الاثنين 1932/7/18]

الجنة الضائعة

[مجزوء الكامل]

كَـمْ مـن عُهـودٍ عـذبـةٍ فـي عَـدْوَةِ الـوادي النضيـرْ
فِضِّيّـةِ الأسحـار مُـذْهَبَـةِ الأصـائـل والبكـور
كـانـت أرقّ مـن الـزهـور، ومـن أغـاريـد الطيـور
وألـذّ مـن سحـر الصِّبـا فـي بَسْمـة الطفـل الغـريـر
قضّيتُهـا ومعـي الحبيبـةُ لا رقيـب ولا نـذيـر
إلاّ الطفـولـة حـولنـا تلهـو مـع الحُـبِّ الصغيـر
أيـام كـانـت للحيـاة حـلاوة الـروض المطيـر
وطهـارةُ المـوج الجميـل، وسِحْـرُ شـاطئـه المنيـر
ووداعـة العصفـور، بيـن جـداول المـاء النميـر
أيـامَ لـم نَعـرف مـن الـدُّنيـا سـوى مَـرَحِ السُّـرور
وتَتَبُّـعِ النَّحْـل الأنيـق وقَطْـفِ تيجـان الـزهـور
وتسلُّـقِ الجبـلِ المكلّـل بـالصّنَـوْبَـر والصخـور
وبنـاءِ أكـواخِ الطفـولـة تحـت أعشـاش الطيـور
مسقـوفـةً بـالـورد، والأعشـاب، والـورق النضيـر
نبنـي، فتهـدمهـا الـريـاحُ، فـلا نضـجُّ ولا نثـور

ونعـود نضحـك للمـروج، وللـزنـابـقِ، والغـديـر
ونخـاطـب الأصـداء، وهـي تَـرِفُّ فـي الـوادي المنيـر
ونعيـد أغنيـة السـواقـي، وهـي تلغـو بـالخـريـر
ونَظَـلُّ نـركـض خلـف أسـراب الفَـراش المستطيـر
ونمـرُّ مـا بيـن المـروج الخضـر، فـي سكـر الشعـور
نشـدو، ونـرقـصُ ـ كـالبـلابـلِ ـ للحيـاة؛ وللحبـور
ونظـل ننثـرُ للفضـاء الـرّحْـبِ، والنهـر الكبيـر
مـا فـي فـؤادَيْنـا مـن الأحـلام، أو حُلْـوِ الغـرور
ونَشِيـدُ فـي الأُفـق المخضّـب مـن أمـانينـا قصـور
أزهـى مـن الشفَـقِ الجميـل، ورونـقِ المَـرْج الخضير
وأجـلَّ مـن هـذا الـوجـود، وكـلِّ أمجـاد الـدهـور
أبـداً، تُـدلِّلُهـا الحيـاةُ بكـلِّ أنـواع السـرور
وتبـثُّ فينـا مـن مـراح الكـون مـا يُغـوي الـوقـور
فنسيـرُ، نَنْشُـد لهـوَنـا المبعـودَ ـ فـي كـل الأمـور
ونظـل نعبـث بـالجليـل مـن الـوجـود، وبـالحقيـر:
ـ بـالسـائـل الأعمـى وبـالمعتـوه، والشيـخِ الكبيـر
بـالقطـة البيضـاءِ، بـالشـاة الـوديعـة، بـالحميـر
بـالعشـب، بـالفنـن المنـوَّر، بـالسنـابـل، بـالسَّفيـر
بالرَّمْلِ، بالصخر المحطَّم، بالجداول، بالغدير
واللهْـو، والعبَـثُ البـريءُ، الحلـوُ، مطمحنُـا الأخيـر

ونظـــل نقفـــز، أو نُثَـــرْثِـــرُ، أو نغنِّـــي، أو نـــدور
لا نســأم اللهــوَ الجميــلَ، وليــس يــدركنــا الفتــور
فكــأنّنــا نحيــا بــأعصــاب مــن المَــرح المُثِيــر
وكـــأننـــا نمشـــي بـــأقـــدام مجنَّحـــة، تطيـــر
أيــام كنــا لُــبَّ هــذا الكــون، والبــاقــي قشــور
أيــام تفــرشُ سُبْلنــا الــدنيــا بــأوراق الــزهــور
وتمــرُّ أيــامُ الحيــاة بنــا، كــأســراب الطُّيــور
بيضـــاء لاعبـــةً، مُغـــرِّدةً مجنَّحـــةً بنـــور
وتُــرَفْــرف الأفــراحُ فــوق رؤوسنــا أنَّــى نسيــر

* * *

آهٍ! تــوارى فَجْــرِيَ القــدُسـيُّ فــي ليــل الــدهــور
وفنَـى، كمـا يفنَـى النشيـدُ الحلـوُ فـي صمـت الأثيـر
أوّاهُ، قــد ضــاعــت علــيَّ سعــادةُ القلــب الغــريــر
وبقيــتُ فــي وادي الــزمــان الجَهْــمِ أدأبُ فــي المسير
وأدوسُ أشــواك الحيــاة بقلبــيَ الــدّامــي الكسيــر
وأرى الأبــاطيــل الكثيــرةَ، والمــآثــم، والشــرور
وتصــادُمَ الأهــواء بــالأهــواء فــي كــل الأمــور
ومَــذَلّــةَ الحــقِّ الضعيــف، وعــزّةَ الظلــم القــديــر!
وأرى ابــنَ آدَمَ ســائــراً فــي رحْلَــةِ العُمُــرِ القصيــر
مــا بيــنَ أهــوال الــوجــودِ، وتَحــتَ أعبــاء الضّميــر

متسلِّقاً جَبَلَ الحياةِ الوعْرَ، كالشَّيْخِ الضّرير
دامي الأكُفِّ، مُمَزّقَ الأقْدَامِ، مُغْبَرَّ الشعور
مُتَرنِّح الخطواتِ ما بين المزالق والصُّخور
هالتْهُ أشْباحُ الظلامِ، وراعهُ صوتُ القبور
ودويُّ إعْصار الأسى، والموت، في تلك الوُعورْ

* * *

ماذا جنيتُ من الحياة ومن تجاريب الدُّهور
غيرَ الندامةِ والأسى واليأسِ والدمعِ الغزير؟
هذا حَصادي من حقول العالَمِ الرّحْبِ الخطير
هذا حَصادي كلُّه، في يقظة العَهْدِ الأخير

* * *

قد كنتُ في زمن الطفولةِ، والسذاجةِ، والطهور
أحيا كما تحيا البلابلُ، والجداولُ، والزُّهور
لا نحفل، الدنيا تدور بأهلها، أو لا تدور
واليومَ أحيا مُرْهَقَ الأعْصابِ، مشبوبَ الشعور
مُتأجِّجَ الإحساسِ، أحفلُ بالعظيم، وبالحقير
تمشي على قلبي الحياةُ، ويزحَفُ الكونُ الكبير
هذا مصيري، يا بني، فما أشقى المصير!

12 رمضان 1351
9 جانفي 1933 = [الأحد 1933/1/8]

السعادة

[البسيط]

ترجو السعادةَ يا قلبي ولو وُجِدَتْ ... في الكون لم يشتعلْ حزْنٌ ولا ألم

ولاستحالتْ حياةُ الناسِ أجمعُها ... وزُلزلتْ هاتِه الأكوانُ والنُّظمُ

فما السعادة في الدُّنيا سوى حُلُمٍ ... ناءٍ تُضَحِّي له أيَّامَها الأمم[1]

ناجتْ به الناسَ أوهامٌ مُعَرْبِدَةٌ ... لمَّا تَغَشَّتْهُمُ الأحلامُ والظلَم

فَهَبَّ كُلٌّ يُناديه وينْشُدُه ... كأنما الناسُ ما ناموا ولا حَلُمُوا[2]

* * *

«خُذ الحياة كما جاءتك مبتسماً ... في كفِّها، الغارُ أو في كفِّها العدم»

وارقصْ على الوَردِ والأشواكِ مُتَّئِداً ... غنَّتْ لك الطيرُ، أو غنَّت لك الرُّجُمُ

واعملْ كما تأمُرُ الدُّنيا بلا مَضَضٍ ... والجِمْ شُعورَكَ فيها، إنها صَنَم[3]

---

(1) صدر البيت مستوحى من قول (جبران خليل جبران في قصيدته المواكب:

وما السعادة في الدنيا سوى شبح ... يرجى، فإن صار جسماً، مله البشر)

(2) [حلم: كان ذا حلم، أي ذا عقل] لا ندري من وضع هذا التعليق وهو لا يتلاءم مع السياق ـ فيما يبدو ـ فهو يشير في البيت السابق إلى الأحلام التي ترى في المنام، وفيه يشير إلى النوم ويناسبه الحلم الذي يكون فيه ولا نرى صلة لذلك التفسير بالبيت.

(3) ألجم: مزيد والهمزة قطعية وصلها للوزن.

فمَنْ تألّم لم تُرْحَمْ مضاضتُه ومَنْ تجلّدَ لم تَهْزأ به القِمَم
هذي سعادةُ دُنيانا، فكن رجُلاً إن شِئتَها ـ أبَدَ الآباد ـ يبتسم!
وإنْ أردتَ قضاء العيش في دَعَةٍ شِعْريَّةٍ لا يُغَشِّي صَفْوَها ندَم
فاترُكْ إلى الناس دُنياهم وضجَّتَهمْ وما بَنوا لنظام العيْش أو رَسَمُوا
واجعلْ حياتك دَوْحاً مُزْهِراً نَضِراً في عزلةِ الغاب يَنْمو ثم يَنْعَدِمُ
واجعل لياليك أحلاماً مُغرِّدةً إن الحياة وما تدوي به حُلُمُ!

26 رمضان 1351
23 جانفي 1933 = [الأحد 1933/1/22]

من أغاني الرعاة[1]

[مجزوء الرمل]

حل الشاعر صيفاً بعين دراهم «من الشمال «الغربي» التونسي» مستشفياً. وهناك فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة، والجبال الشم المجللة بالسنديان قضى عهداً شعرياً، وادعاً، خالصاً للشعر، والسحر والأحلام، وفي القصيدة التالية صورة صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال، والأودية والغابات.

أقبـــلَ الصُّبْـــحُ يُغنِّـــي للحيـــاةِ النـــاعسـهْ
والـرُّبـى تحلـمُ فـي ظـلِّ الغصـون المـائسـهْ
والصَّبـا تُـرْقِـص أوراقَ الـزهـور اليـابسـهْ
وتَهـادَى النُّـورُ فـي تلـك الفِجـاج الـدامسـهْ

* * *

أقبَـلَ الصبـحُ جميـلاً، يمـلأ الأفْـقَ بهـاهْ
فتمطّـى الـزهـرُ، والطيْـرُ وأمـواجُ الميـاهْ
قـد أفـاقَ العـالـمُ الحـيُّ، وغنَّـى للحيـاهْ
فـأفيقـي يـا خِـرافـي، وهلمِّـي يـا شِيـاهْ

(1) في رسالة الشابي إلى صديقه محمد الحليوي بتاريخ 1933/11/12 أعلمه بضياع دراسة للحليوي لدى جماعة أبولو (وأنه ضاع لهم أيضاً قصيد لي عنوانه: «من أغاني الرعاة» والغريب أنه ليس لي منه نظير صحيح وأنه هو القصيد والوحيد الذي وجهته إليهم قبل أن آخذ منه نسخة صحيحة».

واتبعيني يا شياهي، بين أسراب الطيورْ
واملأ ي الوادي ثُغاءً، ومِراحاً وحبورْ!
واسمعي همس السواقي، وانشقي عطرَ الزهورْ
وانظري الوادي، يغشّيه الضبابُ المستنيرْ

* * *

واقطفي من كلإ الأرض، ومَرعاها الجديدْ
واسمعي شبَّابتي تشدو، بمعسول النشيدْ
نَغَمٌ يَصْعَدُ مِنْ قلبي، كأنفاسِ الورودْ
ثم يَسْمُو طائراً، كالبلبلِ الشادي السعيدْ

* * *

وإذا جئْنا إلى الغابِ، وغَطّانا الشجرْ
فاقطفي ما شئتِ من عُشْبٍ، وزَهْرٍ وثَمَرْ
أرضَعَتْهُ الشّمْس بالضوءِ، وغذّاه القَمرْ
وارتَوى من قَطَراتِ الطَّلِّ في وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

وامْرَحِي ما شئتِ في الوديانِ، أو فوق التلالْ
واربضي في ظلّها الوارف، إنْ خِفتِ الكلالْ
وامْضغي الأعشابَ، والأفكار في صَمت الظلالْ
واسمعي الريحَ تُغَنّي، في شماريخ الجبالْ

* * *

إن في الغاب أزاهيراً، وأعشاباً عِذابْ
يُنشِدُ النحْلُ حواليْها، أهازيجاً طِرابْ
لم تُدَنِّس عِطَرها الطاهرَ أنفاسُ الذئابْ
لا، ولا طافَ بها الثعلبُ في بعض الصِّحابْ!

* * *

وشذًا حلواً، وسِحْرًا، وسَلاماً، وظِلالْ
ونَسيماً ساحِرا الخطوةِ، موفورَ الدلالْ
وغصوناً يَرْقُصُ النورُ عليها، والجمالْ
واخضراراً أبدياً، ليس تَمْحُوه الليالْ

* * *

لن تَمَلِّي، يا خرافي، في حمى الغاب الظليلْ
فـزمـانُ الغـاب طفـلٌ، لاعـبٌ، عـذبٌ، جميـل
وزمـانُ النـاس شَيْـخٌ، عـابـسُ الـوجـه ثقيـل
يتمشّـى فـي مـلال، فـوق هـاتيـك السهـول

* * *

لـكِ فـي الغـابـات مـرعـاك، ومسعـاك الجميـلْ
ولـيَ الإنشـادُ، والعـزف إلـى وقـت الأصيـل
فـإذا طـالـتْ ظِـلالُ الكَـلإ الغـضِّ، الضئيـل
فهلمـيِّ نـرجـعِ المسعـى إلـى الحـيِّ النبِيـل

10 شوال 1351
6 فيفري 1933 = [الأحد 1933/2/5]

أيتها الحالمة بين العواصف

[الخفيف]

أنتِ كالزهرة الجميلة في الغاب، ولكنْ ما بين شوكٍ، ودود
والرياحينُ تحسب الحسَك الشرِّير والدودَ من صنوف الورود
فافهمي الناس.. إنما الناس خَلْقٌ مفسدٌ في الوجود، غيرُ رشيد
والسعيدُ السعيدُ من عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيَوْنَ في ظلمة الإثمِ وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريءِ، كالوردة البيضاء، كالموجِ، في الخضمِّ البعيد
كأغاني الطُّيور، كالشفق الساحر كالكوكب البعيد السعيد
كثلوج الجبال، يغمُرُها النور وتسمو على غبار الصعيد
أنتِ تحت السماء روحٌ جميلٌ صاغه الله من عبير الورود
وبنو الأرض كالقرود، وما أضْيَـ ـعَ عِطرَ الورود بين القرود!
أنت من ريشة الإلٰه، فلا تُلْـ ـقي بفنٍّ السما لجهل العبيد
أنت لم تخلقي ليقرُبَكِ الناسُ ولكن لتُعْبَدي من بعيد...

15 شوال 1351
11 فيفري 1933 = [الجمعة 1933/2/10]

للتاريخ[1]

[الكامل]

«البـؤسُ لابـن الشعـب يـأكـلُ قلبَـه
والمجـــدُ والإثـــراءُ لـــلأغـــرابِ»
«والشعـب معصـوبُ الجفـون، مقسَّـم
كـالشـاة، بيـن الـذئـب والقصّـاب»
«والحـــقُّ مقطـــوعُ اللســـان مكبَّـــل
والظلـمُ يمـرَح مُـذْهَـب الجلبـاب»
«هـــذا قليـــلٌ مـــن حيـــاةٍ مُـــرّة
فـــي دولـــة الأنصـــاب والألقـــاب»

20 شوال 1351
16 فيفري 1933 = [الأربعاء 1933/2/15]

(1) من القصائد التي أضافها شقيق الشاعر إلى الطبعة الثانية..

الحق عند الناس

[البسيط]

الحق عند بني الدنيا إذا عدلوا قيد يغل به الجبارُ من غلبا
فقاتِلُ الجندِ يدعوه الورى (بطلاً) وقاتِلُ الفردِ (سفاك) إذا صُلبا . .

[ذو القعدة] 1351/11/8
5 مارس 1933 = [السبت 1933/3/4]

صوت من السماء

[الكامل]

في الليل ناديتُ الكواكب ساخطاً متـــأجِّـــجَ الآلام والآرابِ:
«الحقلُ يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب»
«والنهر، للغول المقدّسة التي لا ترتوي، والغاب للحطّاب»
«وعرائس الغاب الجميلِ، هزيلةٌ ظمأى لكل جَنًى، وكل شراب»
«ما هذه الدنيا الكريهة؟ ويلَها! حَقّتْ عليها لعنة الأحقاب!»
«الكونُ مُصْغٍ، يا كواكبُ خاشعٌ طال انتظاري، فانطقي بجواب!»

* * *

فسمعتُ صوتاً ساحراً، متموِّجاً فوق المروج الفِيحِ، والأعشاب
وحفيفَ أجنحةٍ ترفرف في الفضا وصدًى يَرِنُّ على سكون الغاب:
«الفجرُ يولدُ باسما، مُتَهَلِّلاً في الكونِ، بين دُجُنَّةٍ وضباب»

11 ذو القعدة 1351
8 مارس 1933 = [الثلاثاء 1933/3/7]

ذكرى صباح

[الخفيف]

قـدّس اللـه ذكـرَهُ مـن صبـاحٍ ساحـرٍ، فـي ظِـلالِ غـابٍ جميـل
كان فيه النسيم، يرقص سكرانا على الـورد، والنبـات البليـل
وضَباب الجبال، ينساب في رفقٍ بـديـعٍ، علـى مـروج السهـول
وأغاني الرعاةِ، تخفقُ في الأغوارِ والسهـلِ، والـربـى، والتلـول
ورحابُ الفضاء، تعبق بالألحان والعطـرِ، والضيـاء الجميـل
والمَلاكُ الجميلُ، ما بين ريحانٍ وعُشْـبٍ، وسِنـديـانٍ، ظَليـل
يتغنَّى مع العصافير، في الغاب ويـرنـو إلـى الضبـاب الكسـول
وشعور الملاك ترقص بالأزهار والضـوء، والنّسيـم العليـل

* * *

حُلـمٌ سـاحـرٌ، بـه حلـمَ الغـابُ فـواهـاً لحُلْمـه المعسـول!
مثـل رؤيـا تلـوح للشـاعـر الفنَّـان فـي نشـوة الخيـال الجليـل
قـد تملّيْـتُ سِحَـرَهُ فـي أنـاةٍ وحنـان، ولَـذةٍ، وذهـول
ثـم نـاديـتُ، حينمـا طفـح السِّحر بـأرجـاء قلبـيَ المبتـول
يـا شعـورٌ تميـد فـي الغـاب بـالـريحـان، والنـور، والنسيـم البليـل

كَبِّليني بهاته الخُصَلِ المُرْخاةِ ... في فتنةِ الدّلاَل الملول
كبّلي يا سلاسلَ الحبِّ أفكا ... رِي، وأحلامَ قلبيَ الضَّلِّيل
كبِّليني بكل ما فيكِ من عِطْرٍ ... وسحرٍ مقدّسٍ، مجهول
كبِّليني، فإنما يُصبح الفنَّان ... حرّاً، في مثل هذي الكبول

* * *

ليت شعري! كم بين أمواجِك السوّ ... دِ، وطيَّاتِ ليلكِ المسدول
من غرامٍ، مُذَهَّبِ التاجِ، ميْتٍ ... وفؤادٍ، مُصَفَّدٍ، مغلول
وزهورٍ من الأمانيِّ تَذوِي ... في شحوبٍ، وخيبةٍ، وخمول
أنتِ لا تعلمين.. والليلُ لا يعلم ... كم في ظلامِه من قَتيل
أنتِ أرْجُوحَةُ النسيم فميلي ... بالنسيمِ السعيد كلَّ مَمِيل
والبَثّي للورودِ والظَّلِّ والأضواء ... في عُرْيكِ، الجميلِ، النبيل
ودَعي الشمسَ والسماء تُسَوِّي ... لكِ تاجاً، من الضياء الجميل
ودعِي مُزْهِرَ الغصون يُغَشِّيـ ... ـكِ بأوراق وَردِهِ المطلول

* * *

للشعاع الجميلِ أنتِ، وللأنسا ... مِ، والزهرِ، فالعَبِي، وأطيلي
ودعي للشقيِّ أشواقَه الظمْأى ... وأوهامَ ذِهْنِه المعلول
يا عروس الجبالِ، يا وردةَ الآ ... مالِ، يا فتنةَ الوجودِ الجليل
ليتني كنتُ زهرةً، تتثنَّى ... بين طيَّات شَعْرِكِ المصقول!
أو فَراشاً، أحومُ حولكِ مسحوراً ... غريقاً، في نشوتي، وذهولي!

أو غصوناً، أحنو عليكِ بأوراقي حُنُـوّ المُـدَلَّـهِ، المتبـول!
أو نسيماً، أضمُّ صدرَكِ في رِفقٍ إلـى صـدْريَ، الخفـوقِ، النحيـل
آهِ! كـم يُسْعِـدُ الجمـالُ، ويُشْقـي مـن قلـوبٍ شِعْـريَّةٍ، وعقـول. . .

12 ذو القعدة 1351
9 مارس 1933 = [الأربعاء 1933/3/8]

الرواية الغريبة

[الطويل]

ضحِكنا على الماضي البعيد، وفي غَدِ
ستجعلنا الأيامُ أضحوكةَ الآتي
وتلك هي الدنيا، روايةُ ساحرِ
عظيمٍ، غريب الفنِّ، مبدع آيات
يمثِّلها الأحياءُ في مسرح الأسى
ووسْط ضبابِ الهمِّ، تمثيلَ أموات
ليشهدَ مِنْ خلف الضباب فصولَها
ويضحكَ منها مَن يمثِّل ما ياتي
وكلٌّ يؤدِّي دَوْرَهُ. . . . . وهو ضاحكٌ
على الغير، مضحوكٌ على دوره العاتي

20 ذو القعدة 1351
17 مارس 1933 = [الخميس 1933/3/16]

الصباح الجديد[1]

[مشطور المتدارك]

اسكُنـي يـا جِـرَاحْ واسكُتـي يـا شجونْ
مـاتَ عهـد النّـواحْ وزمـانُ الجنـون
وأطـلّ الصّبـاحْ مِـنْ وراء القـرونْ

* * *

فـي فِجـاج الـرّدى قـد دفنـت الألَـمْ
ونثـرتُ الـدُّمـوعْ لـريـاحِ العَـدَمْ
واتَّخـذتُ الحيـاة مِعـزفـاً للنَّغـمْ
أتغنَّـى عليـه فـي رحـابِ الـزمـانْ

* * *

وأذبـتُ الأسَـى فـي جمـال الـوجـودْ
ودحـوت الفـؤادْ واحـةً للنشيـدْ

(1) انظر رسالة الحليوي إلى الشابي بتاريخ 1934/3/11 ورسالة الشابي إلى الحليوي رقم 29 بتاريخ 1933/12/19 حيث أشار إلى أنها تمثل انقلاباً عميقاً قوياً في نفسه كل القوة.. مع قصائد أخرى لم يسمها.

والضِّيـــا والظـــلالْ والشّـــذَى والـــورودْ
والهـــوى والشبـــابْ والمُنـــى والحَنـــانْ

* * *

اسكُنـــي يـــا جـــراحْ واسكُتـي يـا شجـون
مـــات عهـــدُ النـــواحْ وزمـــان الجُنـــونْ
وأطـــلّ الصبـــاحْ مـــن وراءِ القُـــرونْ

* * *

في فؤادي الرحيبْ معبـــدٌ للجمـــالْ
شيَّـــدتْـــه الحيـــاة بـــالـرُّؤى والخيـــال
فتلـــوْتُ الصـــلاة في خشوع الظلال . .
وحرقت البخور . . وأضأتُ الشموعْ . . .

* * *

إن سِحْـــرَ الحيـــاهْ خـــالـــدٌ لا يـــزولْ
فعـــلام الشكـــاةْ مـــن ظـــلام يحـــول
ثـــمّ يـــأتـــي الصبـــاح وتمُـــرُّ الفصـــول . . ؟
ســـوف يـــأتـــي ربيـــعْ إن تقضَّـــى ربيـــع

* * *

اسكُنـي يـا جـراحْ واسكُتـي يـا شجـونْ
مـات عهـدُ النـواح وزمـــانُ الجنـــون
وأطـــلّ الصبـــاح مـــن وراءِ القـــرونْ

* * *

مـــن وراء الظـــلامْ وهـــديـــرِ الميـــاهْ
قـد دعـانـي الصبـاح وربيـــعُ الحيـــاهْ
يـا لـه مـن دُعَـاء هـزّ قلبـي صـداه!
لَـمْ يَعُـدْ لـي بقَـاء فـوق هـذي البقـاع

* * *

الـوَداعَ! الـوَداع! يـا جبـالَ الهمـومْ
يـا ضبـابَ الأسـى! يـا فجـاجَ الجحيـم!
قـد جـرى زوْرقـي في الخضمِّ العظيم..
ونشـرتُ القـلاعْ... فـالـوَداع! الـوَداع!

13 ذو الحجة 1351
9 أفريل 1933 = [السبت 1933/4/8]

ألحاني السكرى

[الخفيف]

قــد سكــرنــا بحبِّنــا واكتفينــا يا مديرَ الكؤوس فاصرفْ كؤوسَكْ
واسكبِ الخمرَ للعصافيرِ والنحْـ ـل وخلِّ الثرى يَضُمُّ عروسَكْ

* * *

مـا لنـا والكـؤوس، نطلـب منهـا نشـوةً والغـرامُ سحـرٌ وسُكـرُ!
خَلِّنـا منـك، فـالـربيـع لنـا سـاقٍ وهـذا الفضـاءُ كـأسٌ وخمـر!

* * *

نحن نحيا كالطير، في الأفق السا جي وكالنحل، فوق غضِّ الزهور
لا نـرى غيـرَ فتنـةِ العـالـم الحـيِّ (م) وأحـلامِ قلبهـا المسحـور...

* * *

نحن نلهو تحتَ الظلالِ، كطفلين سعيـديـن، فـي غُـرور الطفـولـةْ
وعلى الصخرةِ الجميلةِ في الوادي وبيـن المخـاوفِ المجهـولـةْ

* * *

نحن نغدو بين المروج ونُمسي ونغنّي مع النسيم المغنّي
وننـاجي روحَ الطبيعة في الكون ونُصغي لقلبها المتغني

* * *

نحن مثل الربيع : نمشي على أرضٍ من الزهر، والرؤى، والخيالِ
فوقها يرقص الغرام، ويلهو ويغنّي في نشوةٍ ودلالِ

* * *

نحن نحيا في جَنة من جِنان السحر في عالمٍ بعيدٍ.. بعيدِ..
نحن في عُشِّنا المُوَرَّدِ، نتلو سُوَرَ الحُبِّ للشَّباب السعيد

* * *

قد تركنا الوجودَ للناس، فليقضُوا الحياةَ كيف أرادوا
وذهبنا بلبِّه، وهو روحٌ وتركنا القشورَ، وهي جَمادُ

* * *

قد سكرنا بحبنا، واكتفينا طَفَح الكأس، فاذهبوا يا سُقاةُ
نحن نحيا فلا نريد مزيدا حسبنا ما منحتِنا يا حياة

* * *

حسبنا زهرُنا الذي نَتَنَشَّى حسبُنا كأسُنا التي نترشّفْ
إنّ في ثغرنا رحيقاً سماوياً وفي قلبنا ربيعاً مفوّفْ

* * *

أيها الدهر، أيها الزمن الجاري إلى غير وُجهةٍ وقرارِ!
أيها الكون! أيها الفلك الدَّوَّار بالفجر، والدجى، والنهار!

* * *

أيها الموت! أيها القدر الأعمى! قِفُوا! حيث أنتُمُ! أو فسيرُوا(!)
ودعونا هنا: تُغنّي لنا الأحلامُ والحبُّ، والوجودُ، الكبير (!)

* * *

وإذا ما أبَيْتُمُ، فاحملونا ولهيبُ الغرام في شفتيْنا
وزهورُ الحياة، تعبقُ بالعطر وبالسحر، والصِّبا في يدينا[1]

25 جمادى الأولى 1352
15 سبتمبر 1933 = [الخميس 1933/9/14]

(1) في المقاطع الأخيرة تأثر ببعض مقاطع قصيدة البحيرة للامرتين.

إرادة الحياة

[المتقارب]

«إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدرْ
ولا بدَّ لليل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقْه شوْق الحياة ... تبخَّرَ في جوِّها واندثر
فويل لمن لم تَشُقهُ الحيا ... ة من صفْعة العدَم المنتصر»
كذلك قالت ليَ الكائنات ... وحدثني روحُها المستتر

* * *

ودمدمتِ الرِّيحُ بين الفِجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر:
«إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ ... ركبتُ المُنى، ونسِيت الحذر»
«ولم أتجنَّب وعورَ الشِّعاب ... ولا كُبَّةَ اللّهَب المستعر»
«ومن لا يحبُّ صعودَ الجبال ... يعش أبَدَ الدهر بين الحفر»
فعجَّتْ بقلبي دماءُ الشباب ... وضجَّت بصدري رياحٌ أخَر...
وأطرقتُ، أصغي لقصف الرعود ... وعزف الرياح، ووقع المطر

* * *

وقالت لي الأرض ـ لما سألت: ... «أيا أمُّ هل تكرهين البشر؟»

«أُبارك في الناس أهلَ الطموح ومن يستلذُّ ركوبَ الخطر»
«وألْعنُ من لا يماشي الزمانَ ويقنع بالعيْشِ عيشِ الحجَر»
«هو الكون حيٌّ، يحبُّ الحياة ويحتقر المَيْتَ، مهما كبُر»
«فلا الأفْق يحضن ميْتَ الطيورِ ولا النحلُ يلثم ميْتَ الزهر»
«ولولا أمُومة قلبِي الرّؤوم لَمَا ضمّتِ الميْتَ تلك الحُفَر»
«فويلٌ لمن لم تشُقه الحيا ة، مِن لعنة العدم المنتصِر!»

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف مثقَّلةٍ بالأسى، والضجر
سكرتُ بها من ضياء النجوم وغنَّيْتُ للحُزْن حتى سكر
سألتُ الدجى: هل تُعيد الحياةُ، لما أذبلته، ربيعَ العمر؟[1]
فلم تتكلّم شفاه الظلام ولم تترنَّمْ عذارى السَّحَر
وقال ليَ الغابُ في رقَّةٍ مُحَبَّبَةٍ مثل خفْق الوتر:
«يجيء الشتاءُ، شتاء الضباب شتاء الثلوج، شتاء المطر»
«فينطفيءُ السِّحرُ، سحر الغصون وسحرُ الزهور، وسحر الثمر»
«وسحر السماء، الشجيُّ، الوديعُ وسحرُ المروج، الشهيُّ، العطِر»
«وتهوِي الغصونُ، وأوراقها وأزهار عهدِ حبيبٍ نضِر»
«وتلهو بها الريح في كل وادٍ، ويدفنها السيلُ، أنَّى عبر»
«ويفنى الجميعُ كحُلْمٍ بديع، تألّق في مهجةٍ واندثر»

(1) في المطبوع: (تعبد) وأضفنا فاصلتين بين الجملة الفاصلة بين الفاعل والمفعول به للتوضيح.

«وتبقى البذورُ، التي حُمِّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ، غَبَر»
«وذكرى فصولٍ، ورؤيا حياةٍ، وأشباحَ دنيا، تلاشتْ زُمَر»
«معانقةً - وهي تحت الضباب، وتحت الثلوج، وتحت المَدَر -»
«لِطَيْفِ الحياة الذي لا يُمَلُّ وقلبِ الربيع الشذيِّ الخضِر»
«وحالمةً بأغاني الطيور وعِطْرِ الزهور، وطعمِ الثمر»

* * *

«ويمشي الزمان، فتنمو صروف، وتذوِي صروف، وتحيا أُخَر»
«وتُصبِحُ أحلامها يقْظَةً، مُوَشَّحةً بغموض السَّحَر»
«تُسائل: أين ضباب الصباح، وسِحْرُ المساء؟ وضوء القمر؟»
«وأسرابُ ذاك الفَراشِ الأنيق؟ ونحلٌ يغنِّي، وغيمٌ يمر؟»
«وأين الأشعَّةُ والكائناتُ؟ وأين الحياة التي أنتظر؟»
«ظمئتُ إلى النور، فوق الغصون! ظمئت إلى الظل تحت الشجر!»
«ظمئتُ إلى النَّبْع، بين المروج، يغنِّي، ويرقص فوق الزّهَر!»
«ظمئتُ إلى نَغَمات الطيور، وهَمْسِ النّسيم، ولحن المطر»
«ظمئتُ إلى الكون! أين الوجودُ وأنّى أرى العالَمَ المنتظر؟»
«هو الكونُ، خلف سبات الجمود وفي أُفقِ اليقظات الكُبَر»

* * *

«وما هو إلا كخفق الجنا ح حتى نما شوقُها وانتصر»
«فصَدّعت الأرضَ من فوقها وأبصرتِ الكونَ عذبَ الصُّوَر»

«وجـاء الـربيـع، بـأنغـامـه، وأحـلامـه، وصِبـاه العطِـر»
«وقبَّلهـا قُبَـلاً فـي الشفـاه تعيـد الشبـاب الـذي قـد غَبَـر»
«وقـال لهـا: قـد مُنِحْـتِ الحيـاةَ وخُلِّـدْتِ فـي نسلـكِ المُـدّخَـر»
«وبـاركَـكِ النُّـورُ، فـاستقبلـي شبـابَ الحيـاة وخِصْـبَ العُمـر»
«ومَـن تعبـد النـورَ أحـلامُـه، يُبَـارِكُـهُ النّـورُ أنّـى ظهـر»
«إليـكِ الفضـاءَ، إليـكِ الضيـاءَ إليك الثرى، الحالمَ، المزدهر!»
«إليـكِ الجمـالَ الـذي لا يَبيـدُ! إليكِ الوجودَ، الرحيبَ، النضِر!»
«فميدي ـ كما شئتِ ـ فوق الحقول، بحلـو الثمـار وغـضِّ الـزّهَـر»
«وناجي النسيمَ، وناجي الغيومَ، وناجي النجومَ، وناجي القمر»
«ونـاجـي الحيـاةَ وأشـواقَهـا، وفتنـةَ هـذا الـوجـود الأغـر»

* * *

«وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ، يشُـبُّ الخيـالَ، ويُـذكـي الفِكَـر»
«ومُـدّ علـى الكـون سِحرٌ غـريـبٌ يُصَـرّفـه سـاحـرٌ مقتـدر»
«وضاءت شموعُ النجوم الوِضاءِ، وضـاع البَخُـورُ، بخـور الـزّهَـر»
«ورفـرف روحٌ، غـريـبُ الجمـال بـأجنحـةٍ مـن ضيـاء القمـر»
«ورنَّ نشيـدُ الحيـاة المقـدّ سُ في هيكلٍ، حالمٍ، قد سُحِر»
«وأعْلِـنَ فـي الكـون: أنّ الطمـوحَ لهيـبُ الحيـاةِ، ورُوحُ الظفَـر»
«إذا طمحـتْ للحيـاة النفـوس فـلا بـدّ أنْ يستجيـب القـدر!»

26 جمادى الأولى 1352
16 سبتمبر 1933 = [الجمعة 1933/9/15]

تحت الغصون

[الخفيف]

ههنا في خمائل الغاب تحت الزان ... والسِّنديان، والزيتونِ
أنتِ أشهى من الحياة وأبْهى ... من جمال الطبيعة الميمون
ما أرقّ الشبابَ، في جسمكِ الغضِّ ... وفي جيدكِ، البديعِ، الثمين!
وأدقّ الجمالَ في طرفكِ الساهي، ... وفي ثَغرِكِ الجميل، الحزين!
وألذّ الحياةَ حين تغنّين ... فأصغي لصوتكِ المحزون
وأرى رُوحكِ الجميلةَ عِطراً ... ضايعاً في حلاوة التلحين!
قد تغنيتِ منذُ حينٍ بصوتٍ ... ناعمٍ، حالمٍ، شجيٍّ حنون
نَغَما كالحياة عذباً عميقاً ... في حنانٍ، ورقّةٍ، وحنين
فإذا الكون قطعةٌ من نشيدٍ ... عليٍّ، منغّمٍ، موزون
فلِمن كنتِ تُنشدين؟ فقالتْ: ... «للضياء البَنفسجيِّ الحزين»
«للضّباب المورّد، المتلاشي ... كخيالات حالمٍ، مفتون
«للمساءِ المطلِّ للشّفَق الساجي، ... لسحر الأسى، وسحر السكون»
«للعبير الذي يرفرف في الأفْق ... ويفنى، مثل المُنى، في سكون»
«للأغاني التي يردّدها الراعي ... بمزماره الصغير، الأمين»

«للربيع الذي يؤجِّج في الدنيا حيـاةَ الهـوى، وروحَ الحنيـن»
«ويوشِّي الوجودَ بالسحر، والأحلام والـزهـر، والشـذى، واللُّحـون»
«للحيـاة التـي تغنِّـي حـوالَـيَّ! على السهل، والربى والحُزون»
«للينـابيـع، للعصـافيـر، للظـلّ لهـذا الثـرى، لتلـك الغصـون»
«للنسيـم الـذي يضمِّـخ أحـلامـي بعطـر الأقـاح والليمـون»
«للجمال الذي يفيض على الدنيا لأشـواق قلبـيَ المَشحـون»
«للـزمـان الـذي يـوشّـح أيَّـامـي بضـوء المُنـى وظـلّ الشجـون»
«للشباب السكران، للأمل المعبود لليـأس، لـلأسـى، للمَنـون»

* * *

فتنهـدْتُ، ثـم قلـتُ: «وقلبـي مَـنْ يغنّيـه؟ مَـنْ يُبيـدِ شجـونـي؟»
قالتِ: «الحبُّ» ثم غنّتْ لقلبي قُبَـلاً عبقـريّـةَ التلحيـن
قُبَـلاً، علّمـت فـؤادي الأغـانـي، وأنـارتْ لـه ظـلام السنيـنَ
قبَـلاً، تَـرقُـص السعـادةُ، والحـبُّ علـى لحنهـا العميـقِ الـرصيـن

* * *

. . وأفقنا فقلت كالحالم المسحور: «قـولـي، تكلمـي، خبّـريني؟»
«أيُّ دنيـا مسحـورة، أي رؤيـا طالَعَتْنِي في ضوء هذي العيون؟»
«زمـرٌ مـن مـلائـك المـلأ الأعلى يغنّـون فـي حُنُـوٍّ حَنـون»
«وصبـايـا رواقـصٌ، يتـراشقـن بـزهـر التُّفـاح واليـاسميـن»
«فـي فضـاءٍ، مُـوَرّدٍ حـالـمٍ سـاهٍ أطـافـت بـه عـذارى الفُنـون»

«وجحِيمٍ تَـؤُجُّ تحت فـراديسَ كـأحـلام شـاعـر مجنـون»
«أيُّ خمـرٍ مـؤَجَّـجٍ ولهيـبٍ مُسكـرٍ؟ أي نشـوة، وجنـون؟»
«أي خمـرٍ رشفـتُ، بـل أي نـارٍ فـي شفـاهٍ، بـديعـة التكـويـن»
«ورَّدتْها الحياةُ في لَهَبِ السِّحر ونُـور الهـوى، وظـلِّ الشجـون»
«أي إثـمٍ مقـدّس، قـد لبسنـا بُـرْدَهُ فـي مسـائنـا الميمـون»؟
فَبَـدَا طيـفُ بسمـةٍ، سـاحـرٌ عـذبٌ، علـى ثَغـرهـا، قَـويُّ الفتـون
وأجـابـتْ ـ وكلهـا فتنـةٌ تُغـوي وتُغـري بـالحـب، بـل بـالجنـون ـ:
« أبـدا ! أنتَ حالمٌ، فاسأل الليلَ، فعنـد الظـلام علـمُ اليقيـن. . . »
وسكتنـا، وغـرّدَ الحُـبُّ فـي الغـاب، فـأصغـى حتـى حفيـفُ الغصـون
وبنـى الليـلُ والـرّبيـع حـوالينـا مـن السِّحْـر والـرُّؤى والسكـون
معبـداً للجمـال، والحُـبِّ شِعـريًّـا مَشيـداً علـى فِجـاج السنيـن
تحتـه يـزْخـرُ الـزّمـانُ، ويجـري صـامتـاً، فـي مَسِيلـه المحـزون
وتمـرُّ الأيـامُ، والحـزنُ، والمـوتُ، بعيـداً عـن ظلّـه المـأمـون
معبداً، ساحراً، مباخرُهُ الزّهرُ على الصخْرِ، والثرى، والغصون
كـلُّ زهـرٍ يضـوع منـه أريـجٌ مـن بَخـور الـربيـع، جـمُّ الفتـون
ونجـومُ السمـاء فيـه شمـوعٌ أوْقَـدَتْهـا للحُـبِّ رُوحُ القـرون
ومضتْ نسمةٌ تُوَسْوِسُ للغاب، وتشـدوُ فـي عُمْـقِ ذاك السكـون
وطغـى السِّحـر، والغـرام بقلبـي فتـوسَّلْـتُ ضـارعـاً بجفـونـي:
«طهِّـري يـا شقيقـةَ الـرُّوحِ ثَغْـرِي بلهيـب الحيـاة، بـل قبِّلينـي»
«إنّ نارَ الحياةِ والكوثرَ المنشودَ فـي ثغـركِ الشهـيِّ، الحـزيـن»

«فهو كأسٌ سحرية، لرحيق الخلد ... قـد صـاغهـا إلّـه الفنـون»
«قبّليني، وأسْكِري ثَغريَ الصادي ... وقلبـي، وفِتنتـي، وجنـونـي»
علّنـي أستطيـع أن أتغنّـى ... لجمـال الـدُّجى بـوحـي العيـون»
«آه! مـا أجمـل الظـلام! وأقـوى ... وحيَـه فـي فـؤادي المفتـون!»
«انظري الليل فهو في حلّة الأحـ ... ـلام يمشي على الذرى والحزون»[1]
«واسمعي الغاب، فهو قيثارةُ الكون ... تغنّـي لحبنـا الميمـون»
إن سِحر الضباب، والليل، والغاب ... بعيـد المـدى، قـويُّ الفتـون
«وجمـال الظـلام يعبـق بـالأحـلام ... والحب. . . . فابسمي، والثميني»

* * *

«آهِ! مـا أعـذب الغـرام! وأحلـى ... رَنَّـةَ اللثـم فـي خشـوع السكـون!»

* * *

. . وسكرنا هناك. . في عالم الأحلام ... تحت السماء، تحت الغصون. .
وتوارى الوجود عنّا بما فيه. . . ... وغبنـا فـي عـالـم مفتـون. . .
ونسينا الحياة، والموت، والكـون ... ومـا فيـه مـن مُنًـى ومَنـون

1 جمادى الثانية 1352

21 سبتمبر 1933 = [الأربعاء 20/9/1933]

---

(1) [في] سقطت من ط 2 ـ 3. . . وطبعة دار العودة والوزن يقتضيها وهي في الطبعة الأولى.

إلى الشعب

[الخفيف]

أيــن يــا شعــبُ قلبُــك الخــافــقُ الحسَّــاسُ؟
أيـــــن الطمـــــوحُ، والأحـــــلامُ؟
أيــن يــا شعــبُ، روحُــك الشــاعــر الفنَّــان؟
أيـــــن، الخيـــــال والإلهـــــام؟
أيــن يــا شعــب، فنُّــك الســاحــرُ الخــلّاقُ؟
أيـــــن الـــــرســـــوم والأنغـــــام؟
إنّ يـــمّ الحيـــاة يـــدوي حـــوالَيْـــكَ
فـــأيـــن المُغـــامِـــرُ، المقـــدام!
أيـــن عـــزم الحيـــاة؟ لا شـــيء إلّا
المـــوتُ، والصَّمـــتُ، والأســـى، والظـــلام
عُمُـــرٌ مَيِّـــتٌ، وقلـــبٌ خَـــواءٌ
ودمٌ، لا تثيـــــــــــــــــره الآلام
وحيـــاةٌ، تنـــامُ فـــي ظلمـــة الـــوادي
وتنمـــو مـــن فـــوقهـــا الأوهـــام

أيُّ عيـــــش هـــــذا، وأيُّ حيـــــاة؟!

(رُبّ عَيْـــشٍ أخَـــفُّ منـــه الحِمَـــام»[1]

* * *

قـــد مشـــتْ حـــولـــكَ الفصـــولُ وغَنَّتْـــكَ

فلـــم تبتهـــج، ولـــم تتـــرنَّـــمْ

ودَوَتْ فـــوقـــك العـــواصـــفُ والأنـــواء

حتَّـــى أوْشَكْـــتَ أن تتحطّـــم

وأطـــافَـــتْ بـــكَ الـــوحـــوشُ ونـــاشتْـــك

فلـــم تضطـــرب، ولـــم تتـــألّـــمْ

يـــا إلٰهـــي! أمـــا تحـــسُّ؟ أمـــا تشـــدو؟

أمـــا تشتكـــي؟ أمـــا تتكلّـــمْ؟

مَـــلّ نهْـــرُ الـــزّمـــانِ أيـــامَـــك المـــوتَـــى

وأنقـــاضَ عُمْـــرِكَ المتهـــدِّمْ

أنـــتَ لا مَيِّـــت فيبلـــى، ولا حـــيٌّ

فيمشـــي، بـــل كـــائـــنٌ، ليـــس يُفْهَـــمْ

---

(1) عجز بيت للمتنبي صدره: [ذل من يغبط الذليل بعيش] وهو البيت الرابع من قصيدة مطلعها:

لا افتخـــار إلا لمـــن لا يضـــامُ مـــدركٌ أو محـــاربٌ، لا ينـــام

وهي في مدح أبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني.

انظر ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ج 4 ص 215 ـ 216 طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

أبـــداً يـــرمـــق الفـــراغُ بطـــرفِ
جـــامـــدٍ، لا يـــرى العـــوالِـــمَ، مُظْلِـــمْ
أيُّ سِحْـــر دهـــاكَ، هـــل أنـــتَ مسحـــورٌ
شقـــــيٌّ؟ أو مـــــاردٌ، يتهكَّـــــمْ؟

* * *

آه! بـــل أنـــت فـــي الشعـــوب عجـــوزٌ
فيلســـوفٌ، مُحَطَّـــمٌ فـــي إهـــابِـــهْ
مـــاتَ شـــوقُ الشبـــاب فـــي قلبـــه الـــذاوي
وعـــزمُ الحيـــاة فـــي أعصـــابـــهْ
فمضـــى ينشـــد الســـلامَ.. بعيـــداً..
فـــي «قبـــور الـــزمـــان» خلـــفَ هضـــابـــه
وهنـــاكَ، اصطفـــى البقـــاءَ مـــع الأمـــوات
فـــي «قبـــر أمســـه» غيـــرَ آبِـــهْ..
وارتضـــى القبـــرَ مسكنـــاً، تتـــلاشـــى
فيـــه أيـــامُ عُمْـــرِهِ المُتشـــابِـــهْ
وتنـــاســـى الحيـــاةَ، والـــزّمَـــنَ الـــدّاوي
ومـــا كـــان مِـــنْ قـــديـــمِ رِغـــابِـــهْ
فـــالْـــزَمِ القبـــرَ.. فهـــو بيـــتٌ، شبيـــهٌ
بـــكَ فـــي صمـــت قلبِـــه، وخـــرابِـــه

واعبـدِ «الأمـسَ» واذَّكـرِ صُـوَرَ المـاضـي
فـدُنْيَـا العجـوز ذِكـرى شبـابِـهْ . . .

* * *

وإذا مَـرّت الحيـاةُ حـوالَيْـكَ
جميـلاً، كـالـزهـر غَضّـاً صِبـاهـا
تتغنّـى الحيـاةُ بـالشـوق والعـزم
فيُحْيِـي قلـبَ الجَمـاد غِنـاهـا
والـربيـعُ الجميـلُ يـرقـص فـوق
الـورد، والعشـب، مُنْشِـداً، تيَّـاهـا
ومشـى النـاسُ خلفهـا، يتَمَلَّـوْنَ
جمـالَ الـوجـود فـي مَـرْآهـا
فـاحْـذَرِ السِّحْـرَ! أيهـا النـاسـكُ القِـدّيـسُ
إنَّ الحيـاةَ يُغْـوي بَهـاهـا
والـربيـعُ الفنَّـانُ شـاعِـرهُـا المفتـونُ
يُغْـرِي بحبّهـا وهـواهـا
وتَمَـلَّ الجمـالَ فـي رِمَـم المـوتـى . . !
بعيـداً عـن سحـرهـا وصـداهـا
وتَغَـزّلْ بسحـر أيـامِـكَ الأولـى
وخَـلِّ الحيـاةَ تخطـو خطـاهـا!

* * *

وإذا هبَّـــت الطيـــورُ مـــع الفجـــر
تُغنِّـــي بيـــن المـــروج الجميلـــهْ
وتُحَيِّـــي الحيـــاةَ، والعـــالَـــمَ الحـــيَّ
بصـــوتِ المحبَّـــةِ المعســـولـــهْ
والفـــراش الجميـــلُ رَفْـــرَفَ فـــي الـــروض،
ينـــاجـــي زهـــورَه المطلـــولـــهْ
وأفـــاقَ الـــوجـــودُ لِلْعمـــل المُجْـــدِي
وللسَّعـــي، والمعـــانـــي الجليلـــهْ
ومشـــى النـــاس فـــي الشِّعـــاب، وفـــي الغـــاب،
وفـــوقَ المســـالـــكِ المجهـــولـــهْ
ينشـــدون الجمـــالَ، والنُّـــورَ، والأفـــراح
والمجـــدَ، والحيـــاةَ النبيلـــهْ
فـــاغضُـــض الطـــرفَ فـــي الظـــلام! وحـــاذِرْ
فِتنـــة النُّـــورِ. . ! فهْـــيَ رُؤْيـــا مَهُـــولَـــهْ
وصبـــاحُ الحيـــاةِ لا يُـــوقِـــظُ المَـــوْتَـــى
ولا يـــرحـــمُ الجفـــونَ الكليلـــهْ

* * *

كـــلُّ شـــيءٍ يُعـــاطِـــف العـــالَـــمَ الحـــيَّ
ويُـــذكـــي حيـــاتَـــه، ويُفيـــدُهْ

والـــذي لا يُجـــاوِب الكـــونَ بـــالإحســـاس
عِـــبْءٌ علـــى الـــوجـــود، وُجـــودُهْ
كـــلُّ شـــيءٍ يُســـايـــرُ الـــزمـــنَ المـــاشـــي
بعـــــزمٍ، حتـــــى التـــــرابُ، ودودُهْ
كـــلُّ شـــيءٍ - إلاّكَ - حـــيٌّ، عطـــوفٌ.
يُـــؤْنِـــسُ الكـــونَ شَـــوْقُـــه، ونَشيـــدُهْ
فلِمـــاذا تعيـــش فـــي الكـــون يـــا صـــاحِ!
ومـــا فيـــكَ مـــن جنّـــى يستفيـــدُهْ
لســـتَ يـــا شيـــخُ للحيـــاةِ بـــأهْـــلِ
أنـــت داءٌ يُبيـــدُهـــا وتُبيـــدُهْ
أنـــت قَفْـــرٌ جهنَّمـــيٌّ لَعِيـــنٌ
مُظلـــمٌ، قـــاحـــلٌ، مُـــريـــعٌ جمـــودُهْ
لا تَـــرِفُّ الحيـــاةُ فيـــه، فـــلا طيـــرٌ
يُغنِّـــي، ولا سحـــابٌ يَجُـــودُهْ

* * *

أنـــتَ يـــا كـــاهـــنَ الظـــلامِ حيـــاةٌ
تعبـــد المـــوتَ. . ! أنـــت روحٌ شقـــيٌّ
كـــافـــرٌ بـــالحيـــاةِ والنُّـــورِ. . . لا يُصغـــي
إلـــى الكـــون قلبُـــه الحَجَـــرِيُّ

أنـــتَ قلـــبٌ، لا شـــوقَ فيـــه ولا عـــزمَ
وهـــــذا داءُ الحيـــــاةِ الـــــدّوِيُّ
أنـــتَ دنيـــا، يُظلُّهـــا أفُـــقُ المـــاضـــي
وليـــــلُ الكـــــآبـــــةِ الأبـــــديُّ
مـــات فيهـــا الـــزمـــانُ، والكـــونُ إلاّ
أمسُهـــا الغـــابـــرُ، القـــديـــمُ، القَصِـــيُّ
والشقـــيُّ الشقـــيُّ فـــي الأرض قلـــبٌ
يَـــومُـــهُ مَيِّـــتٌ، ومـــاضيـــه حـــيُّ
أنـــتَ لا شـــيءَ فـــي الـــوجـــودِ، فغـــادِرْهُ
إلـــى المـــوت فَهْـــوَ عنـــك غَنِـــيُّ

25 جمادى الثانية 1352
15 اكتوبر 1933 = [السبت 1933/10/14]

الناس

[البسيط]

ما قدّسَ المثَلَ الأعلى وجمَّلَه ... في أعيُنِ الناس إلاّ أنه حُلُمُ!

ولو مشَى فيهمُ حيّاً لحطَّمه ... قومٌ، وقالوا بخبثٍ: «إنه صنَمُ»!

لا يعبد الناسُ إلا كلَّ منعدمٍ ... مُمنَّعٍ، ولمَنْ حابَاهُمُ العدم!

حتى العباقرة الأفذاذُ، حبُّهمُ ... يلقَى الشقاء وتَلقَى مجدَها الرِّمَمُ!

* * *

الناسُ لا يُنصفونَ الحيّ بينهمُ ... حتَّى إذا ما توارى عنهمُ ندموا!

الويْلُ للناسِ من أهوائهمْ! أبداً ... يمشي الزمانُ وريحُ الشّرِ تحتدمُ..

20 شعبان 1352

8 ديسمبر 1933 = [الخميس 1933/12/7]

متاعب العظمة

[الطويل]

إذا صغرت نفسُ الفتى كان شوقُه صغيراً، فلم يتعبْ: ولم يتجشمِ
ومَن كان جبَّارَ المطامِحِ لم يزل يلاقي من الدنيا ضراوةَ قَشعمِ[1]

23 شعبان 1352
11 ديسمبر 1933 = [الأحد 1933/12/10]

(1) القشعم: النسر.

نشيد الجبار
أو هكذا غنى بروميثيوس

[الكامل]

سـأعيـش رغـمَ الـداءِ والأعـداءِ ... كـالنَّسـر فـوق القِمَّـةِ الشمَّـاءِ
أرنو إلى الشمس المضيئة . . هازئاً ... بالسُّحْبِ، والأمطار، والأنواء . .
لا أرمقُ الظلّ الكئيبَ . . ولا أرى ... مـا فـي قـرار الهُـوّةِ السـوداء . .
وأسيرُ في دنيا المشاعر حالماً ... غـرِداً ـ وتلـك سعـادة الشعـراء ـ
أُصغي لموسيقى الحياة، ووحْيِها ... وأذيـب روحَ الكـون فـي إنشـائي
وأصيـخُ للصـوت الإلٰهـي الـذي ... يُحيـي بقلبـي ميّـتَ الأصـداء

* * *

وأقـول للقـدر الـذي لا ينثنـي ... عـن حـرب آمـالي بكـل بـلاء :
«لا يطفيء اللهبَ المؤجَّجَ في دمي ... موجُ الأسى، وعواصفُ الأرزاء»
«فاهدم فؤادي ما استطعت، فإنه ... سيكـون مثـل الصخـرة الصمـاء»
«لا يعرف الشكوى الذليلَة والبكا، ... وضَـراعَـة الأطفـال والضّعفـاء»
«ويعيـش جبَّـاراً، يحـدِّق دائمـا ... بالفجر . . بالفجر الجميل، النائي»

«واملأ طريقي بالمخاوفِ، والدُّجى وزوابـعِ الأشـواك والحصبـاء»
«وانشر عليه الرُّعبَ، وانثر فوقه رُجمَ الرّدى، وصواعقَ البأساء»
«سأظل أمشي رغم ذلك، عازفاً قيثـارتـي، مترنِّمـاً بغنـائـي»
«أمشـي بـروح حـالـمٍ، مُتَـوَهِّـجٍ فـي ظلمـة الآلام والأدواء»
«النـور فـي قلبـي وبيـن جـوانحـي فعلام أخشى السيرَ في الظلماء!»
«إنـي أنـا النـايُ الـذي لا تنتهـي أنغـامـه، مـا دام فـي الأحيـاء»
«وأنا الخضمُّ الرحْبُ، ليس تزيده إلا حيـاةً سطـوةُ الأنـواء»
«أمَّا إذا خمدت حياتي، وانقضى عُمُري، وأخرست المنيَّةُ نائي»[1]
«وخبا لهيبُ الكون في قلبي الذي قـد عـاش مثـلَ الشعلـة الحمـراء»
«فـأنـا السعيـد بـأننـي مُتَحَـوِّلٌ عـن عـالـم الآثـام، والبغضـاء»
«لأذوب في فجر الجمال السرمديِّ وأرتـوي مـن مَنْهَـلِ الأضـواء»

* * *

وأقـولُ للجمـع الـذيـن تجشّمـوا هـدمـي ووَدُّوا لـو يخـرُّ بنـائـي
ورأوْا على الأشواك ظلِّي هامِداً فتخيَّلُـوا أنِّـي قضيْـتُ ذَمـائـي
وغـدوْا يَشُبُّـونَ اللهيـبَ بكـلِّ مـا وجدوا. . ، ليشوُوا فوقه أشلائي
ومضَوْا يمدُّون الخِوان، ليأكلوا لحمـي، ويـرتشفـوا عليـه دمـائـي
إنـي أقـول لهـم - ووجهـي مشـرقٌ وعلى شفاهي بسمة استهزاء -:
«إن المعـاول لا تهـدُّ منـاكبـي والنـار لا تـأتـي علـى أعضـائـي»
«فارموا إلى النار الحشائشَ. والعبوا يا معشر الأطفال تحت سمائي»

(1) أي نايي، والناي كالمزمار.

«وإذا تمرّدت العواصف، وانتشى بـالهـول قلـب القبّـة الـزّرقـاء»
«ورأيتمـونـي طـائـراً، متـرنِّمـاً فوق الزوابع، في الفضاء النائي»
«فارموا على ظلّي الحجارة، واختفوا خوْفَ الرياحِ الهُوجِ والأنواء. . .»
«وهناك، في أمْنِ البيوت، تطارحوا غَـثّ الحـديـث، وميِّـتَ الآراء»
«وترنَّموا ـ ما شئتمُ ـ بشتائمي وتجاهروا ـ ما شئتمُ ـ بعدائي»
«أمَـا أنـا فـأجيبكـم مـن فـوقكـم والشمسُ والشفقُ الجميل إزائي»:
«من جاش بالوحي المقدّسِ قلبُه لـم يحتفِـلْ بحجـارة الفُلَتـاءِ»[1]

27 شعبان 1352
15 ديسمبر 1933 = [الخميس 1933/12/14]

(1) انظر رسائل الشابي، رسالة رقم 29 بتاريخ 1933/12/19 حيث أشار إلى ظروف كتابة القصيدة.

زوبعة في ظلام

[السريع]

لـو كـانـت الأيـام فـي قبضتـي ... أذريتُهـا للـريـح، مثـل الـرمـالْ
وقلـت: «يـا ريـحُ، بهـا فـاذهبـي ... وبـدِّديهـا فـي سحيـقِ الجبـالْ»
«بل في فجاج الموت.. في عالَمٍ ... لا يرقص النورُ به والظِّلالْ...»

* * *

لـو كـان هـذا الكـون فـي قبضتـي ... ألقيْتُـه فـي النـار، نـار الجحيـمْ
مـا هـذه الـدنيـا، وهـذا الـورى ... وذلـك الأفـق، وتلـك النجـومْ؟!
النـــار أوْلـــى بعبيـــد الأســـى، ... ومسـرحِ المـوت، وعُـشِّ الهمـومْ

* * *

يـا أيهـا المـاضـي الـذي قـد قضـى ... وضمَّـهُ المـوتُ، وليـلُ الأبـدْ!
يا حاضر الناس الذي لم يَزُل! ... يـا أيهـا الآتـي الـذي لـم يَلِـدِ![1]
سخـــافـــةٌ دنيـــاكـــمُ هـــذه ... تـائهـةٌ فـي ظلمـة لا تُحَـدّ..!

7 رمضان 1352
24 ديسمبر 1933 = [السبت 1933/12/23]

---

(1) يريد: الذي لم يولد.

الاعتراف

[الكامل]

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ـ ومشاعري عمياء بالأحزانِ ـ
أنّي سأظمأ للحياة، وأحتسي من نهْرها المتوهِّج النّشوان
وأعودُ للدنيا بقلبٍ خافقٍ للحبِّ، والأفراح، والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحرّكت السنون، وأقبلت فتن الحياة بسحرها الفتّان
فإذا أنا ما زلت طفلاً، مولَعاً بتعقُّب الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضُها ضرْبٌ من البهتان والهذيان
إن ابنَ آدمَ في قرارة نفسه عبدُ الحياةِ الصادقُ الإيمانِ

3 ذو القعدة 1352

17 فيفري 1934 = [الجمعة 1934/2/16]

قلب الشاعر

[الرمل]

كـلّ مـا هـبّ، ومـا دبّ، ومـا نـام، أو حـام علـى هـذا الـوجـودْ
مـن طيـورٍ، وزهـورٍ، وشـذى وينـابيـعَ، وأغصـان تميـد
وبحـارٍ، وكهـوفٍ، وذُرى وبـراكيـنَ، ووديـانٍ، وبيـد
وضيـاء، وظـلالٍ، ودجـى، وفصـول، وغيـول، ورعـود
وثلـوج، وضبـاب عـابـر، وأعـاصيـرَ، وأمطـارٍ تجـود
وتعـاليـمَ، وديـن، ورؤى، وأحـاسيـس، وصمـتٍ، ونشيـد
كلُّهـا تحيـا بقلبـي، حُـرّةً غضةَ السحر، كأطفال الخلود[1]

* * *

ههنا، في قلبيَ الرحْبِ، العميق! يرقص الموتُ وأطيافُ الوجود!
ههنـا، تعصـف أهـوال الـدجـى ههنـا، تخفـق أحـلام الـورود

(1) انظر رسائل الشابي «الرسالة 29 بتاريخ 33/12/19 » حيث ذكر المقطع الأول بشيء من التحوير والنقص وقد فضل على ذلك المقطع بيتاً من شعر الحليوي وهو:

حـامـلاً كالإلـه قلبـاً كبيـراً فيـه مـا فـي الوجـود مـن أكـوان

ههنـــا، تهتـــف أصـــداءُ الفنـــا ههنـــا، تُعـــزَفُ ألحـــانُ الخلـــود
ههنا، تمشي الأماني، والهوى، والأسى، في موكبٍ فخْمِ النشيد
ههنـــا الفجـــر الـــذي لا ينتهـــي ههنـــا الليـــل الـــذي ليـــس يبيـــد
ههنـــا، ألـــفُ خِضـــمٍّ، ثـــائـــرٍ خـــالـــدِ الثـورة، مجهـولِ الحـدود
ههنـــا، فـــي كـــلِّ آنٍ تمَّحـــي صُـورُ الـدنيـا، وتبـدو مـن جـديـد

29 ذو القعدة 1352
16 مارس 1934 [1934/3/15]

إلى طغاة العالم

[المتقارب]

ألا أيهـــا الظـــالـــم المستبِـــدُّ حبيـــب الظـــلام، عـــدوّ الحيـــاهْ
سخـرتَ بـأنّـات شعـب ضعيـف وكفّـــك مخضـــوبـــة مـــن دمـــاه
وســرتَ تُشــوِّه سِحْــرَ الــوجــود وتبـذر شـوك الأسـى فـي رُبـاه

* * *

رُوَيــدَك! لا يخـدعنْـك الـربيـعُ وصحـوُ الفضـاء، وضـوء الصبـاحْ
ففي الأفُق الرحب هـولُ الظلام وقصفُ الرعود، وعصف الرياح
حـذار! فتحـت الـرمـاد اللهيـبُ ومـن يبـذرِ الشـوك يجـنِ الجـراح

* * *

تـأمـل! هنـالـك . . أنّـى حصـدتَ رؤوسَ الـورى، وزهـورَ الأمـلْ
ورويَّـت بـالـدم قلـبَ التـراب وأشْـربتَـه الـدمـعَ، حتـى ثمِـل
سيجـرفـكَ السيـلُ، سيـلُ الـدمـاء ويـأكلُـك العـاصـفُ المشتعِـل

23 ذو الحجة 1352
8 أفريل 1934 = [السبت 1934/4/7]

الغاب

[الكامل]

بيتٌ، بَنَتْه ليَ الحياةُ من الشَّذى ... والظـلّ، والأضـواء، والأنغـامِ
بيتٌ، من السحر الجميل، مُشَيَّدٌ ... للحـبِّ، والأحـلام، والإلهـام
فـي الغـاب سِحـرٌ، رائـعٌ مُتجـدِّدٌ ... بـاقٍ علـى الأيـام والأعـوام
وشذًى كأجنحة الملائك، غامضٌ ... سـاهٍ يُـرفـرف فـي سكـونٍ سـام
وجـداولٌ، تشـدو بمعسـول الغِنـا ... وتسيـرُ حـالمـةً، بغيـر نظـام
ومخـارفٌ نَسَـجَ الـزمـانُ بسـاطَهـا ... مـن يـابـسِ الأوراق والأكمـام
وحَنَا عليها الدّوْحُ، في جَبَروته ... بـالظـلِّ، والأغصـان والأنسـام
في الغاب، في تلك المخارف، والرُّبى ... وعلـى التِّـلاع الخُضـرِ، والآجـام
كم من مشاعِرَ، حلوةٍ، مجهولةٍ ... سَكْرَى، ومِنْ فِكَرٍ، ومن أوهام
غَنّتْ، كأسراب الطيور، ورفرفت ... حولي، وذابت كالدّخان، أمامي
ولَكَمْ أصَخْتُ إلى أناشيد الأسى ... وتنهُّـــدِ الآلام والأسقـــام
وإلـى الـريـاح النـائحـات كـأنهـا ... فـي الغـاب تبكـي مَيِّـتَ الأيـام
وإلـى الشبـابِ، مُغَنِّيـاً، مُتَـرَنِّمـا ... حـوْلـي بـألحـان الغـرام الظـامـي
وسمعتُ للطيْر، المغرِّد في الفضا ... والسِّنديان، الشامخ، المتَسامي

وإلى أناشيد الرعاة، مُرِفّةً ... في الغاب، شاديةً كسِرب يَمام
وإلى الصدى، المِمراح، يهتف راقصاً ... بين الفجاج الفيح والآكام
حتى غدا قلبي كنَايٍ، مُتْرَعٍ ... ثَمِلٍ من الألحان والأنغام
فشدوتُ باللحن الغريب مُجَنَّحاً ... بكآبةِ الأحلام والآلام
في الغاب، دنيا للخيال، وللرُّؤى ... والشعرِ، والتفكيرِ، والأحلام
لِلّه يومَ مضيتُ أوّلَ مرّةٍ ... للغاب، أرزحُ تحت عبء سقامي
ودخلتُه وحدي، وحوْلِي موكبٌ ... هَزِجٌ، من الأحلام والأوهام
ومشيتُ تحت ظِلاله مُتَهَيِّباً ... كالطفل، في صَمْتٍ، وفي استسلام
أرنو إلى الأدْوَاحِ، في جبروتها ... فإخالها عَمَدَ السماء، أمامي
قد مسَّها سِحْرُ الحياة، فأوْرَقَتْ ... وتَمَايَلَتْ في جَنَّةِ الأحلام
وأُصيخُ للصّمْتِ المفكّر، هاتِفاً ... في مِسمعي بغرائب الأنغام
فإذا أنا في نَشْوَةٍ شعريةٍ ... فيَّاضَةٍ بالوحي والإلهام
ومشاعري في يقظةٍ مسحورةٍ ... . [1]
وَسْنَى كيقظة آدَمٍ لَمَّا سَرَى ... في جسمه رُوحُ الحياة النامي[2]
وشَجتْه موسيقى الوجودِ، وعانقتْ ... أحلامَه، في رقّةٍ وسلام
ورأى الفراديسَ، الأنيقةَ، تنثني ... في مُتْرَفِ الأزهار والأكمام
ورأى الملائكَ، كالأشعَّة في الفضا ... تنسابُ سابحةً، بغير نظام
وأحسّ رُوحَ الكون تخفق حوله ... في الظِّلِّ، والأضواء، والأنسام

(1) بياض بالأصل والمسودات. (تعليق الطبعة الأولى).
(2) لعلها: (وَسَنًى) والواو للعطف أي: وضياء.

والكـائنـاتِ، تحـوطـه بحنـانهـا ... وبحبِّها، الرحب، العميق، الطامي

حتـى تمـلَّأَ بـالحيـاة كِيـانُـه ... وسعـى وراءَ مـواكـبِ الأيّـام

ولَـرُبّ صُبْـحٍ غـائـمٍ، مُتَحجِّـبٍ ... فـي كِلَّـةٍ مـن زَعْـزَعٍ وغَمـام

تتنفَّـسُ الـدنيـا ضبـابـاً، هـائمـاً ... مُتـدفِّعـاً فـي أفْقـه المُتـرامـي

والرِّيحُ تخفق في الفضاء، وفي الثرى ... وعلـى الجبـال الشُّـمِّ، والآكـام

باكَرْتُ فيه الغاب مَوْهُونَ القُوَى ... متخـاذِلَ الخُطـوات والأقـدام

وجلستُ تحتَ السنديانة، واجما ... أرنو إلى الأُفق الكئيب، أمامي

فأرى المبانيَ في الضباب، كأنّها ... فِكَـرٌ، بـأرض الشـكِّ والإبهـام

أو عـالَـمٌ، مـا زال يُولَـدُ فـي فَضَـا ... ء الكـون، بيـن غيـاهـبٍ وسِـدام

وأرى الفجاجَ الدامساتِ، خلالَهُ ... ومشـاهـدَ الـوديـان والآجـام

فكـأنهـا شُعَـبُ الجحيـم، رهيبـةً ... ملفـوفـةً فـي غُبشـةٍ وظـلام

صُورٌ من الفنِّ المُرَوِّعِ، أعجزت ... وَحْـيَ القـريـضِ وريشـةَ الـرسّـام

ولكـمْ مسـاءٍ، حـالـمٍ متـوشِّـحٍ ... بالظلّ، والضوءِ الحزين الدامي

قد سرتُ في غابي، كفكرٍ، هائمٍ ... فـي نشـوةِ الأحـلام والإلهـام

شِعري، وأفكاري، وكُلُّ مشاعري ... منشـورةٌ للنُّـور والأنسـام

والأفْـقُ يـزخـر بـالأشِعَّـةِ والشَّـذى ... والأرضُ بـالأعشـاب والأكمـام

والغـابُ سـاجٍ، والحيـاةُ مصيخـةٌ ... والأفْقُ، والشفقُ الجميلُ، أمامي

وعروسُ أحلامي تُداعبُ عُودَها ... فيَـرنّ قلبـي بـالصّـدَى وعِظـامـي

روحٌ أنـا، مسحـورةٌ، فـي عـالَـمٍ ... فـوق الـزمـان الـزاخـر الـدوّام

* * *

في الغاب، في الغاب الحبيب، وإنَّه حَـرَمُ الطبيعـة والجمـال السـامـي
طَهَّرحتُ في نار الجمال مشاعري ولقِيتُ في دنيا الخيال سَلامي
ونَسِيتُ دنيا الناس، فهي سخافةٌ سَكْـرَى مـن الأوهـام والآثـام!
وقَبستُ من عَطْفِ الوجود وحُبِّه وجمـالِـه قبساً، أضـاءَ ظـلامـي
فـرأيـت ألـوان الحيـاة نضيـرةً كنضـارة الـزّهَـرِ الجميـل النّـامـي
ووجدتُ سِحْرَ الكون أسمى عنصراً وأجـلَّ مـن حـزنـي ومـن آلامـي
فأهَبْتُ مسحورَ المشاعر، حالماً نشوانَ بالقلب الكئيب الدامي:
«المعبـدُ الحـيُّ المقـدّسُ ههنـا! يـا كـاهـنَ الأحـزان والآلام»
«فاخلعْ مُسوحَ الحزن تحت ظِلاله والبـسْ رداءَ الشعـر والأحـلام»
«وارفعْ صلاتَكَ للجمال، عميقةً مشبـوبـةً بحـرارة الإلهـام»
«واصدحْ بألحان الحياة، جميلةً كجمـال هـذا العـالَـم البسَّـام»
«واخفقْ مع العِطْر المرفوف في الفضا وارقـصْ مـع الأضـواء والأنسـام»
«ومن الينابيع الطليقةِ والصَّدَى، . . . . . »[1]
وذَرَوْتُ أفكاري الحزينةَ للدجى ونثـرتُهـا لعـواطـف الأيـام
ومضيـتُ أشْـدُو لـلأشعَّـة سـاحـراً من صوت أحزاني، وبطش سقامي
وهتفتُ: «يا روحَ الجمالِ تَدَفَّقِي كالنَّهرِ في فِكَرِي، وفي أحلامي»
«وتغلغلي كالنور، في روحي التي ذَبُلَـتْ مـن الأحـزان والآلام»
«أنتِ الشعورُ الحيُّ يزخر دافقاً كالنار، في روح الوجود النامي»

(1) بياض بالأصل والمسودات. (تعليق بالطبعة الأولى).

«ويصـوغ أحـلام الطبيعـة، فـاجعلـي عُمُـرِي نشيـداً، سـاحِـرَ الأنغـام»
«وشذًى يَضُوعُ مع الأشعة والرُّؤى في معبد الحق الجليل السامي»

10 ربيع الثاني 1353[1]
23 جويليه 1934 = [الأحد 1934/7/22]

(1) في رسالة وجهها الشابي إلى محمد الحليوي بتاريخ ربيع الأول 1351 هـ = جويليه 1932 حدّثه عن حياته في (ظلام الغاب) الذي قلت فيه من قصيد لم أتمه:

بيـت بنتـه لـي الحيـاة مـن الشـذى والظـل والأضـواء والأنغـام
بيـت يـرف عليـه سحـر غـامـضٌ سـاه، ويخـفـق فيـه روح سـام

والبيت الثاني لم يثبته في القصيدة. وأظن أن التاريخ الأول أصح وأنه سها فأضاف سنتين أو أتمه بعد سنتين.

حرم الأمومة[1]

[الكامل]

الأمُّ تلثُـــم طفلَـهـــا، وتضمُّـــه حـرَمٌ، سمـاويُّ الجمـال، مقـدّسُ
تتـألّـه الأفكـارُ، وهْـي جـوارَه وتعـود طـاهـرةً هنـاك الأنفُـس
حـرَمُ الحيـاة بطُهـرهـا وحنـانهـا هـل فـوقـه حـرَمٌ أجـلُّ وأقـدس؟
بوركتَ يا حرَمَ الأمومةِ والصِّبـا كـم فيـك تكتمـل الحيـاةُ وتقدُس!

21 ربيع الثاني 1353
3 أوت 1934 = [الخميس 1934/8/2]

(1) انظر رسالة الحليوي إلى الشابي بتاريخ 1934/3/1.

شكوى ضائعة

[البسيط]

يا ليل! ما تصنع النفسُ التي سكنت ... هذا الوجودَ، ومِنْ أعدائها القدر؟
ترضى وتسكت؟ هذا غير محتمل! ... إذاً، فهل ترفض الدنيا، وتنتحر؟
وذا جنونٌ لَعَمْري، كلُّه جَزَعٌ ... باكٍ، ورأيٌ مريضٌ، كلُّه خَوَر!
فإنما الموت ضربٌ من حبائله ... لا يُفلت الخلقُ ما عاشوا، فما النظر؟
هذا هو اللغْزُ، عَمَّاه وعَقّدَهُ ... على الخليقة، وحشٌ، فاتكٌ حذِر
قد كَبَّلَ القدرُ الضاري فرائسَه ... فما استطاعوا له دفعاً، ولا حَزَروا
وخاطَ أعينَهم، كي لا تشاهدَه ... عينٌ، فتعلمَ ما يأتي وما يذر
وحاطهم بفنونٍ من حبائله ... فما لهم أبداً من بطشِه وزَر
لا الموت يُنقذهم من هول صولته ... ولا الحياةُ، تَساوى الناسُ والحجر!
حارَ المساكينُ، وارتاعوا، وأعْجَزَهم ... أن يحذروه، وهل يُجديهم الحذر!
وهم يعيشون في دنيا مشيَّدةٍ ... من الخطوب، وكونٍ كله خطر؟
وكيف يحذر أعمَى، مُدْلجٌ، تَعِبٌ ... هولَ الظلام، ولا عزمٌ ولا بَصَرُ؟
قد أيقنوا أنه لا شيء يُنقذهم ... فاستسلموا لسكون الرعب، وانتظروا
ولو رأوه لسارت كي تحاربَه ... من الورى زُمَرٌ، في إثرها زمر

وثـارت الجـنّ، والأمـلاك نـاقمـةً والبحرُ، والبَرُّ، والأفلاك، والعُصُر
لكنـــه قـــوّةٌ تُملـــي إرادتهـــا سـرّاً، فنَعْنُـوا لهـا قهـراً، ونـأتمـر
حقيقـة، مُـرّةٌ، يـا ليـل، مُبْغَضَـةٌ كالموت، لكنْ إليها الوِرْدُ والصَّدَرُ

* * *

تَنَهَّدَ الليل، حتى قلت: قد نُثِرَتْ تلك النجومُ، ومات الجنُّ والبشر»
وعاد للصّمت.. يُصغي في كآبته ـ كالفيلسوف ـ إلى الدنيا، ويفتكر..
وقَهْقَـهَ القـدرُ الجبّـارُ، سخـريـةً بالكائنات، تَضَاحَكْ أيُّها القدر!
تمشي إلى العدم المحتوم، باكيةً طوائفُ الخلق والأشكالُ والصور
وأنت فوقَ الأسى والموتِ، مبتسمٌ ترنو إلى الكون، يُبْنَى، ثم يندثر

28 ربيع الثاني 1353
5 أوت 1934 = [السبت 1934/8/4]

الدنيا الميتة

[الكامل]

إني أرى . . فأرى جموعاً جَمَّةً ... لكنّها تحيا بِلاَ ألْبابِ

يدوي حوالَيْها الزمان، كأنما ... يدوي حوالَيْ جندل وترابِ

وإذا استجابوا للزمان تناكروا ... وتراشقوا بالشوك والأحصاب

وقضوا على روح الأخوة بينهم ... جهلاً وعاشوا عيشة الأغراب

فَرِحَتْ بهم غولُ التعاسة والفنا ... ومطامعُ السلاّب والغلاّب

لُعَبٌ، تُحرّكها المطامعُ، واللُّهى ... وصغائرُ الأحقاد والآراب

وأرى نفوساً، من دُخان، جامدٍ ... مَيْتٍ، كأشباحٍ، وراء ضباب

مَوْتى، نسُوا شوقَ الحياة وعزمها ... وتحرّكوا كتحرُّك الأنصاب

وخَبَا بِهِمْ لَهَبُ الوجود، فما بَقوا ... إلاّ كمحترِقٍ من الأخشاب

لا قلبَ يقتحمُ الحياةَ، ولا حِجًى ... يسمو سُمُوَّ الطائر الجوّاب

بل في التراب المَيْتِ، في حَزْن الثرى ... تنمو مشاعرهم مع الأعشاب

وتموت خاملةً، كزهْرٍ بائس ... ينمو ويذبُل في ظلام الغاب

أبداً تُحدِّقُ في التراب . . ولا تَرَى ... نورَ السماء . . فروحُها كتراب . . !

الشاعر الموهوبُ يُهرِق فنَّه ... هدراً على الأقدام والأعتاب

ويعيش في كونٍ، عقيم، ميِّتٍ ... قد شيَّدته غباوةُ الأحقاب

والعالِـمُ النَّحـريـر يُنْفِـقُ عُمْـرَه فـي فهـم ألفـاظٍ، ودوس كتـاب
يحيا على رِمَمِ القَديم المُجَتوَى كالدُّود في حمَمِ الرماد الخابي
والشعـبُ بينهمـا قطيـعٌ ضـائـعٌ دنيـاه دنيـا مـأكـل وشـراب

* * *

الـويـلُ للحسّـاس فـي دنيـاهُـمُ مـاذا يـلاقـي مـن أسًـى وعـذاب!

28 ربيع الثاني 1353
10 أوت 1934 = [الخميس 9/8/1934]

فلسفة الثعبان المقدس

فلسفة الثعبان المقدس هي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان. وكما تحدث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزين له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس.

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها: «سياسة الإدماج» وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل حقوقها في هذا العالم، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة. مبغضة، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام.

(الشابي)

[الكامل]

كان الربيعُ الحيُّ روحاً، حالماً ... غضَّ الشباب، معطَّرَ الجلبابِ
يمشي على الدنيا، بفكرة شاعرٍ ... ويطوفها، في موكبٍ خلّاب
والأفْقُ يملأه الحنانُ، كأنّه ... قلبُ الوجود المنتِجِ الوهّاب
والكون من طُهْرِ الحياة كأنّما ... هُو معبدٌ، والغابُ كالمحراب
والشاعرُ الشحرورُ يَرقص، منشداً ... للشمس، فوقَ الوردِ والأعشاب

شعْـرَ السعـادة والسـلام، ونفسُـه سَكْـرَى بسِحْـر العـالَـم الخـلّاب
ورآه ثعبـــانُ الجبـــال، فغمَّـــه مـا فيـه مـن مَـرَحٍ، وفَيْـضِ شبـاب
وانقـضّ، مُضْطَغِنـاً عليـه، كـأنَّـه سـوطُ القضـاء، ولعنـةُ الأربـاب
بُغِتَ الشقيُّ، فصاح في هول القضا متلفِّتـاً للصـائـل المُنْتَـاب
وتَـدَفَّـقَ المسكيـنُ يصـرخ ثـائـراً: «مـاذا جنيـتُ أنـا فحـقّ عقـابـي!»
«لا شـيءَ، إلا أننـي متغـزلٌ بـالكـائنـات، مغـرِّدٌ فـي غـابـي»
«ألقـى مـن الـدنيـا حنـانـاً طـاهـراً وأبُثُّهـا نجـوى المحـبِّ الصـابـي»
أيُعَدُّ هذا في الوجود جريمةً؟! أيـن العـدالـةُ يـا رفـاقَ شبـابـي؟»
«لا [أين؟] فالشرعُ المقدّسُ ههنا رَأيُ القـويِّ وفكـرةُ الغـلّاب!»
«وسعـادة الضعفـاءِ جُـرْمٌ.. مـالـه عنـد القـويِّ سـوى أشـدِّ عقـاب!»
«ولتشهـد الـدنيـا التـي غَنَّيْتُهَـا حلمَ الشباب، وروعةَ الإعجاب»
«أن السـلامَ حقيقـةٌ، مكـذوبـةٌ والعـدلَ فلسفـةُ اللّهيـب الخـابـي»
«لا عـدلَ، إلا إنْ تعـادلـت القُـوَى وتَصَـادَمَ الإرهـابُ بـالإرهـاب»
فتبَسَّـمَ الثعبـانُ بسمـةَ هـازيءٍ وأجاب في سَمْتٍ، وفَرْطِ كِذَاب:
«يـا أيهـا الغِـرُّ المثـرثـر، إنَّـنـي أرثِـي لثـورة جهلـك الثـلّاب»[1]
«والغِـرُّ يعـذره الحكيـمُ إذا طغـى جهـلُ الصِّبـا فـي قلبـه الـوثّـاب»
«فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ، إنها شردتْ بلُبِّكَ، واستمعْ لخطابي»
«إنـي إلّـهٌ، طـالمـا عَبَـدَ الـورى ظلّـي وخـافـوا لعنَتـي وعقـابـي»

(1) في الطبعة الأولى (الثّلاب) وفي بقية الطبعات حتى طبعة دار العودة (التلاب) بالتاء لأن الثاء غير واضحة في الطبعة الأولى والمعنى يقتضي الثلب [والدراسات الألسنية تستعذبها لكثرة الثاءات في البيت].

«وتقدّموا لي بالضحايا منهمُ فَرِحين، شأنَ العابد الأوّاب»
«وسعادةُ النفسِ التقيَّة أنّها يوماً تكون ضحيَّة الأرباب»
«فتصير في رُوحِ الألوهةِ بضعةً، قُدُسِيَّةً، خلَصتْ من الأوشاب»
«أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيَّتي فتحُلَّ في لحمي وفي أعصابي»
«وتكونَ عزماً في دمي، وتوهُّجاً في ناظريَّ، وحِدّةً في نابي؟»
«وتذوبَ في رُوحي التي لا تنتهي وتصيرَ بعضَ ألوهتي وشبابي. .؟»
«إنّي أردتُ لك الخلودَ مؤلّهاً في روحيَ الباقي على الأحقاب. .»
«فكِّرْ، لتدركَ ما أريدُ، وإنه أسمى من العيش القصير النابي»
فأجابه الشحرورُ، في غُصَص الرّدى والموتُ يخنقه: «إليكَ جوابي»:
«لا رَأيَ للحقِّ الضعيف، ولا صدَى والرّأيُ، رأيُ القاهرِ الغلّاب»
«فافعلْ مشيئتكَ التي قد شئتَها وارحمْ جلالَكَ من سماع خطابي»

* * *

وكذاك تتخذ المظالمُ منطقاً عذْباً لتخفي سوأة الآراب[1]

9 جمادى الأولى 1353
20 أوت 1934 = [الأحد 19/8/1934]

(1) في جميع الطبعات (سوءة) بهمزة على السطر.

قال قلبي للإله[1]

[الخفيف]

في جبال الهموم أنْبت أغصاني ... فـرقّـتْ بيـن الصخـور بجَهْـدِ
وتَغَشَّـانـيَ الضبـابُ . . فـأورقـتُ ... وأزهـرتُ للعـواصـف، وحـدي
وتمـايلـتُ فـي الظـلام، وعطّـرتُ ... فضـاء الأسـى بـأنفـاس وردي
وبمجد الحياةِ، والشوق غنَّيْتُ . . ... فلـم تفهـم الأعـاصيـر قصـدي
ورَمَـتْ للـوهـاد أفنـانيَ الخُضْـرَ، ... وظلّـتْ فـي الثَّلـج تحفـر لحـدي
ومضتْ بالشذي فقلت: «ستبني ... في مروج السماء بالعِطْر مَجْدي»
وتَغَـزّلْـتُ بـالـربيـع، وبـالفجـر ... فمـاذا ستفعـل الـريـح بعدي؟»

(1) القصيدة في الأصل المخطوط بغير تاريخ. (تعليق من المطبوع).

زئيرُ العاصفة[1]

[الطويل]

تسائلني: «ما لي سكتُّ، ولم أهِبْ بقومي، وديجورُ المصائب مظلمُ»
«وسيْـل الـرزايـا جـارفٌ، متـدفّـعٌ غضوبٌ، ووجه الدهر أربدُ، أقتم؟»

* * *

سكـتُّ، وقـد كـانـت قنـاتـيَ غضَّـةً تُصيخ إلى همس النّسيم، وتحلُم
وقلتُ، وقد أصغتْ إلى الريح مَرّةً فجـاش بهـا إعصـاره المتهـزِّم
وقلتُ وقد جاش القريض بخاطري كما جاش صخّاب الأواذيِّ، أسحم:

* * *

«أرى المجد معصوبَ الجبين مُجَدَّلاً على حَسَكِ الآلام، يغمره الدم»
«وقد كان وضّاح الأسارير، باسماً يهـبُّ إلـى الْجُلَّـى، ولا يتبـرّم»

* * *

«فيـا أيهـا الظلـم المصعِّـر خـدَّه رويـدك! إن الـدهـر يبني ويهـدم»

---

(1) القصيد في الأصل المخطوط بغير تاريخ. (تعليق من المطبوع)

«سيثـأر للعـزِّ المحطّـم تـاجُـه رجالٌ إذا جاش الرّدى فهُمُ هُمُ»
«رجـالٌ يـرَوْن الـذُّلَّ عـاراً وسُبَّـةً ولا يرْهبون الموتَ، والموتُ مُقدم»
«وهـل تعتلـي إلا نفـوسٌ أبيَّـةٌ تُصـدِّع أغـلالَ الهـوانِ، وتَحطِـم»

* * *

المحتويات

استهلال وتقديم 1
مقدمة هذه الطبعة بقلم: د. نور الدين صمود 5
ملاحظات هامة 15
أيها الحبّ 17
خلّه للموْت 18
كهْرباء الغرام 19
الفتنة السّاحِرة 20
إيّـــاك 21
النّجـــوى 22
تونس الجميلة 24
شعْـــري 26
في الظلام 28
من حديث الشيوخ 30
ليلة عند الحبيب 31
نظرة في الحياة 33
الحيـــاة 35
أنشودة الرعد 36
غَرفة من يمّ 38
لولا الخُطوب... 40
مأتم الحب 41

الكآبة المجهولة 44
شكوى اليتيم 47
الزنبقة الذاوية 49
يـا شعـر 52
إلى الطاغية 61
السآمـة 63
أغنية الأحزان 65
الدمـوع 70
أيها الليل 72
المجْـدُ 76
الحُـبّ 77
جَدْول الحب بين الأمس واليوم 78
سر مع الدهر 84
في سكون الليل 85
دموع الألم 87
الذكـرى 89
إلى البُلبل 91
الطفولـة 97
قالت الأيام 99
المساء الحزين 101
الأديـب 104
بقايا الخريف 106
أغنية الشاعر 108
مناجاة عصفور 110
يا رفيقي 113
إلى الموت 116

إلى عازف أعمى 118
صـوت تائــه 120
قبضة من ضباب 122
نشيد الأسى 123
قلت للشعر 127
يا ابن أمي 129
أغاني التائه 131
إلى قلبي التائه 133
اكثرت يا قلبي فماذا تروم؟ 136
يــا مــوت 139
إلــى الله 142
النبي المجهول 146
الأبد الصغير 150
صفحة من كتاب الدموع 154
إلى عذارى أفروديت الجمال المنشود 157
طريقُ الهاوية 159
يا حُماة الدين 161
شجــون 163
الأشواق التائهة 164
أحلام شاعر 167
قيود الأحلام 169
(؟) 171
رثاء فجر 172
أنا أبكيك للحب 173
أبناء الشيطان 175
صلوات في هيكل الحب 178

أراكِ 182
فكرة الفنان 184
سرّ النهوض 186
قلــبُ الأم 187
حديث المقبرة 196
في ظل وادي الموت 202
الساحــرة 205
الجنة الضائعة 207
السعــادة 211
من أغاني الرعاة 213
أيتها الحالمة بين العواصف 217
للتاريــخ 218
الحق عند الناس 219
صوت من السماء 220
ذكرى صباح 221
الرواية الغريبة 224
الصباح الجديد 225
ألحاني السكرى 228
إرادة الحياة 231
تحت الغصون 235
إلى الشـعب 239
النــاس 246
متاعب العظمة 247
نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس 248
زوبعة في ظلام 251
الاعتــراف 252

قلب الشاعر 253
إلى طغاة العالم 255
الغـــاب 256
حرم الأمومة 261
شكوى ضائعة 262
الدنيا الميتة 264
فلسفة الثعبان المقدس 266
قال قلبي للإله 269
زئيرُ العاصفة 270

الخيال الشعري عند العرب

أبو القاسم الشابي

الخيال الشعري عند العرب

إعداد وتقديم

الدكتور عبد السلام المسدّي

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994

© جميع الحقوق محفوظة
لدار المغرب العربي ـ تونس

تنبيـــه

حافظنا على بنية الكتاب وتقسيم مفاصله وفقاً لما أصدره عليها أبو القاسم الشابـي، ولكننا عمدنا إلى ترقيم فقرات كل الكتاب ترقيماً متسلسلاً اعتمدناه في كل الإحالات رامزين إلى الفقرة بحرف الفاء المهملة.

تضمّنت الطبعة الأصلية بعض الهوامش اختص جلها بشروح لغوية تعقب شواهد الشعر، وقد أثبتناها في مواطنها وميّزناها بوضعها بين قوسين كبيرتين.

الخيال الشعري والبحث عن الذات

ليس هيّناً أن يقف اليوم محاضر يتحدث إلى الناس عن العرب وأدبهم فيقول: «قد انتهى بي البحث في الأدب العربيّ وتتبّعُ روحه في أهمّ نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذّ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادّيّ لا سموّ فيه ولا إلهام، ولا تشوّف إلى المستقبل، ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق».

وليس يسيراً أن يَعطف المحاضر على وتيرةٍ من هذا الجزم وتلك النبرة من الإطلاق متحدثاً عن أدبنا العربي فيقول: «إنه كلمة ساذجة لا تعبِّر عن معنى عميق بعيد القرار، ولا تفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي النفوس (. . .) حتى إن الباحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن الذي يقرأه وهو خاشع ويسمعه وهو مصيخ بكل ما في روحه من شوق، وبكل ما في قلبه من شغف (. . .) ذلك الفن السماوي الذي يَشعر حين قراءته باتساع أفق الحياة في نفسه وبانفساح رقعة الإحساس في قلبه (. . .) فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم»[1].

ليس ذاك بهين ولا هذا بيسير.

والذي هو أقل يسراً أن يصدح بهذا الرأي صاحبه في ليلة من ليالي سنة 1929 بين أهله وذويه والجميع على مسافةِ خطًى معدودات من جامع

(1) أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، ف 127.

الزيتونة إحدى قلاع التراث العربـي الإسلامي في لغته وعلومه وأدبه.

وأوقعُ في النفس أن يحاضر المحاضر بدعوة من هيئة ثقافية تحمل اسم «الصادقية»[1] وأن يكون الإلقاء على منبر «الخلدونية» وبين العَلَمين من الإيحاءات ما لا يبيح قولاً ينتهك ما توارثه القوم من الموثوقات.

وأقرب إلى الابتداع وأولى بالفتنة أن يأتي هذا القول والناس ما زالوا يستمتعون بما تحدث به محمد الخضر حسين عن العرب وعن الخيال في أدبهم فكشف لهم ما كانوا يجهلون من أمر صناعة التخييل وثبّت في نفوسهم ما به يزدادون سكينة إلى أشعارهم.

وأدعى إلى الإزعاج أن تأتي المحاضرة وكبار القوم من حمَلة العلم الموروث ما يزالون يتوجعون من صدمة أوقعها بهم مَن صنّف «في الشعر الجاهلي» فانجرّ إلى أن يطفىء بعضاً من لهيب الفتنة فأسدل الستار على «الشعر» وأقام «الأدب» مقامه[2].

وأعسر على براءة التأويل عند الناس يومها أن تأتي المحاضرة برياح الشك والوطن ينوء بأرزاء الاستعمار ابتزازاً وظلماً واستلاباً لما فيه بقية من مقومات الهوية الحضارية.

وأشد على القوم في عامتهم وخاصتهم آنذاك أن تأتي المحاضرة ثالثة ثلاث فتحت أبواباً موصدة واتخذت إحداها من نظرية ديكارت في الشك المنهجي محوراً لها انعطفت به على آراء طه حسين في الشعر الجاهلي، وقد دوّن لنا أحد هؤلاء المحاضرين الثلاثة محمد صالح المهيدي شهادته إذ يقول: «هي ثالثة المحاضرات التي قامت حولها ضجة كبرى، وبها بدأت

---

(1) يقول الشابـي: «قد أراد النادي الأدبـي لجمعية قدماء الصادقية أن أتحدث عن الخيال عند العرب، وقد لبيت هذا الطلب لأنه صادف من نفسي هوى طالما نازعتني إليه». ف 1.

(2) كان صدور كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» سنة 1926 ثم استبدل به في السنة الموالية كتابه «في الأدب الجاهلي».

حركة التطور الثقافي في تونس، وعُدّت الخطوة الأولى، أو الحجر الأساسي، لما عرف فيما بعد بالصراع بين القديم والجديد: فالمحاضرة الأولى ألقيتها أنا بالنادي الأدبي داخل جمعية قدماء الصادقية وموضوعها امرؤ القيس والشعر الجاهلي، والثانية ألقاها الأب يوسف سلام بالنادي الأدبي في الخلدونية عن نظرية ديكارت وهل طبّقها طه حسين عن الشعر الجاهلي، والثالثة محاضرة المرحوم الشابي»[1].

أفلا يكون الناس من حيث لا يتبيّنون قد فككوا ما اتخذه أبو القاسم الشابي عنواناً لمحاضرته «الخيال الشعري عند العرب» فأحسوا أنه حامل لدلالاته الصامتة، فقد لا يكون العرف السائد مسوِّغاً ليتحدث العربي عن شيء متصل بأجداده فيقول عنه: «عند العرب» وكأنه واحد ليس منهم، أو كأنه واحد منهم يريد أن ينسلّ من بين صفوفهم: يغادر القلعة ليصوّر معالمها من خارج أبراجها، أو لعله استقى نفساً من أساليب المستشرقين يتحدثون عن الأشياء «عند العرب» وهم ينصّون على أنها «عند العرب».

وفي أي وجهة من وجهات التأويل ذهبت فإنك واجد سبباً ينضاف إلى أسباب تفسر ما تركته محاضرة أبي القاسم الشابي ـ في العشرين من شعبان سنة 1348 للهجرة ـ من وجوم على من حضرها، ثم ما عمّ الناس من وقعها يوم طبعت بعد بضعة أشهر من إلقائها[2].

---

(1) محمد صالح المهيدي: الخيال الشعري عند العرب: الندوة، تونس، ع 10، السنة الأولى، اكتوبر 1953، ضمن عدد ممتاز مداره «الأديب الخالد أبو القاسم الشابي بمناسبة ذكراه التاسعة عشرة» وقد صدر المقال محليّ بصورة فيها أبو القاسم الشابي ومحمد البشروش ومصطفى خريف وكاتب المقال محمد الصالح المهيدي، ص 17 ـ 18 ـ 20.

(2) طبع الكتاب طبعة أولى محدودة الكمية في نفس السنة التي ألقيت فيها المحاضرة إذا ما احتكمنا إلى التاريخ الهجري وهي سنة 1348هـ. أما إذا اعتبرنا التاريخ الميلادي فإن نشرها يصادف سنة 1930 وهي السنة الموالية لسنة إلقائها التي هي 1929. وقد تولت دار العرب للطبع والنشر لصاحبها زين العابدين السنوسي إصدارها عن طريق الاكتتاب كما كان مطرداً آنذاك في أعراف النشر. ويذكر محمد صالح المهيدي في =

أفنعجب بعد كل هذا مما خطه شيخ وقور من شيوخ الأدباء ـ كان لجهده فضل واسع في التأريخ للحركة الأدبية في تونس هو زين العابدين السنوسي ـ عندما كتب يقدّم لمحاضرة أبـي القاسم الشابـي فوضع نصاً على حظ غير يسير من الغرابة كان فيه كالذي يسير بين أسلاك شائكة.

فهو يشهد لنفسه قائلاً: «لما سمعت هاته المسامرة لأوّل مرة خرجت من قاعة الاجتماع مهتم العقل أكثر مما كنت منبسط النفس».

وهو اعتدال بالمغالبة كتركّح إبرة الرجحان بين كفّات الموازين.

ثم هو يشهد على نفسه كأنما أتى محظوراً أو اقترف ابتداعاً إذ يضيف: «بل يمكنني أن أقول إني خرجت من تلك الجلسة منكمش النفس، واجفها، مع أني كنت ممن صفّقوا لأكثر مقدّماتها والمعجبين بدعاماتها ولغتها الشعرية الصريحة، بل كنت أنا نفسي الذي قدّم حضرة المسامر إلى مئات المستمعين منوّهاً بنبوغه الباكر ووجهته في التجديد الأدبـي».

إننا نكاد نجزم أن زين العابدين السنوسي ـ بين شهادته لنفسه وشهادته عليها ـ إنما كان يعبّر عن حال متجاذبة، فيها الكثير من الضيق بالظرف الذي وجد نفسه فيه ولم تسعفه حساباته لقراءة كل احتمالاته قبل بدايته، بل لعله قد تورط فأخرج ما وقع فيه إخراجاً على صورة الانجرار

= مقاله الذي يعود إلى سنة 1953 أن الطبعة عندئذٍ كادت تنفد ثم يروي شيئاً عن ظروف نشر الشابـي لمحاضرته وقد استكمل عامر غديرة المعلومات المتصلة بقصة نشرها في بحثه القيم الذي جوّد فيه منهج التوثيق لحياة الشابـي وملابسات إنتاجه.
راجع (ص 16 ـ 17) عامر غديرة: الشابـي ترجمة حياته وترجمة أشعاره، تونس، 1986، وهو مشتمل على مقال «محاولة جعل إطار لترجمة الشابـي» سبق نشره في الفكر، ديسمبر 1960، ومقال «الشابـي الناقد الأدبـي» سبق نشره في الفكر أيضاً، نوفمبر 1984، فضلاً عن القصائد المترجمة.

ومما يُذكر أن المحاضرة في طبعتها الأولى لم تحمل تاريخ صدورها، ثم تولت الشركة القومية للتوزيع إعادة نشرها على علاتها سنة 1961، ثم أصدرتها الدار التونسية للنشر مرة سنة 1975 وأخرى سنة 1985 وذلك بتقنيات التصوير.

إذ لم يكن هيّناً ولا يسيراً ما كنا أسلفناه.

أما مدار المأزق فأَنْ يبدو للناس وكأنه بكل ما فعل قد كان يزكي ذلك الحكم القاسي الذي أرسله الشابـي على العرب وعلى أدبهم والذي لن يرسخ في أذهانهم من كل المحاضرة إلا هو.

لذلك جاءت مقدمته قائمة على التضمين أكثر مما اعتمدت التصريح فهو من جهة لا يريد أن يكشف بأنه تورط، ولا هو يريد من جهة ثانية أن يَتأوّل الناسُ حاله على محمل التواطؤ في أمرٍ جلل، لذلك بث في كلامه ما يحبّ أن يستشف منه الناس أنه قد انجرّ انجراراً وأنه ينسل من دائرة الإسقاط بمقدار ما يَكفل له الأمان على واجهة، ولا ينال من سلامة الروابط على الواجهة الأخرى. فهو بين قلقين يسير على حدّ السيف: قلق التواطؤ في مأثم القذف بالعرب والنيل من عِرضهم الأدبـي، ومأثم التنكر والانقلاب على من سبق أن زكّاه بالتقديم والاحتضان. وليس كتنصّل المرء من تبعات موقفه مفسدة للأخلاق بين الناس.

وتفسير ذلك عندنا أن السنوسي ـ وهو يقدّم المحاضر إلى جمهور الحاضرين منوّهاً به ومزكياً إياه ـ لم يكن يقدّر ما سيقوله المحاضر خلال محاضرته ولا كان متوقّعاً عمق الأدغال التي سيأخذ الحاضرين إليها وسيأخذ في مقدمة موكبهم السنوسيَّ ذاتَه، وهذا ما يمكن القطع به بالاحتكام إلى نص المقدمة التي كتبها، ثم إن هذا هو الذي نفهم به قوله: «لما سمعت هاته المسامرة لأوّل مرة خرجت من قاعة الاجتماعات مهتمّ العقل...» فليس جزافاً أن يلح على أنه يسمعها «لأوّل مرّة»، ولا يقوم أي تعليل لذلك غير ما نذهب إليه من أنه يتوخى الانسلال، وإلا فما معنى إبرازه لذلك والحال أن المألوف عند الناس أن من يتولى تقديم المحاضرين ثم يراهم يوردون في كلامهم ما يصادف هوى الجمهور وهواه فإنه لا يسعى سعياً إلى إفادة الناس بأنه غير ذي علم بما أشعّت به المحاضرة على الجمهور وإنما أضعف الإيمان أن يَسكت عن هذه المعلومة ما لم تطلب إليه تخصيصاً.

ويزيدنا تثبيتاً لما قلنا أَنَّ زين العابدين السنوسي يضيف على صيغة التقابل: «مع أني كنت ممن صفقوا لأكثر مقدّماتها» وهو تقابل يشي بالتعارض الداخلي في نفس السنوسي حيال المحاضرة وصاحبها، ويزيد تأكيداً أنه لم يكن له استشعار بما سيرد من آراء متحدية وبأنه لو كان له هذا الاستشعار لكان له في موضوع التقديم والتزكية والتنويه شأن آخر. وهكذا يأخذنا السنوسي إلى ما يوحي بالتبرير ولا سيما تبرير أنه كان «ممن صفّقوا» ولكنه يدسّ بين الحنايا أنه صفّق للمقدمات، والسبب المتواري لذلك أن الشابي قد تدرّج في أسلوب عرضه تدرجاً متأنياً، وأن ذلك الحكم القاطع على العرب وأدبهم إنما جاء في الفصل السادس والمحاضرة تقترب من خاتمة مطافها.

وهكذا ينساق السنوسي في استدرار عطف القارىء للإحراز على شفاعته: «بل كنت أنا نفسي الذي قدّم حضرة المسامر» ثم يضيف مذكراً بأن التقديم لم يكن أمام أنفار من الناس وإنما «إلى مئات المستمعين» فهم قرناء في الذي أتى، وهم الأشهاد.

إن السنوسي يتحدث من موقع لم يعد له منه تراجع لذلك واصل بإصرار، فهو بعد أن حضر إلى المسامرة، وهو بعد أن قدّم المحاضر ونوّه به، ها هو ينشر الكتاب، وها هو يكتب للكتاب مقدمة.

ولأمر مّا يريد السنوسي أن يُفصح عن الاستشارة: «وحادثت في الأمر كثيرين فإذا بهم يجمعون على تقديس الفكرة والإعجاب بالمسامرة، إنما يُلْمح بعضهم بكيفيات مختلفة إلى أنهم يشعرون بجرأة الخطيب في التنويه بالمرض والإشادة بالداء» وتلك في الحقيقة حاله هو يريد أن يناظرها بحال الآخرين.

وهكذا بقية المقدمة.

بل هكذا يغدو لذيذاً أن يتابعها المتابع لا من وراء عدسات الكلام الظاهر وإنما بفحص الكلام من وراء أقنعة الخطاب.

ولك أيها القارىء ألا تذهب مذهبنا وألا تزعم زعمنا في أن مقدّمة السنوسي هي شهادة على أنه قد تورّط فآثر الهروب بما وقع فيه إلى الأمام، فكان يكاشف دون أن يلج إلى كرسيّ الاعتراف فضلاً عن أن يجلس على منبر الاتهام.

لقد كان الناس تحت وقع الصدمة، ولكن النذير أنهم كانوا على ضفاف الفتنة، وشهادة محمد صالح المهيدي غير ملتوية: «عندما تم إلقاء المحاضرة تفرّق المستمعون الذين ضاقت عنهم قاعة الخلدونية الكبرى شيعاً ومذاهب فكان الشيوخ ضد المحاضر والشباب إلى جانبه».

وليس تفسير ذلك بأقلَّ وضوحاً ولا بأقلَّ بداهة فالأمر سرّه كامن في توالي المحاضرات التي جاءت على نسق التحدي في هذا الإطار الثقافي: «جاء أصحاب هاته المحاضرات بآراء جديدة أثارت غضب بعض من اعتادوا الإغضاء عما في الأدب العربي من الأخطاء والنقائص، وطلبوا من الجيل الجديد أن يترك قدسيّة الألفاظ والآراء القديمة في النقد الأدبي وأن يستعمل مقاييس العقل قبل الالتجاء إلى نقل الخرافات والأوهام»[1].

لقد مثلت محاضرة الشابي حدثاً أدبياً وراءه حدث فكري، ومثلت واقعة ثقافية خلفها انفجار نقديّ انجرّ إليه المجتمع عند ذاك انجراراً لم يكن له مثلُه مع لون آخر من ألوان الفيض حتى الشعر منه، ويسوق الناقد عامر غديرة حديثاً عما يسمّيه بالمعجزة فيقول: «كتاب عربي يطبع ويباع في ظرف ثمانية أشهر، إنها لمعجزة حقاً، بينما يبقى الديوان نسياً منسياً أو يكاد ـ لو لم يتفضّل علينا وعليه أبو القاسم كرّو ـ إلى سنة 1955، أعني إحدى وعشرين سنة بعد وفاة الشابي، وستة وعشرين عاماً بعد الخيال»[2].

وفعلاً فإن محاضرة «الخيال الشعري عند العرب» قد مثّلت الحدث الطاغي، ثم أفِلت جذوة الاهتمام بها بعض الأفول. وحلّ بالقوم ما ألهاهم

(1) المهيدي: الخيال الشعري عند العرب، الندوة، ص 17 ـ 18.
(2) عامر غديرة: الشابي، ص 29.

عنها وعن قضايا أدبية ونقدية مجانسة، وكاد أبو القاسم الشابي أن يأخذ مجلسه على رفوف التراث حتى طلع الأديب أبو القاسم محمد كرو على الناس سنة 1952 بكتابه «الشابي: حياته وشعره»[1] فإذا به يحوّل السبب الذي أزهد الناسَ في الأدب والشعر ـ وهو الكفاح الوطني ـ سبباً لإيقاد جذوة الحمية، كيف لا والرجل قد كتب كتابه عن الشابي منذ سنة 1949 وهو في السجن يؤدي جزاء الوطنية، ولم تمض سنتان حتى أخرج للناس كتابه الثاني عنه: «كفاح الشابي: أو الشعب والوطنية في شعره»[2].

وليس على أبي القاسم الشابي من دَين لأحد كالذي عليه لأبي القاسم محمد كرو، بل ليس على النقد العربي المعاصر في هذا الباب لأحد من دين كالذي عليه لمن كان أوّلَ من وضع عن الشابي كتاباً فاستقبله المستقبلون أصنافاً من الاستقبال، فمنهم من تلقّفه، ومنهم من اقتنصه اقتناصاً فحاكاه، وقليل منهم من اعتبر به فانطلق يبني على جدرانه بناءً مترقّياً[3].

ولما كان آخرُ سنة 1954 أصدر عمر فرّوخ كتابه عن الشابي[4]. وتمضي سنتان فإذا بذاك الشيخ الوقور زين العابدين السنوسي ينسج على المنوال فيصدر كتابه «أبو القاسم الشابي: حياته أدبه»[5] وإذا به يضمّنه نصاً

---

(1) الطبعة الأولى، بيروت، 1952.

(2) بيروت، 1954.

(3) ومما ينفرد به أبو القاسم كرو المخزون التوثيقي حول أبي القاسم الشابي، وهو ما تجلى واضحاً في:
أ ـ آثار الشابي وصداه في الشرق، ط 1: دار المغرب العربي، ـ تونس 1961، ط 2: تونس ـ بيروت، 1988، راجع ما أورده حول «الخيال الشعري...» ص 21 ـ 23.
ب ـ دراسات عن الشابي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.

(4) شاعران معاصران: الشابي وإبراهيم طوقان.
وبعد مدة يصدر عمر فروخ كتابه «الشابي شاعر الحب والحرية» فجاء كأنما هو صدى يحكي موجة الاهتمام، ويردد إيقاعها، بيروت، 1960.

(5) دار الكتب الشرقية، تونس، 1956.

من نصوص «الخيال الشعري عند العرب» على وجه الشاهد والاقتباس متخذاً له عنواناً يمليه الظرف: «أدب جديد لأمّة ناشئة»[1] ويتلطف بأن لا يورد السياق الذي تحدّى فيه الشابي الضمير العربي في جوهر أدبه فأحدث للناس قلقاً، وللسنوسي حرجاً كاد لا ينساه، ولكنه اليوم يكتب وقد زالت موانع الضيق وبواعث الانزعاج: استقلت البلاد فإذا به يُهدي نسخة الكتاب إلى القيادة السياسية التي جاءت بالاستقلال مدبّجاً رسالة لإحياء الذكرى واستدرار الغفران: عن ذنب الشابي وعن ذنب من أذنبوا في حق الشابي[2].

وفي غمرة اكتشاف الناس لأبي القاسم الشابي اكتشافاً جديداً في بحر الخمسينيات، ارتكنت محاضرة «الخيال الشعري عند العرب» إلى الصف الخلفي ولم يحتفل أحد بذكراها كما احتفل الجميع بذكرى الشعر وقد ائتلف عندئذٍ بين دفتي ديوان اسمه «أغاني الحياة»[3]. ولما أطلت سنوات العقد الموالي استفاق بالمحاضرة وعي جديد لعلّ أجلى صوره جاءت سنة 1963 على يد أستاذ النقد منجي الشملي في بحث له بعنوان «منزلة الشابي في الأدبين الشرقي والغربي»[4] ثم جاءت في دراسته القيمة «الخيال الشعري عند العرب للشابي عقيدة أدبية واجتماعية وسياسية»[5] حيث أدار البحث على «قضية» دخلت سجلّ المقاضاة: الشابي فيها موجّه

---

(1) ص 49 ـ 50.

(2) وهي الرسالة التي أدرجها أحمد الطويلي في الطبعة التي أخرجها عن كتاب زين العابدين السنوسي وجعل عنوانها «أبو القاسم الشابي حياته وشعره» بدل «حياته، أدبه» الدار التونسية للنشر، تونس، 1980، ص 5 ـ 6.

(3) أخرجه لأول مرة محمد خوجة صاحب دار الكتب الشرقية وفروعها بتونس وقد طبعه في مصر سنة 1955.

(4) أدرجه في كتابه «في الثقافة التونسية» ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 154 ـ 171 ـ انظر ضمنه: «الخيال الشعري عند العرب، أو الشابي الداعي إلى تغيير المقاييس» ص 162 ـ 165.

(5) الفكر، ع 7، س 11، أفريل 1966، وقد أدرجه أيضاً ضمن كتابه المذكور آنفاً.

للاتهام، والأدب العربي موجَّه إليه فيها الاتهام، وأما القاضي فهو الشباب الناهض المستنير. كل ذلك لأن الباحث قد صادر على أن المحاضرة «بيان خطير عن عقيدة الشابي الأدبية أوّلاً، وعقيدته الاجتماعية والسياسية بعد ذلك»[1].

وتوالى الاهتمام بالمحاضرة على نحوٍ من الجزْر يتلوه المد ويسبقه، حتى كانت خمسينية الشابي فقدّم أبو القاسم محمد كرو «أضواء جديدة حول الخيال الشعري عند العرب من خلال وثيقة نادرة بخط الشابي»[2] نقرأ ضمنها من بعض ما خطه شاعرنا كلاماً يفيد القريحة ويؤثر في النفس كتبه في رسالة إلى الدكتور علي الناصر ـ الشاعر والطبيب السوري ـ صاحب ديوان «قصة قلب» قائلاً:

«إني أقدّم لك نسخة من كتابي الصغير «الخيال الشعري عند العرب» الذي وإن لم يكن «قصة قلب» فإنه «جهاد قريحة» أرادت أن تحرّر الناس وتدعوَهم إلى سواء السبيل، فلم تَلق منهم إلا كلّ غطرسة وعناد. فقد ألّفت كتابي ثم نشرته على الناس ودعوت فيه إلى منهاج جديد من البحث والفهم والتقدير لمفهوم الأدب العميق، فأرضى ناساً وأسخط آخرين، وكان أكثرَ إغضاباً لمشيخة «الماضي» التي لا تفهم من الحياة إلا يوم الأمس، ولا من المجد إلا ذكريات القديم، ولا من الأدب إلا أصداء الأمس البعيد، فثاروا، وعجبوا، ورموني بكل سخط ونكير، فتجلّدت لهم وصبرت، وسأكون المنتصرَ اليومَ أو غداً أو بعد أن يطويني الموت في ظلامه ويلفّني الأبد في شملته»[3].

وقدّم الدكتور جابر عصفور بحثاً جاء «قراءة في أبي القاسم الشابي من الخيال الشعري» جوّد فيه الدرس في مفهوم الخيال نقداً وفلسفة،

---

(1) في الثقافة التونسية، ص 114.
(2) الفكر، س 30، ع 2، نوفمبر 1984، ص 218 ـ 230.
(3) الفكر، س 30، ع 2: نوفمبر 1984، ص 224.

وسوّى قراناً بين وجهين من وجوه التمحيص فيه: أحدهما مثّله محمد الخضر حسين، والثاني جسّمته محاضرة الشابي، وفي الأثناء أقام موازاة بين تيارين أحدهما ينطق باسم الجدة والثاني يركن إلى دستور التقادم[1].

إن ما بين أيدينا اليوم هو نص المحاضرة كما قدّمها لنا أبو القاسم الشابي منشورة، ولئن أكد في كلمته التي صدّر بها الكتاب أنه لم يَعمِد إلى أيّ تنقيح أو زيادة أو حذف إلا ما كان من قبيل الشرح اللغوي فإننا لا نتوفّر على أيّ سند وَثّق لنا المحاضرة كما ألقيت فعلاً سواء بالصوت المسجَّل أو بالوصف الحاكي. ولكنّ النص من الطول بحيث يتجاوز حدود المراسم المألوفة في المسامرات، لا سيما إذا ما قامت على أداءٍ تراعِي سرعةُ بثّه ما يَلزم الحاضرين على تفاوتهم من أناةِ التمثل.

ولئن روى بعض الثقاة أن النص غير النص[2] فالذي قد يكون الشابي عناه أنه نشر المحاضرة كما أعدّها قبل إلقائها وإن تصرف عند مشافهة الناس بها في بعض مفاصلها أو شواهدها بالتجريد أو بالتعريض أو بالاقتضاب. ولكن الذي فاتنا ـ ضمن ما فاتنا ـ أن نتلقّى صورة عن الوجه الاحتفالي الذي ائتلف نسيجه ليلة المحاضرة كحلقةِ تواصلٍ ثقافي اجتماعي بين المسامر وجمهور الحاضرين مما كان يقدم لنا ـ لو توفّر ـ صورة عن القرائن الدالة على الطقوس الثقافية السائدة.

ومهما كانت المسافة الأدائية بين نص المسامرة ونص الكتاب فإن كلمة المؤلف قد كانت ممرّاً بين الخطاب المنطوق والخطاب المدوَّن، وقبلها جاء الإهداء وهو من خارج نص المسامرة، تقدّم فيه الشابي إلى والده وصلاً بين ماض معقود بحاضره وحاضر توّاق إلى ما هو قادم.

---

(1) الفكر، س 30، ع 2: نوفمبر 1984، ص 197 ـ 217، ع 3: ديسمبر 1984، ص 99 ـ 109، ع 4: جانفي 1985، ص 77 ـ 90.

(2) يذكر صديقنا د. حمادي صمود أن الأب أندري ديمبرسمان القائم على معهد الآباء البيض بتونس قد حدّثه قبل وفاته وكان ممن حضروا المسامرة أن النص الملقى لم يكن على تمام التطابق هو النص المنشور.

وقبل الإهداء حلّى أبو القاسم كتابه بجملة غدت كالمثل السائر بين يديه وبين يدي من يتحدثون عنه قال فيها: «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة».

والحقيقة أن هذه الفقرة التي تحوصل جوهر القضيّة الحضارية الشائكة هي مستلّة من نص المحاضرة[1] تم اصطفاؤها لأنها تمثّل لباب الخاطر، ومدار السرّ فيها أنها تقيد بناء المستقبل لأي مجتمع بموقف الناس فيه من ماضيهم الحضاري، وفي هذا يكمن الإشكال الأعظم: هل يمكن أن يتأسس مستقبَل مغاير للحاضر المتردي دون إنجاز قطيعة مع الماضي؟ وهو ما يعود إلى التساؤل: هل تتسنى المواءمة بين شروط القفزة النوعية والاسترسال مع مستندات التاريخ؟.

هنا قطب الرحى وحوله الدوران.

ولكن إلى أي مقام ترتد فكرة الشابي التي هي نواة محاضرته، وهل بوسعنا اليوم أن ننجز ـ في ضوء ما يتيسر من قرائن ـ استكشافاً تكوينياً يعيننا على البحث عن نشوئيّة القضية في فكر صاحبنا، ويعيننا أيضاً على تحديد الرحم التي تخلّقت فيها كل القضايا الإشكالية التي أثارها أبو القاسم متجرّئاً على القوم، وتناولها متمرداً على الأعراف السائدة بينهم.

هل يكون الشابي قد أراد بمحاضرته عن «الخيال الشعري عند العرب» أن يعارض محمد الخضر حسين في كتابه «الخيال في الشعر العربي»؟.

لقد ألقى الشابي محاضرته سنة 1929 بينما كان الخضر حسين قد نشر بحثه في رسالة سنة 1922[2] وهي السنة التي انتقل فيها إلى مصر

---

(1) ف 130.

(2) كما ورد في ص 7 من الطبعة التي نعتمدها وهي: =

ليستقرّ بها[1]، وتحدث المتحدثون في مصر وفي تونس أيضاً عن الرسالة، ولكن الشابي لم يصارحنا بأنه قد اطلع على كتاب الخضر حسين وبأنه يقيم عليه ردّاً، ثم إن أحداً من الباحثين لم يقطع بأن الشابي لم يطلع على كتاب الخضر حسين، وإذ نعدم فيما نعلم قرائن تاريخية صريحة فإنه لا يبقى لنا إلا نقد النص نقداً باطنياً.

أم هل أراد الشابي بمحاضرته أن يحفر رافداً جديداً يصب في جدول الشك المنهجي كما سوّاه طه حسين لا سيما وأن محاضرة «الخيال الشعري عند العرب» تأتي كما أسلفنا ثالثة ثلاث دارت إحداها على مدى تطبيق طه حسين لنظرية الشك في أصولها الديكارتية؟.

لقد اختزن الشابي ـ في هذه المرحلة من تكوّنه ـ زاداً ثقافياً فيه من الكثافة والاكتناز ما يُزري بالأرقام القياسية مادة وتنوّعاً، ولقد أورثته هذه الذخيرة ثقة بالنفس واعتداداً بالرأي فكان يتعامل بفكره وثمار قريحته من موقع النّد المسؤول حيال كل الآخرين حوله، وهي حقيقة ما إن ندركها حتى ندرك أن الحكم على نظرية الشابي في ضوء مقياس العمر أمر لا معنى له، وأن محاولة تحليل رأيه بمعايير السن التي كان فيها بغية تفسيره عند تعذر التبرير جهدٌ لا طائل من ورائه.

= محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية، جمعه وحققه علي الرضا التونسي، الطبعة الثانية، 1972.

(1) جاء في خاتمة «الخيال في الشعر العربي» ص 72 قول الخضر حسين: «هذا ما طاوعني عليه القلم من التحرير في فن لا يجيد الغوص في أغواره ويأتي عليه من أطرافه إلا من بات فكره في صفاء، وضميره في ارتياح، وإني لجدير بإغضاء النظر عن قصور أعثر في أذياله، فإني أرسلت نظري وهززت قلمي إلى هذه المقالات يوم وضعت رحلي ما بين وادي النيل والأهرام ولسان حالي ينشد متمثلاً:

إلـى الله أشكـو بـالمـدينـة حـاجـة وبـالشـام أخـرى كيـف يلتقيـان»

فهل هو التواضع المتواتر عند الكتاب، أم هو التفريج عن ضيق النفس وهي من الترحال إلى الاغتراب فيكون في الأمر سرّ أعمق يتصل بمضمون الفكر كما حددته الظروف الملابسة!.

والرأي عندنا أن من رام الاحتكام إلى مقياس سنوات العمر عدداً فالأولى به أن يرسم حدّاً فاصلاً يأخذ به ما هو حقيق بالأخذ ثم يترك ما دونه تركاً كاملاً ولا يستساغ بعدئذٍ أن نطنب في تحليل آراء الشابي ثم نعرّج من حين إلى آخر على تفسير الملاطفة بأبوّة يرفضها النقد ولا يرتضيها الفكر كأن نعلل بأنه من تناقضات شاب متحمس[1] أو أن نتوسل بالمرافعة فنقول: «لعل عذر الشابي في ذلك سنّه أولاً»[2] لنَخلص إلى الاستنتاج بأن المحاضرة رمز لما كان يتأجج في نفوس الشباب[3].

لو كان شيء من ذلك مندرجاً بوجاهة في مقاييس النقد للزم أن نثبت بأن الآراء الجريئة لا يصوغها إلا الأحداث، وبأن ما يصدر عن الكهول لا يمكن أن تناله جذوة من الحماس، وأن نسلّم بأن احتدام الجدل بين الرأي وضده في فكر الإنسان إذا قاله المسنّ اعتبرناه توقّداً يؤذن بالخصوبة وإذا قاله من هو دون المسنّين حملناه على الإحالة واضطراب المزاج.

ثم ما بالنا نأتي إلى الشعر يقوله أبو القاسم الشابي فنجلّه به ونكْبر هذا عنه فإذا جئنا إلى «الخيال الشعري عند العرب» نسينا ما كنا نصنعه وأخرجنا من الجراب سهماً كنّا نواريها.

إن أسلم المواقف في النقد هو أن نسائل النص وصاحبَ النص من موقع المسؤولية لا من موقع الكفالة، والذي يُلزمنا بذلك إلزاماً هو أن المجتمع من حول أبي القاسم الشابي سنة 1929 قد تعامل معه على أنه ذو صوت مسموع، ولم يعتبر أنه واحد من صفوف المريدين، وليس أوثق من ذلك في مقاييس السبر الاجتماعية الثقافية. وعلى هذا المنوال فقس وقوف النقاد بإطناب عند قولة الشابي في مستهل محاضرته لما أخرجها منشورة إلى الناس: «وإن كنت أعلم أن كثيراً من الآراء التي بها في حاجة

(1) عامر غديرة: الشابي، ص 42.
(2) منجي الشملي: في الثقافة التونسية، ص 127.
(3) ص 128.

إلى الشرح والبيان والتعليل وربما إلى زيادة التمحيص والبحث»[1]. فذاك مما يقوله القائل ليتعلل به هو إذا شاء لا ليتعلل به المتعللون له متى ’رادوا.

فهل مولد «الخيال الشعري عند العرب» قرين الخضر حسين أم قرين ه حسين أم هو في دائرة أخرى غير دائرة «الخيال في الشعر العربي» وغير دائرة الشك في الميراث الجاهلي شعراً فأدباً؟.

لقد أفاض جابر عصفور في قرائن الفروق ودلائل النقض وكان مستنده في ذلك استقراء التاريخ: تاريخ الحركة الأدبية وتيارات النقد[2] وقد توسل لقراءته بنهج في المقارنة أسسه على البحث في المؤثرات الرومانسية من جهة وفي حوافز المساجلات القائمة بين المدرسة الإحيائية ومدرسة المجدّدين.

وتبقى للمحاضرة من الواجهات ما قد ينعكس على مرايا أخرى.

إن محاضرة الشابي هي قيل كل شيء خطاب مضاد وسواء أكانت ضدّيّته بالقصد أم بالحَصِيل فلا يعزب على الناقد أن يتسلل إلى المسكوت عنه في خطاب أبي القاسم الشابي: فهو يصرح بأن النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقية قد أراد منه أن يتحدث عن (الخيال عند العرب) ـ بهذا التنصيص وعلى هذا الحصر بين الأقواس[3] ـ ثم هو يستأنف في آخر الفصل قائلاً: «أريد أن أبحث في الخيال عند العرب من ذلك الجانب الذي تتدفق فيه أمواج الزمن بعزم وشدة»[4].

وكتاب الخضر حسين يتخذ لنفسه «الخيال في الشعر العربي» عنواناً، ولكنه ـ بعد الفحص والإمعان ـ بحث في صناعة التخييل، وأسباب جودة

---

(1) من الكلمة التي تصدرت الكتاب بعنوان «كلمة المؤلف».
(2) قراءة في أبي القاسم الشابي من الخيال الشعري، راجع الهامش 1 ص 17.
(3) ف 1.
(4) ف 22.

الخيال، وما يقوم من كل ذلك لدى العرب في بداوتهم وفي حضارتهم، وليس عنوان كتاب الخضر حسين بالمترجِم الأمين عن مادته لأنه بحث في الخيال بعامة، ومقومات الخيال عند العرب بخاصة، ثم هو بوجه أخص تحليل للخيال في الشعر.

وبين الموضوع الذي اقترحه النادي على الشابي وهو «الخيال عند العرب» وعنوان كتاب الخضر حسين «الخيال في الشعر العربي» ينسلّ أبو القاسم الشابي بعنوان كاشف لموضوع جديد لأنه تأليف بين المناحي والمتواريات: «الخيال الشعري عند العرب»، وكل القضية في نسبة الشعر إلى الخيال عن طريق هذا النعت الواصف: «الشعري» عطفاً على الخيال كما لو كان «الخيالي» عطفاً على الشعر.

عندئذٍ نفهم كيف يقسم الشابي الخيال إلى ما يصلح لفهم مظاهر الكون وتعابير الحياة وهو الأقدم، وإلى ما يصلح لإظهار ما في النفس من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف وهو الأحدث، وهذا الأحدث هو الخيال اللفظي، وهذا الأحدث هو الذي يقود إلى الوجهة الصناعية في الخيال، وصاحبنا يستنكف من الخوض فيها وهي التي نعلم أن الخضر حسين قد اتخذها مدخلاً متيناً لدراسته[1]. فمن هذا الباب يأتي عمل الشابي اعتراضاً على عمل الخضر حسين.

ولكن الشابي ما كان بوسعه أن يجاهر بأن كتابه نقض لكتاب الخضر حسين، وليس السبب في ذلك خوف المجازفة ولا التقيةَ في الرأي، وإنما هو سبب أبعد غوراً، فالخضر حسين الذي كان كتابه أول كتاب حول الخيال في النقد العربي الحديث[2] قد أثار من القضايا وكشف من الألثمة ما يَسَّر على الشابي الاهتداء إلى مكامن الطعن ومضارب الأوجاع:

---

(1) يقول الشابي: «لا أريد أن أعرض للخيال من وجهته الصناعية لا من هاته الناحية ولا من تلك لأن لمثل هاته المباحث هواتها وأنا لست منهم» إلى أن يقول: «وأي فائدة من بحث قاتم لا ينير سبيلاً» ف 21.

(2) كما يؤكد ذلك جابر عصفور، ص 198.

فالخضر حسين إذ يتولى الإجابة عن السؤال الذي ألقاه بنفسه على نفسه وجعله عنواناً لأحد فصول كتابه: «لماذا تختلف الأفكار في تداعي المعاني؟» يقف على سببين، الثاني منهما «ما يتفق للإنسان في طرز حياته وهو حال المحيط الذي يتقلب فيه، فيتوالى على خاطر الناشىء في النعيم والترف ما لا يتوالى على خاطر الناشىء في حال عسرة وبؤس، ويحضر في نفس من شبّ في الحاضرة ما لا يحضر في نفس الناشىء في البادية، وينساق إلى خيال الناشىء في شمال المعمورة ما لا يدخل في خيال الناشىء في جنوبها. فالمقيم في شمال أوربا مثلاً يذكر الشتاء فتقارنه صورة الثلج، وليس بينهما في ذهن المقيم بالجنوب اقتران واتصال لقلة مشاهدته للثلج أو عدم وقوع نظره عليه طول حياته، ولو نظر إلى الهلال رجلان هذا نشأ في الحلية والآخر اتخذ الحصاد حرفة، فالشأن أن يتداعى إلى الأول صورة السوار وينتقل منه إلى المعصم أو الصياغة، ويتداعى إلى الثاني صورة المنجل وينتقل منها إلى الزرع أو الحدادة»[1]. وهو مدار تأثير المحيط الطبيعي في الإنسان وفي طاقاته من التخيل والتخييل.

وأبو القاسم الشابي بعد أن يفيض في تصوير فكرة الجمال واستكشاف جواهره في النفس الإنسانية يؤكد جازماً: «أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيات الأمم وشاعريّات الشعوب ليُعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد، وأن على حسب ما في الإقليم من جمال وروعة تكون شاعرية الأمة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجاً نضيراً كانت شاعرية الأمة خصبة منتجة، وإن كان كالحاً مقشعراً كانت كزة مجدبة. بل أزيد: إن على حسب طلاقة الجو أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب، فإن كان الجو جهماً عبوساً كان روح الأمة داجياً مكتئباً، ولماذا لا يكون للوسط الطبيعي أثره الفعال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره، وقد تحقق العلماء أن

(1) الخيال في الشعر العربي، ص 17 ـ 18.

له الأثر القوي في خلق المزاج الفردي وتكوينه»[1].

واستناداً إلى كل ذلك يعلّل الشابي افتقار الأدب العربي في الدورين الجاهلي والأموي إلى شعر يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود ويشبب بجمال الطبيعة وسحر الربيع[2] ليخلص إلى التأكيد: «إن لهذا علّته المعقولة، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي»[3].

أما الفكرة الأثيرة عند الشابي والتي عليها بنى ثنائية خصب الخيال وجدبه في موازاة مع نضارة الطبيعة وقحالة الصحراء فقد تناولها الخضر حسين بوعي بلغ من الحصافة ما جعله يتخذها لأحد أبواب كتابه عنواناً: «أسباب جودة الخيال»، وفيه يقرّر أن أحد تلك الأسباب هو «تردّد النظر في مظاهر المدنيّة، فإن امتلاء حافظة الشاعر من المناظر المختلفة والصور التي لا تدخل تحت حصر تجعله أغزر مادة، حتى إذا عَرض له معنى اقتضى الحالُ إيرادُه في طريقة الخيال لا يعوزه متى التفت إلى حافظته أن يلاقيه منها ما يساعده على العمل بسهولة، ثم إنه لغزارة مادته وسعة مجاله تكون مخيلته أكثر عملاً في إنشاء المعاني وإبداعها، وكثرةُ العمل مما تترشح به هذه القوة النفسية، فيكون صاحبها أقدر على صناعة التخييل، وأرسخ فيها ممن كانت بضاعته مزجاة، وحافظته في إملاق».

ويضيف: «وحيث إن غزارة المادة تساعد على كثرة العمل الذي هو الإبداع، وكثرة العمل مما يقوّي النفسَ في صناعة التخييل، أمكن للشاعر المدني أن يفوق الشاعر البدوي أو القروي في تخييل معان اشتركوا في العلم بالعناصر التي تُنتزع منها الصور الخيالية».

ثم يستنتج: «يبلغ تأثير المدنية في تهذيب المخيلة إلى أن يكون الفرق بين عملها في حال البداوة وعملها بعد أن يحفن صاحبها بالحضارة

---

(1) الخيال الشعري عند العرب، ف 47.
(2) ف 50.
(3) ف 54.

من كل جانب أوضح من نار على علم»[1].

أما تناول الشابي لموضوع الخيال عند العرب بحسب مراحله التاريخية التي أطلق عليها مصطلح «الأدوار» وجعلها أربعة[2] فإنْ هو إلا صدى يقابل ما أسماه الخضر حسين بأطوار الخيال وخصّه بفصل من فصول كتابه[3] والجامع بين المنحيين البحث في ارتقاء التخييل الشعري تبعاً لمراحل نضج الشعر العربي بما تَواكب فيه الإلهام الإبداعي ومظاهر الحياة الطبيعية.

ولكن أحد المفاتيح الذهبية في هذا التوازي ينبثق مما وقف عليه الخضر حسين من أن أضرب الخيال التي جاءنا بها العرب الأوائل إنما كانت على ما كانت عليه من بساطة وقرب منال لأن بيئتهم لم تَنفذ بهم إلى مسالك التأمل وأدغال الفكر العميق «فعذرهم في ذلك أنهم لم يَنفذوا في مسالك الفلسفة ولم يعوّدوا أنفسهم التنقيب عن المعاني الغامضة وإنما كانوا ينطقون بالشعر على البداهة»[4]. لذلك فإن الخضر حسين إذا وقف عند الشعراء الأوائل على طُرف نادرة فسّرها بأنها من عفو القريحة ينساق إليها الشاعر دون إجهادِ نظر لأنهم لم يكونوا «ممن يذهب في صوغ المعاني إلى إزعاج الفكر وحثه على استخراجها من مغاصها العميق»[5]. وهذا ما سوف يحدث في لاحق الأطوار من الشعر العربي: «فبعد أن عني الناس بالنظر في شؤون الكون وسلكوا في البحث عن أسراره طريقاً فلسفيّاً أخذ الخيال الشعري يعمل في الحقائق الفلسفية ويجري وراء الفكر كالمُسعِف له في تصوير تلك المعاني الغامضة كما تراه في مثل قصيدة ابن سينا في النفس»[6].

---

(1) الخيال في الشعر العربي، ص 33.
(2) ف 49.
(3) الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ص 66 ـ 71.
(4) المرجع، ص 66.
(5) المرجع.
(6) المرجع، ص 68 ـ 69.

كل هذا سيدخل ـ بالقصد الواعي أو بالاتفاق المصادِف ـ مختبَر الرويّة عند أبـي القاسم الشابـي فتعتمله الحوافز وتحرّكه أضرب من الحيرة غيرُ ما تحركت به نفس الخضر حسين، فإذا بالمادة الخام تخرج بعد الاعتراك والتكرير نسقاً جديداً هو ذاك الذي بدأنا به فقلنا عنه إنه لم يكن هيّناً ولا يسيراً:

«قد انتهى بـي البحث في الأدب العربـي وتتبّع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سموّ فيه، ولا إلهام، ولا تشوّفَ إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق»[1].

وهو ما سيتصاعد تخريجاً وقساوة حتى يُحكَم على الروح العربية بالمادية:

«أما المادية فقد تكوّنت في أنفسهم لأن العرب ـ كما سبق ـ لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة الدؤوب التي لا تفتأ تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور»[2].

لم يكن إذن بوسع الشابـي أن يتجاسر فيعتبر كتابه نقضاً لكتاب محمد الخضر حسين وإن كان قد اعتزم أن يؤسّس ضرباً من الخطاب المضاد، وهي ضدّيّة ليست من ضدّيّة النقائض. فالشابـي قد استفاد من مصادرات الخضر حسين واتكأ على المستندات التي توفر عليها كتابه «الخيال في الشعر العربـي» ولكنه عمد إليها فوظّفها توظيفاً خرج بها من مقاصد إلى مقاصد أخرى تعاكسها في الاتجاه وتميل بها عن المدار، فكأننا بالشابـي ـ وهو الشاعر ـ قد أراد بكتابه «الخيال الشعري عند العرب» أن يطرّز قصيدة على نهج المعارضات يُناظِر بها كتاب محمد الخضر حسين «الخيال في

(1) الشابـي: الخيال الشعري... ف 127.
(2) ف 175.

الشعر العربي» فجاء كما تجيء قصائد المعارضات: تَحكي الثمائل من حيث تمعن في الاعتراض.

وما كان للشابي أن يناقض بكتابه كتاب الخضر حسين لسبب آخر على غاية من الدقة وعلى غاية من الخفاء، بل لعله من شدة تواريه آثر الشابي أن يدرجه في محفوظات الصمت فيسكت عنه، وهذا السبب ـ حسب الذي تبين لنا بالمعاودة والتملّي ـ هو أن الخضر حسين قد أفصح في كتابه عن شيء بالغ الخطورة، بعيد النتائج، ربما كان الشابي يتمنى أن يكون هو قائلَه، لولا أنه سُبق إليه، ولولا أنه كان في قلب الملحمة الوطنية ورجالها يناضلون في سبيل استعادة حرية البلاد.

لقد قال محمد الخضر حسين كلاماً يطابق الظرف لمن رام مطابقة الظرف عليه، ولكنه صالح خارج حدود الظرف: تاريخاً واجتماعاً وأدباً، بل هو صالح على الإطلاق، وصلاحه في أنه من الحقائق التي تقوم عليها الحضارات ولا تقولها كل الحضارات، بل هو الحق الذي يفزع منه قائله وقد يرتجف الذين يقال بحضرتهم إذا فهموا أنهم المعنيّون به.

لقد قال الخضر حسين وهو يعدّد أسباب جودة الخيال ما يلي:

«ثانيها الحرية إذ لا شبهة أن الاستبداد الأعمى يطبع الناس على الجبن، ويلقي في أفئدتهم رهبة تحملهم على أن يجعلوا بينهم وبين الأقوال التي تَسخط لها الحكومة القاسية حاجزاً لا يدنون منه، فيضيق بذلك مجال الشاعر، وربما تنكَّب الخوضَ في الاجتماعيات حَذَرَ الوقوع في السياسيات، ومَن ذا ينكر أن الخيال الذي يسخّره صاحبه في كل غرض ويُطْلق له العنان في كل حَلَبة يكون أبعدَ مرمى وأحكم صنعاً من خيال الشاعر الذي حصرته السياسة في دائرةٍ ورَسمت له خطة لا يفوتها. ولقد كنت أعرف أناساً شبّوا تحت سلطةٍ تكره للأديب أن يَفتح لَهاته في الأحوال السياسية فصرفوا معظم حياتهم في التردد على الغزل والمديح والرثاء، وفاضت عليهم قرائحهم في هذه الأغراض بمعان رائقة، ولمّا سَمح الوقت

بالكلام في مقاصد اجتماعيّة أو سياسيّة وقف بهم الخيال في عقبة كؤود أو أتوا بها في نسج واهٍ وهيأة متخاذلة».

ويُمعن الخضر حسين في التدقيق: «فالخيال حرّ في عمله، لا تملك السلطة المستبدة مَردَّه، ولكنها تمنعه من أن يتجوّل على مراكب الألسنة والأقلام، وهذا ما يثبّط الشاعرَ عن إطلاق خياله للعمل في أوسع مجال، ولا يرخي له العنان إلا في أغراض يَسعه الحالُ لأن يخاطب بها الناس نطقاً أو كتابة».

إلى أن يصدح بالرأي الصريح: إنه السبب الذي يكون به الخيال بديعَ الصنع[1].

إننا إذا راهنا على أن الشابـي قد قرأ كتاب الخضر حسين فلا خوف أن نراهن بأن هذا الكلام عن الحرية قد كان يَعْدِل في ميزان أبـي القاسم سائر ما خطه الخضر حسين حول العرب وحول الشعر وحول الخيال.

وقلما انتبه المنتبهون.

فالخضر حسين ببعض ما قاله في كتابه «الخيال في الشعر العربـي» قريب كل القرب من مهجة الشابـي ولكنه في مقاصد الأدب ومناهج النقد ومرامي التحديث الحضاري بعيد عنه بعداً شديداً، والذي يزيد هذا البعدَ مسافاتٍ تُغلّفُه وحشةً وانقباضاً أن محمد الخضر حسين قد انخرط بحماسة عاتية في صف الذين واجهوا طه حسين حتى آذوه. فما أن صدر كتاب «في الشعر الجاهلي» سنة 1926 حتى انبرى الخضر حسين يحاربه فوضع في ذلك تصنيفاً ناقضاً[2]، ولم يكن يعز على الشابـي شيء كما كان يعز عليه الانتصار لمنهج التحديث، ولم يكن يهون عنده شيء كما كان يهون ركوب مسالكه الوعرة.

---

(1) ص 34 ـ 35.

(2) محمد الخضر حسين: نقض كتاب في الشعر الجاهلي، القاهرة، 1927، راجع البحث القيّم الذي أنجزه محمد مواعدة: محمد الخضر حسين: حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر 1974.

إن الموازاة بين الشابـي وطه حسين غير متعذرة وكذلك القول بأن الشابـي قد أتى في محاضرته عن الخيال الشعري عند العرب بصدّى يحكي رؤية حسينيّة لا سيما وقد أتت بعد الضجة الكبرى بسنتين أو تزيدان، ولكنّ شيئاً من ذلك لا يكفي للقول بأن لحظة النشأة التي تخلّقت فيها المحاضرة كانت هي لحظة اللقاء في رحم العلاقة الحسينيّة: لا حسينيّة محمد الخضر، ولا حسينيّة طه. فمع الأولى كانت الطريق واحدة والاتجاهان متعاكسين، ومع الثانية كانت الطريقان متقاطعتين تقاطعاً رأسيّاً: تبدأ الأولى حيث تنتهي الثانية، وتنطلق الثانية بعد أن ترسم الأولى مدارها.

فطه حسين ـ لو أردنا أن نصوّر خطه الفكري بيانياً ـ قد انطلق من الوعي الأدبـي ليتحوّل منه إلى الوعي الحضاري، أما الشابـي فقد اتخذ من الوعي الحضاري العام منطلقاً ليتجه منه صوب وعي أدبـي نقدي.

وتلك هي المناصفة.

ومما لا شك فيه أن ما كان يحصل على ساحة الصراع الثقافي والفكري في الوطن العربـي قد كان يصادف في نفس أبـي القاسم الشابـي هوى وأيّ هوى، ويكفي أن نعرف أن القضية الأم في محاضرة الخيال الشعري عند العرب قد كانت هاجساً سكن قلب شاعرنا منذ مدة: فقبل موعد المحاضرة بحولين كاملين حضر أبو القاسم في النادي الأدبـي لجمعية قدماء الصادقية محاضرة عن «تطور الأدب الفرنسي» ألقاها الحبيب بورقيبة فعقّب من الحاضرين من عقب مشافهة وارتجالاً، وقام الشابـي يناقش وكان ـ حسب شهادة زين العابدين السنوسي ـ العضو الوحيد الذي قدّم رأيه مدوّناً مخطوطاً وقد جاء فيه: «أن نهضة التحرير في عالمنا العربـي لن تكون ثابتة إلا بتمهيد من نهضة يتحرر فيها الفكر العام من كابوس الماضي، وهذا يُعِين عليه الأدب الذي هو مظهر الروح. وتلك النهضة الأدبية الضامنة للفوز بالفاعلية والخلود هي التي ستضمن حرية الأمة في المستقبل عندما تتحرر

العقول من جمود العبادة للماضي وهي مَدرج تحرّرها من الظالمين الأجانب والأنانيين جميعاً، ولن تكون حرية هذا الجيل ما دام يعبد أمواته ولو كانوا امرُؤَ القيس وابن المقفع، وما دام لا يؤمن بالابتكار والرقي في العلم والنُّظم والأخلاق والآداب»[1].

أفلا تكون تلك الليلة هي الليلة التي شهدت مولد فكرة «الخيال الشعري عند العرب» ثم نضِجت حتى اكتملت وأبانت عن نفسها بعد حولين كاملين!.

إن القضية في صفوة جوهرها عند أبي القاسم الشابي ليست العربَ، وليست أدبَ العرب، وإنما هي موقف العرب من أدبهم، وإن شئت الدقة فقل هي موقفنا نحن عربَ اليوم من موقف أجدادنا من الأدب. وكل ذلك مدفوع دفعاً إلى غاية بعيدة المرام تتصل اتصالاً وثيقاً بلباب التراث وجواهره لأنها من صميم الحياة الفكرية والروحية: ولسنا بمتقولين عليه في شيء من هذا إذ هو على أدق وعي بما ينشد: «فالخيال بهذا المعنى الذي بسطته وعلى هذا اللون الذي تكلمت عنه هو الذي أريد اليوم أن أتلمسه في جوانب الحياة الفكرية العربية، وهو الذي أريد أن نتعرف إليه في ما أبقى لنا الأجداد الأقدمون من تراث روحي ضخم وثروة أدبية طائلة حتى نعرف ما هي عليه من قوة وإنتاج»[2].

إن القضية إذن ليست في الأشياء وإنما هي في موقفنا من الأشياء، هي إذن في الرؤية، وهي إذن في المنهج. لذلك تعلقت همة الشابي بأن يضرب للجميع درساً هو كالعبرة لمن يعتبر: أَنَّ التعلق بالأشياء لا يلغي حقنا في نقد الأشياء، وأن الإيمان بالتراث إلى حد الوَجد لا يتناقض مع النظر فيه بعين فاحصة كاشفة، وأن الوعي النقدي يبدأ ساعة نكسر طوق

---

(1) زين العابدين السنوسي: أبو القاسم الشابي حياته وشعره، الدار التونسية للنشر، ص 5 ـ 6.

(2) ف 23.

الثنائية المتدافعة: إمّا التعلق فالوفاء وإمّا النقد فالعقوق.

لقد أراد الشابـي بأن يفصم هذه الثنائية الضدّيّة الآسرة ليثبت بأن التعلق يصاهر النقد وبأن النقد لا يصدر عن عقوق.

وهكذا بدأ بنفسه واستدرج الآخرين فقال: «لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربـي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون»[1].

وإذا ما كانت الوصيةُ وصيةَ الشابـي إلى أبناء العصر فلأنه أراد أن يكون شأننا مع الأدب غيرَ شأن أجدادنا معه، وقد جاء مَن أحسن الصوغ فقال: «الأدب عند العرب شأنه غريب، وأغرب منه شأن العرب مع أدبهم. فهم عندما فتحوا أعينهم على الوجود ـ وكان ذلك بعيد الإسلام ـ ونظروا إلى أنفسهم وما إليها وفكّروا في ضبط ما لديهم بإحصاء ما عندهم وترتيبه واستنباط القوانين منه فعمدوا من بين ما عمدوا إليه إلى لغتهم وأدبهم تبينوا أن هذه اللغة وهذا الأدب قد وصلا بعد إلى حد الكمال، ولا شيء وراء الكمال كما علمت»[2].

إن إدراك ذاك المغزى المنهجي لكفيل بأن يخفّف ـ عند القارىء كما عند الناقد ـ وطأة ذلك الحكم القاطع الذي أرسله الشابـي في غير إشفاق على العرب وعلى أدبهم فرماهم بالجدب ورمى أدبهم بأفول جذوة الخيال، والحال أنهم أهل الشعر وأحفاد البيان وورثة الإعجاز.

إذا أدركنا ذلك المغزى البعيد سلّمنا بأن القضية ليست في جوهر الحكم الذي أرسله الشابـي، وليست في مدى جوره أو عدالته، ولا هي في مدى صدقه أو انتحاله، وإنما الأمر كل الأمر في السبل التي نتوخاها لمثل

---

(1) ف 129.

(2) هو مفتتح مقال الدكتور الشاذلي بو يحيى «العرب وأدبهم» الذي أثار في الوسط الأدبـي ضجة لأنه أصاب مكامن مُوجِعة إذ جاء يؤز القناعات أزّاً رغم أنه قيل بعد سبعة وثلاثين عاماً من محاضرة الشابـي.
الفكر، س 11، ع 8، ماي 1966، ص 2 ـ 17.

هذا الحكم أو لأمثال نقائضه، إذ ما منا عاقل يظن أننا على أرض المُطْلقات، بل أقدامنا على تربةٍ من النِّسب: في القيم والمعالجات ومراتب المقامات، لهذا كله لا نرى من وجاهة في المسلك النقدي إلا إذا ولجنا إلى الأمر من نوافذ المنطلقات التي صدر عنها أبو القاسم الشابي في محاضرته واتخذها مصاعد نحو الإصداح بحكمه القاطع. إذ في هذا التناول مطابقة بين مقاصد الشابي وغاياتنا نحن من فحص أثره.

ومهما حاولنا ـ في سبيل غير هذه ـ بأن نناظر بين تأويلنا لمراميه والظروف التاريخية والثقافية والنقدية التي أحاطت به يوم ألقى محاضرته فلن ندرك بالظن أي مرتبة من مراتب اليقين، وقصارى حالنا أن نحدس حدساً، فيبقى عندئذٍ أن نفحص النص وما حواه من أحكام من خلال فحص الأوّليّات التأسيسيّة التي وضعها صاحب النص ذاته. تلك الأوّليّات التي يلذّ للنقاد أن يسمّوها منطلقاتٍ بعد أن كان المناطقة يصطلحون عليها بالمقدّمات، ولا مشاحة في الألفاظ كما كان يردد الأجداد.

ومن دقيق ما يتعين الوقوف عليه في مظان نص «الخيال الشعري عند العرب» أن أبا القاسم الشابي قد كان يدفع بما هو قائم مقام المقدمات دفعاً اجتمع فيه التواتر والامتزاج حتى إنك لو رمت فك سبائك التعاظل لتيقنت أن من المنطلقات ما هو ـ في مسلك صاحبه ـ من قبيل المُسَلَّمات يقدّمها العارض بين يدي قارئه بعد أن قدّمها على مسامع الوافدين إليه دون احتراز، فكأنه يصادر على التسليم بها مصادرة شاملة.

ومن منطلقاته ما سِيقَ مساق الفرضيات فترى أبا القاسم يسعى إلى الإشراك حولها بالاستدلال أو بالاستدراج، فتتحوّل هي ذاتها إلى جزء من كيان البحث، فتغدو من دعائم الحكم لا يصحّ إلا إذا صحّت لأن الشابّيَّ لا يَأمن نقض حكمه إلا إذا اِئتَمن قارئَه على التسليم بتلك الفرضيات.

ومن منطلقاته مقدَّمات هي بمثابة المستندات لأنها تنتمي إلى حقول مجاورة يتكىء عليها الشابي بوصفها حقائق مستعارة سواء أكان هو الصائغ

لها أو كان مقتبِساً إياها، ولكنه يتبنّاها فيقدّمها لا على أنها ملك مشاع وإنما على أنها حق عينيّ من حقوقه.

وحيث إن المقام للتدليل لا للإفاضة فلنقفْ عند شواهد كالعيّنات:

فممّا هو وارد وورود المسلَّمات تأكيده في غير تردّد بأن الخيال ضروري للإنسان لا بدّ له منه ولا غنية له عنه، وهذه الضرورة التي يسلّم بها الشابي ويصادر على تسليمنا معه بها ليست من ضرورات الحياة الإبداعية والفكرية وإنما هي من ضرورات الحياة بما هي حفظ للنوع وإبقاءٌ على الوجود، هو «ضروري له كالنور والهواء والماء والسماء». ثم هو ضرروي «لروح الإنسان ولقلبه ولعقله ولشعوره». والشابي بهذه المصادرة يراهن على أن إنسانية الإنسان مقترنة بهذا الخيال الذي يسوقه في أوسع مفاهيمه. فالضرورة قائمة «ما دامت الحياةُ حياةً والإنسان إنساناً»[1].

ويزيد الشابي إمعاناً في هذا الترسيخ موظِّفاً غرضه الأدبي النقدي إلى فَناء أرحبَ من السياق الذي يتحدث فيه، وذلك سدًّا لكل الذرائع التي قد تَعوق بناء رؤيته الكلية، واستناداً إلى ذلك يَعمِد إلى الربط بين الضرورة المطلقة والاضطرار العملي الذي يُدفع الإنسان فيه بالقوة التي تنشأ ممّا تركّبت عليه بنيته الآدميّة: «وصفوة القول أن الإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه، محتاج إليه بغريزته»[2]. وهي مزاوجة بين طرفين لا ندري هل سِيقا مساق التناظر أم مساق المرادفة.

ولكن الوجه الأكمل في هذه المسلَّمات كامن في ما يخرج به الشابي بعد كل هذه التقديرات من تسليم بقناعته حول الشعر ومدى ارتباط الإنسان به انطلاقاً من ترسيخ مصادرته حول الخيال: «إن الإنسان شاعر بطبعه، في جبلّته يكمن الشعر وفي روحه يترنّم البيان»[3]. وهي قفزة في مجال طرح

(1) ف 3.
(2) ف 14.
(3) ف 7.

الأحكام وإيرادها على مَحمل المسلّمات مما يسحب من بين يدي النقد بساط المحاجّة كما يستلّ من حوزة نقد النقد مسارب الاستدلال.

وأشد طرافة من ذلك ما جاء به الشابي على منوال الفرضيات حاسباً للحِجاج حولها حساباً، وأكثر ذلك بروزاً وأقواه أثراً ما ساقه في شأن «الروح العربية» وقد استشعر لزوم معاضدة العبارة بتحليل مقاصده فأدرج كل ذلك في العنوان الذي اختاره للفصل السابع من محاضرته: «الروح العربية طبيعتها الخاصة والعوامل التي كوّنت فيها ذلك الطبع والمؤثرات التي عملت على إبقائه في مختلف العصور».

وهو على وعي تام بأنه يقدّم ما هو في حاجة إلى الحد الأدنى من الاستدلال، ولم يتوان في التذكير بهذه الحيرة المنهجية: «كل هذا قد عَلِمتموه من قبلُ حينما عَرضتُ له في شيء من التحليل والإطناب والاستقراء»[1].

إن حكم الشابي على ما أسماه بالروح العربية حكمٌ قاطع لا يُجيز استئنافاً ولا تعقيباً: «ليس لها من الخيال الشعريّ حظ ولا نصيب» لأنها تستند إلى «نظرة قصيرة ساذجة لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وصميم الحقائق، وإنما همّها أن تنصرف إلى الشكل والوضع، واللون، والقالب، أو ما هو إلى ظواهر الأشياء أدنى من دخائلها»[2].

وتخال في البدء أن الشابي عندما يتساءل «وإذن فما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟»[3] بعد أن قال: «أما الذي يهمني الآن (. . .) فهو أن نعرف طبع الروح العربية التي صقلت منتجاتها هذا الصقال»[4] فإنه يتحدث عن شيء محدَّد في ذهنه، وأن لمصطلح «الروح» متصوَّراً مرسوماً، له

(1) ف 158.
(2) ف 157.
(3) ف 159.
(4) ف 158.

خصائصه المبدئية ولكنه يبحث عن سماته المميّزة له في الحضارة العربية ولدى أبناء هذه الأمة ذات المواريث التليدة.

فإذا فحصتَ النص فحصاً باطنياً تبيّن لك غيرُ ما كنت تخال، فإن رُمتَ الشفاعةَ قلتُ: تبيّن لك أن الشابي يُجنِّح بالألفاظ في فضاء المجاز فينقطع مِن يدك حبل إمساكه والحال أنه يتحدث في أمرٍ جَلَلٍ لا تستقيم فيه لغة الإبلاغ ولا يَسلم خطاب التواصل إلا بالاعتماد على المتعارف من الدلالات، أما صبغ المعاني بأصباغ الاستعارات فإنه يُورث رونقاً ويولّد التذاذاً ولكنه قلّما يُملّك فهماً قاطعاً.

فالشابي منذ منطلق حديثه عن **الروح العربية** يتحدث عمّا أنتجه **«الذهن العربي»** وكأنه في سياق المترادفات بين الروح والذهن، ثم يشرح فيتكلم عن **«الروح السائدة في ذلك»** فتستنبط من النعت تدقيقاً جديداً للفظة الأمّ، ولكنه حيث يصف إنجازها يقول إنها: «لا تتحدث عن الطبيعة إلا بألوانها وأشكالها...»[1] فتتحوّل بك وجهة التأويل وتقول إن المقصود بالروح هو الإبداع في الأدب.

وبعد ذلك يَستأنف القولَ عما **«أنتجه العقل العربي»** مستكشفاً كما أسلفنا **«طبع الروح العربية»** لتحديد **«ما جادت به قريحتها»**[2].

وإذ تطمئن إلى أن عبارة **«العقل العربي»** تقوم من عبارة **«الروح العربية»** مقام المرادف الملازم يباغتك الشابي بالقول إن **«الروح العربية** خطابة مشتعلة لا تعرف الأناة في الفكر فضلاً عن الاستغراق فيه» فتعود لفصل ما كنت ظننت أنه مقترن بالوِثاق لا سيما والحديث يسترسل على ذاك النهج: فقد **«كان لها ذلك الطبع** الشبيه بالنحلة المرحة» لأن **«ذلك** هو طبعها وأن فيما رأيتم من آثارها العقليّة لصداق لما قلته»[3].

---

(1) ف 157.
(2) ف 158.
(3) ف 160.

وما إن تتقدم خطوة أو خطوتين حتى تظفر بقنص جديد، فمدار الكلام هو الخيال الشعري، وأبو القاسم الشابي يُمِدّك بقرينة جديدة حينما يربط بين ملكة الخيال وعبارة جديدة تبدو لك نفيسة في هذا السياق: «وقد كان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكة الخيال الشعري في **النفسيّة العربية**»[1]. عندئذٍ يستقر بك التأويل بعض الاستقرار حتى يدركك طالع الفقرة الموالية فتقرأ: «وقد كان لهاتين النزعتين آثار أخرى في آراء **العرب وأذواقهم**»[2] فتتنكّب بك مَرْكبة التأويل بحثاً عن ائتلافٍ لم تجده في المصطلحات أو عن رضى بالمتشابهات بين ألفاظ اللغة وفي كلتا الحالين تظل تطرب لشعريّة الكلام وتظل قاصراً عن إدراك الكلام في الشعر.

فإذا واصلت الرفقة وقرأت: «لو استقرأ الباحثُ الأدبَ العربي وبالأخص الأدب الجاهلي والأموي لَعلم أن فيه كثيراً من هاته القصائد التي لو فكت من قيود الشعر وأصفاد القريض لكانت خطباً رائعة لا ينقصها شيء من **روح الخطابة وطابعها**»[3] علمت أن مصطلح الروح قويٌّ وقوّته عاتية لأنه ينفك عن الاقتران بالعرب من حيث هم كيانات ليَحلَّ قريناً مع الخطابة التي هي إنجاز في الإبداع والأدب فيفلت من يدك ما ظننت أنك قد قبضت عليه.

فإن أنت غالبت نفسك وصبرت وصل بك المطاف إلى تأكيد ما أصابك حوله الشك: «**وكذلك تكونت النزعة الخطابية في النفسية العربية** بحكم الطبيعة وبمفعول الوسط» حتى يوقظك النص من جديد بالقول: «**وكذلك كان الروح العربي خطابياً صميماً**»[4] فتنتبه إلى أبي القاسم الشابي وهو يستعمل مصطلح الروح استعمالاً استثنائياً بما أنه يتخلى عن تأنيثه فيذكّره وينعته بالنعت المذكّر «**عربي خطابي صميم**» فلا تجد لهذا

---

(1) ف 161.
(2) ف 162.
(3) ف 163.
(4) ف 175، راجع أيضاً ف 42 حيث يرد الروح مذكّراً.

الاستثناء إلا تفسيراً واحداً لعلّه في غيابات اللاوعي اللغوي وهو أن التماثل قد بلغ تمامه بين مفهوم العقل ومفهوم الروح.

ثم يستدرك الشابي على نفسه فيعود حديثه إلى مجراه الأوّل: «فقد رأيتم كيف تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق **الروح العربية** مطبوعة بطبائع الخطابة»[1]. وإذ يجنح إلى التجسيم يتحدث عن «**الرداء**» الذي ألقته هذه العوامل «**على الروح العربية**»[2].

وما إن تترسب لديك بعض الهواجس في الفهم والتأويل حتى يطلع عليك الخطاب الشابي بتقسيم جديد ينبثق فيه مركّب تعبيري آخر كأنه من جداول علم النفس ومن وثائق عيادات التحليل النفسي: «فكان لهذا كله أثر في اختلاف الوسط الطبيعي ولون الحياة وفي **المزاج العربي** (. . .) ولكن **المزاج العربي** العتيد الذي لم يزل قوياً شاعراً بنفسه قد طبع هذا النوع الجديد من الأدب بطابعه الخاص»[3] «وأما الأندلسي فقد تأثر بذلك **المزاج العربي** الذي أورثه إياه العرب»[4].

عندئذٍ تركن إلى التسليم وتتذكر أن أبا القاسم الشابي شاعر قد تعاطى النقد وأنه عندما حاول أن يخفف عليك أعباء التأويل فجمع بين الأشتات في قولة واحدة: «إن هاته العصور الثلاثة قد أثّرت في آدابها عوامل أخرى قرّبت بينها وبين الأدب الجاهلي **في الروح والفكر والخيال**»[5] نسي أن يقول لك إن كان يربط بين الروح والفكر والخيال على مقصد التمييز أم على محمل المتقاربات.

وقد يشتد استطرافك للخطاب الشابيّ إذا انتقلت إلى بعض ما ساقه على مدار المستندات من مقدماته، وأطرف ما في ذلك حديثه عن اللغة،

---

(1) ف 178.
(2) ف 179.
(3) ف 183.
(4) ف 184.
(5) ف 180.

فقد ألهمه حسّه الشعري أن يأتي بما ليس من مجال همومه ليقرن بين علاقة الخيال بالإنسان وعلاقة الإنسان باللغة فيقول: «إن اللغة مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنهض من دون الخيال بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وآلامها وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة وشعور»[1].

ثم ينساق به طائر الشعر فيمعن في مجازات التصوير وهو يتحدث عن آلة التصوير ذاتها التي هي آلة الكلام: «إن اللغة لأصغر وأعجز من أن تحمل مثل هذه الأمانة السماوية مهما بلغت من الرقي والتقدم لأنها ضيّقة محدودة فانية والنفس الإنسانية فسيحة لا نهائية باقية. وستظل اللغة في حاجة إلى الخيال لأنه هو الكنز الأبدي الذي يمدها بالحياة والقوة والشباب ولكنه مهما أمدها بالقوة والشباب فستبقى عاجزة عن استيفاء ما في النفس الإنسانية من عمق وسعة وضياء»[2].

ولا شك أن هذا الانفساح في البيان هو الذي ارتد على صاحبه في آخر المطاف فأوحى له بتأويلٍ أتى به عن سرّ البلاغة والخطابة والإيجاز ولم يأت به غيره.

فالنزعة الخطابية هي التي ـ حسبما ما انقاد إليه أبو القاسم الشابي من تأوّل ـ ولّدت كثرة المترادفات في اللغة العربية «وما ذلك ـ حسب استدلاله ـ إلا لأن الخطابة تُؤْثر الفصاحة على أي شيء آخر، ولا بد للفصاحة من مورد غزير تستمد منه جمال القول وبراعة الأسلوب»، وهذا مذهب في الفهم والتفسير متمازجُ العناصر ومتشاجر المكوّنات: فيه ممّا أورده فقهاء اللغة الأوّلون، وفيه أيضاً ما لو اطلع عليه ابن سنان الخفاجي

(1) ف 16.
(2) ف 19.

لاضطرب به القول ولأساء الظن[1].

والأغرب ما ينتهي إليه أبو القاسم الشابي في تعليله ما تأتّى من النزعة الخطابية حين تَعرَّض للإيجاز.

والأعجب أنه جعل الإيجاز مأخذاً من المآخذ.

والذي هو أغرق في العَجَب أنه فسّر هذا الأمر بميل العرب إلى الإيجاز وأن الإيجاز عندهم هو روح البلاغة.

وكاد الشابي أن يشهِّر بهذا الذي ظن أنه أكبر المآخذ وأوجع المطاعن. «وما ذلك ـ حسب تعليل صاحبنا ـ إلا لأن طبيعة العرب الخطابة، والخطابة منشؤها حدة الطبع، ومن كان حادّ الطبع فإنه لا صبر له على الإطناب والإسهاب لأن الطبع الحاد متسرع عجول، عجول في حكمه، عجول في فعله، عجول في قوله أيضاً، ولا يلائم هاته السرعة النفسية إلا السرعة في أداء المعاني على أخصر أسلوب، وذلك هو الإيجاز»[2].

ولو أن موطئاً التقى على ربوته عالِم الأدب وفقيه اللغة ماضياً، وعالم اللسان والناقد حاضراً، لَمَا أمكن أن يكون إلا التأويل المضاد: أَنَّ الإيجاز بما هو اكتنازٌ في الدلالة واتكاءٌ على أداء التضمين وتوظيف لطاقة الإيحاء فإنه حضّ واستحثاث دائمان يَستنفر بهما المتكلمُ ملكاتِ المتقبّل حتى ينهض إليه بفكره نازعاً عن نفسه أردية الكسل التي يُغدِق بها عليه قانون المجهود الأدنى في الأداء اللغوي.

إن «الخيال الشعري عند العرب» مجازفة لعل الذي صنع جمالها والذي يصنع استعصاءها أنها كشفت لنا عن صورة شاعر وُلِدَ شعره مكتملاً فأغراه الشعر بأن يطرق الإبداع في قضاياه الكبرى فتناول الخيال الشعري من موقع الناقد، وتناوله في نفس الوقت من موقع المؤرّخ للأدب، ومن

---

(1) ف 171.

(2) المرجع.

موقع الباحث في علاقة الأدب بسيرورة التاريخ ومختبرات الحضارة، ومع ذلك كله سعى إلى أن يكون في نقده منظِّراً بين المنظّرين فتمازجت العناصر تمازجاً أغضب جمعاً وجمعٌ استلذ به واستطاب.

وإن من الذين حاسبوا أبا القاسم الشابي على ما ذهب إليه في محاضرته حتى قسوا عليه فريقاً لعلّه الأكثر عدداً والأجلّ شأناً راح يحاسبه على أنه بما قال كان يريد أن يؤسّس نقداً منهجياً فغفلوا عن أنه بصنيعه إنما كان يسعى إلى تأسيس منهج نقدي، فالمحاضرة درس في الموقف من الأشياء التي أشارت إليها وليست درساً في الأشياء التي تناولتها: هي لحظة من النضال الفكري يرمي منه صاحبه إلى إثبات حق الأديب في النقد دون أن تنجر عليه من النقد تبعاتٌ ليست منه وإنما مأتاها ما وراء الأدب وما وراء الفكر.

إن كتاب «الخيال الشعري عند العرب» جهادُ قريحة كما سمّاه صاحبه أرادت أن تحرّك الناس وتدعوهم إلى سواء السبيل، لأنه دفاع عن شرعية المنهج النقدي في حدّ ذاتها، أما النقد المنهجي فالجميع يعلم ـ وأبو القاسم خير من كان يعلم ـ أنّ له قيوداً وضوابط لا يكتمل إلا متى توفّر عليها.

إننا لا نحسب الشابي قد ابتغى غير شيء واحد: أَنْ يُحمَى الناقد من عسف الإقصاء، وأن يُؤَمَّنَ له حق الاختلاف، وأن يَضْمَن له الجميعُ براءةَ التأويل.

الخيال الشعري عند العرب

إضـاءة

لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة[1].

أبو القاسم الشابـي

(1) راجع الهامش 1ص 18 من المقدمة. عنوان «الإضاءة» من وضعنا.

الإهـــــداء

إلى حضرة الوالد الكريم
الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم الشابـي
الذي رباني صغيراً، وثقفني كبيراً،
وأفهمني معاني الرحمة والحنان،
وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم
وأقدس ما في هذا الوجود،
أتقدم بهذه الصفحات
التي هي أول عمل أخرجته للناس،
وأنا أرجو أن أكون قد توخيت فيها
صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

أبو القاسم الشابـي

كلمة المؤلف

هذا الكتاب هو المسامرة التي ألقيتها بقاعة الخلدونية في العشرين من شعبانَ السنةَ الماضية[1] قدمتها للطبع دون أي تنقيح أو زيادة أو حذف إلا ما كان من التعاليق التي شرحت بها ما يمكن أن يُشْكِل لفظه أو يبهم معناه حتى يكون القارىء على بيّنة مما أردت قوله أو دللت به، وإن كنت أعلم أن كثيراً من الآراء التي بها في حاجة إلى الشرح والبيان والتعليل، وربما إلى زيادة التمحيص والبحث، ولعلي أعود إليها بالنظر في مقتبل الزمن إن سمحت بذلك الأقدار. أما الآن فحسبي أني لبّيت بطبعها رغائب إخواننا الكثيرين من الشباب الناهض المستنير الذي لم أخطَّ كتابي إلا لأخاطب فيه حماس الفتوّة، وأدعوه معي إلى أن نسلك بالأدب التونسي سبيل الحياة الجميل المحفوف بالأوراد والزهور.

أبو القاسم الشابي

(1) راجع الهامش 2 ص 9 من المقدمة.

المقدمة

بقلم زين العابدين السنوسي

كانت النهضة الأدبية في أواخر القرن السالف تقوم على نشر الأدب العربي وطبع مجموعاته الثمينة، ثم توفير مادته بتصريف قواعده التي ضبطها السلف في كتبهم تلك، وحصروها ضمن متون متينة وضعها الأقدمون، وارتضتها أجيال المتأخرين فحازت إجماع الآباء وأيدتها العصور.

فنشر الناشرون مئات الدواوين وآلاف المجلدات من أسفار الأدب واللغة ليفاخروا بها مواكب آداب الأمم الأخرى التي غزت الشرق عموماً وبلاد العرب على الأخص، فملأت أنهجه وعرضت نفسها على أنظار بنيه بأبخس عوض، فاشتراها البخيل لزهادة أثمانها وقرأها الكسول لقربها من متناوله، وفهمها الجاهل لبساطتها وانطباقها على حوادثه وأحلامه.

فلم نلبث أن رأينا سادة كتّابنا ـ حتى الذين لا يحسنون تلك اللغات ـ يكبرون من هاتيك الآداب ويتبيّنون فيها عناصر الحياة وموافقة ذوق الجيل وحاجته. فإذا المنفلوطي يتحكك بعارفيها ليترجم منها الفوائد ويقتبس السياق والعقد فيخرج للعربية بكل جليل رائع، وإذا كتّابنا يهتفون بنا: «فلنترجمْ» وإذا بالشعب العربي يحسّ أن أكثر صحفه فائدةً وأوفرها لذة إنما هي تلك الصحف والمجلات التي عرف أصحابها كيف يقتبسون عن الغرب ويترجمون من روائعه.

ولا غرو فقد اكتشفوا في تلك الآداب الأجنبية مناجم اغتناء جديدة ما

كان العرب في غنى عنها إلا كاغتنائهم بالإبل عن السيارات، وببغل البريد عن التلغراف والطيارات. . .

فكما أنه لا يمكن أن يَشفع في الجمل مئات الأسماء التي وضعها له الآباء، ولا يمكن لملايين القصائد التي قالوها في مدحه أن تردّ عليه اليوم من السيارة والقاطرة معشار مقامه الاجتماعي والاقتصادي، كذلك لم يعد في طوق الذهن البشري أن يعكف على مسالك الأقدمين يجرجر في طرائقها ويكرر أساليبها ويقبّل خدودها التي قبّلها آباؤه منذ ثلاثة عشر قرناً بل يزيدون، بعد أن تكشفت لهم كنوز جديدة لها بريقها وخلابتها، وبعد أن وضحت في أذهانهم طريقاً عرفوا منها الجدة والروعة والجمال.

وهكذا نرى أدباءنا استبدلوا[1] أدواتهم ومناهجهم القديمة بأخرى جديدة اقتبسوها من المخالطة كما اقتبست زوجاتهم أقمشتهن وأزياءهن من هؤلاء الأجوار الغربيين وكما اقتبس منهم النجار والحداد والبنّاء والنساج والإسكافي مواعينه وأساليبه[2].

وفي الحقيقة فإن الأدب ـ أكثر من كل شيء آخر ـ لا يمكنه أن يعيش بدون غذاء ومبادلة، وإلا وقع له ما وقع لحمار المغربي الذي «أكل من حاله حتى مشى في حاله».

بل إن نقاد الآداب الأمميين ودارسي الذهن البشري قد يعتبرون بقاء الأدب ضمن قيوده العتيقة دون غذاء جديد من أدب فتي طيلة هاته[3] القرون ـ وهو متماسك الذات وأصحابه من ملايين الملايين من البشر قانعون به، لا يتململون منه ولا يطلبون عنه حولاً ـ من معجزات الإسلام الخالدة التي يجب على أهل هذا الجيل تعرّفها وحفظها للأجيال الآتية

---

(1) يستعمل السنوسي هذا الفعل في ما شاع من الاستخدام لا على فصيح اللغة، وهما متعارضان.

(2) هاء الغائب المفرد على المعنى لا على تعدد اللفظ.

(3) استعمالٌ على التجوّز.

كمَنقبة ومعجزة تبرهن على ما للدين الإسلامي من قوة وأثر رائع.

قال دي كونسي يحرض جيله ـ على رأس القرن التاسع عشر ـ على الاقتباس من آداب الأمم الحية المجاورة مثل الأدب الألماني والإنجليزي: «إن الأدب الذي لا يعبّ من غيره لا بد أن يدركه الهلك ويفنى» وهكذا اتجه الأدب الفرنسي إلى الاختلاط وملاحقة الآداب الأخرى بما أصبح به اليوم من أقوى وأوسع[1] العناصر الزاخرة بكل رائع والفيّاضة بكل جليل.

تحت أشعة هذا المشعل الباهل وفي هذا الرواق الوضيء، سار الأدب العربي اليوم، وعبّ من نهر الخلود، فاكتسى وجه الشيخ المهيب من ماء الفتوة ما حبّبه إلى الشباب، وعاود إغراءهم بالاستفادة من حكمته.

بل إن أبناء هذا الأدب البررة لم يكفهم ذلك اللقاح الشامل المجدّد حتى عمدوا إلى فحص الجسم كله لتستبين لهم مواقع الضعف والمراكز المحتاجة إلى اللقاح، حتى لا تضيع الجهود عبثاً في معالجة الجهات الصحيحة من جسم الأدب العربي.

فقام في مصر وسوريا والعراق وتونس أفذاذ من النقاد يضعون أصابعهم على مواضع الألم ويبرهنون على مواقع النقص والضعف ولكن هاته العملية تختلف عن السابقة لأنها لا تكتفي من مس القديم بالبناء حوله والإضافة عنه، بل هي تُقْدم رأساً على تشذيب العصا المباركة وهدم أنحاءٍ بعينها من الهيكل المقدس مما يثير صرخات الشيوخ وضجيج المحافظين.

على أننا نعرف من جهة أخرى أن ذلك الصراخ وتلك الضجة لها نفعها في المجتمع، وهي من واجبات الإصلاح ومتممات التطور. فالمريض لن يأمن غلطة الطبيب ولا بأس له بصيحات تَلفت طبيبَه المنهمك في تطهيره إلى أماكن الوجع وتحذّره من الاسترسال في قطع اللحم الحي مع جاره.

---

(1) ازدواج المضاف هو أيضاً على التجوّز.

والآن لنقف عند حد هذا التمهيد اللازم، ولنتدرّج من مقدمتنا هاته إلى بيت القصيد.

لما سمعت هاته المسامرة لأوّل مرة خرجت من قاعة الاجتماع مهتمّ العقل أكثر مما كنت منبسط النفس بل يمكنني أن أقول إني خرجت من تلك الجلسة منكمش النفس واجفها مع أني كنت ممن صفقوا لأكثر مقدماتها والمعجبين بدعاماتها ولغتها الشعرية الصريحة، بل كنت أنا نفسي الذي قدم حضرة المسامر إلى مئات المستمعين منوهاً بنبوغه الباكر ووجهته في التجديد الأدبي.

وحادثت في الأمر كثيرين فإذا بهم يجمعون على تقديس الفكرة والإعجاب بالمسامرة، إنما يُلْمح بعضهم بكيفيات مختلفة إلى أنهم يشعرون بجرأة الخطيب في التنويه بالمرض والإشادة بالداء.

ولا غرابة في ذلك ما دام الشيخ[1] أبو القاسم أول خطيب تونسي يُسمع تونس مثل هاته اللهجة، ويطرق الموضوع على منبر عمومي تحضره طبقات مختلفة من الثقافات المتفاوتة والمدارك المتباينة.

مع أن الخطيب لم يسلك أي طريق «سياسي» في حديثه ذاك بل كان في موقف الابن المتحمس في إظهار معائبَ آنَ زمنُ هتك سترها، والاستمتاع بنقائضها مما يَرى أن لا مناص لنا من إضافته، فيمعن في إبانة النص ويكبر من الخلل ثم يشير إلى الدواء ويحرّض بكل ما أوتي من بلاغة وتحسين وتقبيح.

فالشيخ أبو القاسم لم يتحاش أن يصادم في كثير من النقط بخطابه ذاك مراكز كانت نفوسنا متوطنة عليها، إذ صارحنا في هذا السَّمر بنقد الأدب العربي الذي خَلُدت نفوسنا منذ أمد الدراسة على أنه مقدس وعلى

(1) لفظ الشيخ لا يقترن بأي دلالة على العمر وإنما يستعمله السنوسي هنا كما اطرد عليه العرف آنذاك في الثقافة الاجتماعية إذ كان يطلق على كل من دخل جامع الزيتونة لتحصيل العلم.

أنه المثال الأعلى الذي يجب أن يَرفع له ذوو الكفاءات نتائجهم في وجل، وبقدر قرب تلك النتائج من تلك البلاغة الجاهلية، والروح العربية القديمة، يكون الحكم لنبوغ ذلك النابغ، وكمال هذا النتاج.

فكيف يمكننا أن نسمع فيه ـ بعد كل ذلك الخلود والطمأنينة ـ غير كلمات التبجيل والتقديس، وغير عبارات التنويه بالعجز عن إدراك شأوه!.

على أنني عندما أخفّف من غلواء عواطفي الجامحة وأركن إلى الرأي، أدرك جيداً أن شرّ ما أصاب الشرقَ[1] تحجّرُ جميع عناصر حياته من لغة وعوائد وأخلاق وعقائد زائفة ألصقت بالدين، وتجمدت على ذهنه كابوساً يمنعه التصرف، ويحرمه من كل مرونة، بحيث تصبح عثرة في سبيل سيره الاجتماعي وقابليته الذهنية.

فلا بد إذن من نقاد يثورون على تلك المتحجّرات، وخير لعواطفنا ـ ونحن الشرقيون ومركزنا تحت شمس اليوم على ما هو عليه ـ أقول إنه خير لعواطفنا أن يصادمها أبناؤنا بأقلامهم من أن نبقى في غفلتنا مستسلمين لكل ما تعودنا به حتى يصدمنا الدهر والدهر لا يهادن ولا يرحم.

نقول هذا ولا نستثني حتى النظريات النقدية التي يتبادر غلطها ما دام صاحبها يبذل جهده ليصلح ويرشد وما دمنا نعتبر لعقولنا كرامة وتمييزاً أكثر من تمييز عوائدنا العمياء.

بل يجب على البشر عموماً وعلى الشرقيين خصوصاً أن يقرؤوا ويستمعوا بصدر رحيب كل نظرية وكل نقد عن مسلماتنا السالفة ما دمنا نملك عقولاً بشرية يمكنها أن تزيد نظريات نقادنا سعة، واستظهارات مفكرينا تمحيصاً.

وإذا كان للإنسان أن يعاديَ فليعادِ الحجر على الأفكار واستعمال

---

(1) يستعمل السنوسي عبارة «الشرق» في دلالة المجتمع العربي الإسلامي فلا هي تعني القسم الشرقي من الوطن العربي مقابل مغربه، ولا هي تعني العالم الآسوي.

أنواع الضغط ولو كان أدبياً بحتاً، ولو كان أصحاب هذا الضغط والحجر منا، ولو كانوا يلبسون لبوس الوطنية ويتعممون الدين.

فلنستعمل عقولنا دائماً ولنعرض عن قوم يريدون إيهامنا بأن عقولنا أعداء واجباتنا وديننا، خصوصاً من الناحية الأدبية التي اقتنع العالم العربي بحاجته لتجديدها وترميم واجهتها الكبيرة مما تعمل له هاته المسامرة إن شاء الله.

* * *

الخيال

- نشأته في الفكر البشري.
- ما كان يفهم منه عند الإنسان الأول.
- انقسامه.

1 - قد أراد النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقية أن أتحدث عن «الخيال عند العرب» وقد لبّيت هذا الطلب لأنه صادف من نفسي هوًى طالما نازعتني إليه. وللحديث عن الموضوع وقفت منكم اليوم موقفي هذا.

2 - ولكن قبل أن أحدد الوجهة التي سأتبعها في هذا البحث أريد أن أبسط لكم رأيي في «الخيال»: في نشأته وفي انقسامه وفي ما كان يفهم منه فأقول:

إن لي رأياً في الخيال لا أدري هل تشاطرونني الإيمان بصحته أم تؤمنون ببطلانه، ولا أعلم هل انفردت بالذهاب إليه أم سُبقتُ إلى اعتقاده، ولكن الذي أدريه هو هذا: أنني مؤمن أشد الإيمان بصحة هذا الرأي الذي ارتئيه ومعتقد كل الاعتقاد أنه حق لا ريب فيه، وأنني لهذا الإيمان ولهذا الاعتقاد أردت أن أعرضه عليكم بين يدي هذا الحديث، وهذا الرأي ينحصر في نقط ثلاث إنْ أَبَنّاها أشرق الرأيُ واتضح المراد.

3 - النقطة الأولى هي أن الخيال ضروري للإنسان لا بد منه ولا غنية عنه، ضروري له كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه ولعقله ولشعوره ما دامت الحياةُ حياةً والإنسان إنساناً، وإنما

كان كذلك لأن الخيال نشأ في النفس الإنسانية بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة الإنسانية الكامنة وراء الميول والرغبات، وما كان منشؤه الغريزة ومصدره الطبع فهو حيّ خالد لا ولن يمكن أن يزول إلا إذا اضمحل العالم وتناثرت الأيام في أودية العدم.

4 ـ النقطة الثانية هي أن الإنسان الأوّل[1] حينما كان يستعمل الخيال في جمله وتراكيبه لم يكن يفهم منه هاته المعاني الثانوية التي نفهمها منه نحن ونسميها «المجاز» ولكنه كان يستعمله وهو على ثقة تامة لا يخالجها الريب في أنه قد قال كلاماً حقيقياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو حينما يقول مثلاً «ماتت الريح» أو «أقبل الليل» لم يكن يعني منه معنى مجازياً وإنما كان يعتقد أن الريح قد ماتت حقاً وأن الليل قد أقبل حقاً بألف قدم وبألف جناح. يدل لذلك ما في أساطير الأقدمين من أنهم كانوا يؤمنون بأن الريح والليل إلٰهان من الآلهة الأقوياء... وتلك هي سنة الأقدمين في ما حولهم من مظاهر الطبيعة ومشاهد الوجود، ينفخون فيها من روح الحياة على ما يوافق مشارب الإنسان وطبيعة تلك المظاهر حتى إذا ما استفادت «أنسَ الحياة» وأصبحت تشاركهم في بأساء الدهور ونعمائها، وتساهمهم أفراحَ الوجود وأتراحه ـ على ما يخالون ـ ذهبوا يقيمون لها طقوس العبادة وفرائض الإجلال، فإذا بها آلهة خالدة بين آلهتهم الخالدة... وما أكثر آلهة الإنسان، وهذا أعظم دليل على أن الإنسان متديّن بالطبع، فهو دائماً ظامىء إلى منبع الحياة الأوّل الذي كرعت منه الإنسانية على كرّ العصور مشاربها المختلفة ما بين صفو وعكر، حتى إذا ظفر برشفة منه اطمأنت نفسه وقرّ ضميره.

5 ـ فقد رأيتم هذا المجهود الخيالي العظيم الذي يبذله الإنسان لإرواء نفسه وهو يحسب أنه الحق الأزلي الذي لا ريب فيه وإلا فهل كان

---

(1) (نريد بالإنسان الأوّل حيثما أطلقناه ذلك الإنسان الذي ما زال على فطرة الطبيعة الأولى سواء في ذلك من أظله الدهر الدابر أو من ما زال يستنشق نسيم الحياة).

يطمئن إليه ويقيم له فروض العبادة وهو يعلم أنه من زخرف الخيال الشارد ووحي الأوهام المعربدة؟.

6 ـ النقطة الثالثة هي أن الخيال ينقسم إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف ومن هذا القسم الثاني تولد قسم آخر ولّدته الحضارة في النفوس أو ارتقاء الإنسان نوعاً ما عمّا كان عليه، وهذا القسم الآخر هو الخيال اللفظي الذي يراد منه تجميل العبارة وتزويقها ليس غير. والقسم الأوّل هو أقدم القسمين في نظري نشوءاً في النفس لأن الإنسان أخذ يتعرف ما حوله أولاً حتى إذا ما جاشت بقلبه المعاني أخذ يعبّر عنها بالألفاظ والتراكيب، ولما مارس كثيراً من خطوب الحياة، وعجم كثيراً من ألواء الدهور وامتلك من أعنة القول ما يقتدر به على التعبير عما يريد، أحس بدافع يدفعه إلى الأناقة في القول والخلابة في الأسلوب فكان هذا النوع الجديد من الخيال، هذا النوع الذي عمد إليه الإنسان مختاراً فكان منه المجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها من فنون الصناعة وصياغة الكلام.

7 ـ ولزيادة البيان عن هذا الفكر الذي أريده أقول: إن الإنسان شاعر بطبعه، في جبلته يكمن الشعر وفي روحه يترنم البيان، إذ أيّ إنسان لا يهتاجه المنظر الساحر والمشهد الخلاب، وأيّ امرىء لا يستخفه الجمال في أي مظهر من مظاهره وفي أي فتنة من فتنه؟.

8 ـ ولكن الناس يتفاوتون في إدراك الجمال والشعور به على حسب قوة هاته الغريزة الشاعرة أو ضعفها، فمنهم من تضعف فيه هاته الغريزة ضعفاً بيّناً حتى توشك أن تموت لأن نفسه قد استحوذت عليها غريزة أخرى شغلت كل ما بها من فراغ، ومنهم من تقوى فيه هذه الغريزة حتى تتمرد فتطغى على كل ما عداها من الغرائز البشرية المتطاحنة، لأن النفس الإنسانية مضمار رحيب تتقارع فيه الغرائز، وتتصارع فيه

الميول والشهوات، وبقوة هاته الغريزة أو ضعفها يتفاوت الإحساس والشعور فيتفجر الشعر الخالد من بعض الأفئدة البشرية على حين أن الأخرى لا ترشح بغير الصديد. وتتكشف بعض النفوس عن عبقريات جبارة عاصفة على حين أن البعض الآخر لا يلد غير الغباوة المستخذية النائمة.

9 ـ ولكن قوة هاته الغريزة أو ضعفها هي في كثير من الأحيان وليدة الحوادث والظروف. فرب دمعة يائسة أيقظت ألف عاطفة نائمة، ورب ابتسامة حالمة أهاجت سواكن الوجود، ورب مشهد رائع أحيا عبقرية خالدة، ورب فكرة واحدة صَدّعت أركان قلب كبير.

10 ـ وهكذا هبط الإنسان هذه الأرضَ مزوَّداً بتلك الغريزة الشاعرة فكانت هي الأمل الجميل الذي ينير له مسالك العيش ويمهّد له سبل الحياة، وكانت هي الخيبة القاتمة التي تقذفه في هوّة اليأس وتُشقيه في نار الألم.

11 ـ هكذا هبط الإنسان الأرض لا يملك غير حسه ونفسه وغير قلبه وشعوره، فما زال يحلم في مهد الحياة، فكان له من مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ألغازٌ غامضة ومعانٍ مستترة تبدو له ملتفة في ثوب من ضباب كما تبدو الذكريات القصيّة في زوايا القلوب حتى إذا ما حاول أن يمسكها توارت عنه كما تتوارى الأشباح، وكان فيما بينها كالنائم السادر في أحلام الليل ورؤاه تُبهجه هذه، وتُبكيه تلك، وتُفزعه واحدة، وتُسَكِّنه أخرى، ولم يكن له من عقله في تلك الساعة ذلك العقل الكبير الجبّار الذي عبّ من نهر الحياة المتدفع فاشتد أسره وتوثقت قواه بل كان عقلاً ضعيفاً واهناً متهدماً لم تضرسه الحياة ولا علمته الخطوب.

12 ـ وما كان الإنسان بخامد النفس ولا هامد الحس حتى يغضي على ما حوله زاهداً فيه ويَقنع بالجهل الأخرس والصمت الكئيب، بل كان

قويّ المشاعر متحفز الخيال فذهب يعلل مظاهر الكون بما شاء له الشعر أن يذهب. وأخذ يفسّر تعابير الطبيعة الداوية بما يملي عليه الخيالُ المرِحُ والشعورُ النشيط دون أن يَعلق بوهمه قط أنه سادر في الخيال بعيد عن جدد الحقيقة، وإنما كان على ثقة ويقين من أن ما وصل إليه هو في الصميم من الحق وفي الحبة من الصواب، ومن هنا كانت بذور الأساطير الدينية الأولى تثمر في النفوس، وكانت المعتقدات الوثنية تتكون في أعماق القلوب تَكوّن الجنين في بطن أمه وهذا هو منشأ الخيال في الفكر البشري القديم قبل أن تصقله الحضارة وتشذّبه المدنية.

13 ـ وكانت تعوزه الألفاظ أحياناً للتعبير عما يجيش بنفسه من فكر وعاطفة وشعور وليد، فكان يتخذ من الخيال مطايا لأغراضه وأجساداً لمعانيه دون أن يخطر بباله أنه استعمل تلك الجملة أو الكلمة في غير ما وضعت له ـ كما يقول علماء البلاغة ـ لأنه واثق أنها مستعملة في وضعها الطبيعي الذي «لا تمجز فيه»[1] ولو شئتُ أن أسوق الكلمات تباعاً لهذا الغرض لضاق الوقت وما تم الحديث[2]، ولكنني سأكتفي ببعض كلمات اتخذها دليلاً على مدَّعاي، من ذلك ما قدمته من قولهم: «أقبل الليل، وماتت الريح»[3]، ومن ذلك «ابنة الجبل»، فإن هاته الكلمة يطلقها العرب ويريدون منها الصدى، وأنا أعتقد أن هذه الكلمة أسبق وجوداً في العربية من الصدى لأن المعاني الخيالية أقرب إلى ذهن الإنسان الأوّل من المعاني الحقيقية، واعتقد أيضاً أن واضع هذه الكلمة كان يحسب أن الصوت الذي أجابه صوتُ جنّيّة من بنات الجبال فسماه بهذا الاسم، وهل ينكر مثل هذا على عربـي قديم لعله عاش قبل هذا العصر بالآف القرون وبين أيدينا ما يؤيد ما ادعيته من

---

(1) يعمد الشابـي إلى اشتقاق فعل من كلمة المجاز على وزن أفعل: أمجز.
(2) راجع الهامش 2 ص 17 من المقدمة والسياق الذي سبقه ثم السياق الذي تبعه.
(3) راجع ف 4.

أن الخيال يعتبر حقيقة في أول نشأته ولا يعد خيالاً، فإنني أعرف لحد الآن في بعض بوادي المملكة[1] من لو سئل عن الصدى لأخبر ـ بجدّ ـ أنه شيطان يهزأ بالبشر ويسخر من أبناء آدم، وأعرف في بعض جهات الجنوب[2] من يسمّون الصدى «حديدان» وإذا استفسرتهم عن «حديدان» هذا نبّؤوك أنه شيطان يسكن الجبال والأودية، ومن ذلك كلمة «الريح» فإنني لا أشك أن أصل هذه الكلمة كان الروح، وأن واضعها كان يعتقد أنها واحدة من الأرواح الخفية المتجبرة ثم وقع فيها التصحيف على تراخي الزمن حتى أصبحت «الريح»[3]، يدل لذلك أنهم جمعوها على أرواح كما جمعوا الروح هذا الجمع[4] وأنثوا معناها كما أنثوا الروح[5]، وأنثوا جميع الكلمات التي تدل على معنى الريح. ثم ألا ترون هذا التقارب الكبير بين مرادفات الروح ومرادفاتها، فإنهم قالوا النسمة والنسيم، وقالوا النَفَس والنَفْس، وليس هذا بمستبعد عن الذهن البشري القديم، فإن من أساطير الأسكندیناف أن الزوبعة، إلٰه من الآلهة الأقوياء يسمونه «آجير» وقد قال توماس كارليل إن البحّارة في جنوب انجلترا لم يزالوا لعهده إذا أحسوا بوادر الزوبعة يقولون: «حذار، إن آجير قادم».

---

(1) المملكة التونسية، والشابي يتحاشى لفظ الإيالة رغم شيوعه إذ ذاك لِمَا يوحي به.

(2) أبو القاسم الشابي من مواليد الشابية الواقعة في الجنوب التونسي ومن كبريات مدنه: قفصة وقابس وتوزر ونفطة ومدنين.

(3) للتغيّر الصوتي عبر الزمن ضوابط وإنما بين الروح والريح فرق ما بين الصيغة الواردة على وزن فُعل ـ بضم الفاء ـ والصيغة الواردة على وزن فِعل ـ بكسرها ـ، وما ينجرّ فيها من انقلاب الواو إلى ياء في القالب الصرفي الذي فاؤه مكسورة.

(4) جموع الكلمات الثلاثية في اللغة العربية سماعية مطلقاً.

(5) التأنيث والتذكير يقع على الألفاظ وهو في غير العاقل محكوم بتواتر الاستعمال، ومما اطرد حمله على الجنسين لفظ الروح، وقد زاوج الشابي نفسه بين تذكير الروح وتأنيثه. راجع الهامش 4 ص 36 من المقدمة، والفقرة 175 من النص لاحقاً.

14 ـ وصفوة القول أن الإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه، محتاج إليه بغريزته لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله. وأن اضطراره إليه جعله في نظره الأوّل حقيقة لا خيالاً وما أصبح يَعرف الخيال من الحقيقة إلا بعد أن تطورت نظرته إلى هذه الحياة وأصبح يعرف أن الليل والنهار والعواصف والبحار ليست أرواحاً ولا آلهة وإنما هي مظاهر لهذا النظام الإلٰهي العتيد الذي يسخّر كل شيء.

15 ـ ولكنه رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأنه وإن أصبح يحتكم إلى العقل ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه فهو لم يزل يحتكم إلى الشعور وسيظل كذلك، لأن الشعور هو العنصر الأوّل من عناصر النفس، واحتكامه إلى الشعور يدفعه ولا بد إلى استعمال الخيال، لأن الشعور ـ أيها السادة ـ[1] هو ذلك النهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية منذ القدم، مترنماً بأفراحها وأتراحها، متغنياً بميولها ورغباتها، جائشاً بكل ما لها من فكر وعاطفة، ومن ضجة وسكون. ومن هذا النهر الجميل تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال كما نشأت «فينيس»[2] من أمواج البحار الناصعة، وعلى ضِفافيْه يرتّلن للبشرية ترانيم الحياة، ويفسّرن تعابير الوجود، ويفكرن في مآتي الحياة والموت وفي معاني الخلود والعدم.

16 ـ أجل! فهو رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأن اللغة مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنهض ـ من دون الخيال ـ بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وآلامها وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة وشعور، بل إنها لا تقتدر على

---

(1) خطاب النداء المباشر قرينة على أن نص المحاضرة كان مكتوباً بصيغة الإلقاء، وأن ما كان منه محرّراً لم يُدخل عليه الشابي أي تغيير.

(2) Vénus.

الاضطلاع بهذا الحِمل الثقيل حتى بالخيال، وإنما الخيال يُمدها بقوةٍ ما كانت لتجدها لولاه.

17 ـ وكيف يُتصوَّر من هذه اللغة الخامدة التي منشؤها هاته المادة الباردة أن تحمل بين جنبيها ذلك اللهيب المقدس المتدفق من أبعد قرار في النفس الإنسانية الخالدة بكل ما فيه من توهج وتألق وضياء؟.

18 ـ فهل تريدون أن تَسمعوا من الصخرة الصماء أناشيد الملائكة أم هل تريدون أن «توقّعوا على ناي من القصب أنغام الفلك!».

19 ـ إن اللغة البشرية لأصغر وأعجز من أن تحمل مثل هذه الأمانة السماوية مهما بلغت من الرقي والتقدم لأنها ضيقة محدودة فانية، والنفس الإنسانية فسيحة، لا نهائية، باقية. وستظل اللغة في حاجة إلى الخيال لأنه هو الكنز الأبدي الذي يُمدها بالحياة والقوة والشباب، ولكنه مهما أمدها بالقوة والشباب فستبقى عاجزة عن استيفاء ما في النفس الإنسانية من عمق وسَعة وضياء.

20 ـ وقد قلت من قبل إن الخيال ينقسم في نظري إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان لا للتنويق والتزويق ولكن ليتفهم من ورائه سرائر النفس وخفايا الوجود، وهو هذا الخيال الذي نلمح من خلفه ملامح الفلسفة وأسرّة الفكر، ونسمع من ورائه هدير الحياة الكبرى يدوّي بكل عنف وشدّة، وهو هذا الفن الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر، ويزدوج فيه الفكر بالخيال. وقسم اتخذه الإنسان أوّلاً ليعبّر به عن ذات نفسه حين لا يجد لها مساغاً في الحقيقة العارية، ثم تطور هذا النوع مع الزمان فكان منه هذا النوع الذي نعرفه، والذي أُلّفت فيه كتب البلاغة على اختلافها. قلت هذا من قبل ولكنني أردت أن أقول الآن إنني أسمي هذا القسم الأوّل «بالخيال الفني»، لأن فيه تنطبع النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير، وأسميه «بالخيال الشعري» لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم

الشعور. أما القسم الثاني فإنني أسمّيه «الخيال الصناعي» لأنه ضرب من الصناعات اللفظية، وأسمّيه «الخيال المجازيّ» لأنه مجاز على كل حال سواء قُصد منه المجاز كما عندنا الآن أم لم يقصد منه كما عند الإنسان القديم. وبعد هذه الكلمة فأيّ نوع من أنواع الخيال أريد أن أبحث عنه عند العرب، فللخيال نواح كثيرة، هل إنني سأبحث عن الخيال الفني أو عن الخيال الصناعي، وهل إنني سأعرض له من وجهته الصناعية البحتة التي تتناول المجاز والاستعارة والتشبيه ومبلغ قوة العرب في هذا الضرب من الكلام، أم إنني سأبحث في المجاز والاستعارة والتشبيه من ناحية أخرى هي تطوّر هاته التمجّزات[1] مع العصور واتباعها سنة النشوء والتدرج من حسن إلى أحسن، ومن صالح إلى أصلح، وأثر الشعراء والكتاب في تطور هذه المجازات ورقيها واصطباغها بألوان العصور المختلفة التي ارتقت معها في سلم الحياة أم ماذا؟.

21 ـ لا أريد أن أعرض للخيال من وجهته الصناعية لا من هاته الناحية ولا من تلك لأن لمثل هاته المباحث هواتها وأنا لست منهم ـ والحمد لله ـ ولأن كلاً من هاتين الناحيتين جامد جاف في نظري لا غنية فيه ولا جمال، ونفسي لا تطمئن إلى مثل هاته المباحث الجافة ولا تحفل بها؛ ثم لأن مثل هاته المباحث لا يمكننا أن نستشف من ورائها خوالج الأمة ولا مشاعر الشعب، ولا نستطيع أن نلمس في جوانبها ذلك النبض الحي الخفوق المترنم بأنباء النفس الإنسانية وأهوائها، ولا أن نعرف مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا الوجود، وأي فائدة من بحث قاتم لا ينير سبيلاً؟.

22 ـ إنما أريد أن أبحث في الخيال من ذلك الجانب الذي يتكشف عن نهر الإنسانية الجميل الذي أوّلُه لا نهايةُ الإنسان وهي الروح، وآخره

---

(1) يتصرّف الشابي في الاشتقاق من لفظ المجاز تصرّفاً جديداً، راجع الهامش عدد 1 ص 59 .

لا نهايةُ الحياة وهي الله. أريد أن أبحث في الخيال عند العرب من ذلك الجانب الذي تتدفق فيه أمواج الزمن بعزم وشدة. وتتهزّم فيه رياح الوجود المتناوحة مجلجلة داوية جامعة، وتتعاقب عليه ظلمات الكون وأضواؤه وإصباح الحياة وإمساؤها، ذلك الجانب الذي يستلهم ويستوحي، ويحيا ويشعر، ويتدبر ويفكر، أو بكلمة مختصرة إنني أريد أن أبحث عند العرب على ما سمّيته خيالاً شعرياً أو خيالاً فنياً.

23 ـ فالخيال بهذا المعنى الذي بسطته وعلى هذا اللون الذي تكلمت عنه هو الذي أريد اليوم أن أتلمسه في جوانب الحياة الفكرية العربية، وهو الذي نريد أن نتعرف إليه في ما أبقى لنا أجدادنا الأقدمون من تراث روحي ضخم، وثرثرة أدبية طائلة، حتى نعرف ما هي عليه من قوة وإنتاج، ولأجل هذا فإنني لا أقصر بحثي على ما أبقاه العرب من شعر ونثر ليس غير، بل إنني سأجتاز هذين إلى قسم آخر هو ـ كالشعر ـ صورةٌ مغرية من صور الخيال، ولونٌ قوي من ألوان التفكير الإنساني في دور من أدوار الحياة. بل ربما لا أغلو في كثير ولا قليل إن قلت إنه أقوى دلالة من الشعر على هذا الضرب من الخيال الذي جئت للحديث عنه. أما هذا القسم الآخر فهو الأساطير، وأما أنه أقوى دلالة من الشعر فلأنني أذهب إلى أن الأساطير هي الكلمة الأولى التي توجّسها الإنسان من تعابير الحياة، وحاول أن يتفهم منها معاني هذا الوجود المتناقضة، وأنها هي الصوت الأول الذي رنّ بين جنبيه من أصوات الفكر وأجراس الشعور، أو بعبارة أدنى إلى الذهن إنها طفولة الشعر في طفولة الإنسان، وما كان مصدره الطفولة الساذجة فهو أدنى إلى الطبع وأدل على النفس من أي شيء آخر لأنه يُلقَى بريئاً من كل كلفة أو تصنّع بعيداً عن كل زخرف أو تمويه، وعلى هذا الضوء الذي أرجو أن ينير لنا سبل الحق ويمزق أمامنا غياهب الشك والجهالة نحاول أن نمشي

في هذا الدرب المتعرج الملتوي لعلنا نظفر خلف هذه الظلمات المتدجية والضباب المركوم بشمس الحقيقة الساطعة وفجر الأمل المنشود. وإن كنت لا أدري هل إننا سنسمع غماغم الخيال الشعري في صحراء العرب وسنلمح طيفه الجميل هازجاً في تلك الجزيرة النائية؟ أم إننا لا نبصر غير ظله تائهاً تحت أشعة الشمس المحرقة ولا نتبين إلا آثار قدميه فوق الرمال؟ ومن يدري؟ ولكن فلنحتقب على كل حال حقيبة الصبر والأمل في هاته الرحلة الغامضة ولنبدأ سيرنا على اسم الله.

الخيال الشعري والأساطير العربية

24 ـ لا يعرف التاريخ من الأساطير العربية إلا شيئاً يسيراً لا يستطيع الباحث أن يَطمئن إليه بمفرده كل الاطمئنان ليستخلص منه رأياً فاصلاً أو نتيجة جازمة، وهو إلى ذلك مضطرب كل الاضطراب، مختلط غاية الخلط، لا يحدّه نظام، ولا يسوسه قانون، ولا يجمعه كتاب خاص كما في أساطير الأمم الأخرى. وإنما هو نُبَذ متفرقة في كثير من كتب الأدب والأخبار لا يمكن جمعها إلا بعد جهد كبير، بعضها له اتصال بعقائد العرب قبل الإسلام، وبعضها له اتصال بعوائدهم، والبعض الآخر يتصل بتاريخهم القديم. وقد كنت أول الأمر أحمل الوزر على الرواة الذين ازدروا هذا الفن، ولم يُعنوا به عنايتهم بالشعر والأمثال. أما الآن فقد أصبحت اعتقد أن ما نقله إلينا الرواة هو كل ما عند العرب من هذا الفن، وأن العرب أنفسهم ما كانوا يقيمون لهذا الفن وزناً، ولولا ذلك لنظّموا أساطيرهم كما نظّمها غيرهم من الأمم القديمة كاليونان والرومان وقدماء المصريين، ولكان شعراء الجاهلية يتغنون بها في أناشيدهم وأشعارهم كما كان الشعراء اليونان والرومان يتغنون بها قبل مجيء المسيحية.

25 ـ وهذا الشيء اليسير الذي حدثنا عنه التاريخ من الأساطيرالعربية ينقسم في نظري إلى قسمين أصليّين: القسم الأول الأساطير الدينية ويندرج تحت هذا القسم ما كان من قبيل العوائد لأن أكثر العوائد إنما هي عقائد متحجرة بمفعول الزمن، القسم الثاني الأساطير التاريخية وهي تلك الأخبار التي لها ارتباط بالتاريخ العربي القديم، وأراني بالرغم

عن قلة الأساطير العربية واضطرابها مضطراً بطبيعة البحث إلى أن أقتصر على القسم الأول دون أن أعرض للقسم الثاني ببحث أو تمحيص، وذلك لأن غايتي من البحث في الأساطير العربية إنما هي معرفة حظها من الخيال الشعري قلة وكثرة، وقد علمتم من كلمتي السابقة أنني أعني بالخيال الشعري ذلك الخيال الذي يحاول الإنسان أن يتعرف من ورائه حقائق الكون الكبرى، ويتعمق في مباحث الحياة الغامضة، ولا أخال أن من المعقول أن يوجد مثل هذا الخيال في الأساطير التاريخية، لأن هذا النوع وإن كان من صنعة الخيال إلا أنه ليس من عمل الخيال الشعري الذي أريد الحديث عنه، ولذلك فإنني لا أعرض لمثل هاته القصص الطويلة التي يروونها عن عمرو بن عدي وأضرابه ممّن تخطّفتهم الجن تعشقاً أو انتقاماً، ولا لمثل هاته القصص والأقاويل التي يحكونها عن شق وسطيح، ولا لهاته الأحاديث المستفيضة عن أيام العرب وحروبهم، ولا لمثل هاته الأخبار الدموية التي يحكيها الرواة عن قبيلتي طسم وجديس معلّلين بها فناء هاتين القبيلتين.

26 ـ كل هذا وأشباهه لا أعرض له بشيء من البحث، أما الذي سأبحث فيه فهو الأساطير الدينية وما مَتّ إليها بسبب متين.

27 ـ ورأيي في هذه الأساطير هو أنها لا حظّ لها من وضاءة الفن وإشراق الحياة، وأن من المحال أن يجد الباحث فيها ما أَلِف أن يجده في أساطير اليونان والرومان من ذلك الخيال الخصب الجميل، ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتفجر منها الفلسفة الغضة الناعمة تفجّر المنبع العذب، بل إنه ليُعجزه أن يُلفيَ فيها حتى تلك الفلسفة الشعثاء الكالحة التي تطالعه في أساطير الإسكندريناف. فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال، ولا تمثل مظهراً من مظاهر الكون أو عاطفة من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلُعب الصبية وعرائس الأطفال، وبقية الأساطير الدينية

لا تفصح عن فكر عميق أو شعور دقيق، ولا ترمز لمعنى من المعاني السامية، وإنما هي أدنى إلى الوهم منها إلى أي شيء آخر، لا أستثني من ذلك إلا أسطورة النجوم، فإن عليها شيئاً من وضاءة الشعر ونضارة الخيال.

28 ـ فقد عَبَدَ العرب أرباباً متفرقة وآلهة كثيرة كغيرهم من الأمم الوثنية القديمة، ولكنهم لم يعبدوا تلك الآلهة بعد تفكير عميق في ظواهر هذا الوجود كما فعل غيرهم من أمم العالم، وإنما كانت عبادتهم على أحد ضربين: إما تأليه الأجداد، أو تقليد غيرهم من الأمم في عبادة آلهتها، وبعبارة علمية إن الباعث لتلك العقيدة الوثنية في أنفس العرب لم يكن هو «التشخيص» أي أن يخلع الإنسان على ما حوله من الأشياء ثوب الحياة، وينظر إليها كأرواح حية نامية تشاركه الحس والحياة؛ وإنما كان الباعث عليها «عبادة الأموات» في الأكثر، واحتذاء الأمم الأخرى التي سبقتها إلى التديّن في معتقداتها الدينية. واتباعُ العرب لغير التشخيص هو السبب في أن أساطيرها لم تكن مشتملة على شيء من الخيال الشعري، ولكن قد يسأل السائل: وما الذي دفع العرب في هذه الطريق التي بعدت بهم عن الخيال الشعري بعداً كبيراً؟ والجواب هو أن هذا له علاقته بالروح العربية التي سأتكلم عنها فيما بعد.

29 ـ وهذا الذي قلته عن الآلهة العربية يظهر لأوّل وهلة من معرفة الآلهة العربية والأساطير التي يروونها عنها.

30 ـ فقد عبد العرب أساف ونائلة وهما صنمان زعموا أنهما رجل وامرأة من جُرهُم فَجَرا بالكعبة فمسخهما الله حجريْن، وإنني لا أفهم كيف عُبدا وقد حلّ بهما هذا العذاب، اللهم إلا أن يقال إن العطف عليهما قد استحال في النفوس إلى حب ثم إلى إجلال ثم إلى عبادة على توالي العصور وتراخي الزمن. وعبدوا اللات والعزى، والرواة

يختلفون فيهما اختلافاً كبيراً، فمنهم من يزعم أنهما نخلتان ألّههما العرب، ومنهم من يزعم أنهما صنمان لرجلين صالحين كان أحدهما يلت السويق للحجيج، ومنهم من يزعم أنهما صنمان جاء بهما عمرو بن لحي. وعبدوا مَنَاةَ وهو صنم كان بين مكة والطائف، وعبدوا يَغُوثَ ويَعُوقَ وسُوَاعَ ونَصْراً، وهي من آلهتهم القديمة التي نصبوها لقوم من صلحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت الذكرى إلى عبادة بطول الزمن.

31 ـ وعبدوا المشتري فقالوا: «عبدُ المشتري» وعبدوا الشمس فقالوا: «عبد الشمس» وسموها الآلهة وزعموا أنها تهَب الأَسْنان جمالاً وحسناً، فكان صبيّهم إذا أثغر أخذ سِنّه بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس قائلاً: «يا شمس أبدليني بسنّ أحسن منها ولتُجرِ في ظَلَمها آياتك».

قال طرفة:

سقتـه أيـاة الشمـس إلا لثـاتـه أسـف ولـم تكـدم عليـه بـإثمـد

وقال غيره:

أَبْـدلتْـه الشمـسُ مـن مَنْبتـه بَـرَداً أبيـضَ مصقـولَ الأسـر

32 ـ وأحسب أن هاته العقيدة قد انقلبت إلى عادة ظلت حية إلى ما بعد الإسلام، وأن بعض العرب جاء بها إلينا، وهذا ما أعلل به وجود هاته العادة عندنا، فإن كثيراً من جهات المملكة[1] يأمرون أطفالهم عند الإثغار أن يفعلوا مثل هذا الفعل ويقولوا قولاً قريباً منه. ولا شك أن عبادة المشتري قد أخذها العرب عن الآشوريين كما أخذوا عبادة تالب واضر وهبتون وعشتر.

33 ـ فقد رأيتم أن آلهة العرب لم تخرج عن ذينك النوعين الآنفين: تأليه

(1) راجع الهامش عدد 1ص 60.

الأموات أو تقليد الأمم الأخرى، وأنها لهذا لم تكن مشتملة على فكر أو خيال وإنما هي أصنام جامدة لا تصوّر لوناً من ألوان الحياة. حتى إن عشتروت وهي آلهة الحب والجمال عند الآشوريين التي كانوا يصفونها بأنها موقدةٌ شعلةَ الحياة وحارسةٌ الشبيبةَ، والتي كان الشبان والعذارى يرتّلون أغانيَ الحبّ تحت قدميها لمّا عبدها العرب باسم عشتر لم يعبدوا فيها ذلك المعنى العميق الذي يصل الحب بالجمال، وإنما عبدوا فيها صنماً لا يرمز إلى شيء ولا ينمّ عن فكر.

34 ـ ومن أساطيرهم التي كانوا يدينون بصحتها الغولُ، وهي حيوان خرافيّ يزعمون أنه كريه المنظر شنيع الخلقة، يَألف الغيران الموحشة والفيافي المقفرة ليضلّل الناسَ ويُلهَوا بالجماجم، ويدعي أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها وقد أُولع تأبط شرا بوصفها والتحدث عنها في شعره ومن ذلك قوله:

وإني قد لقيتُ الغولَ تهوِي ... يسهّب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها: «كلانا نِضْوأين ... أخو سَفَرٍ فخلّي لي مكاني»
فَشَدَّتْ شَدّةً نحوي فأهوى ... لها كفي بمصقولٍ يماني
فأضربها بلا دهش فخرّت ... صريعاً لليدين وللجران
فقالت: عد، فقلت لها رويدا ... مكانَكِ! إنني ثَبْتُ الجِنان
فلم أنفكَّ متكئاً عليه ... لأنظر مُصبحاً ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح ... كرأس الهرّ مشقوقَ اللسان
وساقا مخدع وشواة كلب ... وثوب من عباءة أو شنان

35 ـ ومنها الصدى أو الهامة، وهي طائر خرافي يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل الذي طل دمه، ويقف على قبره هاتفاً: «اسقوني فإني صديّة!» ولا يزال كذلك إلى أن يؤخذ بثأر القتيل فيختفي الطائر ثم لا يعود. قال شاعرهم:

له هامة تدعوه إذا الليلُ جَنَّها ... «بني عامر! هل للهلاليّ ثائرُ؟»

36 ـ ومنها شياطين الشعراء، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن لكل شاعر شيطانَه الذي يوحي إليه الشعر، ويروون أخباراً كثيرة عن هؤلاء الشياطين، فكان صاحب امرىء القيس: لافظ ابن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص: هبيد بن الصلادم، وصاحب الأعشى: مسحل السكران بن جندل، وصاحب زياد الذبياني: هاذر بن ماذر، وصاحب الكميت: مدرك بن واغم ابن عم هبيد صاحب لبيد بن الأبرص.

37 ـ ومنها أسطورة النجوم وهم على خلاف فيها، فمنهم من يقصّها على هذا النحو وهو «أن سهيلاً وأختيه العَبور والغُميصاء كانت ثلاثتها مجتمعة ثم انحدر سهيل إلى ناحية اليمن بعد أن خاض نهر المجرة وتبعته إحدى أختيه، فسمّيت عبوراً، ولبثت الأخرى مكانها فبكت لفراق أختها حتى غمصت عينها فسميت غُميصاء». ومنهم من يرويها على وجه آخر هو «أن سهيلاً كان فارساً جميلَ الطلعة، ساحر المنظر، فخانه الحظ في معركة سماوية وراء المجرة فخرّ صريعاً تكسوه الدماء القانية، فراع أختيه مصرعُ أخيهما الباسل، فعَبَرت إليه إحداهما نهر المجرة وظلت واجمة عند رأسه وفي جفنها عبرة حائرة، فسمّيت عبوراً، وقعد بالثانية الرزء الفادح والحزن المرير عن اللحاق بأختها فانهلت تذرف الدموع حتى غمصت عينها الباكية فسمّيت غميصاء».

38 ـ فهل رأيتم فيما تلوته عليكم من أساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الأريج؟ وهل وجدتم فيها جمالاً أكثر من هذا الحديث الخيالي الوضيء الذي يروونه عن سهيل وأختيه؟ وكذلك كانت أساطير العرب: وثنيةٌ جامدةٌ جافية لم تَفقه الحقَّ ولا تذوّقت لذةَ الخيال، وأوهامٌ معربدة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتملت على شيء من فلسفة الحياة. أما أساطير الأمم الأخرى فقد كانت مُشْبَعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة

الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال، فقد أخذ اليونان كثيراً من عقائدهم وأساطيرهم عن الأشوريين كما أخذ العرب أنفسهم، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم الخاصة فكانت رشيقة شعرية ساحرة أكثر مما كانت عليه عند الأشوريين، فهم قد أخذوا عن الأشوريين عبادة إلٰهة الحب والجمال «عشتروت» كما أخذها العرب عنهم. ولكن العرب عاملوها كما يعاملون أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر، ولا تمثّل عاطفة، فكانت صنماً حجرياً جامداً تحجبه الكآبة الصماء والسكون الأليم. أما اليونان فقد اتخذوا لها اسماً آخر هو «أفروديت» ونسجوا حول نشأتها أساطير شعرية لم يعرفها الأشوريون، فكانوا يزعمون أنها خلقت من أمواج البحار. واتخذوا إلٰهاً للحبّ سمّوه «ايروس» وزعموا أنه ابن افروديت، وأن له جناحين ذهبيّين، وأنه يحمل أبداً سهاماً حادة ومشاعل تلتهب. أرأيتم هذا العمق في الفكر، وهاته السعة في الخيال في الأسطورة التي تزعم أن أفروديت قد خلقت من أمواج البحار! أي شيء أنصع من أمواج البحار وأطهر؟ وأي شيء أعمق من البحر؟ وأَدْوَى من لُجَج اليمِّ بمعاني الحياة؟ وأي شيء أجمل من البحر في عمقه وسكونه وأقوى من البحر في ثورته الطاغية؟ كذلك الجمال، فيه من القوة والعمق ما في الحياة التي أنشأته، وكذلك تُخلق ربّة الجمال من أمواج البحار التي تتمثل فيها قوة الحياة وعمقها وطهارتها. ثم ألا ترون هاته الأسطورة الأخرى التي تجعل من الحب طفلاً جميلاً نبيلاً أنجبته أفروديت يتألق في منكبيه جناحاه الساحران، ويحمل في راحتيه نِباله الحادة ومشاعله النارية؟ ألا تحسون بأمواج الخيال فيها تلاعب شاطىء الحقيقة؟ ترى هل كانت الإنسانية تعرف الحب لو لم تعرف الجمال! وهل كان الحب في الحقيقة وعند النفس إلا طفلاً مسلحاً، له غرارة الطفولة وطهارتها الساذجة، وله طيشها وتجنيها، وله مشاعله النارية التي قد تنير وجوه الدهر وقد تحرق آمال القلوب.

39 ـ وهكذا كانت آلهة اليونان وأساطيرهم عنها: آراء شعرية يتعانق فيها الفكر والخيال، فكل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، وكل أسطورة صورة شيقة من صور الشعر يقرؤها الباحثون فيحسون أنها صادرة عن مخيلة قوية وإحساس فياض يشمل العالم ويحس بأدق أنباض الحياة. فكما أنهم قد جعلوا للحب إلٰهاً وللجمال آلهة فكذلك جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلٰهاً، ولغير هذه من المعاني العميقة ومظاهر الكون الرائعة أرواحاً وحياةً تحسّ وتشعر، بحيث كانوا ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم نظرة فنية تحس بتيار الحياة يتدفق في كل كائن ويستجيش في كل موجود، وإنني لأكتفي بواحدة من أساطيرهم تبيّن لكم مذهبهم في الوجود، فقد كانوا يعتقدون أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، وأنها كانت خلابة المنظر والحديث، فمرت بها يوماً «هيرا» وكانت ذاهبة لتفاجىء زوجها مع بعض عشيقاته في إحدى مقاصير الأولنب، فاستهواها صوتها حتى فاتها الغرض وفرّ العشيقان إلى مآويهن، فتملّك نفسَها الغضبُ على الصدى، فسلبتها قوة الكلام إلاّ إعادةَ ما تسمع، فأصبحت من ذلك الحين والهةً حائرة تتلقّف الأصوات لتُرجعها كأنّات الألم. تلك كانت أسطورةَ اليونان عن الصدى، أما العرب فبالرغم عن أنهم يسمّون الصدى «ابنةَ الجبل» فإنهم لم يؤلّفوا أسطورة عنها تتغنى بوحشتها وانفرادها بين الجبال، وتترنم بخلجات قلبها بين الغيران والأودية.

40 ـ وكذلك كانت أساطير الأسكندیناف[1]، فبالرغم عن أنها جافية كالحة، لا حظّ لها من رقة أساطير اليونان وخلابتها فإنها تأخذ من الفلسفة والشعر بحظ وافر. فمن أساطيرهم أنهم كانوا يرون الحياة شجرة قوية راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر بفروعها

(1) (سكان جزيرة سيلاند الأقدمون).

في آفاق السماء، وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد، يروون جذورها من البئر المقدسة وهي دائماً تُورِق ثم تُزهِر ثم تثمر ثم يجف ما عليها من ورق وزهر وثمر ليَهويَ إلى مملكة الموت حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهل رأيتم فيما نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالاً وأصدق تصويراً للحياة من هاته الأسطورة، وهل رأيتم واحدة من أساطير العرب تدانيها سعة في الفكر وغزارة في الخيال؟.

الخيال الشعري والطبيعة
في رأي الأدب العربي

41 ـ أما ذهبتم في يوم من أيام الربيع الحالمة إلى بعض ضواحي المدينة حيث البرية المهتزة الناضرة والغاب المونق الجميل؟ أما رأيتم ذلك البلبل الأنيق المتنقل بين الغصون المورقة، يترنم بأغاريده الرقيقة الشجية؟ أما أبصرتم تلك القبرة الرشيقة المتخطرة بين مخاوف الأشجار وحول مسارب الحقول تتغنى بتلك الأناشيد العذبة الطاهرة؟ أما شاهدتم في ضحوة النهار تلك الفراشة الجميلة ترفرف حول الأعشاب البليلة، وتلك النحلة الهاجزة تحوم بين الزهور السكرى بأنوار النهار؟ أما ساقطت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة ذلك الصوت الفضي الجميل المتجاوب في ظلام الغاب؟.

42 ـ ثم أما أحسستم إذ ذاك وأنتم بين أحضان الطبيعة بذلك الشعور القوي الغامض الثمل يستحوذ على مشاعركم ويستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ ستقولون: بلى! ولكن أيُّ شيء هو هذا الذي حرك في نفس البلبل حب النشيد فانطلق يغني بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القبرة الصغيرة فاندفعت تتغرد راقصة بين الحقول، وأثار الفراش فرفرف بين الشقيق والأقحوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق أعشاب الربيع باحثة عن رحيق الورود، وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهم المبهج اللذيذ؟ أي شيء يا ترى هذه القوة الساحرة التي تسكر كل شيء وتعبث بكل شيء؟ إنها هذا الروح الإلهي النبيل الذي تبصرونه في

السماء والماء والنور والفضاء، وفي الوردة الناضرة والنسمة الطائرة وفي حلة الموج ووميض النجوم، إنه الجمال الخالد المعبود الذي أحس به أهل بابل فعبدوه في (عشتروت)، وشعر به اليونان فقدّسوه في (أفروديت)، واستفز قلوبَ الرومان فمجدوه في (فينيس) وأقامت له الإنسانية كلّها معابد المجد في أعماق القلوب.

43 ـ فالجمال هو الذي نبه الطائر فغرد وأيقظ الفراش فحوّم واستخف النحلة فطافت بين الرياض واتخذ من أنفسكم هيكلاً شعرياً تعبدونه فيه وأنتم لا تشعرون.

44 ـ والجمال هو الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الأناشيد الخالدة المتغنية بجلال الكون ومجد الحياة.

45 ـ والجمال هو الذي مهد للإنسانية هذا السبيل الذي تضرب فيه واستثار أفكار الجبابرة من مراقد النسيان.

46 ـ ولولا هذا الجمال المنبث في مظاهر الكون وطواياه لاتخذت الإنسانية سبيلاً آخر غير هذا الذي تعرفه ولحرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول...

47 ـ وبعد، فما الذي أريد قولَه من وراء هذا الكلام؟ أريد أن أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي الذي يستفز كوامن الحس ويهز أدق أعلاق الشعور والذي عرفتم أثره في نفوسكم كلما خلوتم إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة، أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد، وإن على حسب ما في الإقليم من جمال وروعة تكون شاعرية الأمة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجاً نضيراً كانت شاعرية الأمة خصبة منتجة، وإن كان كالحاً مقشعراً كانت كزة مجدبة. بل أزيد: إن على حسب طلاقة الجو أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب، فإن كان الجو طلقاً

ضحوكاً كان روح الأمة مفراحاً مرحاً، وإن كان الجو جهماً عبوساً كان روح الأمة داجياً مكتئباً، ولماذا لا يكون للوسط الطبيعي أثره الفعال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره، وقد تحقق العلماء أن له الأثر القوي في خلق المزاج الفردي وتكوينه؟.

48 ـ وإذن فماذا يمكنني أن أقول عن الأمة العربية إذا أخذت هذا القياس وطبقته عليها ناظراً إلى الوسط الطبيعي الذي عاشت فيه لا يمكنني أن أقول إلا أن شاعريتها ستكون شبيهة كل الشبه بالوسط الطبيعي الذي نمت وتدرجت فيه، فبما أن الأمة العربية قد عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال الذي يستفز المشاعر ويؤجج الخيال لأنها قطعة عارية قاحلة لا يعترض العين فيها غير الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية يخطف في حواشيها السراب، وقد يعثر الطرف فيها على رقعة يهتز فيها النبات أو جدول يتدفق بين الرمال أو غدير نائم بين الصخور العارية، بما أن الأمة العربية قد عاشت كذلك فينبغي أن تكون شاعريتها قريبة من هذه الأرض كل القرب فيها ما فيها من ضياء وإشراق ومن بساطة وسذاجة، وقد عرفتم من قبل كيف كانت أساطير هاته الشاعرية والآن نريد أن نعرف كيف كانت الطبيعة في نظر هذه الشاعرية وهل كان لهاته النظرة من الخيال الشعري حظ وافر أم لم يكن فأقول:

49 ـ أهم الأدوار[1] التي ينقسم إليها الأدب العربي أربعة: الدور الجاهلي والدور الأموي، والدور العباسي، والدور الأندلسي، وفي هاته الأدوار الأربعة سيكون بحثي عن الطبيعة وحظها من الخيال الشعري.

50 ـ أما الدور الجاهلي والدور الأموي فقد كانا خاليين أو كالخاليين من

(1) تضمن كتاب «الخيال في الشعر العربي» لمحمد الخضر حسين على فصل بعنوان «أطوار الخيال» تحدث فيه عن المراحل التاريخية الكبرى مما يطلق عليه الشابي مصطلح الأدوار (الخيال في الشعر العربي، ص 66 ـ 71).

هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود ويشبب بجمال الطبيعة وسحر الربيع، أقول أو كالخالي لأننا نجد في شعر هذين العصرين شيئاً من ذلك ولكنه نادر كل الندور ثم إنه على قلته وندوره لم يكن من هذا النوع الذي يشتعل خيالاً وحساً ويأتلق جمالاً وفناً والذي تحس النفس من ورائه بنشوة الشعر وتلهب العاطفة لأن الشاعر لم يكن يذكره في القصيد لأنه استغوى نفسه واستهوى شعوره بل لأنه قد أتى به جميل السيل وفيض الكلام ولولا الاستطراد وسوق الحديث لما ذكره، كان يعن له وصف محبوبته أو رائحتها فلا يجد وسيلة إلى ذلك إلا أن يقول كما قال الأعشى:

ماروضة، من رياض الحسن، معشبة خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمسَ منها كوكب شرق مؤزر، من عميم النبت، مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أو يقول كما قال كثير عزة:

فما روضةٌ، زهراء، طيبة الثرى، يمج الندى جثجاثها، وعرارها
بأطيبَ من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

51 ـ أو يستعيد بذاكرته ما مر له في ريق العمر وانبلاج الشباب من لذة شائقة واغتباط أمين ثم كيف عصف الدهر بذلك الشمل الجميع فأصبحت مراتع اللهو ومساحب أذيال الصبا ملعباً من ملاعب الريح وملهى من ملاهي الربيع كما يقول عنترة:

ولقد مررت بدار عبلةَ، بعدما لعب الربيعُ بربعها المتوسم
جادت عليه كل بكر، حرة، فتركن كل قرارة كالدرهم
سُحّاً، وتسكاباً، بكل عشية يجري عليها الماء، لم يتصرَّم
وخلا الذبابُ بها، فليس ببارح غرداً، كفعل الشارب المترنم
هزجاً، يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

أو أن يحكيَ حديثاً من أحاديث محبوبته فيتعرض عرضاً لذكر

الموضع الذي كانت فيه عند ذكر الحديث كما يقول ابن أبي ربيعة:

قالت لجارتها عِشاء، إذ رأت ... نزه المكان، وغيبة الأعداء
في روضة، يمّمنها مولية، ... ميثاء، رابية، بعيد سماء
في ظل دانية الغصون، وريقة، ... نبتت بأبطح، طيب الثرياء
وكان ريقتها صبير غمامة ... بردت على صحو، بعيد ضحاء:
«ليت المغيري العشية أسعفت ... دار به! لتقارب الأهواء»[1]

52 ـ على أننا قد نجد أيضاً في شعر هذين العصرين، شيئاً من الشعر الطبيعي الجميل الذي يمثل مظاهر الطبيعة، ويصور البرق والرعد والسحاب، ولكننا نقرؤه فلا نحس فيه روح الشاعر الملتذة المعجبة، ولا نسمع فيه صوتاً من أصوات القلوب، وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً، وقد لا تخلو في عرضها من أناقة وطرافة. كما يقول امرؤ القيس:

ديمة، هطلاء، فيها وطف ... طبق الأرض، تحرى، وتدر
فترى الود إذا ما أشجذت ... وتواريه، إذا ما تعتكر
وترى الضبّ خفيفاً، ماهراً، ... ثانياً برئنه، ما ينعفر
وترى الشجراء، في ريقها، ... كرؤوس قطعت فيها خمر
ساعة، ثم انتحاها وابل، ... ساقط الأكناف واه، منهمر
راح، تمريه الصبا، ثم انتحى ... فيه شؤبوب جنوب، منفجر
ثج، حتى ذاق عن آذيه ... عرض (خيم) (فخفاف) فيسر
قد غدى يحملني في أنفه ... لا حق الأيطل، محبوك، ممر[2]

---

(1) (الكواكب هنا بمعنى النبات الطويل، ومؤرز: ملتف كامل الطول. الجثجاث والعرعار هما نوعان من النباتات البرية المزهرة، المتوسم: المتعرف، نزه المكان: خلوه من الناس. مولية: ممطورة غب المطر، ميثاء: لينة التربة سهلتها غير رملية، الثرياء: الأرض الندية وهي مؤنث الأثرى، صبير: سحاب فيه سواد وبياض).

(2) (وطف، أصل معناه وفرة شعر الأهداب والحاجبين واستعمله هنا لتدلي السحابة إلى الأرض لأنها إذا تدلت ودنت من الأرض كان فيها مثل الوطف الذي يكون بوجه =

أو كما يقول أوس بن حجر:

إني أرقت، ولم تأرق معي صاحِ! لمستكـف، بعيـد النـوم، لـوّاح
يـا مـن لبـرقٍ! أبيـت الليـل أَرقُبُـه في عارض، كمضي الصبح، لمّاح
دان، مسف فويق الأرض هيدبه، يكـاد يـدفعـه مـن قـام بـالـراح
كـأنمـا بيـن أعـلاه وأسفلـه ريـط منشـرة، أو ضـوء مصبـاح
ينفي الحصا عن جديد الأرض مبتركاً كـأنـه فـاحـص، أو لاعـب، راح
كـأنـه ريقـه ــ لمـا عـلا شطبـاً ــ أقراب أبلق، ينفي الخيل، رماح
كان فيه عشاراً، جلة، شرفاً، شعثاً، لهاميم، قد همت بارشاح
بحا حناجرها، هدلاً مشافرها، تسيـم أولادهـا فـي قـرقـر ضـاح
هبـت جنـوب بـأولاه، ومـال بـه أعجـاز مـزن، يسـح المـاء، دلاح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة من بين مرتفق منها، ومن طاح[1]

= البعير. طبق، عم. تحرى، تصيب الحرى وهو فناء البيوت.
الود، وتد الخيمة. اشجذت، كفت. تعتكر، تشتد.
ينعفر، ما يمس التراب لكثرة الماء.
الشجراء، الأشجار. ريقها، أولها.
الأكناف، الجوانب.
راح، عاد وقت الرواح. تمريه، تستدره.
ثج، صب. آذيه، موجه. خيم، وخفاف، ويسر، أسماء أماكن.
أنفه، أوله. لاحق، ضامر. الأيطل، الخصر. محبوك، شديد الخلق. ممر، مفتول الأعضاء).

(1) (لمستكف يريد منه البرق. لواح، كثير الإيماض.
لماح، كثير اللمعان.
مسف، قريب من الأرض. هيدبه، سحابه المتدلي إلى الأرض.
ريط، جمع ريطة وهي الملحفة وما شابهها.
فاحص، طائر يفحص التراب عن الأرض ليتخذ فيها أفحوصاً.
شطب، اسم جبل. اقراب، نوع من عدو الخيل. أبلق، فرس مخطط بسواد وبياض.
ينفى الخيل، يدفع الخيل. رماح، كثير الرفس برجله.
عشار، جمع عشراء وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر. جلة، بكسر أولها بمعنى مسنة يطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ـ شرف، بضم أوله وثانيه:

أو كما يقول ملحمة الجرمي:

أرقت، وطال الليل، للبارق الومض ... حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض
نشاوى من الادلاج كدري مزنه يقضي ... بجدب الأرض ما لم يكن يقضي
تحن بأجواز الفضاء قطراته، ... كما حن نيب بعضهن إلى بعض
كان الشماريخ العلا من صبيره ... شماريخ من لبنان في الطول والعرض
يباري الرياح الحضرميات مزنه ... بمنهمر الأرواق، ذي قزع رفض
يغادر محض الماء ذو هو محضه ... على إثره - إن كان للماء من محض
يروي العروق الهامدات من البلى ... من العَرفَج النجديّ ذو باد والحمض
وبات الحَبِيّ الجُونُ يَنْهض مُقْدماً ... كنَهْض المَدَائني قَيَّده الموعث النَّقَضُ[1]

= مسنة هرمة - شعث، مغبرة الشعر ملبدته - لهاميم، غزيرة اللين - الأرشاح، هو أن يكون للناقة فصيل قوي على المشي.
هدلاً، مسترخية المشافر وهي شفاه البعير. تسيم، ترعى، القرقر، الأرض المطمئنة اللينة. ضاح، ظاهر منكشف.
دلاح، كثير الماء.
القيعان، جمع قاع وهو الأرض المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والهضاب.
ممرعة، مخصبة. مرتفق، ثابت. طاح منبسط من الأرض ممتد).

(1) (الحبي، السحاب الذي يعترض في الأفق.
النشاوى، السكارى. الكدرى، السحاب الرقيق. المزن، السحب البيض، يصف هذا السحاب بأن غيومه البيض الرقيقة باتت من سراها في الظلام تمشي مشية الشارب الثمل.
تحن، تتجاوب أصواتها بقصف الرعود. قطراته، نواحيه، النيب، النياق المسنة.
الشماريخ، أصل معناها قمم الجبال واستعملها هنا في أعالي السحاب لضخامتها.
الصبير، السحاب الذي فيه سواد وبياض.
يباري، يسابق. الحضرميات، التي تهب من ناحية حضرموت. الأرواق، جمع روق وهو الماء الصافي. القزع، قطع السحاب المتفرقة. رفض، أصل معناها الإبل التي تترك بالمرعى وهو يريد أن يقول: إن السحاب يسابق الرياح السريعة بمائه الصافي المتدفق من غيومه المتفرقة الشبيهة بالنوق التي تركت بمراعيها.
محض، خلاصة.
العرفج، نوع من النبات. النجدي، المنسوب إلى نجد. ذوباد، الذي بلى من قدمه. =

53 ـ فقد رأيتم كيف أن أدب هذين العصرين قد كان لا يعرض لوصف مناظر الطبيعة إلا إذا دعت إليها الضرورة دون أن يسهب في الوصف ويشبع القول. وكيف أنه إذا تحدث عن ظواهر الطبيعة أسهب في القول وأطال البيان ولكنه في كل ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر وخشوع المتعبد بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله وإنما الذي يهمه هو أن يصفه كما رآه، دون أن يخلع عليه حلة من شعوره أو عبقاً من عواطفه.

54 ـ وإن لهذا علته المعقولة فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي كما قلت من قبل فلم يتحدث أدبهم عن هذا الجمال وكيف يتحدث عنه وهو لا يعرفه؟ ثم إنه لم يتحدث عن ظواهر الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ، لأن الطبيعة لم تخلع على أرضهم من نظَارة الحسن ما يحرك في قلوبهم أدق وشائج الحس ويفتح قلوبهم لتذوق ألوان الجمال. . . فظلت قلوبهم مُوصَدة لا تعرف هاته اللذة ولا تفقه ذياك الشعور. زيادة عن أنهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الأرض اختلاطاً كبيراً من شأنه أن يلطِّف الطبع ويرقق المزاج.

55 ـ وإذن فقد كان الأدب العربي في هذين العصرين خالياً من الشعور بجمال الطبيعة والحديث عنه إلا أصواتاً ضئيلة خافتة تنطلق من حين لآخر كغمغمة الحالم الذي لا يفقه ما يقول. وكان العرب واقفين أمام مشاهد الكون، لا وقفة المتهيب الخاشع لأن مثلَ هاته الوقفة مما كان الباعث عليه نشوةَ الحس وسكرة الخيال لا بد أن ينفجر يوماً عن خير ما تتفتق[1] القرائح والعقول، بل إنها وقفة الأخرس الذي لا

= الحمض، كل ما كان مراً من النبات.
الجون، يطلق على الأبيض والأسود ومراده به هنا الأبيض. المداني، الذي ضيق عليه عقاله بتقصيره. الموعث، السائر في الأرض اللينة المرملة. النقض، المهزول الضعيف).

(1) في النص المطبوع «تفتق»، وفي قائمة إصلاح الأخطاء «تتفق» ولعل الصواب ما =

ينطق، والأعمى الذي لا يبصر أضواء النهار...

56 ـ وكذلك ظل الأدب العربي حتى أظلّ العصر العباسي حياة العرب، فكانت عادات وأخلاق وأمزجة وطباع، غير ما أَلِف العرب من طباع وأمزجة وأخلاق. وكان أن اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات عتيدة متباينة، تكونت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة، تجمع كل ما عرف الفرس والروم والإسلام من فكر وطبع ودين، فكان لهذا كله أثر غير يسير في[1] النزعة العربية الجافية. وكان أن أتقن اللغة العربية كثير من الفرس والروم، ونظموا فيها الشعر بأمزجة غير الأمزجة العربية وأذواق غريبة عن طبائع العرب، وكان أن ساكن نبغاء شعراء العرب العواصم والمدن واستبدلوا[2] بشظف العيش وعنجهية البداوة غضارة الحضر ورقة المدينة المترفة، فعاشوا في أوساط جميلة لم تبخل عليها السماء بما بخلت به على الوسط الطبيعي الذي نشأ فيه أدب العصر الأُموي والجاهلي قبله.

57 ـ وفي هذا الوسط المترف الذي تغير فيه كل شيء، شب ذلك الفن الطبيعي الوليد، الذي يتغنى بسحر الطبيعة في مختلف المظاهر وشتى الألوان، فأصبحنا نسمع من الأدب أصواتاً لم تألفها أسماعنا من قبل فيها رقة وعذوبة، وفيها طلاوة وحلاوة. أصبحنا نسمع أبا تمام يقول:

يا صاحبيّ! تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً، قد شابه ... زهر الرّبا، فكأنما هو مقمر!
دنيا معاش للورى، حتى إذا ... جاء الربيع فإنما هي منظر

= أثبتناه.

(1) عَدَّى الشابي المصدر «أثر» بحرف الجرّ «على» على الخطأ الشائع.

(2) استعمال الشابي فعلَ «استبدل» على الفصيح لا على الشائع. راجع الهامش الأوّل على مقدمة السنوسي.

أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نـوراً، تكـاد لـه القلـوب تنـور
مـن كـل زاهـرة تـرقـرق بـالنـدى ... فكـأنهـا عيـن إليـك تحـدر
تبدو، فيحجبها الجميم، كأنها ... عـذراء، تبـدو تـارة، وتخفـر
حتى غـدت وهـداتهـا ونجـادهـا ... فتيـن فـي حلـل الـربيـع تبختـر
مصفـرة، محمـرة فكـأنهـا ... عصب تيمن في الوغى وتمضر
من فاقع، غض الشباب، كأنه ... درر، تشقـق قبـل، ثـم تـزعفـر
أو سـاطـع فـي حمـرة، فكـأنمـا ... يـدنـو إليـه مـن الهـواء معصفـر[1]

ونجد البحتري يقول:

أتاك الربيع الطلق، يختال ضاحكاً ... من الحسن، حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز، في غلس الدجى ... أوائـل ورد، كـن بـالأمـس نـومـا
يفتقهـا بـرد النـدى، فكـأنـه ... ينـث حـديثـاً، كـان قبـل مكتمـاً
ومـن شجـر، رد الـربيـع لبـاسـه ... عليـه، كمـا نشـرت وشيـاً منمنمـاً
أحـل، فـأبـدى للعيـون بشـاشـة ... وكان قذى للعين، إذ كان محرماً[2]

ويقول:

ألـم تـر تغليـس الـربيـع المبكـر ... وما حاك من نَشْر الرياض المنشّر
وسرعان ما وَلّى الشتاءُ، ولم يقف ... تسلل شخص الخائف، المتنكّر
مررنا على (بطياس)، وهي كأنها ... سبائب عصب، أو زرابـي عبقر

---

(1) (تحدر، تسكب الدمع.
الجميم، ما يغطي الأرض من الأعشاب.
عصب، جمع عصبة بضم فسكون وهو العصابة. وتيمن وتمضر، تتشبه باليمانية والمضرية، وذلك أن العداوة بين اليمانية والمضرية قد كانت مستحكمة الحلقات حتى اتخذ كل منهما شعاراً فكان شعار اليمانية الرايات الصفر والعمائم الصفر وكان شعار المضرية الرايات الحمر والعمائم الحمر.
معصفر، صابغ بالعصفر وهو صبغ أصفر).
(2) (الطلق، الضاحك أو الذي لا حر فيه ولا برد.
ينث، يبث وينشر.
الوشي، الثوب المنقوش. المنمنم، المزخرف).

كأن سقوط القَطْر فيها، ـ إذا أثنى إليها ـ سقوط اللؤلؤ المتحدر
وفي أرجواني، من النور، أحمر، شباب بافرند، من النور أخضر
إذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت أعاليه، من در نثير، وجوهر
إذا قابلته الشمس رد ضياءها عليها صقال الأقحوان المنور
وإن عطفته الريح قلت التفاتة (لعلوة) في جاديها المتعصفر[1]

وأصبحنا نبصر في الأدب العربي مثل قول ابن الرومي:

وظلت عيون النور، تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي، لتدمعا
يراعينها صوراً إليك، روانيا ويلـ ـحظن ألحاظاً من الشجو خشعاً
وبين أغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا وفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس، فاخضر اخضراراً مشعشعاً
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنّى مغني الطير فيه وسَجَّعا
وغرد ربعي الذباب خلاله كما حثحث النشوان صنجاً مشرعاً
فكانت أرانين الذباب هناكم على شدوات الطير ضرباً موقعاً[2]

ومثل قوله:

إذا شئت حيتني بساتين جنة على سوقها، في كل حين تنفس
وإن شئت ألهاني سماع بمثله حمام تغني في غصون توسوس
تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت فتسمو، وتحنو تارة فتنكس

---

(1) (النشر، أول ما ينبت من النبات.
عبقر، مكان خرافي يزعم العرب أنه مسكن للجن ينسبون إليه كل ما يعجبون من جماله وإتقانه.
الصقال، البريق الذي يكون في السيف ونحوه بعد جلائه.
جاديها، زعفرانها).

(2) (صورا، مائلة.
الريعان، أفضل الشيء وأوله ويريد منه هنا وارف الظل لأنه أفضل الظلال.
ربعي، نسبة إلى الربيع. حثحث، حرك. الصنج، آلة من الآلات الوترية. مشرعاً، مشدود الأوتار).

إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة، فتأنس

توامض فيها كلما تلمع الضحى كواكب، يذكو نورها حين تشمس![1]

58 ـ ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطلقة في الأدب العباسي! ولم يتفش فيه كما تفشى في الأدب الأندلسي، وما ذاك إلا لأن الوسط الطبيعي الذي نمت فيه حياة الأدب العباسي لم يكن من الجمال والروعة كما كانت بلاد الأندلس الجميلة.

59 ـ فقد تفشى هذا الأدب الطبيعي الجميل في البلاد الأندلسية تفشياً عظيماً حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر، وحتى أصبحت الطبيعة هي الحلم البهيج الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال، وهي الأغنية المحببة التي يترنمون بها في أمسياتهم الجميلة الحالمة ولياليهم العذبة الفاتنة.

60 ـ غير أن لي في الأدب الأندلسي وبالأخص في الطبيعي منه رأياً جديداً ربما لا توافقونني عليه ولكنني قائله لكم ولولا ذلك لما أعلمتكم به.

61 ـ ينحصر هذا الرأي في أن الفن الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظراً وأعمق خيالاً، وأدق شعوراً منه في الأدب الأندلسي، رغماً عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغماً عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوباً وأدق تصويراً، ورغماً عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل. فإنني لأجد من صدق الشعور وقوة العاطفة عند البحتري وأبـي تمام وابن الرومي ما لا أجده عند ابن خفاجة وابن زيدون وغير هذين من شعراء الأندلس.

62 ـ ثم ما رأيكم أنتم؟ ألا تحسون بهذه النظرة البعيدة النافذة، وبهذا الخيال القوي العميق في بيت أبـي تمام:

---

(1) (توسوس: تصوت صوتاً خفياً).

دنيـا معـاشٍ للـورَى حتّـى إذا جـاء الـربيـعُ فـإنمـا هـي «مَنْظَـرُ»

63 ـ أي خيال أعمق وأي نظر أبعد؟ أليس من بعد النظر وعمق الخيال أن يحس الشاعر بتلك (الدنيا) الخيالية الرائعة التي يخلقها الربيع ويتكشف عنها الوجود، تلك الدنيا البريئة الطاهرة التي لم تخلق لمشاغل العيش وأرجاسه وإنما خلقت للذة «النظر» وإمتاع النفوس الشاعرة؟.

64 ـ ثم ألا تشعرون بهذا الإحساس القوي الصادق في بيت البحتري:

أتاك الربيع الطَّلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى «كاد أن يتكلما»!

هذا الإحساس العميق اليقظ الذي يكاد يستمع إلى صوت الربيع؟.

65 ـ ثم ألا تحسون بهذا الشعور المشتمل في بيت ابن الرومي:

إذا مـا أعـارتهـا الصبـا حـركـاتهـا أفادت بها «أنس الحياة» فتأنس

هذا الشعور الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون؟.

66 ـ بلى! إن في هذه الأبيات الثلاثة من عمق الخيال ودقة الإحساس بجمال الوجود ما لا يظفر بمثله في الأدب الأندلسي على ما في البلاد الأندلسية من نضارة وحسن لم تُرزَق مثلَهما البلادُ الشرقية. وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة صدمة قوية كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ولكنني وجدت بعد ذلك العامل الحقيقي الذي أثر في الأدب الأندلسي هذا الأثر البعيد، وهذا العامل هو أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفرت فيه أسباب الحضارة توفراً منكراً.

67 ـ فانغمست النفوس في حمأة الشهوات انغماساً أمات بها العواطف الهائجة وأخمد نوازي الشعور، فأصبح تيار الحياة يتدفق عن إيمان الناس وشمائلهم وهم لا يشعرون، وأصبحت الطبيعة في أنظارهم

وسيلة جامدة من وسائل اللذة لا منبعاً خالداً من منابع الإلهام وهكذا أخمدت تلك الأنوثة المترفة توهج الشعر وضياء القرائح على أنها هذبت من الألسنة ورققت أساليب الخطاب فكان الشعر الأندلسي رقيقاً طلياً ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور.

68 ـ ولنأخذ بعد هذا في الشعر الأندلسي لنعرف كيف كانت الطبيعة في نظره. يقول ابن خفاجة شاعر الطبيعة على ما يقول الكثير:

لله نهـرٌ سـالَ فـي بطحـاء! أشهى ورواداً مـن لَمَـى الحسناءِ
متعطّـف مثـلَ السِّـوار كـأنـه والـزهـرُ يَكنفـه مجـر سمـاء
قد رقّ حتى ظُنَّ قرصاً مفرغاً مـن فضـة فـي بُـردة خضـراء
وغدت تحفُّ به الغصون كأنها هَـدْب يحـف بمقلـة زرقـاء
والمـاء أَسـرعَ جَـرْيَـه متحـدِّراً متلـويـاً كـالحيـة الـرّقطـاء
والريح تعبث بالغصون، وقد جرى ذهـبُ الأصيـل علـى لُجَيْـنِ المـاء

ويقول:

وصقيلـةُ الأنـوار تلـوي عطفهـا ريـح، تلـفّ فـروعهـا، معطـار
عاطى بها الصّهباء أحوى أحور سحـاب أذيـال الصبـا، سحـار
والنور، عقد والغصون سوالف والجزع زنـد، والخليـج سـوار[1]
بحـديقـة، ظـل اللَّمـى ظِـلاً بهـا وتطلعـت شنبـابهـا الأنـوار
رقص القضيب بها، وقد شرب الثرى وشـدى الحمـام؛ وصفَّـق التيـار
غناء، الحف عطفها ورق الندى والتـف فـي جنبـاتهـا النـوار
فتطلعـت فـي كـل مـوقـع لحظـة مـن كـل غصـن صفحـة وعـذار

69 ـ وعلى هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة: براعة في الوصف وجمال في الأسلوب، دون أن تجد خيالاً قوياً أو شعوراً دقيقاً. وإن أعجبْ فلطائفة تسمِّي ابنَ خفاجة شاعرَ الطبيعة. وغاية ما أرى فيه هو أن في نفسه ميلاً إلى الطبيعة شغلته اللذة واللهو عن

(1) (الجزع، منعطف الوادي).

الإفصاح عنه وأن في قلبه شغفاً بالوجود كفكفه المجون. . يدل لذلك إكثاره من الحديث عن جمال الطبيعة ومواقع الفتنة منها.

ويقول ابن زيدون:

كان عشي القطر في شاطىء النهر ... وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
ترش بماء الورد رشا، وتنثني ... لتغليف أفواه بطيبة الخمر

ويقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والأفق طلْق، ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رق لي فاعتل إشفاقاً
والروض عن مائه الفضّي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقاً
يوم، كأيامِ لذاتٍ لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه، حتى مال أعناقاً
كأن أعينه - إذ عاينت أَرَقِي - ... بكت لِمَا بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألقَ في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقاً
سرى بنافجة نيلوفر عبق ... وسنان، نبه منه الصبح أحداقا[1]

وتقول إحدى شواعر الأندلس:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه، فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ضمإ زلالاً، ... ألذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى؛ ... فتلمس جانب الدر النظيم

ويقول ابن سهل:

اِغنم زمان الوصل، قبل الذهاب.
فالروض قد وافاه دمع السحاب.
وقد بدا في الروض سر عجاب:
ورد ونسرين، وزهر الأقاح

---

(1) النافجة، وعاء السمك. النيلوفر، نوع من النبات.

كـــالمســـــــك فـــــــــاح
والطيـــر شـــاد باختـــلاف النـــواح

● ● ●

لما رأيت الليل أبدى المشيب،
والأنجم الزهر هوت للمغيب،
والورق تبدي كل لحن عجيب،
ناديت صحبي - حين لاح الصباح -
قـــــــــولاً صـــــــــراح :
حـــي علـــى اللـــذات والانشـــراح!

70 - وعلى هذه السنة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق. والآن وقد تلوت عليكم شيئاً من الشعر الطبيعي في عصوره المختلفة فأحسستم بهذا الفارق العظيم بين الدورين الأولين وبين الدورين الأخيرين في نمط اللفظ وصياغة الكلام، وشعرتم بهذه الفروق الدقيقة التي بينها في تناول الأشياء والنظر إليها، ورأيتم شيئاً كثيراً من البساطة وعدم الاكتراث في الشعر الجاهلي والأموي حينما يحاول أن يصف مواضع الفتنة والملاحة من هذا الوجود، ثم عرفتم كيف أن الحضارة العباسية قد حوّرت شيئاً غير يسير من الحياة الإسلامية فكان لهذا التحوير ما نشاهده في الشعر العباسي من هذه الرقة وهذا الجمال اللذين لا نجدهما في الشعر الأموي والجاهلي مهما جهدنا في البحث. ورأيتم سعةً في المجاز، وجمالاً في الاستعارة، وخلابة في التعبير، وعمقاً في الشعور، في الشعر العباسي كلما حدّث عن تلك الرياض الأنيقة والمناظر البهيجة، ثم إنكم أبصرتم هاته الرقة الحضرية المهلهلة وهاته العذوبة الساحرة التي تتفجر في شعر ابن خفاجة وأضرابه تفجر ينابيع الغياض وتلقي على الشعر الأندلسي حلة ضافية من الطرافة

والجدة كلما تغنى بأودية الأندلس ورياضها حيث ترف ظلال الغصون الوارفة وتتغرد طيور الربيع.

71 ـ الآن وقد سردت عليكم كل ذلك وعرفتم كل هذا، أريد أن أتلو على مسامعكم كلمتين لشاعرين من شعراء الغرب: أولاهما للامرتين[1] وأخراهما لجيتي[2] حتى تتبينوا الفرق بين الرنة العربية الساذجة البسيطة وبين الرنة الغربية العميقة الداوية، وتعرفوا كيف ينظر الأدب الغربي إلى الطبيعة بعد أن عرفتم نظرة الأدب العربي إليها، وتحكموا بأنفسكم على حظ نظرة أدبنا العربي من الخيال الشعري العميق.

72 ـ أجل، فأنا سأتلو عليكم هاتين الكلمتين ثم أسألكم بحق ما تقدسون في هذا العالم هل تجدون بين شعراء العربية هذه الروح القوية المضطرمة الشاعرة، هذه الروح التي تنظر إلى الطبيعة كلها ككائن حي يترنم بوحي السماء فيثير في حنايا النفوس ما تثيره أنات القيثارة في يد الفنان الماهر من هواجع الفكر وسواجي الشعور، هذه الروح اليقظة التي تحس بما في قلب الطبيعة من نبض خافق وحياة زاخرة تفيض على مظاهر الكون هذا الجمال الإلهي الوضيء، فإذا الحياة بأسرها صورة من صور الحق، وإذا العالم كله معبد لهذه الحياة، يقول لامرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج وغناء

---

(1) (1869-1790) Alphonse de Lamartine.

(2) Johann Wolfgang von Goethe (1832-1749).

ويتداول المتحدثون عنه في العربية بين صيغتين لنطقه مما يفسر تذبذب الشابي في كتابة اسمه بين جيتي وجيت، والسبب هو التردد في محاكاة النطق الألماني أو النطق الفرنسي والإنجليزي.

الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتثر ورقها على القبور، وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده!».

73 ـ ويقول جيت: (أرى كل شيء حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات الأنيقة وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهتزة، وتتراءى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء. وأسمع الأطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الأرجوانية الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فأرى الاشنان يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر كأن قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس ويخيل إلى أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

74 ـ ... آه. كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لما ينكشف سره للإنسان لا شرب من اللانهاية كأساً دهاقاً تبسط القلوب وتنعش المشاعر!.

75 ـ وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعفي، بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته).

76 ـ تلك كلمة لامرتين وهذه كلمة جيتي، ولست بمستحلفكم مرة أخرى

أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق[1] وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟ ولكني أقول كلمتي، وهي أن النظرة العربية إلى الطبيعة بسيطة إزاء هذه مهما بلغت من العمق والشعور وأن تلك الكلمات الأخيرة التي قالها جيت هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود. أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل، لا تزيد عن الإعجاب البسيط ومثل هاته النظرة الفارغة لا ينتظر منها أن تشرق بالخيال الشعري الجميل لأن الخيال الشعري منشؤه الإحساس الملتهب والشعور العميق، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة إلا إحساساً بسيطاً ساذجاً خالياً من يقظة الحس ونشوة الخيال، هو ذلك الإحساس الذي تشاهدون أثره في شعر البحتري وابن الرومي وأبي تمام وبعض شعراء آخرين.

---

(1) ليست المقارنة ـ على ما قد يوحي به تركيب الجملة ـ بين نظرة لامرتين ونظرة جوتي، وإنما هي بين النظرة العربية والنظرة الغربية.

الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

77 ـ لقد علمتم، كيف كان الأدب العربي ينظر إلى الطبيعة في عصوره المختلفة، وعرفتم مبلغ تطور هاته النظرة على اختلاف العصور والبيئات، وأدركتم حظ تلك النظرة من الخيال الشعري في جميع الأعصر العربية، وسمعتم قبل ذلك شيئاً من الأساطير العربية وعرفتم ما هي عليه من الخيال الشعري بالنسبة لغيرها من أساطير الأمم الأخرى. كل هذا قد علمتموه ولست أنوي إعادته ولكنني أريد أن أتناول الآن نوعاً آخر فيه ما في الطبيعة من سحر وفن، ومن قوة ودَعَة، لننظر كيف كان هو في رأي الأدب العربي؟ وهل نال نصيباً من الخيال الشعري لم تنله الطبيعة ولا الأساطير أم كان حظه كحظ أخويه؟ وهذا النوع هو (المرأة)، هو هذا اللغز الجميل الذي يفتننا بسحره ويختلبنا بجماله فنتبعه مرغمين دون أن نستطيع له حلاً، هذا اللغز الجميل هو الذي سنستمع إليه في فم الأدب العربي وأناشيده.

78 ـ يقول الفلاسفة الأقدمون: (إن النفس البشرية قد خلقت من عنصر الحسن وجبلت من فن الجمال..) وفي هذا الكلام شيء من الحق غير قليل، وإلا فبماذا تعللون هاته اللذة السامية التي تشعر بها النفوس جميعاً كلما شاهدت مرأى جميلاً من مراءي هذا الكون البهيج؟ وبماذا تفسرون هذا الشغف بالجمال الذي قد يصبح في بعض النفوس تعطشاً دائماً وحنيناً لا يرتوي، وقد يسمو في بعض النفوس الشاعرة إلى أفق أعلى فإذا هو غيبوبة كلية في هذا الكون

البديع تستغرق المشاعر وتطغى على كل الميول. . .

79 ـ تلك هي النفس الإنسانية: فِلْذة خالدة من هذا الجمال العبقري الذي يتفجر من قلب الحياة تفجر العطر من الوردة اليانعة، فيشمل كل ما في هذا الملكوت من حي وميت، وينسجم على قسمات هذا العالم ووجوه هذا الوجود. . .

80 ـ تلك هي النفس الإنسانية: فلذة خالدة، فصلتها يد القدر عن جمال الحياة، ولذلك فهي أبداً تحن إليه في أي مظهر كان وفي أي لون بدا فإن فقدته ظلت تبحث عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تظفر به.

81 ـ . . . أما العرب فقد حرموا كما قلنا من قبل من هذا الجمال السماوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو «المرأة» ففي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة. . . وفي المرأة وحدها ظفروا بتلك الكأس الروية التي تطفىء ظمأ القلب إلى الحسن وغلة النفس إلى الجمال فتغنوا بمحاسن المرأة وشببوا بمفاتنها ما شاء لهم الشعر والعاطفة.

82 ـ وتلك جبلة الإنسان في العالم كله منذ القدم، فالمرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة، والمرأة هي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليؤجج نيران الشباب ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان، تلك هي المرأة في رأي البشرية جمعاء إلا قلوباً لم تعرف نعمة الحب ولا سمعت نشيد الجمال فظلت مغلقة موصدة كأفئدة الصخور. . . ولكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر وحتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان لا يبدأون الشعر إلا بنجواها، ولكن لا تتعجلوا فتحسبوا أنهم أَجَلّوا

المرأة ونظروا إليها نظرة سامية فيها طهر العبادة وفيها معنى التقديس والإجلال كما كان ينظر قدماء اليونان إلى آلهة الشعر حينما يناجونها في مستهل القصائد. كلا! فإن شيئاً من هذا لم يكن، لأن الشاعر العربي ما كان يبوىء المرأة تلك المنزلة السامية وذلك المقام الجميل إلا ليتحدث عن ملهاته الساحرة التي أَلْفَى عندها متعة الجسد ومنهل الشهوات... أو لكي يفاخر رفاقه من أبناء البادية بأنه قدير على تصبّي قلوب النساء والعبث بهن ليس غير..!

83 ـ أجل، فإن نظرة الأدب العربي إلى المرأة نظرة دنيئة سافلة منحطة إلى أقص قرار من المادة، لا تفهم من المرأة إلا أنها جسد يُشتهى ومتعة من متع العيش الدنيء...

84 ـ أما تلك النظرة السامية التي يزدوج فيها الحب بالإجلال والشغف بالعبادة، أما تلك النظرة الروحية العميقة التي نجدها عند الشعراء الآريين فإنها منعدمة بتاتاً أو كالمنعدمة في الأدب العربي كله لا أستثني إلا الأندر الأقل على الرغم من أن أكثره في المرأة. لم يعرف العرب ولا الشاعر العربي تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها من الوحي والإلهام ما تضن به ينابيع الوجود.. ولم يحاول الشاعر العربي أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة وهما أقدس ما في هذا الوجود. ولا بذلك القلب النقي الذي يزخر بأسمى عواطف الحياة وأشعارها، وأجمل أحلام هذا العالم الكبير ولا شعر بما بين هاته الطبيعة الكبرى وبين المرأة من اتصال وثيق، حتى كأنها قلبها الإنساني، الذي يحمل بسمة الفجر، ويأس الظلام، ذلك شأو لم تحلق فيه أجنحة الشاعر العربي ولا نالته، بل ولم يطمح إليه بصره الذي أَلِفَ مغاوره الأولى وكهوفه الضيقة.. بل إن الشاعر العربي لم يرفع بصره إلى ما هو أدنى من ذلك بكثير، فهو إذا حدث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفن مستقل متجرد

عن هاته المظاهر المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوهما وإنما تحدث عن هذا الجمال المتهدل (الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم واللحم) كأنما الجمال جسد يجس ومادة تمس، أما أن يتحدث عنه كما يقول تاغور: (أمسكت يديها وضممتها إلى صدري، حاولت أن أملأ بحسنها ذراعي، وأن أنتهب بقبلي ابتساماتها العذبة، وأن أترشف بعيني وميض أجفانها، ولكن، أواه! أين هي؟ من يستطيع أن يسلب من السماء زرقتها؟ حاولت أن أقبض على الجمال ولكنه غادرني غير تارك بين يدي سوى الجسد، فانثنيت خاسر النفس كليلها، كيف يقدر الجسم أن يلمس الزهرة التي لا يقدر على لمسها غير الروح؟) أما أن يتحدث عن جمال المرأة، بمثل هذا الحديث، فذلك ما لا يستطيع الشاعر العربي بحال وذلك ما لا يظفر به الباحث في الشعر العربي كله، لا أستثني أحداً غير ابن الرومي ومن لف لفه وهو نفر قليل، فإن ابن الرومي تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة، يقول:

ليت شعري ـ إذا أدام إليها ... كرة الطرف مبدىء ومعيدُ ـ
أهي شيء لا تسأم العين منه ... أم لها كلَّ ساعة تجديدُ؟
بل هي العيش، لا يزال متى استحـ ... ـدث يبدي غرائباً ويُفيدُ

85 ـ فالشاعر العربي لا يتكلم عما وراء جسد المرأة من تلك المعاني العميقة السامية ولكنه مجيد كل الإجادة إن أراد أن يحدث عن قدها الأهيف الممشوق وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورد المنضور وعما إلى ذلك من تلك الأوصاف المادية الملقاة أمام كل رائح وغاد والتي يحس بها كل الناس إحساساً متوازياً لا تظهر معه مزية للشاعر على غيره في الالتفات إليه إلا في رصانة التعبير، وجمال الديباجة وخلابة الأسلوب... ولكن ليت شعري! هل تلك هي وظيفة الشاعر وغايته من هذه الحياة؟ إذن يا خيبة الشعر ويا سخف الحياة! أجل يا خيبة الشعر وإن كان كثير من الناس لهم عقول

يفهمون بها ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألفاظ منمقة نضيدة، وعبارات مرصعة، وكلام مرصوص!.

86 ـ هذه هي النظرة الشائعة في الأدب العربي كله، والتي يتساوى فيها جميع شعراء العربية على اختلاف عصورهم، وتباين طبقاتهم، وتفاوت أوساطهم، سواء في ذلك عفهم وفاجرهم، وأولهم وآخرهم، وقد يكون من الغريب أن بعضاً من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيماناً سامياً، ويضمرون عنه في نفوسهم أبراً المعاني وأنقاها ما داموا خالين إلى أنفسهم أو إلى من يحبون، حتى إذا ما أرادوا التحدث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة، ولكن لو تعمق الباحث في فهم الروح العربية، لعلم أن ذلك ليس من الغرابة في شيء، لأن من طبيعة هذه الروح أن لا تحيط بغير الظاهر المحسوس، على ما سأبينه في الفصل الخاص بالروح العربية.

87 ـ وإنما الذي يستدعي البحث، هو أن النظرة التي نظر بها الأدب العربي إلى المرأة، قد ظلت بسيطة، لم تكتحل بأضواء النجوم، ولم تعرف غير الأفق الأول العهيد، ولم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جَزْر ومد، ومن نور وظلمة، ومن صخب وسكون. ورأيي في بقائها زيادة على الأسباب العامة التي سنأتي عليها في الكلام على الروح العربية هو أن الذي عمل على بقائها دون أدنى تطور أو تحور هو:

88 ـ **أولاً**: هاته الفكرة الجائرة، التي كانت تستحوذ على أدمغة العالم العربي كله، من أن المرأة مثل الغدر واللؤم، وخساسة الطبع، وحطة النفس، وخبث الضمير، فإن الفكر الذي يعتقد مثل هذا في المرأة لا يمكنه بحال، أن يبصر ما وراء جسدها، من حياة عذبة ساحرة وعالم شعري جميل... وهل يبصر مثل هذا العالم المشرق

المنير من يرى أنه منبع الإثم، ومستقر الرذيلة الخائنة؟ ويقول مع المتنبي:

وَمَنْ خَبِرَ الغواني فالغواني ضياءٌ في بَواطِنه ظلامٌ

89 ـ ثانياً: هو أن المرأة لم تنل في جميع الأعصر العربية، قسطاً من الحرية الحقة، تتمكن معه من إظهار ما لها من مواهب وملكات تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيطلع على ما خلف الجسد من لج زاخر وبحر عميق، تختلف عليه الإمساء والإصباح، والأضواء والظلمات. ولا تغرنكم تلك الحرية الموهوبة التي تسمعون عنها فإنها ليست هي الحرية الحقة التي أتحدث عنها والتي كان يمكنها ـ لو وقعت ـ أن تحول هذه النظرة القاسية، إلى ما هو أعف وأجمل. ذلك لأن الحرية التي وقعت في تلك العصور، هي ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبث بالفضيلة، ويسخر بكل شيء..، وما أجدره أن يسمى انحطاطاً أخلاقياً، من أن يسمى حرية، فيدنس هاته الكلمة الإلهية الطاهرة. ثم لأن الذي تمتع بهاته الحرية، هو قسم من النساء، لا حظ له من كرامة المرأة، بكل ما فيها من عفة سامية وطهر جميل. هو قسم من الإماء المتجنيات على الرجال، المتهافتات على اللذة، المتهالكات على الفجور، تهالكاً يأباه الدين والعقل، وينكره الحياء الإنساني العريق. هو هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، والخليع، ومن كان على شاكلتهما فسقاً ودعارة. وهو هذا الضرب الذي يجد عنده خلعاء الأندلس ومجانها، ما يغريهم على تعاطي اللذة، ومتابعة اللهو. ولا أحسب أن مثل هذا اللون من الحرية، وهذا الضرب من النساء، مما يدفع إلى إبدال تلك النظرة بما هو أرق وأعذب، وإنما هو يؤيدها بل ربما زادها قساوة وشدة، وإلا فما الذي جعل هذا الأدب الفاجر الخليع، يتفشى تفشياً منكراً في الأدب العباسي وفي الأدب الأندلسي، لولا مثل هؤلاء النساء.

90 ـ وإذن فنظر الآداب العربية إلى المرأة كنظرها إلى الطبيعة أو أدنى، لا سمو فيه ولا خيال، وإنما هو مادي محض لا يكاد يرى فرقاً بين المرأة والرداء وكأس من الخمر، فالمرأة تتخذ لإشباع شهوات الجسد والرداء يقي الجسم هاجرة الصيف، ويدفع عنه عادية الشتاء، وكأس الخمر يتلهى بها في آناء الفراغ! بل ربما سمت نظرة بعض الشعراء إلى الخمر، حين لم تَسْمُ نظرته إلى المرأة، ولا تحسبوني مغالياً أو مغرقاً، فإن الشعر العربي بين أيدينا شاهد على ما أقول، هاكم امرأ القيس فهو يقول:

ويا رُبَّ يوم قد (لهوت) وليلةٍ ... بآنسة كأنها خط تمثال

ويقول:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الرزق الروي، ولم أقل ... لخيلي (كري كرة!) بعد اجفال

ويقول:

وبيضةِ خِدْرٍ، لا يرام خباؤها ... (تمتعت)، من (لهو) بها غير مُعَجَّلِ

91 ـ فماذا رأيتم عنده؟ هل زاد على أن جعل المرأة (متعة ولهواً)، وَسَوَّى بينها وبين الفرس السابق والخمر العتيق!؟.

92 ـ وهاكم ما يقوله طرفة بن العبد شاعر الشباب المرح:

ولولا ثلاث، هن من عيشة الفتى ... وجدك ـ لم أحفل متى قام عودي
فمنهن: سبق العاذلات بشربة، ... كميت، متى ما تعل بالماء تزبد
وكري ـ إذا نادى المضاف مجنباً ـ ... كسيد الغضا، نبهته، المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن ـ معجب ـ ... ببهكنة، تحت الخباء الممدد[1]

(1) (عود، جمع عائد وهو الذي يزور المريض في مرضه.
كميت، فيها سواد وحمرة.
مجنباً، منحنياً من الهزال، المتورد، الوارد.

93 ـ فهل أسمعكم خيراً مما أسمعكم امرؤ القيس؟ وهل وجدتم عند هاته النفس الفتية، الملتذة، المتحفظة، غير ما لقيتم عند تلك النفس الخليعة الماجنة الفاجرة؟ بل هاكم ما يقول أوس ابن حجر:

وهل (لهوت) بمثل الرئم، آنسة تصبي الحليم، عروب، غير مكلاح[1]

94 ـ وهاكم ما يقول عبد الله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

وحقة مسك، من نساء، لبستها شبابي، وكأس، باكرتني شمولها
جديدة سربال الشباب، كأنها سقية بردي، نمتها غيولها[2]

95 ـ فما رأيتم؟ هل ألفيتم عند هذين ما هو أجمل مما لقيتم عند طرفة وامرىء القيس قبله؟ بل تأملوا مما يقوله أبو نواس في شباب المجد الإسلامي، وعنفوان الحضارة العباسية؟ ثم نبؤوني ماذا رأيتم؟ أنه يهتف قائلاً:

(ألـه) بالبيض الملاح وبقينات، وراح
لا يصدنك لاح هو عن سكرك صاح

وهكذا ينطلق يقول كلما حدثه شيطانه عن المرأة.

96 ـ ثم استمعوا لأبي تمام كيف يقول:

. . . من كل ممكورة، ذاب النعيم لها ذوب الغمام: فمنهل ومنسكب
كانت لنا (ملعباً)، (نلهو) (بزخرفه) وقد ينفس عن جد الفتى اللعب[3]

ثم استمعوا لما يقوله البحتري من بعده:

البهكنة، الشابة الغضة الشباب).

(1) (الرئم، الغزال الأبيض، عروب، تبهج زوجها، مكلاح، مكشرة عابسة).

(2) شمولها، خمرتها.
سقية، قصبة من البردى وهو نوع من النبات كالقصب. نمتها، أنمتها. غيولها، الأودية التي فيها المياه).

(3) (ممكورة: مملوءة الساق.
بزخرفه: بزينته، ينفس: يروح ويخفف).

قد أطرق الغادة، الهيفاء، مقتدراً على الشباب، فتصبيني واصبيها[1]
في ليلة، ما ينال الصبح آخرها علقت بالراح، أسقاها وأسقيها
عاطيتها غضة الأطراف، مرهفة شربت من يدها خمراً، ومن فيها

97 ـ وإلى هنا أقف خوف الإطالة[2]، وأسألكم: هل رأيتم من فرق بين ما قاله امرؤ القيس وما قاله البحتري. وبين ما قاله أولئك وما قاله هؤلاء رغماً عن تغير الزمن وتباعد شقة العصور غير هاته الرقة اللفظية وهاته النعومة في التعبير اللتين لا تعهدهما البداوة الخشنة الجافية.

98 ـ وإذا رأيتم في أي منزلة ينزل المرأة شعراء العربية، وبأي تعبير يعبرون عنها، فهلموا نستمع إليهم كيف يصفونها في أشعارهم وإلى أي ناحية منها يعرضون.

99 ـ هذا امرؤ القيس يصف محبوبته البدوية فيقول:

مهفهفة، بيضاء، غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد، وتبدي عن أسيل، وتتقي بناظرة من وحش (وجرة) مطفل
وجيد، كجيد الريم، ليس بفاحش إذا هي نصته ـ ولا بمعطل
وفرع، يغشي المتن، أسود، فاحم أثيث، كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل
وكشح، لطيف، كالجديل، مخصر وساق، كأنبوب السقي المذلل
وتضحي، فتيت المسك تحت فراشها نؤوم الضحى، لم تنتطق عن تفضل
إلى مثلها، يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول[3]

---

(1) (أطرق الغادة: أزورها ليلاً).
(2) من القرائن الدالة على أن الشابي كان يسعى إلى تلاوة نص محاضرته كاملاً.
(3) (مفاضة، مسترخية البطن. السجنجل، المرآة.
مطفل، يتبعه طفله. يقول إن لها نظرة عذبة ساحرة كنظرة المهاة إلى خشفها الصغير
نصته، رفعته.
القنو هو للنخل بمثابة العنقود للعنب. =

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيقول:

غـراء، فـرعـاء، مصقـول عـوارضهـا تمشي الهوينا، كما يمشي الوجي الوجل
كـان مشيتهـا، فـي بيـت جـارتهـا مر السحابة: لا ريث، ولا عجل
يكـاد يصـرعهـا ـ لـولا تشـددهـا إذا تقـوم إلـى جـاراتهـا ـ الكسـل
هـركـولـة، فنـق، درم مـرافقهـا كـان أخمصهـا بـالشـوك منتعـل
إذا تقوم، يضوع المسك أصورة والزنبق الورد في أردانها شمل
ماروضة، من رياض الحزن، معشبة خضـراء، جـاد عليهـا مسبـل هطـل
يضاحك الشمس منها كوكب، شرق مـؤزر بعميـم النبـت، مكتهـل
يـومـاً بـأطيـب منهـا نشـر رائحـة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل[1]

ويقول طرفة:

وفـي الحـي أحـوى، ينفـض المـرد، شـادن،
مظـاهـر سمطـي لـؤلـؤ، وزبـرجـد
خـذول، تـراعـي ربـربـا بخميلـة تنـاول أطـراف البـريـر، وتـرتـدي
وتبسـم عـن المـى، كـان منـوراً تخلل حر الرمل، دعص له، ندي
سقتـه أيـاة الشمـس إلا لثـاتـه أسـف ولـم تكـدم عليـه بـأثمـد

= الكشح، الخصر. الجديل، زمام الناقة. السقي، البردى وهو نبات شبيه بالقصب. المذلل، المحروث.
التفضل، شد وسطها بفاضل ثوبها للشغل كناية عن أنها مترفة لا تعمل.
اسبكرت، استقامت ماشية. المجول، درع صغير).

(1) (غراء، بيضاء حسنة. فرعاء، طويلة الشعر. العوارض، الأسنان التي بعد الثنايا. الوجي، رقيق القدم من المشي بلا نعل.
هركولة، جميلة الجسم والتكوين والمشية. فنق، منعمة. درم، ممتلئة. أخمصها، باطن القدم.
أصورة، جمع صوار وهو وعاء المسك. يقول إنها حين تنهض يتضوع المسك منها كما يتضوع من وعائه. الورد، الأحمر. شمل، شامل.
كوكب، ما طال من النبات. شرق، يانع. زاهر، مؤزر، ملتف بما أحاط به من نبات كما يلتف بالإزار. مكتهل، تام الطول مزهر الفنن).

ووجه، كان الشمس ألقت رداءها عليه، نقي اللون، لم يتخدد[1]

ويقول كعب بن زهير:

وما سعاد غداة البين ـ إذ رحلوا ـ إلا اغن، غضيض الطرف، مكحول
هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها، ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم ـ إذا ابتسمت ـ كأنه منهل، بالراح معلول
شجت بذي شبم، من ماء محنية طاف، بأبطح، أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل[2]

100 ـ وعلى مثل هاته السنة يذهب النابغة، وعنترة، ولبيد، وعمرو ابن كلثوم، وأوس بن حجر والمرقش، وزهير، وغير هؤلاء من شعراء الجاهلية، لا يختلفون إلا في كيفية التعبير عن هاته المعاني ـ وربما اتفقوا فيها ـ أو في قلة الأوصاف وكثرتها. ولو شئت أن أستعرض كل ما قاله شعراء الجاهلية والإسلام في هذا الصدد وأتقصاهم واحداً واحداً، أو عبقرياً عبقرياً، لاضطررت إلى تأليف مجلد ضخم أتعرف فيه أقوالهم وأبين مبلغ ما فيها من التفاوت

---

(1) (الأحوى، الأسمر. المرد، ثمر الأراك. الشادن، ولد الظبية إذا ما بدأ يشتد. المظاهر، الذي يجعل واحداً فوق آخر.
الخذول، الظبي المتخلف عن القطيع. الربرب، قطيع الظباء. البرير، ما قارب النضوج من ثمر الأراك. ترتدي، تدخل بين أغصانه حتى تصبح لها كالرداء.
الألمى، الثغر في شفتيه سمرة. المنور، يريد منه الأقحوان حر الرمل، نقيه. الدعص، الكثيب الصغير من الرمل.
إياة الشمس، شعاعها وهذا المعنى مبني على خرافة كان العرب يؤمنون بها، أتينا عليها في «الخيال الشعر والأساطير». اللثات، مواضع الأسنان. أسف، ذر عليه الأثمد الكحل).

(2) (العوارض، ما يلي الثنايا من الأسنان. الظلم، البريق. المعلول، الممزوج.
شجت، مزجت. المحنية، منعطف الوادي. أبطح، مسيل المياه فيه رمل وحصى دقيق. المشمول، البارد.
أفرطه، ملأه حتى فاض. الغادية، السحابة. اليعاليل، فواقيع الماء ونفاخاته).

وآثار العصور. وإن كنت على ثقة من أنهم في هذا الفن سواء، أو ما هو منه بسبيل. ولكنني لم أرد هذا وإنما أردت أن آخذ من شعر كل عصر شيئاً لنوابغ شعرائه، حتى يتضح هذا الرأي الذي أسلفت الحديث عنه.

101 ـ وإذن فلنستمع إلى ابن أبـي ربيعة ومن معه لننظر هل من فارق بينهم وبين من قبلهم من شعراء الجاهلية. يقول ابن أبـي ربيعة:

خود، تضيء ظلام البيت صورتها ... كما يضيء ظلام الحندس القمر
مجدولة الخلق، لم توضع مناكبها ... ملء العناق، الوف، جيبها عطر
ممكورة الساق، مقصوم خلاخلها ... فمشبـع نشـب منهـا، ومنكسـر
هيفاء، لفاء، مصقول عوارضها ... تكـاد مـن ثقـل الأرداف تنبتـر
تفتر، عن واضح الأنياب، متسق ... عذب المقبل، مصقول، له أشر[1]
كالمسك شيب بذوب النحل، يخلطه ... ثلـج بصهبـاء، ممـا عتقـت، (جـدر)

102 ـ لعلكم تقولون: إنه فاسق ولا يأخذ الفاسق من المرأة إلا مثل هاته المواضع التي هي أقرب إلى حسه وأدنى إلى طوية نفسه، فماذا تصنعون بالمجنون وهو ذلك العاشق البرىء الذي لم تأخذ عليه ريبة قط إذ يقول عن ليلاه:

ومن أين للشمس المنيرة بالضحى ... بمكحولة العينين في طرفها فتر
وأنى لها من دل ليلى، إذا انثنت ... بعين مهاة الرمل قد مسها الذعر
تبسـم ليلـى عـن ثنـايـا، كـأنهـا ... أقاح، بجرعاء (المراصين) أودر
منعمـة، لـو بـاشـر الـذر جلـدهـا ... لأثـر منهـا فـي تـرائبهـا الـذر
إذا أقبلت تمشي ـ تقارب خطوها ... إلى الأقرب الأدنى ـ تقسمها البهر[2]

(1) (الخود، الصبية.
مجدولة الخلق، مفتولة غير مسترخية ولا متهدلة.
اللفاء، ضخمة الفذين، تنبتر، تتقطع.
أشر، بضم ففتح تحزيز في الأسنان).
(2) (فتر، فتور.

103 ـ أفلا ترون أنه لم يخالف ابن أبـي ربيعة في كبيرة ولا صغيرة مع اختلاف بين الاثنين في المنزع والهوية وفي الطبع والحياة؟ لعلكم تقولون: إنه مشكوك في وجوده، وقد جزم الدكتور طه حسين بأنه شخصية خيالية. وما يدريك لعل قائل هاته القطعة شاعر قريب الشبه بابن أبـي ربيعة في المشرب والروح. إذاً فماذا تصنعون بجميل وهو شاعر لم يشك أحد في وجوده ولا أقدم بشر على عده من أبطال الأساطير، وهو من تعرفون: عفة نفس وطهارة ذيل وحباً مكيناً وحسب ذلك دليلاً ما ذكره صاحب الأغاني في الجزء الثامن من أنه زار بثينة في خدرها فبلغ النبأ أباها وأخاها فتقلدا سلاحهما واعتزما قتله حتى إذا وصلا الخدر واستمعا لما يدور بين العاشقين من حديث طاهر وقول بريء وَلَّيَا من حيث أتيا دون أن يسفكا ذلك الدم الطاهر أو يزهقا تلك الروح النبيلة، ما رأيكم في شاعر هذا حظه من طهارة النفس وشعره يقول عن بثينة:

قناة من المران، ما فوق حقوها ... ومـا تحتـه منهـا نقـي يتقصـف
لهـا مقلتـا ريـم، وجيـد جـدايـة ... وكشح، كطي السابرية، أهيف[1]

ويقول أيضاً:

غـراء، مبسـام، كـأن حـديثهـا ... در تحـدر نظمـه، منشـور
مخطوطة الساقين، مضمرة الحشا ... ريـا الـروادف، خلفهـا ممكـور[2]
لا حسنها حسن، ولا كدلالها دل ... ولا كـوقـارهـا تـوقيـر

104 ـ بل ماذا يكون قولكم لو انتقلنا إلى العصر العباسي فإذا هو كالعصر

= البهر، انقطاع النفس من الإعياء والكلال).
(1) (المران، شجر تتخذ منه الرماح اللدنة الناعمة. حقوها، خصرها. جداية، غزالة. السابرية، نوع من الثياب).
(2) (مخطوطة).

الأموي والجاهلي دون أي تفاوت أو اختلاف؟ انظروا ما يقول أبو نواس:

سربلها الدل ثوب بهجته ... أزرها الشكل ثم رداها[1]
للدعص من ردفها تراكمه ... وللقضيب الرطيب أعلاها
فالسحر والغنج في محاجرها ... والحسن وقف على محياها

ثم انظروا ما يقوله أبو تمام من بعده:

إن في خيمهم لمفعمة الحجـ ... ـلين، والمتن متن خطوط وريق
وهي لا عقد ودها ساعة البيـ ... ـن ولا عقد خصرها بوثيق
وكان الجريال شيب بماء الـ ... ـورد في خدها، وماء العقيق
وهي كالظبية النوار، ولكن ... ربما أمكنت جناة السحوق[2]

وما يقوله أيضاً:

بيضاء، يصرعها الصبا من نعمة ... خود، كخوط البانة الاملود[3]
وحشية، ترمي القلوب إذا اغتدت ... وسنى، فما تصطاد غير الصيد

ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خمصانة، ارق من الخمـ ... ـر، بقلب أقسى من الجلمود
ذات فرع، كأنما ضرب العنبـ ... ـر، فيه بماء ورد وعود
حالك كالغداف، جثل، دجوجـ ... ـي، اثيث، جعد بلا تجعيد[4]

---

(1) (الشكل، الدلال).
(2) (الحجلان، الخلخالان. خوط، غصن. وريق، مورق.
الجريال، الخمر.
النوار، النافرة).
(3) (الأملود، الناعم اللين).
(4) (الخمصانة، الهيفاء.
ضرب، خلط.
جثل، وافر مسود. دجوجي، حالك كالليل، جعد، ذو تجاعيد وتثان).

تحمل المسك من غدائرها الـ ـريح، وتفتر عن شتيت برود

ثم اسمعوا ما يقوله البحتري:

بيضاء، أوقد خديها الصبا، وسقا أجفانها من مدام الراح ساقيها
في حمرة الورد شكل من تلهبها وللقضيب نصيب من تثنيها

ويقول مهيار الديلمي:

سقى بالحمى الأعين النابلات من دم أحشاي ما تشرب
وحيا الحيا أوجها لا تغش لجين الجمال بها مذهب
وما نطفة حضنتها السماء بارعن مرقاه مستصعب
ولا مسكه طاف عطارها (بداريـن) ينخل ما يجلب
بأطيب من فم ذات الوشاح سحوراً، بلى، فمها أطيب[1]

105 ـ فهل رأيتم أيها السادة من تطور بين العصر العباسي والعصرين قبله من حيث نظر الشعر إلى المرأة ومنزلتها منه رغماً عن الاختلاف الشديد بين المدنية والفكر والعوائد في هاته العصور الثلاثة؟ أليست المرأة التي يتحدث عنها امرؤ القيس وطرفة وعمر بن أبي ربيعة هي نفس المرأة التي يتحدث عنها الحكمي والبحتري وأبو تمام؟ وأليس الحديث هو عين الحديث إلا رقة في المعنى وطلاوة في اللفظ وتنويقاً في العبارة خلا منها الأدب الأموي والجاهلي قبله وقضت بها المدنية العباسية من بعد.

106 ـ وإذن فلنأخذ العصر الأندلسي لننظر كيف كان مقام المرأة في الشعر، وكيف كان حظ الحديث عنها من السمو والخيال، ولننتقل من تلك البيئة الشرقية إلى هاته البيئة الغربية لنعرف هل أثرت عظمة الطبيعة واختلاف التربية والوسط والمناخ

(1) (الأرعن، يريد منه الجبل وإن كنت لم أعثر على تسمية الجبل بهذا اللفظ وإنما أعرف أنه يسمى الرعن.
ينخل، يختار).

على[1] النظرة الشعرية إلى المرأة، هذا ابن خفاجة يقول:

فتق الشباب بوجنتيها وردة ... في فرع اسحلة، تميد شباباً
وضحت سوالف جيدها سوسانة ... وتوردت أطرافها عنابا[2]
بيضاء، فاض الحسن ماء فوقها ... وطفا به الدر النفيس حبابا

ويقول:

هي الظبي، طرفاً أحورا، وملاحظا ... مراضا، وجيداً أتلعا، ونفارا
أفاضت على عطف القضيب ملاءة ... ولفت على ظهر الكثيب إزارا

وهذا ابن خاتمة يقول:

دماء فوق خدك أم خلوق؟ ... وريق ما بثغرك أم رحيق؟
وما ابتسمت ثغور أم أقاح، ... ويكنفها شفاه أم شقيق؟
وتلك سناة قوم ما تعاطت ... جفونك؟ أم هي الخمر العتيق؟
لقد أعدت معاطفك انثناء ... وقلبي سكرة ما إنْ يُفيقُ
جمالك خمرتي، وهواك راحي ... وكاسي مقلتي، فمتى أُفيق

وهذا ابن سهل بقول:

ما رأينا قط ثغراً، نضده ... أقحوان، عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربدة ... وهو من سكرته ما أن يفيق
فاحم اللمة، معسول اللمى ... ساحر الفنج، شهي اللعس
وجهه يتلو (الضحى) مبتسماً ... وهو من أعراضه في «عبس»

107 ـ والآن ما رأيكم بعد كل هذا؟ هل وجدتم بين من تلوت عليكم أشعارهم ـ وهم نوابغ الشعر وأبطاله ـ واحداً يعبد في محبوبته (ذلك الجمال الروحي المجسد، لا تلك المرأة التي تضم وتشم ثم

(1) (اسحلة، واحدة أسحل وهو نوع من الشجر يستاك به كالأراك.
سوالف، جمع سالف وهي مقدم العنق مما تحت الأذن).
(2) التعدية بحرف «على» على التجوّز.

تتصوح وتذوي بين الأحضان الفانية) كما يقول لامرتين -؟ أم هل وجدتم من يحاول أن يتكلم بقلبه أو بعقله عما وراء جسد المرأة من شعور سماوي رقيق، وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة تتألق سناء وبهجة وتشمل العالم كله بالعطف والحنان، فيتخذ من خياله أجنحة نارية ترفرف في ذلك العالم الشعري الذي تتراقص من حوله أشعة الطفل وضباب الصباح؟... هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتغنى بحنو المرأة وحبها كما يتغنى الطائر الغرد؟ هل سمعتم من يتحدث عن المرأة وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن بيت من بيوت الله؟ هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتحدث عن قلب (المرأة) بمثل هذا الحديث الجميل الذي تسمعونه من جبران في أجنحته المتكسرة.. (إذن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن، ولا يتحول مع الفصول، قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت، قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة، ويظل فيها الربيع ربيعاً، والخريف خريفاً إلى آخر الدهور...)؟.

108 - كلا! فأنتم لم تسمعوا مثل هذا الحديث ولن تسمعوه ممن سلف من شعرائنا لأن مثل هذا الحديث لا يقدم عليه إلا من أوتي شعوراً جميلاً مشرقاً وخيالاً قوياً متمرداً لا يتهيب الأعماقَ المظلمة ولا يقنع بالظواهر البادية. أما الشاعر العربي فلم يُؤتَ مثل هذا الإحساس ولا هذا الخيال على ما سَأبينه في الفصل الخاص بالروح العربية وإنما كان له إحساس قاصر وخيال محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع فيما وراء المرئيات وإذن فما الذي يدعوه لأن يفكر في قلب المرأة وهو مطمئن إلى أنه منبع الغدر والخيانة، وما

الذي يدفعه إلى تفهم روحها وله من جسدها مرتاد مخصب لشعره ونشيده. . . ؟.

109 ـ وبعد كل هذا فما الذي أخذناه؟ أخذنا أن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيراً لأن النظرة التي نظر إليها بها كانت مادية محضة لا عمق فيها ولا ضياء سواء في ذلك جميع العصور والأجيال وغاية ما يمكن أن يؤخذ من الفرق أن الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي قد كان صادقاً في ميله إلى المرأة وشغفه وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية وأما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم عن أنه جميل الرنة، خلاب النسق، وإن كان السمع لا يعدم من حين لآخر صرخة ثائرة من صرخات الحب تتجاوب في ذلك السكوت الشامل العميق.

110 ـ ولهذا التخالف علته المعقولة فإن المدنية ما تفشت إلا وتفشى معها الفسق والفجور وتوافرت أسباب اللهو والمجون فخمدت تلك الشعلة الكامنة في نفس الرجل. وما الذي يؤججها وفي كل حين تتلقاه بنات الهوى ولدات الدلال أما البداوة فهي في مأمن من هذا الخطر الذي يقضي على جذوة الرجولة في الرجال ولذلك فهي باقية يثيرها الحب ويؤججها الغرام.

الخيال الشعري والقصة في رأي الأدب العربي

111 ـ قد لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئاً من القَصص الرائع الفخم الجميل وأن يجد في ذلك القصص خيالاً عذباً مشرقاً بالروح والحياة، هذا لا سبيل لإنكاره فيما أظن، وهل ينكر هذا وفي العربية مثل ابن أبـي ربيعة شاعر الشبيبة الغَزِلة والجمال المدل، ذلك الشاعر الذي قصر شعره على الحب والجمال فكان جميلاً كالحب حبيباً كالجمال، وكان أكثره قصصياً رائعاً فيه من الفن والعذوبة ما لا تستطيع وأنت تقرؤه إلا أن تعجب به وتسيغه وفيها مثل امرىء القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحاك الفروح، التعيس بنفسه الغريدة الشاعرة، ذلك الشاعر التعيس الذي استهتر بالحب فكان له لذة سائغة في فجر شبابه وغصة مرة في مساء الحياة!.

112 ـ وفيها غير هذين ممن لم يتوفروا على القصص توفرهما ولكنهم ضربوا فيه بسهم غير يسير.

113 ـ كل هذا أومن به وأقره ولا أريد أن أعرض له بنقص أو تحوير، ولكن الذي أريده بعد هو أننا لو بحثنا في ما أبقاه لنا العرب من تراث أدبـي جليل فهل نعثر فيه على شيء من القصص الحق الذي يجدر أن يسمى قصصاً؟.

114 ـ هل نجد هذا القصص الجميل الذي يراد لنفسه كفن مستقل، من فنون الأدب التي تتخذ للتعبير عما في الحياة من حق وفن، هذا

النوع الذي لا يراد منه اللذة والإمتاع فحسب بل يراد منه إلى ذلك فهم الحياة الإنسانية بما اشتملت عليه من خير وشر ومن حسن وقبح ومن لذة وألم.

115 ـ هل نجد هذا القصص الذي يقصد منه سبر جراح النفس البشرية الدامية، ورسم تلك الدماء الدفاقة التي تتدفع آنا بعنف وقوة وحيناً على رود وأناة؟.

116 ـ نجد هذا النوع القوي الذي يعمد إلى قلب ابن آدم، إلى يم الحياة..!. ليصور للبشرية ما فيه من الآمال المجنحة. بأجنحة النجوم خفاقة مترنمة، وليريها طفل السماء الجميل... الذي يدعونه (الحب) واقفاً على ضفة اليم ينفخ نايه مستفزاً بنات الأعماق الحالمة... وليعطيها صورة شيقة من تلك العواطف العتية الجامحة التي ترغي وتزبد وتصطفق، وتدوي بكل ما في الحياة من قوة وما في الحياة من صوت ثم تطغى فتأكل كل شيء وتقضي على كل كائن... فإذا الكل خراب في خراب، وإذا الكل قبضة من ضباب، وإذا اليم وحده يعج عجيج العاصفة ويدوي دوي الرعود، ثم يقر ويسكن فإذا به نطفة بائسة تترجح في راحة الموت..!؟.

117 ـ وأخيراً، هل نجد في الأدب العربي شيئاً من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري أدق اتصال لأنه يتفهم الحياة بما اشتملت عليه؟...

118 ـ غير أني أرى من الخير أن أرجىء الإجابة عن هذا السؤال إلى ما بعد الإجابة عن سؤالين آخرين. أولهما: هل القصص العربي مستقل بنفسه عن غيره من فنون الأدب؟ ثانيهما: هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص، ويسبر ويحلل؟ أما السؤال الأول فالجواب عنه هو أن القصص إما أن نبحث عنه في النثر وإما أن نبحث عنه في الشعر، فإن بحثنا عنه في الشعر،

فالجواب أنه لم يستقل بنفسه استقلالاً يؤهله لمنزلة القصص الحقيقي أو ما يقاربه إلا في شعر ابن أبـي ربيعة، ففي شعر هذا الشاعر وحده قارب القصص أن يستكمل قواه ولو أتاح الله للشعر بعد ابن أبـي ربيعة من سار على قدمه وطبع على غراره لكنا نرى في الأدب العربـي شعراً قصصياً جميلاً جديراً بهذا الاسم.

119 ـ فإن الباحث في الأدب العربـي ليستطيع أن يجد لغير ابن أبـي ربيعة من شعراء العربية شيئاً من القصص الجميل ولكنه غير مستقل بنفسه. فقد يجد للمنخل اليشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفاً من مواقف الحب:

ولقـد دخلـت علـى الفتـ ـاة الخـدر فـي اليـوم المطيـر
الكـاعـب الحسنـاء تـر فـل فـي الـدمقـس وفـي الحـريـر
فـدفعتهـا، فتـدافعـت مشـي القطـاة إلـى الغـديـر
ولثمتهـا فتنفسـت كتنفـس الظبـي الغـريـر
ودنـت فقـالـت: (يـا منخـ ل! مـا بجمسـك مـن حـرور؟)
مـا شـف جسمـي غيـر حبـ ـك فـاهـدأي عنـي وسيـري

120 ـ ولكنه لم يكن مستقلاً بنفسه ولا مسوقاً بذاته لأنه من قصيد للشاعر أراد أن يفتخر فيه فتنقل في معانيه تنقل الطائر المدل، وقد يجد مثل هذا عند امرىء القيس في معلقته حين يقول:

وبيضـة خـدر، لا يـرام خبـاؤهـا تمتعت من لهوبها، غير معجل
تجاوزت حراساً، وأهوال معشر علي حراصا، لو يسرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعـرض أثنـاء الـوشـاح المفصـل
فجئت، وقد نضت لنوم ثيابها لـدى السـتـر، الألبسـة المتفضـل
فقالت، (يمين الله! مالك حيلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها، تمشي، تجر وراءنا ـ على أثرينا ـ ذيل مرط مرجل
فلما أجزنا ساحة الحي، وانتحى بنا بطن حقف، ذي قفاف عقنقل

هصرت بفودي رأسها، فتمايلت على، هضيم الكشح، ريا المخلخل[1]

121 ـ ولكنه كالأول لا يزيد عن أنه بعض قصيدة تصرف فيها قائلها تصرفاً كبيراً.

122 ـ وقد يجد مثل هذا في (ايامه) وفي (أحار ابن عمرو!) وفي (الاعم صباحاً) ويجد مثله عند النابغة في قصيدته (يا درامية) وفي معلقته بل ويجد مثل هذا عند أكثر شعراء العربية ولكنه لا يجده مستقلاً بنفسه يستغرق القصيدة كلها لا يدع فيها مجالاً لغيره إلا عند ابن أبي ربيعة وإنني لأكتفي بقصيدة واحدة من شعره القصصي الكثير تبين لكم طريقته الشعرية في سرد القصص، تلك الطريقة الساحرة المغرية التي استهوت عذارى مكة وشبانها حتى حرم الكبراء رواية شعره على فتيانهم، والتي استهوت نفس جميل فقال: هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد، على ما ذكره صاحب الأغاني، أما هاته القصيدة فهي هذه:

راح صحبي، ولم أحي النوارا وقليل لو عرجوا أن تزارا
ثم أما يسرون من آخر الليل وأما يعجلون ابتكارا
ولقد قلت حضرة البين، إذ جد رحيل، وخفت أن استطارا
لخليل يهوى هوانا مؤات كان لي عند مثلها نظارا:
(يا خليل اربعن علي ـ وعينا ي من الحزن تهملان ابتدارا
(هاهنا فاحبس البعيرين! واحذر رائدات العيون أن تستنارا)
(إنني زائر قريبة، قد يعلـ ـم ربي أن لا أطيق اصطبارا)
قال: (فافعل، لا يمنعنك مكاني من حديث تقضي به الأوطارا)

(1) (مرط، كساء من حرير. مرجل، مرسوم به صور الرجال.
الحقف، الرمل المستطيل المشرف. القفاف، المنعقدات من الرمل. عقنقل، بعضه فوق بعض.
هصرت، جذبت. بفودي، بجنبي الرأس. هضيم، لطيف).

(والتمس ناصحاً، قريباً من الور ... د يحس الحديث والأخبارا
فبعثنا مجربا، ساكن الـ ... ـريح خفيفاً، معاوداً، بيطارا
فأتاها، فقال: (ميعادك السر ... ح، إذا الليل سدل الاستارا)
فكمينا، حتى إذا فقد الصو ... ت دجا المظلم البهيم، فحارا
قلت لما بدت لصحبي: (إني ... أرتجي عندها لديني يسارا)
ثم أقبلت رافع الذيل، أخفي الو ... طء، أخشى العيون والنظارا
فالتقينا، فرحبت حين سلمـ ... ـت، وكفت دمعاً من العين مارا
ثم قالت عند العتاب: (رأينا ... فيك عنا تجلداً وازورارا)
قلت: (كلا! لاه ابن عمك! بل خف ... ـنا أموراً، كنا بها اغمارا
(فجعلنا الصدود - لما خشينا ... قالة الناس - بيننا استارا)
(وركبنا حالاً تكذب عنا ... قول من كان بالبنان أشارا)
والليالي إذا نابت طوال ... وأراها إذا دنوت قصارا
فعرفت القبول منها لعذري ... إذ رأتني منها أريد اعتذارا
ثم مالت، وسامحت بعد منع ... وارتني كفا، تزين السوار
فتناولتها، فمالت كغصن ... حركته ريح عليه فحارا
وأذاقت بعد العلاج لذيذا ... كجني النحل شاب صرفاً عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو ... ف، معنى، بها مشوق، شعارا
واشتكت شدة الإزار من البهر ... وألقت عنها لدي الخمارا
حبذا رجعها إليها يديها ... في يدي درعها تحل الإزارا . .
ثم قالت، وبان ضوء من الصـ ... ـبح، منير، للناظرين، أنارا:
(يا ابن عمي! فدتك نفسي! إني ... اتقي كاشحاً إذا قال جارا)[1]

---

(1) (أربعن، أعطف، والنون للتوكيد.
الورد، محل الورود. وذهاب العشاق إلى موارد الماء لتتبع النسوان أو بعث سفرائهم إليهن لتلقف الأخبار وضرب المواعيد عادة عربية لم تزل حتى الآن متبعة في البادية كميناً، كما واسترنا. حار، رجع.
مار، سال وجرى.
لاه، بكسر الهاء، لله در. أغمار، جمع غمر وهو من لم يجرب الأمور. =

123 ـ فأنتم ترون في هذه القصيدة نوعاً طريفاً من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا عند امرىء القيس ولا عند النابغة ولا عند الأعشى ولا عند غير هؤلاء ممن تقدمه من الشعراء فابن أبي ربيعة جدير أن يسمى أبا الشعر القصصي لأنه هو الباذر الأول لبذرة هذا الفن ولو تعهدها من بعده من الشعراء لأنشأت نشأً حسناً تعم فروعه جميع نواحي الحياة بعد أن كان قاصراً على أحاديث الحب ونجوى القلوب، ولكن هذا القصص الشعري قد استهل بحياته وانقضى بموته ولم يبعث على يد شاعر بعده من جديد.

124 ـ وتلك حياة القصص في الشعر العربي وهي كما ترون حياة موجزة قصيرة كأعمار الورود.. وأما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حد ما بما لم يظفر به في الشعر من الاستقلال والحياة، وذلك أن هذا الفن لم يعرفه النثر الجاهلي أصلاً لندرة النثر في الجاهلية، ولأنه كان قاصراً على الخطب والمحادثات، ولم يدون منه إلا الشيء اليسير، ولم يعرفه النثر العربي بعد ذلك إلا في أواخر العصر الأموي عندما ترجمت قصص «ألف ليلة وليلة» فقد ألفت إذ ذاك بعض قصص أخرى تمثل شيئاً من الحياة العربية في تلك العهود وأضيفت إليها، ولكن كتاب «ألف ليلة وليلة» لم يبعث شيئاً من الحياة القصصية في النثر العربي البليغ فظل على حاله الأولى إلى أن كان فجر القرن العباسي، وإذ ذاك ترجم ابن المقفع عن الفارسية بضع كتب قصصية تضرب إلى الحكمة والمثل لا نعرف منها إلا كتاب «كليلة ودمنة» فكانت هاته الكتب فتحاً جديداً في النثر العربي بعثت فيه روحاً قصصية لم تكن فيه من قبل. ونشطت أقلام بعض الكتاب إلى العمل في هذا السبيل، فألف ابن فارس

= حار، رجع إليه.
البهر، ضيق النفس من الامتلاء أو الإعياء).

أستاذ بديع الزمان مقامات لم يحدثنا التاريخ بشيء منها ثم ألف من بعده بديع الزمان مقاماته ثم ألف الحريري مقاماته المعروفة ومن لدن الحريري انحط هذا الفن انحطاطاً كبيراً وأصبحت المقامة إنما هي ألفاظ مرصوفة وكلمات مرصوصة يتباهى بتنضيدها والمخالفة بين ألوانها كما يتباهى الصبيان برصف الحجارة اللامعة... وفي تلك الفترة التي كانت بين البديع والحريري ألف المعري رسالة الغفران وهي من خير ما ألف في النثر القصصي خيالاً ومغزى، ففي رسالة الغفران يجد الباحث في النثر القصصي ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية الرائعة والجمال الفني البديع، ولا أعد من النثر القصصي تلك الكتب التي من طراز «ألف ليلة وليلة» لأن مثل هاته الكتب لا حظ لها من الأدب العربي البليغ الذي لا أتحدث عن غيره.

125 ـ وأما السؤال الثاني وهو هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص ويسبر ويحلل؟ فالجواب عنه أن القصص العربي لم يكن من هذا النوع وإنما كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهو ما نجده في شعر ابن أبي ربيعة وأمثاله من تلك الأحاديث الغرامية الغَزِلة. وأما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهو هذا القصص الذي يمثله كتاب «كليلة ودمنة» وما سار على نهجه. وأما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرة اللغوية وهو فن المقامات الذي يحمل لواءه البديع وأستاذه، والحريري ومن حذا حذوه.

126 ـ وبعد فهل كان للقصص العربي نصيب من الخيال الشعري الذي نبحث عنه؟ أقول: لا، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة وأنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النفوس من صور ورسوم، لأن الخيال الشعري هو فانوس الحياة السحري الذي لا تسلك مسالكها بدونه، والقصص العربي لم يجشم نفسه

ركوب هذه السبيل الغامضة المتعرجة، بل اتبع تلك الطريق المنبسطة الواضحة التي لا تؤدي إلى اللجة ولا الهاوية ولكنها تؤدي إلى صحراء مدحوة يأخذ الطرف ما فيها لأول نظرة... تلك الطريق اللاحبة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وآدابهم.

* * *

فكرة عامة عن الأدب العربي

127 ـ قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، وأنه كلمة ساذجة لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي النفوس، وفراشة جميلة ترفرف بين الزهور الحالمة ولا تجسر على الدنو من سراديب الجبال وأعماق الكهوف والأودية... حتى إن الباحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن الذي يقرأه وهو خاشع، ويسمعه وهو مصيخ بكل ما في روحه من شوق، وبكل ما في قلبه من شغف، كأنه يستمع إلى الوحي من لسان القدرة الأزلية، ذلك الفن السماوي الذي يشعر حين قراءته باتساع أفق الحياة في نفسه وبانفساح رقعة الإحساس في قلبه، حتى ليكاد يسمع هدير العواطف بين جنبيه وخرير الحياة في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم.

128 ـ على أنني حين أقول هذا الذي قد يراه بعض الناس خطيئة لا تغفر، لا أنكر أن الأدب العربي قد أجاد أيما إجادة فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البادية وما بينها من تخالف أو تآلف أو تشابه أو تنافر بل ربما فاق كثيراً عن الآداب الأخرى في هذا الصدد، ولا

أقول إن الأدب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي عاش بينها تمثيلاً صحيحاً ولا قدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه أهواؤها ومشاعرها، لأن الأدب العربي كان في جميع العصور التي تحدثنا عنها أدباً حياً صحيحاً فياضاً بكل ما تصبو إليه آمال تلك الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة، ولولا أنها وجدت فيه المشرب العذب الذي تستمرئه طباعها وتسيغه لما اعترفت به وأقبلت عليه ذلك الإقبال فقد كان الأدب الجاهلي بدوياً محضاً تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجش الذي لا يعرف رقة الختل ولا نعومة المدنية الكاذبة وتلمح في أعطافه روح البداوة المتوثبة الجائشة، بكل ما فيها من عزة وادعاء، وشدة الطبع البدوي العتيد الذي لا يعرف خفضاً ولا هوادة. وكان الأدب الأموي على قسمين يمثلان الحياة الأموية تمثيلاً واضحاً جلياً: قسم يصور هذه الحياة العابثة المخلدة إلى البطالة واللهو، وقسم يمثل هذه الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباينة. وكان الأدب العباسي لاهياً ماجناً خليعاً في عنفوان المجد العباسي وشرخ الحضارة الإسلامية ثم حائراً متشككاً مضطرباً تعصف به الرياح النكب والظلمة الداجية في أواخر القرن الثالث وما بعده لأن الحياة الإسلامية كانت حياة رعب وشك وكان الأدب الأندلسي مستهتراً مسرفاً في اللذة والمجون لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة تمرح بين الرياض والجداول.

129 ـ فأنا إذن عندما أقول ذلك الرأي عن الأدب العربي لا أزعم أنه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها ولكنني أقول إنه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالي ولأميالنا ورغائبنا في هذه الحياة، فقد أصبحنا نرى رأياً في الأدب لا يمثله ونفهم فهماً في الحياة لا نجده عنده ونطمح بأبصارنا إلى آفاق أخرى لم تحدثه بها أحلامه ولا يقظاته. لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بما

في أعماقنا من حياة وأمل وشعور، نقرأه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا وأحلامنا وهذا ما لا نجده في الأدب العربي القديم، لقد أصبحنا نتطلب أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل. . وهذا ما لا نجده في الأدب العربي ولا نظفر به، لأنه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون وإنما خلق لقلوب أخرستها سكينة الموت، أما نحن فما زلنا بعد من أبناء الحياة ولهذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس غير، أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا لأن لكل عصر حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب.

130 ـ يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب العربي إلا تلك النظرة المعجبة لا غير حتى يمكننا أن نتخذ لنا أدباً قويماً فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر وسعة في الخيال ودقة في الشعور أما أن نتخذ الأدب العربي الذي عرفنا خلوه من مثل هاته الأمور مثلنا الأعلى الذي ننسج على منواله فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام، لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. . أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة[1]. لقد أصبحنا نتطلب الحياة. . . ولكن لنعلم قبل ذلك أننا جياع عراة، وأن تلك الثروة الطائلة الضخمة التي أبقاها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسد خلتنا، لعلنا إن شعرنا بفقرنا وعرانا تحركت فينا

(1) راجع الهامش عدد 1 من الصفحة 18.

عوامل العزة الإنسانية فطفقنا نعمل بعزم وقوة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة مما نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة...

131 ـ فلا خير في أمة عارية تكتم فقرها... ولا خير في شعب جائع يظهر الشبع... وشر من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج في نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور..!.

132 ـ ذلك رأيي في الأدب العربي، أقوله بكل صراحة وجلاء دون أن أغمغم به أو أجمجم، ولا يغض من الأدب العربي شيئاً أنه مادي لا شيء فيه من عمق الخيال وقوة التصور، لأن هذا منشؤه الروح العربية التي أملت هذا الأدب وألقت عليه هذا اللون الخاص وإنما الذي يغض منا معشر التونسيين هو أن نتخذ من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا ولم نخلق له غذاء لأرواحنا ورحيقاً لقلوبنا لا نترشف غيره.

133 ـ ذلك رأيي في الأدب العربي وفي موقفنا تجاهه، أقوله لأنه الحق وإن كنت أعلم أنه سيغضب طائفة كبيرة ممن يُؤْثرون الحياة في أكناف الدهور الغابرة، حيث السكينة التي لا تصمّ الآذان والسبات الذي لا يستفز الحياة، ولكنني في غنية عن سخط هاته الطائفة من الناس وعن رضاها، لأنها تقدس كل ماض وتعبد كل قديم لا لأن فيه حقاً ونوراً ولكن لأن رداء القدم يكسبه مهابة الماضي وجلال التاريخ، أنا في غنية عن مثل هذه الطائفة من الناس، وحسبي أني أعلنت حقيقة أرضيت بها نفسي وأرضيت بها الحق وذويه، ولكن لكي لا يبقى ريب في قلوب هاته الطائفة التي ستنكر على هذا الرأي أقول: نبئوني يا سادتي! هل تجدون في العربية من يحدثكم عن تلك المعاني العميقة التي هي أعمق من الموت وأشد سعة من الحياة، تلك المعاني القوية النافرة التي تلوذ بأودية الفكر وشعاب

الخيال؟ كلا! ولكنكم واجدون من يستطيع أن يحدثكم بكل أسلوب وصوت عن تلك المعاني الساذجة والأفكار الداجنة التي ألم بها العرب في بداوتهم الأولى وأدركوها قبل أن تلمس أفئدتهم جذوة الحق وتذهب بأوهامهم تيارات الحياة.

134 ـ نبئوني يا سادتي، هل تجدون في العربية من يستطيع أن يحدثكم عن هاته العواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزاً، هاته العواطف المتنافرة التي تنطلق فينا باسمة مستبشرة وادعة، أو مذعورة باكية متفجعة أو جامحة مزمجرة ناقمة؟. كلاّ! ولكنكم واجدون من يستطيع أن ينضد لكم من المجازات الزائفة والكنايات المتكلفة ما تعجز عن بعضه جن سليمان، مما لا علاقة له بالروح ولا رحم بينه وبين خيال الحياة.

135 ـ خبروني يا سادتي! أي شاعر عربي يستطيع أن يحدثكم حديثاً مغرياً جميلاً عن الحب. عن هذا المعنى العميق العريق في النفس الإنسانية الذي يهز المشاعر ويؤجج نيران الحياة.؟ بل أي شاعر عربي يستطيع أن يحدثكم حديثاً شعرياً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة المشاعر... تلك السكرة الخالدة التي تستغرق النفس وتتغلغل بها في صميم الوجود أيان يترنم الحق وتخر أمواج الحياة.؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يحدثكم عن الأمل، هذا الكاس السماوي المورد الذي تترشف منه الإنسانية التائهة رشفات المسرة وسلسبيل الوجود؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور لكم معنى الأمومة الحانية الرؤوم، هذا المعنى الكبير الذي ينبسط كالبحر في عمق وسعة وسكون..؟ أو يريكم مثلاً حياً من مثل الحياة الإنسانية الضائعة، كان يريكم موقف النفس البشرية ما بين العواطف المتباينة، تدعوها هذه وتهيب بها تلك، أو يريكم هجسات القلوب وخلجاتها، وأحلام النفوس الناشئة الواقفة على عتبة القدر تحلم بما خلف الغد البعيد؟.

136 ـ هل تجدون يا سادة واحداً بين شعراء العربية يستطيع على أن يتحدث إليكم عن مثل هاته الأشياء القوية الغامضة، وإن استطاع فهل يقدر أن يرسم لكم منها صورة مغرية ساحرة أو يعطيكم منها معنى شيقاً جميلاً صادقاً هو أدنى إلى الحقيقة مما عاداه؟. كلا، فأنتم لا تجدون مثل هاته المعاني في الأدب العربي بحال وذلك لأنه أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

137 ـ ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى. ها هي نشوة الحب الشاملة تترنم في قلب لامرتين، فلنستمع إليها حينما غمرته بفيض من سعادة الحب وغبطة القلب جعلته يستغرق في هذا العالم الرائع استغراق الصوفي الصميم في ربه:

«... كنت أفتح ذراعي للهواء والماء والفضاء كأني أريد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها وحياتها وجمالها في هذه المرأة الفاتنة، وكنت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس وأركع على شفر الهاوية دون أن أرى وأرفع صوتي بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الأمواج الهادرة فيذهب، وأغوص في رقيع السماء اللازوردية بنظراتي الدائبة الثاقبة لأكشف فيها عن وجود الله نفسه، أنا لم أعد قط إنساناً وإنما كنت تسبيحة هائمة وتحية دائمة أصيح وأغني وأبتهل وأصلي وأذكر وأشكر بالفيض والإلهام لا بالنطق والكلام، فمشاعري ثملة فرحة ونفسي هائجة مرحة وجسمي ينتقل من هاوية إلى لجة غير ذاكر هيولاه ولا معتقد بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت.

138 ـ وهكذا فجر الحب في قلبي ينابيع الغبطة وأيقظ في نفسي راقد العواطف، وجلى لعيني مسارح الخلود»!

139 ـ فهل سمعتم شاعراً عربياً ممن تعرفون يتحدث عن نشوة الحب بمثل

هذا الحديث القوي المشتعل الذي تسمع فيه رنة السكر وغنة السعادة وغمغمة الساهية في غيبوبة الحلم؟. أم هل رأيتم شاعراً عربياً تتجلى روحه في مثل ما تجلت فيه روح لامرتين من هذا الرداء السحري الشفاف، الذي ينم عماخلفه، كضباب الصباح؟

140 ـ هل سمعتم من فم المجنون أو قيس ابن ذريح أو جميل أو ذي الرمة أو ابن ربيعة أو امرىء القيس حديثاً صادقاً لذيذاً عن نشوة الحب كهذا الحديث؟ إنكم لم تسمعوا مثل هذا الحديث لا من هؤلاء ومن من غيرهم من شعراء العربية. ولماذا هذا؟ هل لأنهم لم يتذوقوا نشوة الحب ولم تلعب بأعطافهم حمياً الصبابة؟ لا، فهم تذوقوا الحب كما تذوقه لامرتين، ولكن الروح العربية لا تستطيع أن تنظر إلى الأشياء كما تنظر إليها الروح الغربية في عمق وتوئدة وسكون، لأنها مادية تقنعها النظرة العجلى التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب، فالأدب العربي قد تحدث عن الحب ولكنه لم يستطع أن يتحدث عنه في جوهره، بل تحدث عنه في أعراضه ولوازمه، وتحدث عن الأمل ولكن بطريقة توهمك أنه لا يتحدث عنه. فقال الشاعر العربي عن الحب:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين، يا مي! كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

141 ـ وحاول ابن الفارض أن يتكلم عنه فما وفق، واضطر إلى أن يلجأ للطريق العربية التي سار عليها آباؤه الأولون منذ العصور الغابرة، أراد أن يتحدث عنه بغير ما ألف العرب فقال: «هو الحب»... ولكنه عجز عن أن يتمه على ما أراد فقال كما ألف العرب أن يقولوا:

هو الحب، فاسلم بالحشاء، ما الهوى سهل،
فما اختاره مضني به وله عقل

142 ـ وتكلم الأدب العربي عن الأمل فقال الطغرائي:

اعلـــل النفـــس بـــالآمـــال أرقبهـــا

«مـــا أضيـــق العيـــش لـــولا فسحـــة الأمل!»

ولكن الباحث يمر بهذا البيت ولا يدري أن قائله تكلم فيه عن الأمل، لأنه في الحقيقة تكلم عن أثره في الحياة أما عن الأمل نفسه فلم يقل شيئاً. وتلك هي طريقة الأدب العربي في التكلم عن هاته المعاني العميقة التي تؤدي إلى أعماق الخيال، لا يتكلم عنها في صميمها بل يتكلم عنها في أعراضها وآثارها البادية المدركة، بل إنه يتبع هذا السبيل في تكلمه عن جميع الأشياء سواء منها ما يدركه البصر وما يحجبه الضمير، وهذا ما دعاني لأن أقول إن الأدب العربي أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام وإنه ينبغي لنا إن أردنا أن ننشىء أدباً حقيقاً بالخلود والحياة أن لا نتبع الأدب العربي في روحه ونظرته إلى الحياة لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هاته العصور التي تتوثب يقظة وانتباهاً.

114 ـ فالشاعر العربي إذا عن له مشهد جميل استخف نفسه واستفز شعوره، عمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله، فأعطى منه صورة واضحة أو غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقته في الرسم والتصوير، دون أن يكشف عما أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكر وعاطفة وخيال، كأنما هو آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب، فهو كالمصور الفوتوغرافي لا يهمه إلا التقاط الصور والأشباح وإظهارها كما هي، دون أن يرسم معها صورة من نفسه ولوناً من شعوره، تاركاً للمشهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير، حتى إذا ما تصرف فلا يعدو التزويق والتنميق حتى يبدو الرسم جميلاً خلاباً يستهوي الأفئدة ويختلب النفوس، تلك هي الطريق العربية في تناول الأشياء والنظر إليها إلا أفراداً

قلائل شذوا عن هاته الطريق في بعض أشعارهم كابن الرومي وأبـي تمام والبحتري، أما الشاعر الغربـي فإنه يفتح أمام القارىء مغاليق نفسه ليريه ما أهاجه بها المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين ويجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتز في أعماق نفسه فملأ جوانبها بالأنغام وأهاج بها سواكن الأحلام، ثم هو إزاء ذلك إما أن يصف المنظر ويسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة، وإما أن يسكت عن المشهد تاركاً لمخيلة القارىء الحرية في تصوره وانتخاب المثل العليا إليه. وهذا هو علة ما نحسه من أن الصوت الغربـي أقوى دوياً وأبعد رنيناً من الصوت العربـي الخافت الضعيف لأن الصوت الغربـي هو لحنان مزدوجان في آن واحد لحن يتصل بأقصى قرار في النفس، ولحن متصل بجوهر الشـيء وصميمـه، أمـا الصـوت العـربـي فليـس مصـدره النفـس ولا جوهر الشيء ولكن مصدره الشكل واللون والوضع، وشتان بين القشرة واللباب!.

145 ـ والشاعر العربـي إذا ما أراد أن يبسط فكرة من أفكاره ألقاها في بيت فَرْدٍ أو في جملة واحدة إن استطاع، ثم انهل بوابل من الأفكار المتتابعة بحيث تكون القصيدة كحدائق الحيوان فيها من كل لون وصنف أو كالأرض المقدسة التي يحشر فيها الناس من كل أوب وصوب ومن كل فئة وقبيل، وتكون الأفكار منبثة في صعيد واحد، متماسكة بعضها من الرؤوس والبعض الآخر من الأذناب، كما في معلقة طرفة وزهير ومجمهرة عدي بن زيد ولامية الطغرائي وكثير من قصائد المتنبـي وغيره من شعراء العربية.

146 ـ أما الشاعر الغربـي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي حركت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ثم لا يلقيها كما يلقي الحجر الصلد عارياً جامداً، أو كما يلقي الأساتيذ تعاليمهم ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال.

147 ـ ولكي يتضح الفرق بين الطريق العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها فإنني أريد أن آخذ قصيدة ابن زريق البغدادي وتناولها بطريقة تحليلية موجزة وأقابل بينها وبين قطع أخرى للشاعر الإسكوتلندي (أسيان) يقول ابن زريق في أول قصيدته:

لا تعـذليـه فـإن العـذل يـولعـه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

148 ـ ثم ينصرف فيها واصفاً بؤسه وشقاءه وما عالجه من مغالبة الدهر ومصارعة بأساء الزمن وتجشم الاغتراب حتى كأنه (موكل بفضاء الله يذرعه) ثم يتخلص إلى بسط فلسفة القناعة البائسة التي هي لون هادىء من ألوان اليأس وصوت خافت من أصوات القنوط فيقول: إن من العبث الاسترسال مع المطامع الشرهة والأقدار قد قسمت حظوظ البشر. وإن من (البغي الذي تخشى مصارعه) حرصك في طلب الرزق وأنت تعلم أن الأرزاق قد ذهبت في الناس حظوظاً. وهذا التخلص إلى تلك الفلسفة طبيعي لا تكلف فيه طبيعي ممن كان كابن زريق تجشم ما تجشم وراء بغية يود أن يسعد بها حبه وقلبه فيتذوق لذة العيش وعذوبة الحياة، ثم عاقته الأقدار وأحبطت سعيه سخرية الدهر. لأن من كان مثله لا بد أن ينهج أحد سبيلين: هذا اليأس الخانع الذي يتظاهر بالطمأنينة والخضوع، أو ذلك اليأس الجامح الذي ينفجر في ثورة قاصفة وتمرد عنيف يعصفان بكل شيء ولا يلويان على شيء.

149 ـ وليس هذا ما أريد الوقوف عليه من قصيدة ابن زريق ولكن غرضي وراء ذلك. غرضي هو وصفه ليوم الوداع وما وراءه من حسرات دامية ومشاعر باكية تتوجع، غرضي هو تلك العواطف التي تتفجر في جوانب القصيدة متألمة متبرمة شاكية، تلك العواطف المشبوبة بنار الألم وذلك الأسلوب الذي يكسوها هو الذي أريد أن نتعرف منهما مقدار الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الغربية، وبعد أن

بسط ابن زريق فلسفته القانعة قال:

استودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ، من فلك الأزرار مطلعه
ودعتـه، وبـودي لـو يـودعنـي ... صفـو الحيـاة وأنـي لا أودعـه
وكـم تشفـع بـي أن لاأفـارقـه ... وللضـرورات حـال لا تشفعـه
وكم تشبث بي يوم الرحيل، ضحى ... وادمعـي مستهـلات وادمعـه

150 ـ بمثل هاته البساطة يستعيد ابن زريق تلك الذكرى الإلهية النائية التي هي كل ما بقي له من ماضيه الجميل! وبمثل هذا الهدوء الفاتر يتلو ابن زريق أول صفحة من مأساة الحب، ويصف أول طعنة في صميم الأمل! وبمثل هذه النفس المطمئنة يقص موقف الفراق بينه وبين من أحب دون أن تنفلت من قلبه أنة، أو تنسلخ من نفسه شعلة من شعل الألم؟ كأنه يقص قصة لم يتزعزع لها قلبه ولا تحطمت لها آماله وإنما هي قصة وقعت أرزاؤها على غيره وحلت ألواؤها بسواه لولا شيء من المرارة تحس به النفس يتمشى في أجزاء الأبيات. ولكن انظروا كيف يستعرض (أسيان) تلك الذكريات المتفجعة، ذكريات أمسه الذي تلقي فيه أمضى سهم من سهام القدر وتجرع أمر نطفة من نطف العيش، انظروا كيف يقول على لسان (ازمين) لما تذكر مصرع ولديه:

«هبـي يا رياح الخريف هبـي! واعصفي فوق سهول الخلنج العابسة، واصدمي أيتها العواصف رؤوس السنديان، وادوي يا سيول الغابة، وتقدم أيها القمر خلال الغيوم الممزقة، واحسر عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة، وأعد إلى ذاكرتي تلك الليلة المروعة ليلة دعا داعي الموت ولدي فسقط (ارندال) القوي وهلكت (دورا) العزيزة!»[1].

---

(1) أسيان (Ossian)
شخصية ميثولوجية أكثر مما هي تاريخية، يُعتقد أنه عاش في القرن الثالث للميلاد، =

151 ـ بمثل هاته الكلمات النارية المتضرمة التي يكاد يسمع من خلالها زفير القلوب وشهيق الأرواح البائسة يبدأ أسيان ذكريات، وبمثل تلك البساطة الهادئة يبدأ ابن زريق ذكرياته. وما أبعد الشقة بين الاثنين! فابن زريق لا يعطي إلى الإنسانية صورة صادقة من نفسه ولا لوناً واضحاً من شعوره، وأسيان يلقي إليها بكل ما في نفسه من عواطف وذكر، وبكل ما ثار حول ذكرياته من الأم، وبكل ما عج حول قلبه من غصص وأوجاع. وذلك هو الفارق بين النفسية الغربية والنفسية العربية فالعربي يوجز في الملاحظة ويوجز في البيان والغربي إن لاحظ أبى إلا أن يستقصي كل شيء، وإن حدث أبى إلا أن يعطي صورة من نفسه في أفراحها وأتراحها، وفي طهارتها ودعارتها، وفي يأسها وآمالها.

152 ـ ثم يذهب ابن زريق يبث أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام المزعجة، وكلما اطرد في القول خفت صوته حتى ينتهي نفس القصيدة في هذا الصوت الخافت الذي يعبث به اليأس والأمل والموت:

على الليالي التي ظنت بفرقتنا ... جسمين تجمعني يوماً وتجمعه
وأن تغل أحداً منا منيته ... لا بد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبداً هذا الفرق لنا ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

153 ـ فمن قرأ هذا المقطع الأخير شعر بالأسى يتمشى في أجزائه يحاول الانفجار، وبالعبرة الحارة تتخلج في أجفان الشاعر تتطلب الانحدار وبالزفرة الحارة تحتبس في صدر المكلوم دون أن تجد لها مخرجاً أو مناصاً. أما أسيان فإنه يقول في مثل هذا الموقف فتكاد تسمع من خلال قوله صعقات الحزن وآهات الأسى:

= جُمعت أشعار ونشرت منسوبة إليه في أواسط القرن الثامن عشر. اتخذ رمزاً للشعور القومي الأوربي.

«كلموني يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل، كلموني فإني لا أرتاع ولا أفزع. خبروني أين تلتمسون الراحة؟ أفي الغيران الموشحة والكهوف! أوافيكم فألاقيكم؟ حنانيك يا رب! لا يحمل الهواء إلى صوتاً ولا ترد العاصفة على جواباً، أنا وحدي في وسط الآلام. أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام! احفروا القبر يا أصدقاء الموتى، ولا تهيلوا التراب قبل أن تأتي (كلمي)!.

154 ـ مضت حياتي مضي الحلم، وسبق الذين أحبهم فلم أتأخر عنهم؟ هنا أريد الثواء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة!

155 ـ حينما يضرب الليل بجرانه على التلعة، وتهب الريح رخاء فوق الخلنج، تجدون هناك روحي مع الهواء تبكي الأحبة وترثيهم. فيسمعني الصائد في كوخه فيفزعه صوتي، ولكن لا يلبث أن يحبه، فإن صوتي سيكون عذباً رخيماً في رثاء الحبيبين، لقد كان كلاهما عزيزاً علي!»[1].

156 ـ وهكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متبسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام الليل وفوق أجنحة الرياح...

(1) (أخذنا هذه القطعة عن «قرتر» لجيته الذي ترجمه الأستاذ الزيات).

الروح العربية

طبيعتها الخاصة والعوامل التي كونت فيها ذلك الطبع والمؤثرات التي عملت على إبقائه في مختلف العصور

157 ـ لقد علمتم من كلماتنا السابقة، أن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، قد كان على وتيرة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حظ ولا نصيب. وأن الروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وصميم الحقائق، وإنما همها أن تنصرف إلى الشكل والوضع، واللون، والقالب، أو ما هو إلى ظواهر الأشياء أدنى من دخائلها، فهي لا تتحدث عن الطبيعة إلا بألوانها وأشكالها، ولا يهمها من المرأة إلا الجسد البادي. وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، وفي الأساطير لا تعبر عن فكر سام وخيال فياض، وإنما هي أوهام لائثة وأنصاب جامدة.

158 ـ كل هذا قد علمتموه من قبل حينما عرضت في شيء من التحليل والإطناب والاستقراء، أما الذي يهمني الآن بعد أن علمتم أن كل ما أنتجه العقل العربي كان مطبوعاً على غرار واحد، ومصطبغاً بصبغة واحدة، فهو أن نعرف طبع الروح العربية التي صقلت منتجاتها هذا الصقال وأرسلت عليها من هذا اللون الذي عرفتموه، وأن نعرف العوامل التي عملت على خلقها هذا الخلق الذي وسم كل ما جاءت به قريحتها بوسم خاص.

159 ـ وإذن فما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

160 ـ الروح العربية خطابية مشتعلة، لا تعرف الأناة في الفكر فضلاً عن الاستغراق فيه، ومادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال إلى أبعد شوط وأقصى مدى، ومن هاتين النزعتين ـ الخطابة والمادية ـ اللتين ذهبتا بها في الحياة مذهباً خاصاً كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى تغادرها إلى أخرى من زهور الربيع، ولذلك فهي أبداً منتقلة، وهي أبداً حائمة، تلك هي الروح العربية، وذلك هو طبعها وأن فيما رأيتم من آثارها العقلية لصداقاً لما قلته.

161 ـ وقد كان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكة الخيال الشعري في النفسية العربية حتى كانت آثارها على ما رأيتم، لأن الخيال مصدره الشعور، فما كان الشعور دقيقاً عميقاً إلا وكان الخيال فياضاً قوياً، ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندوراً. لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرة البسيطة والإلمامة القانعة. ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهادي والنظرة الطويلة المتدبرة والإحاطة الشاملة المتقصية ولهذا كان الخطباء المصاقع والفصحاء المصاليت قلما يجتمع لهم مع اللسن وشدة العارضة قوة الفكر وسمو الخيال.

162 ـ وقد كان لهاتين النزعتين آثار أخرى في آراء العرب وأذواقهم منها أنهم كانوا لا ينظرون إلى الشاعر كما ننظر نحن له الآن من أنه رسول الحياة لأبنائها الضائعين بين مسالك الدهر، بل كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب من أنه حامي ذمار القبيلة، والمناضل عن أعراضها بلسانه، والمستفز لنخوة الحمية في أبنائها حينما تأزف الآزفة ويجد الجد، إلا أن الشاعر ينظم خطبته والآخر ينثرها نثراً. حتى إنهم لما جعلوا لشعرائهم أرواحاً تملي عليهم الشعر،

لم يجعلوا تلك الأرواح ملائكة أو آلهة، تسمعهم الوحي وتملأ قلوبهم بالأناشيد الخالدة. . كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاغة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيباً ينظم ما يقول. وقد تأثر الشعر العربي بهذا الفهم الذي كان يفهمه العرب من الشاعر فكان فيه شيء كثير من الخطابة المنظومة.

163 ـ ولو استقرأ الباحث الأدب العربي وبالأخص الأدب الجاهلي والأموي، لعلم أن فيه كثيراً من هاته القصائد التي لو فكت من قيود الشعر وأصفاد القريض لكانت خطباً رائعة لا ينقصها شيء من روح الخطابة وطابعها، وماذا يكون غير الخطابة في معلقة عمرو بن كلثوم ومجمهرة بشر بن حازم وأمية ابن أبي الصلب وخداش، وملحمة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي؟

164 ـ ولو شئت أن آتي بأمثلة كثيرة من الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطب إلا في الوزن والقافية لامتد نفس القول ولضاق المحال ولكني سأكتفي بقصيدة واحدة تدلكم على مبلغ تأثر الشعر العربي بالخطابة.

165 ـ وهاته القصيدة هي قصيدة الحارث بن عباد[1] التي قالها لما قتل المهلهل ابنه بحيرا وقال له: (بؤ بشسع نعل كليب) يستفز الحمية في قومه لخوض غمرات الحروب بعد أن اعتزلها إيثاراً للسلام وحقن الدماء، يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أمه أن تطيل عليه النحيب:

---

(1) (هو سيد من سادات العرب وفرسانهم، ولما قتل المهلهل ابنه في حرب البسوس، جز ناصية فرسه (النعامة) وقطع ذنبها، وحلف أن لا يكف عن الحرب، حتى تكلمه الأرض فلما أسرف في القتل حفروا سرباً في الأرض وأمروا رجلاً أن يكلمه من داخله، وبذلك كف عن الحرب).

لهف نفسي على بحير إذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضال
يا بحير الخيرات! لا صلح، حتى ... نملا البيد من رؤوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها ... حتى تسقي الدما صدور العوالي
أصبحت وائل تعج من الحر ... ب عجيج الجمال بالأثقال
لم أكن من جناتها علم اللـ ... ـه، وإني لحرها اليوم صالي
قد تجنبت وائلا، كي يفيقوا، ... فابت تغلب علي اعتزالي
واشابوا ذؤابتي ببحيرا ... قتلوه ظلماً بغير قتالي
فقتلوه بشسع نعل كليب!!، ... إن قتل الكريم بالشسع غال
يا بني تغلب! خذوا الحذر! إنا ... قد شربنا بكاس موت زلال
يا بني تغلب قتلتم قتيلاً ... ما سمعنا بمثله في الخوالي
قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة مني ... جد نوح النساء بالأعوال
قربا مربط النعامة مني ... شاب رأسي وأنكرتني القوالي
قربا مربط النعامة مني ... لا نبيع الرجال بيع النعال. . .
قرباها، وقرباً لأمتي در ... عاً دلاصاً ترد حد النبال
قرباها بمرهفات حداد ... لقراع الأبطال يوم النزال
رب جيش، لقيته، يمطر المـ ... ـوت، على هيكل خفيف الجلال[1]

166 ـ صوروا لأنفسكم أيها السادة بدوياً موثوراً يدوي صوته بين قومه بمثل هاته القطعة النارية الملتهبة: يبكي فتاه ويأمر أمه أن تبكي، ثم يستعيد أمام قومه صورة من بسالة القتيل، ويتلهف عليه ليستثير فيهم الحمية إلى الحرب، ثم يقول إنه لم يكن خائضاً لظاها لولا ظلم تغلب، ليظهر براءته لدى قومه وأنه منصف محق في الثأر لابنه والانتقام له، ثم يصرخ فيهم هاته الصرخات الهائلة، يظهر

(1) (وائل قبيلة من قبائل العرب).

لهم تغلب بمظهر الباغي الغشوم، وأنهم إن سكتوا حملوا سبة الدهر وذلة الأبد:

قتلـوه بشسـع نعـل كليـب! إن قتـل الكـريـم بـالشسـع غـال

167 ـ فأي نفس لا تهب؟ وأي قلب لا يستجيش؟ وأي صدر لا تزخر به نخوة العز، وسورة الأحقاد القديمة؟ حتى إذا ما استيقن من صبوة قومه إلى الحرب هدد تغلباً وافتخر بقومه ليؤجج فيهم نيران الحماس وينفخ في قلوبهم من روح البطولة ثم صاح قائلاً:

قـربـا مـربـط النعـامـة منـي لقحـت حـرب وائـل عـن حيـال

168 ـ وماذا يقول بعد ذلك وقد أيقظ في أنفسهم حميتها الخامدة فاندفعت عارمة طاغية تعصف بكل شيء. وظل يردد هاته الكلمة متحسراً آناً، ومستبسلاً آخر، ومتفجعاً مرة، ومهيباً بقومه أخرى وعلى صوته تتناوب النبرات المختلفة: فمن رنة الحزن إلى صيحة الانتقام، ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، حتى إذا لعب بألباب قومه واستثار مشاعرهم، فأصبحت مسحورة تنتظر أمره لعبت بعطفيه نخوة العز، وهاجت بنفسه عوامل الفخر المتأصل في الطبع العربـي الصميم، فنسي الحزن والدموع وانقلب إلى فارس فاتك يلهج بباسه:

رب جيـش لقيتـه يمطـر المـو ت علـى هيكـل خفيـف الجـلال

169 ـ ثم نهض بقومه إلى موقف الحرب يرتل لهم أغاني المجد القديم ويعبد على مسامعهم أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرامة، وبكرا واسـألـوا مـذحجـاً، وحـي هـلال
إذا أتـونـا بعسكـر، ذي زهـاء مفكهـر الأذى، شـديـد الصيـال
فقـرينـاه حيـن رام قـرانـاً كل ماضي الذباب عضب الصقال

170 ـ أليست هاته القصة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مفوه عليهم

بأفواه النفوس؟ ألا تذكركم هاته القصيدة النارية بتلك الخطبة التي ألقاها (أنطونيوس) على شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيصر، فامتلك أهواءهم وأصبح يصرفها كيف شاء وأنى أراد، فإذا هم مظاهرون له بعد أن كانوا متألبين عليه؟.

171 ـ ومن هاته الآثار التي أثرتها النزعة الخطابية كثرة المترادفات في اللغة العربية كثرة هائلة، وما ذلك إلا لأن الخطابة تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر ولا بد للفصاحة من مورد غزير تستمد منه جمال القول وبراعة الأسلوب، ومنها ميل العرب إلى الإيجاز ميلاً قوياً حتى إنهم ليعدونه روح البلاغة، وليس ببعيد عنا خبر ذلك البدوي الذي وقف على خطيب لا يحضرني اسمه وكان مدلاً بقوله، فسأله ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز. فقال: وما الحصر؟ قال: ما أنت فيه منذ اليوم، وما ذلك إلا لأن طبيعة العرب الخطابة والخطابة منشؤها حدة الطبع ومن كان حاد الطبع فإنه لا صبر له على الإطناب والإسهاب لأن الطبع الحاد متسرع عجول. عجول في حكمه، عجول في فعله عجول في قوله أيضاً، ولا يلائم هاته السرعة النفسية إلا السرعة في أداء المعاني على أخصر أسلوب، وذلك هو الإيجاز. وهاته النزعة الخطابية التي تؤثر الإيجاز وتميل إليه هي التي فرضت في الشعر العربي (وحدة البيت) فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي وإنما هي كون صغير تحشر فيه الأفكار حشراً وترص فيه المعاني رصاً.

172 ـ ثم إن هذا الطابع الذي انطبعت عليه الروح العربية وآدابها وأذواقها الروحية وليس للعرب به يدان، بل إن ذلك كل ما يمكن أن ينتظر من أمة عاشت على ذلك النحو الخاص من المعيشة وفي تلك القطعة الخاصة من الأرض فقد نشأ العرب في رقة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها

سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، حتى كأنما حقت عليها لعنة الحياة الناقمة، وحل عليها سخط الأبد الرهيب!!

173 ـ شب العرب تحت سماء ضاحية صاحية، لا يحجبها سحاب مركوم، ولا يسترها ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة، التي لا يعرف الطرف لها حداً، تضرب في مناكبها سمائم القيظ وأرواح الرياح، مروعة تائهة شاحبة كأرواح ضائعة في آباد الجحيم.. فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة، ومن طبيعة الأرض القاحلة الجدوب، هذا النحو من الحياة الذي عاشوا عليه، هذا النحو الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام، ولا يفقه دعة الحياة الآمنة المطمئنة، ولا غبطة العيش الرخية الحالمة، وإنما هو ثورة جامحة كالرياح، ظامئة كالهواجر، متضرمة كشمس الظهيرة، لا ترتوي ولا تشبع، ولا تسكن إلى الراحة، ولا تخلد إلى السكون.

174 ـ وكيف يستمرئون لذة الأمن الوادعة، وقد طوحت بهم يد القدر في تلك الأرض الشحيحة الممسكة التي لا يجدون فيها ما يدفع غائلة الجوع ويصد عن إضرام الحروب؟ وما الذي يشغلهم عن إسعار الحروب وهم مخلدون إلى البطالة في أكثر الفصول. وكان لهم من صحو السماء، ووقدة الصحراء، ولفح الهواجر، صفاء في النفس، وتلهب في الطبع، وحدة في المزاج.

175 ـ وكان لهم من تلك الحياة النابية القلقة، ومن هذا المزاج المشتعل والطبع الموثب، ومن هاته النفس الصاحية المشرقة، كان لهم من كل ذلك تلك الروح الخطابية الثائرة التي تعصف بكل شيء ولا تلوي على شيء، فإنه متى اجتمع للنفس صفاء القريحة وحدة الطبع ونبو الحياة كانت خطابية ولا ريب، لأن الحياة الثائرة تجعل هم

الناس في ألسنتهم، لأن الكل يود قود الجموع بلسانه وخوض المعامع بسيفه والطبع الحاد يجعل الكلام يندفع من أقاصي النفس اندفاعاً متسقاً متوازناً، وصفاء القريحة يعين على تخير الكلمات، وهل الخطابة في الحقيقة إلا اندفاعات منقطعة وحركات متباينة وألفاظ فخمة رائعة. وكذلك تكونت النزعة الخطابية في النفسية العربية بحكم الطبيعة وبمفعول الوسط، وكذلك كان الروح العربي خطابياً صميماً. أما المادية فقد تكونت في أنفسهم لأن العرب ـ كما سبق ـ لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبعية الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة الدؤوب التي لا تفتأ تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، أو يكسبهم تلك الطبيعة الساجية الوادعة التي تنصرف إلى ما حولها من جمال الوجود مفكرة ملتذة شاعرة. لم يكن لهم من ذلك شيء: لا تلك النزعة ولا هاته الطبيعة.

176 ـ إذ ذاك شأن أمة لبست من نضارة الحياة درعاً قشيباً وعاشت عيشة غضيرة خضلة. وتذوقت من بهجة الكون ورواء الوجود لذة شعرية صافية لم يرنقها قطوب الأرض ولا سهوم الفضاء. واكتسب من كل ذلك مزاجاً وادعاً مطمئناً ونفساً خيالية شاعرة، أما العرب فقد عرفتم لهم طبعاً متسرعاً عجولاً وأرضاً مغبرة كالحة لا يزالون يمشون في مناكبها عسى أن يجدوا مكاناً مخصباً تسوم فيه راعيتهم وتمرح فيه أطفالهم فإن وجدوه حسبوا أنفسهم سعداء!!

177 ـ وما أحسب أن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور، وأني له بمثل ذلك والطبع العجول يحتثه ولا يدعه يتريث في فكر أو عمل، والطبيعة الكالحة لا تحرك في نفسه المشاعرة ولا تحيي دفائن الإحساس وليت شعري! ما الذي يوقظ الحس وينبه طائر الخيال إن

لم يكن هو ذلك الجمال الفني الذي ينسدل على الكون وينسجم على ما بين السماء والأرض؟

178 ـ فقد رأيتم كيف تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطبائع الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

179 ـ ولكنكم حريون بعدئذ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي، إذ فيه وحده يمكن توفر هاته العلل والأسباب، أما العصر الأموي والعصر العباسي والعصر الأندلسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي ألقت على الروح العربية ذلك الرداء حيث قد تغيرت في مثل هاته العصور الأوساط الطبيعية والمعنوية التي عاش فيها العرب وألفوها. فما السبب إذن في أن الأدب العربي قد ظلت تسود عليه روح واحدة في جميع هاته العصور، وقد ظلت نظرته إلى الحياة هي النظرة الأولى البسيطة الساذجة التي لا تعلق بغير الظاهر المحسوس؟

180 ـ والجواب هو: أن هاته العصور الثلاثة قد أثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وإن لم تقو على رد مفعول الزمن في الأسلوب، فاختلفت بينها الأساليب اختلافاً بعيداً.

181 ـ العامل الأول: الوراثة، فقد كان العصر الأموي عصراً عربياً صراحاً في طبعه ومنزعه وشعوره، لم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض اختلاطاً كبيراً يدخل في نفسيتها عناصر أخرى غريبة عنها، ولا تبدل عليها الوسط الطبيعي الذي عاش فيه العرب الأولون، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي الذي ورثته عن آبائها الأقدمين، معتزة به لا تبغي عنه حولاً ولا ترضى غيره.

182 ـ وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجاهلية الأولى، لا

أثر للتجديد فيها إلا هذا الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبـي ربيعة من بين شعراء عصره أجمعين وإن كان جديراً أن يسمى توسعاً لا تجديداً لأن الشعر الجاهلي لم يخل من مثل هذا الفن خلواً تاماً ولكن ابن أبـي ربيعة قد بلغ فيه شأواً لم يصلوه. وإلا هذا الشعر السياسي الذي أدخله الزعماء إدخالاً وأوجدته حالة الأمة العربية في ذلك العصر الحافل بأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا النوع من الشعر أيضاً قد كان معروفاً في أدب الجاهلية ولكن باسم غير هذا الاسم الذي عرف به في العصر الأموي، ولغرض غير الذي يراد منه فيه، وأعني به ذلك النوع الذي يتمثل واضحاً جلياً في معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزه، هذا النوع الذي كان الشعراء يندفعون فيه اندفاعاً منشؤه تنازع القبائل لا على العرش والسلطان كما كان في أكثر المنازعات الشعرية في العصر الأمـوي، ولكن على الشهرة بين العرب بما يكسب الحمد ويجلب المجد.

183 ـ وظلت الأمة العربية محتفظة بميراثها المعنوي إلى أن جاء العصر العباسي فاختلطت الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض وامتزج الدم العربـي بغيره من الدماء الأخرى امتزاجاً عظيماً واستوطن كثير من الأعراب المدن والأمصار يتملون جمال هاته الحضارة الناشئة الجميلة فكان لهذا كله أثره في اختلاف الوسط الطبيعي ولون الحياة وفي المزاج العربـي الموروث وكان لهذا الأثر أن ظهرت في الأدب العربـي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا معرفة تكاد تكون منعدمة ولكن المزاج العربـي العتيد الذي لم يزل قوياً شاعراً بنفسه قد طبع هذا النوع الجديد من الأدب بطابعه الخاص وأسبغ عليه حلة ضافية من نزعته المادية فكان حسياً لا يتحدث إلا عن اللون والشكل وما إليها إلا شيئاً قليلاً ضئيل الأثر حاول أن ينظر إلى الطبيعة نظرة قوية نافذة.

184 ـ وأما الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربـي الذي أورثه إياه العرب

كما تأثر الأدب الأموي والعباسي من بعده ولكنه كان يكون لنفسه مزاجاً خاصاً لولا حكم القدر، فإن العرب لما ذهبوا إلى الأندلس مع طارق بن زياد وفتحوها أعجبتهم تلك الأرض الجميلة المخصبة فاستوطنها كثير منهم وظلوا يتقاطرون عليها يحملون معهم أمزجتهم العربية وميراثهم الروحي الصميم الذي عملت في تكوينه العصور والأجيال إلى أن أصبحوا هناك شعباً كثيراً قوياً له عاداته وأخلاقه وطباعه، وله ما للعربي القديم من أنفة وعزة نفس وحدة طبع وادعاء عريق، وله ما للعربي القديم من تغن بمجد أسلافه وتمدح بمفاخر آبائه، حتى إن عبد الرحمان الداخل لما يمم الأندلس ألقى الحمية العربية مشبوبة بين تلك القبائل وألفى النعرة القديمة التي نبهتها حوادث العصر الأموي تكاد تندلع عن فتنة شعواء بين اليمانية والمضرية حتى إنهم كانوا يتبادلون الولاية كل عام لقبيلة! وكان هذا الشعب العربي النازح الذي بيده مقاليد الأمور ينظم الشعر بتلك الطبيعة العربية التي تنفخ فيه من روح العرب فتجعله عربياً لا فرق بينه وبين الشعر العربي في الشرق من حيث الروح والنزعة بل وحتى الأسلوب، ولكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي امتزاجاً شديداً، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذه اللغة العربية أداة للتعبير عن ذات نفسه من شعر ونثر وحديث، واختلاف بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض كل هذه الأسباب قد عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطابع تلك الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح أنيقاً رشيقاً يحاكي هواء الأندلس لطفاً ورقة، ولكن الروح الشعري قد ظل بادىء بدء كما عهدناه في جزيرة العرب ولما طال الزمن على الأمة العربية في ذلك البلد وتأثرت بروح الأمة الأندلسية وضعف فيها المزاج العربي الموروث إذ ذاك أحست الأمة الأندلسية إحساساً غامضاً بالحاجة إلى التعبير

عن روحها الأصلية التي تستوحي من طبيعة الأندلس وتمتاح من نهر الحياة الأندلسية، وأحس الشعراء بظمإ داخلي في أنفسهم إلى تعرف منابع جديدة للشعر، فجدوا في البحث ودأبوا في الطلب ولكنهم لم يوفقوا في بحثهم، فلم يعثروا على المنبع الحقيقي الذي يتندى ماؤه على الكبد الظامئة، ذلك لأنهم بحثوا عن منابع الشعر في قشور الحياة وأزيائها وفتشوا عن حقيقة النفس في فنون الكلام فجددوا في الأوزان ولم يجددوا في الروح وتفننوا في الأساليب ولم يتفننوا في الجوهر واللبان، ولو لم يعجلهم القدر المتاح لظفروا بما تشوفت إليه أرواحهم، ولكن في الأدب العربي نوع قوي عميق لا عهد للأدب العربي بمثله، ولكن جف القلم بما هو كائن، وأخمد القضاء ذلك اللجوج.

185 ـ العامل الثاني: ما كان يفهم من الأدب عند نقدة الإسلام فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته التي ينبغي أن يفهم عليها من أنه صوت الحياة الذي يهب الإنسانية العزاء والأمل ويرافقها في رحلة الحياة المملة المضنية المتعسفة في صحراء الزمن، وأنه المعزف الحساس الذي توقع عليه البشرية مراثيها الباكية في ظلمة الليل وأناشيدها الفرحة في نور النهار، وإنما كانوا يفهمون منه فهماً معكوساً يختلفون في تأويله ويتفقون على مدلوله. فهم يتفقون على أنه لا يقصد لنفسه كفن جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزعاته ولكنهم يختلفون في الغرض من استعماله أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد كانوا ينظرون إلى الأدب كوسيلة من وسائل الدين لأنهم كانوا لا يمارسونه ويدرسونه إلا ليتفهموا به غريب القرآن والسنة وهذا الفهم الذي فهموا به الأدب قد جعلهم لا يفهمون من الأدب إلا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب ليس وراءها روح ولا فكر، وهو الذي جعلهم يعتقدون أن الأدب الجاهلي هو من خير المنتخبات العقلية التي عرفها العالم كأن

العرب هم كل ما برأ الله من قرائح وعقول. وقد لج بهم هذا الفكر حتى تعصبوا للأدب الجاهلي وازدروا ما أنتجه الذهن الإسلامي وحسبكم دليلاً ما ذكره الأصمعي من أنه جلس بمجلس عمرو بن العلاء ثماني حجج ما سمعه استدل ببيت إسلامي قط. فكان إذا سئل عن ذلك أجاب: «ما كان من حسن فقد سبقوا إليه. وما كان من قبيح فمن عندهم، ليس النمط واحداً. ترى قطعة من الديباج وقطعة مسح وقطعة نطع» ولماذا هذا؟ لأن الشعر الجاهلي أمتن أو أغرب؟ كلا فإن في شعر الأخطل والفرزدق ما فيه من متانة وجزالة وفي رجز العجاج ورؤبة من الغرابة ما يعجز عنه شعراء الجاهلية. ولكن لأن الشعر الجاهلي هو الذي يثقون بما فيه من لغة يتخذون منها مادة صالحة لتفسير القرآن وشرح الحديث ومعرفة ما فيهما من بلاغة وإعجاز.

186 ـ وعلى هذه الفكرة الدينية في فهم الأدب، هذه الفكرة التي لا تفهم منه إلا أنه ألفاظ فخمة جاهلية بنوا لهم منطقاً خاصاً غريباً لا يخلو من شذوذ، وهو أن الخير كل الخير ـ إذا أراد الشعراء أن ينظموا الشعر! ـ هو أن يتابعوا العرب في الطريقة التي ساروا عليها في شعرهم من بدء القصائد بالنسيب والتشبيب ووصف ترحلها وآثارها الباقية من دمنة مسودة ونوى جفيف، أو وتد ضروب وخباء منصوب وماشية راعية وإبل راغية حتى ولو كان الشاعر من سكان الحواضر الذين لا يعرفون البادية ولا يفقهون الخباء! وحتى ولو كان شيخاً متهدماً لا يخفق قلبه بالحب ولا تطربه نغمات الغزل، ومن التوسل إلى المدح بامتطاء الإبل الظوامر وقطع الفلوات والمترامية وخوض الموامي القاحلة التي يرقص في أطرافها الآل ويلتمع السراب، حتى ولو كان سميراً من سمار الملك الذين لم يتجشموا لرؤيته غير قطع شارع أو منعرج! ولم لا يكون ذلك خيراً ولم لا يكون واجباً؟

187 ـ أليس امرؤ القيس قد كان لا يبدأ القصيدة إلا بالتحدث عن محبوبته أليس النابغة أو الأعشى قد كان لا يمدح الملك إلا بعد أن يصف ما اعترضه في سبيله من الفلوات المقفرة التي جابها بأعمال المطايا؟ كأنهم يحسبون ـ سامحهم الله ـ أن مجرد كون امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية قد قال الشعر على نحو خاص يلائم طبعه وحياته يلزم الشعراء من بعده باتباعه واقتفاء خطاه وبأن لا يخرجوا على ما سنه لهم أميرهم الظليل من قانون وشرع. ألا ساء ما يحكمون!

188 ـ وهذا المذهب اللفظي أو الديني في فهم الأدب هو الذي كان أبو نواس يندد عليه متبرماً ساخراً فيقول:

راح الشقي إلى دار يسائلها ... ورحت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... ثكلت أمك قل لي من بنو أسد
ومن تميم؟ ومن بكر سقوا مهلاً ... ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد!

ويقول:

لا تبك رسماً بجانب السند ... ولا تجد بالدموع للجدد
ولا تعرج على حمى عرج ... والنوء كالحوض بالملا الجلد
وعد عنها إلى دساكركم ... تربط بها خيمة إلى وتد

189 ـ ولكنه بالرغم عن ذلك كان كثيراً ما يسترضي أنصار هذا المذهب لكي يقبلوا على قصائده ويروونها فيتبع ذلك المذهب الذي يطربون له فيبكي الربع وينعي الأحبة ويصف الناقة والمفازة وهو لم يغادر بغداده كما فعل في قصيدته:

اربع البلا! إن الخشوع لباد ... عليك وإني لم أخنك ودادي

190 ـ وأما الطائفة الثانية من النقدة فهي سليلة الأولى وربيبتها وقد كان

رأيها في الأدب أنه وسيلة من وسائل اللهو وتزجية الفراغ، وعلى عهد هؤلاء انتشرت تلك الأفكار المسمومة، التي لا تفهم من الشعر إلا إنه نوع من أنواع الشحاذة المنظمة وضرب من ضروب الاستجداء لا غير، والتي تجأر بكل قحة ورقاعة أن أعذب الشعر أكذبه ومن أيمة هاته الطائفة ـ بكل الأسف ـ وطنيناً ابن رشيق، فقد كان يصرح بمثل هاته الآراء في غير موضع من مواضع العمدة. وكان من آثار هاتين الطائفتين في الأدب العربي أن أصبح لا يعنى فيه إلا باللفظ وما مت إليه من مجاز واستعارة وجناس ومقابلة، وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته المعنوية، إذ انصرف الشعراء إلى تمويه الألفاظ وتنويقها، وتجديد الأساليب المتباينة دون أن يجدوا شيئاً في جوهر الشعر وروحه، بل ظل كما عهده العرب في الروح والفكر والخيال. وإن كان الشعر العربي كذباً أكثره. وكيف لا يكون كذلك وقد أصبح من الفرض على الشاعر أن يستهل القصيدة بالغزل والنسيب عند إرادة المدح وأن يصرف همه في المدح إلى المبالغات الكاذبة والإطراء البغيض؟

191 ـ العامل الثالث: عدم اطلاع العرب في جميع العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى، فإن العرب بالرغم عن أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية ما أحدث الأثر الجميل في الذهن العربي لم يترجموا من آداب الأمم الأخرى ما يحدث انقلاباً في الروح العربي، فهم قد ترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها، أما آداب اليونان والرومان فإنهم لم يترجموا منها شيئاً، واحسب أنهم لم يترجموا هاته الآداب لما فيها من النزعة الوثنية ولكن هذا لا يمنع الشك والتساؤل، فما لهم لم يترجموا أدب فارس والهند وقد ترجموا حكمتها واطلعوا عليها؟ هذا سؤال لم يجب عليه التاريخ. وما أخال السبب في ذلك إلا الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدبهم يحسبونه أنه هو كل شيء في العالم فلم يجدوا حاجة

تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى وظل المثل الأعلى الذي تحتذيه العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

192 ـ فكان لعدم اطلاع العرب على آداب الأمم الأخرى أثر كبير في إبقاء الروح الشعرية العربية على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقدة في جميع العصور. وعلاوة على ما حمل التاريخ هاته الأمم والشعوب من ذلك الميراث الروحي الذي خلفه العرب لأحفادهم.

193 ـ وقد تآلفت هاته العوامل الثلاثة على إبقاء ذلك المزاج العربي الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

الفهرس

تنبيه 5
مقدمة: الخيال الشعري والبحث عن الذات 7
إضاءة 43
الإهداء 45
كلمة المؤلف 47
مقدمة زين العابدين السنوسي 49
الخيال 55
الخيال الشعري والأساطير العربية 66
الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي 75
الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي 94
الخيال الشعري والقصة في رأي الأدب العربي 112
فكرة عامة عن الأدب العربي 120
الروح العربي 123

مذكرات

أبو القاسم الشابي

مذكرات

إعداد وتقديم
الدكتور كمال عمران

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود
البابطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994

© جميع الحقوق محفوظة
لدار المغرب العربي ـ تونس

تقديم

1 ـ المذكرات وأغاني الحياة

في المذكرات مادة خام تستدعي إلى الذهن شعر الشابي في أغاني الحياة ويتسنى أن نقف على هذه الصلة من نواح متعددة اقتصرنا على مستويين فيها، مستوى المعجم ومستوى الصور:

أ ـ مستوى المعجم: نحت الشابي معجمه في المذكرات من المعدن الذي نهل منه في شعره وهو ينوس نوسانا متواصلاً بين الطبيعة والوجود البكر. تحتضن الطبيعة كل عناصر الجمال الحسي والذهني التي رسمها الشابي. فهي ترسم لوحات بلغة نثرية مترجمة بأحاسيس تنبعث من الأعماق، وهي مستوية في المذكرات على نحو لا يخضع للأحداث والوقائع التي يدوّنها كل صاحب يوميات، إنها على غير المألوف عند الشابي، تنبجس من وجدانه فهي تنهض على اختيار دقيق وعلى انتقاء يجاري المشاعر ولا يساير العقل. فالمعجم يلاحق ما يُطرب ولا يركن إلى تدوين ما يُعقل. ونحن نعتبر هذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تعلو بأبي القاسم على فنّ كتابة المذكرات وتخترق ما يقيّد من ربط وثيق بين زمن الأحداث وزمن الكتابة. إنها عند

الشابي قائمة على شرخ هو المعلن باندساس مذكراته في الكتابة الإبداعية. فهي لا تسجّل ولا تدقق إنها تنشىء إنشاءً وتبدع إبداعاً لا يكسر النسق السائد ويتخطّى الاستنان بمن ـ من الأدباء ـ أسهم في كتابة المذكرات، ليمخر عباباً كان فيه مؤسساً لأنّه جاس خلال اليوميات بلغة إبداعية ليست الشعر المألوف ولكنّها ترشح وظيفة شعرية. أليس حرياً أن نقول إنّ لأبي القاسم في المذكرات طريقة مخصوصة به إذ هي تنبع من نفس حرَّى تنظر إلى الحياة في كل عناصرها وأبعادها نظرة مزدوجة تميّز بين ظاهر زائف وباطن عميق. ولكنّ الباطن هو الأصل والجوهر وهو «الصميم» يكشف عن أبعاد الوجود. فمعجم الطبيعة معجم حمّال دلالات عميقة لا تصف المحيط ولا تقنع بالإطار إنها موقف منهما وتشكيل جديد لا يحيل على الواقع الماثل وعلى الحقيقة الجاثمة بقدر ما يفصح عن رؤيا وهي انعكاس للواقع كما يراه المبدع وكما يريده. فليست مذكرات الشابي إحاطة بالظروف التي كان عاشها في الفترة الزمانية التي دوّن فيها مذكراته، إنها تغوص فيها غوصا، ولكنّها تنسف كل أمارة فيها تحطّ في رحال الواقع المعيش وإن حطّت فإنها سرعان ما تتسلل لواذاً لتلهم بشعور عميق يندفق اندفاقاً من «قلب» الشابي.

معجم الطبيعة في المذكرات سليل المعجم ذاته في أغاني الحياة يتسع لأقطاب دلالية لا تختلف في المرجع ولا في السياق، وهي علامة تؤكد أن الشابي كان يعيش حياته بمقامات صوفية لم تتخذ الطريق إلى عالم الملكوت والجبروت وإنما سلكت إلى الحلول في الطبيعة حلولاً محضاً فأضحى الشاعر

يعيش حياته في ظل الغاب والجمال عيشاً لم يقتصر على لحظات المكاشفة يقظة ونوماً بل ارتضى لكل لحظات حياته عروجاً إلى الطبيعة أو انثيالاً في رحابها. وهو ما يؤكد إيماناً عميقاً بروح الطهارة ولكنها روح تبدو ضاربة في المقدس في حين أنّها متمكنة من الدنيوي ومن الإنساني تمكناً لا يُكْبَح إن قلنا إنّ الشابي لم يكن في شعره يصدر عن ذهنية أسطورية وعن حرص على الأسطوري حاد[1] فحسب بل إنه يخوض تجربة في سِنِيْ حياته خوضاً على هذا النحو لأنّه علم أنّ نوع الحياة التي كان يعيشها المجتمع التونسي نوع رتيب زائف يحتاج إلى أن يحرم في معدن الطبيعة حتى يغتسل من أدران السطحية والبهرج والسراب الخلب ليستوي في البشرية وليعرف المعراج إلى الأصل البكر. أليست المذكرات دليلاً ينطق عن وحدة الوجود التي بها آمن الشابي ولكنّه لم يحلق بها في متاهات ميتافيزيقية[2] بقدر ما التمس طهارة للإنسان في حياة لم تكن سوى مطية للموت والأجدر بالإنسان أن يعيش حياته عيشاً للجمال والفن[3]. أدى هذا الاعتقاد في «صميم الحياة»[4] إلى منهج في حياة الشابي

---

(1) انظر الفصل الذي عقده هشام الريفي ضمن كتاب: دراسات في الشعرية، الشابي نموذجاً. ص ص 223 ـ 328.

(2) وهو الموقف الذي أقره الاستاذ توفيق بكار: مشاركة في دراسة أبي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية عدد 2 سنة 1965. ص 135 ـ 231.

(3) وقس هذا الموقف إلى ما يقول الشابي في ديوانه: ص ص 123.

(4) انظر فصل حمادي صمود ضمن كتاب «دراسات في الشعرية» ص ص 9 ـ 53.

انعكست أبعاده في المذكرات وقد آثرنا أن نجملها في أقطاب دلالية اتخذنا من المعجم سبيلاً إليها. أول هذه الأقطاب جمال الطبيعة. فقد بدا الشابي في مذكراته حريصاً على الهدوء في الطبيعة ساعياً إلى الربط المتين بين الأحاسيس المرهفة وتجليات الطبيعة الصافية، فهو يؤثر الشمس[1] والخضرة[2] والمياه الجارية[3] ويلذه سكون الليل[4] وتمتلكه الأزهار والرياحين[5]. وهو يبغض تربد وجه السماء[6] واقتحام الريح أو العواصف على الربيع وانبساطه.

كل هذه الدلالات النابعة تعود إلى الدلالة الأصلية وهي اللوحة التي رسمتها المذكرات عن الطبيعة فكشفت عن جانب خطير هو التوق البديهي عند الشابي إلى الجمال والشوق العفوي إلى التماهي في الطبيعة تماهياً يهبه القوة على تحمّل أعباء الحياة ويغذّي فيه العزم على تجنّب لغو الحياة الرتيبة.

القطب الدلالي الثاني هو الغربة وهي أن انتثرت بالعبارة أو بالإشارة في كل المذكرات، فإنّها قد وضحت بشكل لافت في مذكرة يوم 7 جانفي 1930. وهي بين كل المذكرات الأخرى، كالقصيدة أو النشيد، عزف فيها الشابي على قيثارة الألم

---

(1) المذكرات، مذكرة يوم 3 جانفي 1993.
(2) نفسه، مذكرة يوم 1 جانفي 1993.
(3) نفسه، مذكرة يوم 4 جانفي 1993.
(4) نفسه، مذكرة يوم 1 جانفي 1993.
(5) نفسه، مذكرة يوم 4 جانفي 1993.
(6) نفسه، مذكرة يوم 3 جانفي 1993.

فاحتشدت الدوال من قبيل: الغربة، غريب، المعاناة، اليأس، الضباب، وفتحت الأقفال عن المدلولات الشاسعة وهي تلخّص في دائرتين، نواة الدائرة الأولى ألم الغربة، ونواة الدائرة الثانية أمل الغربة. النواة الأولى قذفت بأبي القاسم في دياجير الحسرة والتمزق النفسي والنواة الثانية ارتقت به إلى الأحلام والأشواق وهو ما يضيف ثنائية جديدة من الثنائيات التي عرف بها شعره، ولكنّ لهذه الثنائية تميّزاً لأنها انطلقت من منبت واحد ورضيت التردد بين قطبين له متقابلين يرسمان ثراء التجربة البشرية الأصيلة التي ملأ بها الشابي أغاني حياته، أليست التجربة الأثيلة نوسانا دائباً بين المتقابلات إذ هي تقع في الحضيض المحبط وتستشرف الآفاق البعيدة في آن. فالغربة عند الشابي، في شعره وفي مذكراته، غربة انبعاث متواصل.

القطب الدلالي الثالث هو الكتابة وهي وإن اتصلت بالغربة ومثلت عنصراً من عناصرها، شقت لها طريقاً في أغاني الحياة وأفصحت عن صورة شعرية ذات اتجاهين، اتجاه ينبجس عن أعماق الشاعر ويستنفر البواطن واتجاه يشرئب نحو فن الشعر فيحتل فيه منزلة المنبت والقاع. فالكآبة حالة نفسية بلا جدال ولكنها تعلو على الوضع المرَضي لتصبح طاقة على توليد الصور الشعرية وهي مركبة تركيباً يكافىء بين العودة إلى الصميم، صميم نفس الشاعر أو صميم الوجود الذي إليه يتوق أو يختار اختياراً فيوهم الشعر أو المذكرات بالألم الفظيع أو بالأمل المنسرح. إن في التقاء شعر الشابي بمذكراته، صورة عن السبيل التي أرادها لنفسه في الحياة، نثره كشعره، حالات المكاشفة

كحالات الحياة العادية، ظواهر تتعدد بل تتنافر وتتناقض ولكنّها تجد الطريق إلى الوحدة هي وحدة في «قلب» الأديب وقد كان هذا القلب رغم العلة، مرتعاً خصيباً يحمل دفقاً في الحياة عجيباً. إن الاضافة التي يمكن أن يقفو أثرها الباحث الممعن النظر في أدب الشابي، تتمثل في التقاء أجناس تعبير عنده وفي اتصال الحالات الشعورية. كل ذلك ينبىء بالإيمان الصارخ الذي كان الشابي يقيم به صرح الإبداع وعليه يبني أحلام الحياة الحقيقية[1].

فلا عجب أن توفر المذكرات أخباراً تتصل بالمكاشفات الشعرية فضلاً عن الأحوال الباطنية وعن أغوار النفس الحرى.

ولعل أبرز هذه المكاشفات ما صرح به أبو القاسم في مذكرة يوم 16 جانفي 1930 وهي توحي بظرف المكاشفة الشعرية وبالتهيؤ الذي يسعى إليه الشاعر حتى يولي شطره قبل الإبداع. إن للظرف دوراً خطيراً في الإلهام فهي عنده الطبيعة الحالمة (حديقة البلفدير) وهي عنده ترصد لمواطن العواطف وازدحام الخواطر، وإن للإلهام عنده صفة عجيبة إذ هو ينهال وثّاباً فتولد القصيدة أو الأبيات أو الأفكار المحيطة بها ولادة تعقب آلام وضع جديد. توفر المذكرات في هذا السياق ملامح العالم الشعري عند الشابي فهي على قلّتها مطية مهمة تنبىء بالمخاض وبالمراحل التي يمر بها حتى يستوي الشعر في نفس الشاعر.

---

(1) انظر ما يقوله الشابي بإيجاز مشط عن الكآبة، مذكرة يوم 14 جانفي 1930 ص 50.

وتعلن مذكرة يوم 28 جانفي 1930 مظهراً آخر من مظاهر المكاشفة تمثل في نظم الشعر في المنام. وهي حالة فريدة في المذكرات ولكنها لا تعدم الإحالة على صورة أخرى من صور الحياة التي ارتضاها الشابي لنفسه. إنّه في اليقظة كما في النوم، يترصد مواضع الجمال ويتهيّأ لفيض الخاطر وعصارة النفس حتى يقول الشعر. إن الجمال محيط به في كل حالات وجوده، سواء كان في حالة الوعي أو اللاوعي، في حالة الشعور أو اللاشعور، في حالة الألم أو الأمل، في عالم الوحدة والانفراد أو في عالم الحياة الاجتماعية الصاخب، فحياته حبّات من عقد الجمال المنتظم ونفسه ظمأى بها لوعة صادٍ أدرك أنّ للوجود كله سراً يحجبه الواقع الماثل.

ب ـ **الصور**: لم نفصل عند التعرض إلى المعجم بين الدال والمدلول، بين العبارة والإشارة، بين منبت التصوير ومادته. ولكننا نريد أن نؤكد أمراً في الصورة عند الشابي يتحاشى العناصر التي بها تتبلور وتثبت ويتجه إلى المدرسة التي إليها ينتمي. فقد ترددت في المذكرات عبارات جامعة أقرّت، عند أصحاب الشابي أو عند من له بهم صلة، انتماء إلى الرمزية[1]، اللافت في هذا السياق موقف الشابي من هذه القراءة ومن هذا الانتماء. فعلى قدر اطمئنان الأصحاب أو المحاورين إلى الرمزية في أغاني الحياة، ينكشف موقف لأبي القاسم ظاهره أنّه لا يعبأ بالمدارس وحقيقته سكوت عن انتماء لا يرضي فيه

(1) انظر مذكرة يوم 7 جانفي 1930.

عقيدة راسخة في الرومنطيقية[1] وهي بعيدة عن طلاسم الرمزية، نائية عن غياهب الغموض المسفّ، هادية إلى أعماق الذات مرشدة إلى أغوار الوجود مفصحة عن الأحلام. فليست الرومنطيقية لبساً إنّها عمق، وليست هي ـ عند الشابي ـ الإبهام إنّها معاناة. وكل الصور التي رسمها أبو القاسم في المذكرات تحيل على أغاني الحياة وترفع عن مواضع منها بعض الغموض إذا فهمنا الغموض على أنّه مكابدة.

لئن لم تكن الصور عند الشابي في أغاني الحياة نمطية جارية على السَّنَن وعلى العمود والعيار، ولئن انعتق شعره، كما فعل من قبله الرومنطيقيون ـ من قبيل على محمود طه ـ أو حاولوا واجتهدوا، عن شياطين بني عبقر وعرج إلى الملاك فينوس (Venus) فإنه في المذكرات يسبر غوراً في هذا الاتجاه ويؤكد إسلام نفسه إلى عالم الجمال بشكل صوفي أخّاذ ليس هو كما أسلفنا قتلاً للناسوت إنه تحرير للإنسان من الزيف والأباطيل وإسراع صادق ملحمي إلى الجوهر الصعّاد في زمن بكر ينسف الميقات العادي وينفر من كل الأدران المتراكمة في الحياة الاجتماعية. إنّ الصور عند الشابي، سليلة «الحقيقة»[2] وليست الحقيقة عنده الواقع الجاثم إنّها تخييل مادته طهارة صادقة. فهو تحسين أو تقبيح من جهة الجوهر لا العرض، من ناحية الأصل لا الفرع، من زاوية الأيسي لا الليسي. عبّر عنها الشابي بطريقة شاعرية في مذكراته قال: «حينما أخذت أكتب لم أحسب أنّ

---

(1) نفسه.

(2) نفسه، مذكرة يوم 5 جانفي 1930.

الكتابة ستكون طويلة بهذا المقدار. وإنما هي المعاني والصور قد كانت تتابع نفسي آخذة برقاب بعضها»[1].

2 ـ الفردية والذاتية:

نميّز بين المصطلحين على أساس الصلة التي نتبينها بينهما وبين الإبداع الأدبي. أما الفردية ـ individualité ـ فهي الخصائص المتعلقة بالشخص والأحوال أو الأهواء أو المواقف التي تنحبس في إطار ضيّق يفهم بما للأديب الإنسان من مشاركة عادية في الحياة الاجتماعية. فهو قبل كل شيء إنسان يعيش حياته كما يعيشها أي إنسان، فله ميولاته وطموحاته. وإنّ الميزة التي لا تفارق الفردية هي الشكل العرضي الذي يحكمها. كل ما هو فردي موغل في الخصوصية ممعن في الاختيارات الضيقة الآنية المشبعة بالأعراض. فالفردية لحظة تنقضي بإنقضاء الحدث أو الحال أو الوضع. يمكن أن نقول أن الفردية عنصر خطير من عناصر التمييز بين الناس.

وأما الذاتية ـ Subjectivité ـ فهي أرسخ في ذات الإنسان والذات هي بالمعنى الفلسفي القديم الجوهر[2] وهي تقابل العرض. فالذاتية قوام الاشتراك بين الناس وهي تعلو على الفردية بهذا الاشتراك الذي يجعل الأدب وسيلة اتّصال ناجعة بين الإنسان والإنسان لأنّها تنطلق من «الأنا» إلى «الأنت»، إلى «نحن». الأنا هي ذات الأديب الباحث والأنت ذات المتلقي

---

(1) نفسه، مذكرة يوم 3 جانفي 1930.

(2) انظر الجرجاني، التعريفات ص 92 ـ 93.

والنحن هي الجمع بينهما على أساس أن الأدب الحق هو الذي يصل به المبدع نفسه بكل النفوس وبكل المجتمعات وعصره بكل العصور. أليست الذاتية عتبة الموضوعية بل أليست الذاتية مزرعة للموضوعية[1].

يبدو جنس المذكرات أقرب إلى الفردية وبها ألصق لما بينهما من جوار وتلازم والأديب يبدع إبداعاً في أجناس الخلق والإنشاء، ويخبر إخباراً في المذكرات وقد أحلنا على الطريقة التي توخاها الشابي وأدركنا القدرة عنده على اختراق المألوف في فن كتابة المذكرات فجعل هذا النوع من الكتابة قائماً على معجم إنشائي وعلى صور تلاحق الشعر إذ هي غنائية لا تنقل الوقائع بقدر ما تخلق وتؤسس. ولا يوهمنا ما قال الشابي في مذكرة 6 فيفري سنة 1930 أي في آخر مذكرة له حينما قال «لا أكتب أدباً الآن، ولكنني أكتب مذكرات»[2]. إذ الأدب في هذا السياق هو الإبداع المنبجس عن الأجناس أشعراً كانت أم نثراً. والمذكرات عنده تتميّز إذ هي يوميات تحظى بكون مخصوص. ولكنّها لا تنبتّ عن الإبداع ولا تشذ إنها مخاض يقود عند الشابي إلى فن كتابة المذكرات.

لا شك في أن ابا القاسم كان عارفاً بما أنجزه عدد من الأدباء من مذكرات وقد كان طُلعة يفيد من اللقاءات الأدبية ومن الكتب المترجمة ومن الحوارات التي كادت أن تقتصر عنده على الكلام في الأدب. ولكنّ الناظر في المذكرات نظر المتأنّي يفهم

---

(1) انظر Roland Barthes, Critique et vérité, pp 17-22

(2) مذكرة يوم 6 فيفري 1930.

الروح التي بها حرّر الشابي مذكراته وهي السبيل إلى استطلاع خبر الطريقة التي توخّاها وقد التمسنا إليها درباً انتقيناه من الأفعال التي استعملها.

أ ـ الاستعراض: تواتر فعل «أستعرض»[1] في المذكرات وهو يحيل على أمرين متلازمين، الطلب من جهة والعرض من جهة ثانية. فالاستعراض عملية واعية فيها اختيار وتمحيص، ولا نجد في هذا العرض معلومات تخبر عن الشابي الإنسان وتكشف عن الظروف التي مرّ بها، إنّها في المذكرات زهيدة جاء الكلام عليها وسيلة لا غاية. الغاية الأصلية هي المذهب الأدبي والفكري وكل ما سوى ذلك وسائل وفروع وقد أحصينا مواضع العرض الاساسية.

1 ـ استعرض: حوادث اليوم... ما يستحق الذكر والتعليق. ص 16.

2 ـ أفكر بأحلام الحياة وأتملّى جمال الوجود. ص 20.

3 ـ لست أرى تيار الحياة بتسلسل. ص 21.

4 ـ كانت تضطرب في نفسي هذه الذكريات. ص 22.

5 ـ ليس لديّ ما أكتبه اليوم. ص 44.

6 ـ صور كثيرة متباينة في هذا اليوم وليلته. ولكن أين هو الفكر الذي يستطيع استحضارها. ص76.

هذه الجمل تلخّص الطريقة التي بها كتب الشابي مذكراته وتتسع لحقلين متعاضدين. الحقل الأول فيه عرض للأحداث

(1) انظر مذكرة يوم 1 جانفي 1930.

بمعنى التصفّح والاختيار، فما هو، في تقدير أبي القاسم جدير بالتسجيل يسجّله، وما هو غير جديد يلغيه. والحقل الثاني فيه تأمل وتمحيص وهي تجربة تنبجس عن الباطن وتتمخض عن جهد فكري. الأول حقل عادي والثاني حقل ذاتي وهما عند الشابي متناغمان متآزران يشدّ العرض أزر التأمل لأنّ كل ما في الحياة معبر إلى الباطن، فالتعبير في هذه المذكرات نبش في الساكن وبعث للكوامن فهي كتابة اختيار وليست كتابة إخبار. همّ الشابي أن يفرج عن الثقل الذي يتمكن منه فيقعده عن اللذة التي يطلب وهي عند الانصهار في حقائق الاشياء وغايته أن ينتقي بمعيار خاص هو ما تتطلبه النفس. على أن الاستعراض أقرب إلى الحياة الاجتماعية والاختيار فيها يقوم على لحظات التواصل التي يلذّ لأبي القاسم أن يرسمها. والتأمل أرسخ في الذات فهو إبحار في عالم الأحلام والوجود.

جرت المذكرات عند الشابي على لسانه، فالضمير المتكلم هو الذي يقود الكلام ويصوغ الأفكار[1] وهو الذي يعقد صلة متينة بين الأحداث المحدودة التي أثبتها والمعاني الجوهرية التي يتوق إليها. فليست مذكراته جمعاً للأحداث، وليست هي بحثاً عن الذات بحثاً يرقى إلى أعماق الوجود ويُسائل صميم الحياة. إنها مؤالفة بينهما تهب المذكرات خصوصية من جهتين على الأقل. الجهة الأولى هي الانتباه إلى كتابة المذكرات في سنّ مبكر وهو ما يؤكد الإيمان الراسخ بالركون إلى الكتابة وبالفزع

(1) انظر: جورج ماي، السيرة الذاتية: ترجمة محمد القاضي وعبدالله صولة: منشورات بيت الحكمة قرطاج 1992. ص 70.

إليها فزعاً. والجهة الثانية هي وعي حاد مسّ الوجود وتفطن حاسم أحال على توجس خفية من الحياة.

إن الاستعراض فعل اختيار ينمّ عن توجيه الكلام توجيهاً يراد منه المحافظة على نوع من الأحداث تبقى أثراً وترتقي إلى مستوى الإخبار الوظيفي إلى درجة تتحد فيها الأنا الحاضر بالأنا الآتي فيشق الاستعراض عصا الطاعة على الزمن فيختلط الحاضر بالمستقبل اختلاط الماضي بالحاضر. إنّ الأنا الماضي وإن هو قريب عند أديب يافع، هو الذي رسم خطى الأنا الحاضر في اللحظة التي أيقن فيها أنّ الأخبار التي يذكر ويسجل ويعلق عليها هي ما يريده النبراس الذي يؤثر عنه في المستقبل.

ب ـ الاستبطان: ليست مذكرات الشابي، عرضاً للأحداث بطريقة آلية، إنها باب من أبواب الإبداع الأدبي لا يقلّ قيمة عن الشعور وعن الرسائل وعن الأقصوصة التي كتب[1]، إنها عرض كما ألمعنا يحمل في ثناياه دلالات خطيرة تكفي لتبين عن طريقة في تحرير المذكرات تحتاج إلى دراسة مستفيضة. وينضاف إلى العرض إبطان بعيد الغور كشف عن توق متواصل إلى الأعماق، أعماق النفس وأعماق الوجود وأعماق الأفكار.

وجدنا المذكرات تغوص في المحيط بطريقتين. الطريقة الأولى هي العقل الذي أدّى إلى الاستعراض وإلى الانتقاء والاختيار. فهو الجانب الذي يعكس توجيهاً نحو غايات معرفية ذات قاعدة فكرية. ولعلّ الشابي لم يبصر إلى الواقع الاجتماعي

(1) انظر توفيق بكار مشاركة في دراسة أبي القاسم ص 185.

إلا من خلال زجاجة المعرفة والنشاط الفكري وليس كالأدب عنده مطية للمعرفة وللفكر آمنة. أما الطريقة الثانية فتتمثل في القلب وهو الذي يضمن ـ للمذكرات ـ الاندساس في الأعماق وإبصار الحقائق سواء الماضية أو الحاضرة أو الآتية. من الحقائق الماضية المتواترة في المذكرات استحضار صورة الأب إلى درجة لم تبق فيها العلاقة بين الابن ووالده علاقة عادية والفراق بالموت بينهما فراقاً عاطفياً. لقد أضحى الموت، موت الوالد، عند الشابي، قادحاً يكشف عن موقف من الحياة وعن تصوّر للوجود. «لقد مات أبي أيها القلب! فماذا لك بعدُ في هذا العالم. مات أبي وظللت أنتحب وأنوح وأبكي بكاء النساء»[1] لم يكن الأب الوالد فحسب، لقد كان أيضاً رمزاً للوجود يتميّز بفيض من الوجدان يغمر الكائن فيهديه الصراط المنير. وإن في التعلّق الشديد بالأب إشارة إلى ما في نفس أبي القاسم من مشاعر تتأجج وتفور فوراناً. ولا ضير أن تحيل المذكرات على جوانب من شخصية الشابي سواء أكانت معلنة أم كانت مبطنة. من ذلك الحساسية المفرطة التي توتر الأعصاب، وأنا رجل عصبي لا أحتمل الذلّ، ولا أستطيع أن أخمد غضبي، فتنجلي الثورة عن شيء جميل جدّاً...![2]. اختلطت المذكرة في هذا السياق بالاعتراف وهو وإن كان نادراً عند الشابي، يضطلع بوظيفة التأكيد لا الإخبار. إنه تأكيد ما ينثال انثيالاً في كل المذكرات من علامات تفصح عن حساسية أبي القاسم وعن

(1) مذكرة 12 جانفي 1930.
(2) مذكرة يوم 18 جانفي 1930.

الانفعال الوجداني الذي ملك عليه حياته. وإنّ الاعتراف أمارة على طريقة الحياة التي سلكها وعلى طبيعة العلاقة التي كان يريدها بينه وبين أصحابه والناس الذين يحيطون به. فلم يكن الاستبطان غريباً في المذكرات، إنه سبيل من السبل الإبداعية التي عرف بها أبو القاسم. المعجم اللغوي عنده يسعى إلى الباطن. وسجلات الكلام تتوق إلى الباطن، والآلات والأدوات تهرع إلى الباطن. أليس الباطن غاية عنده تشير أي وعي حاد يجعل الحياة الماثلة والواقع الاجتماعي والمؤسسات التابعة له، زيفاً لم ينزل أبو القاسم إلى الإفصاح عنه وإلى التعبير عن تهافته، لقد ركب مطية الاستبطان ليعلو على الزيف، وأشار إلى الأعماق دون النزول إلى التعبير المباشر.

الشيء المعتاد

لا ندعي البتة أن لغة الشابي وأنّ المدلولات عنده تنحت من معدن الإنشاء والخلق، إنهما في مواضع محدودة من المذكرات تنزلقان إلى المباشرة وتهويان إلى التعبير العادي. هي الأشياء المعتادة التي تحفّ بالمرء فتمحّضه للمألوف وتدفعه دفعاً إلى الركون إلى أهل السماجات وإلى أهل الحماقات. وليس من سبيل إلى التحرر منها، إنها العلامة على التجذر في الحياة العادية وهي من جانب آخر الأمارة على الطاقة الدفاقة على الانعتاق وعلى الفوز بالجمال في مستوى التفكير وفي مستوى التعبير في آن.

ولا تثريب إن تعلقت اللغة العادية بالأحداث الجسيمة التي

أراد الشابي أن يسجلها وهي لم تنأ عن الحياة الثقافية والفكرية بصفة عامة. لم تخل المذكرات من الأخبار التي تصف تلك الحياة وتعلن في ثناياها عن موقف وعن رؤية. ولم يكن أبو القاسم في هذه الأخبار ناقلاً واصفاً مستعرضاً، إنه كان بلا جدال مقوماً ناقداً موجهاً، ولم يقف نقده على الظرف التاريخي الذي عاش. إنّه يخترق الظرف الضيق ليدرك صورة تنهض على التأسيس وتتوق بهدوء إلى وضع لبنات قويمة لحياة فكرية طاهرة لا تشوبها شوائب الأعراض والدنس الذهني. هل نعتذر لأبي القاسم عن مواضع زهيدة في المذكرات كان فيها التعبير عنده أقرب إلى المألوف أرسخ في المباشرة؟ إنه من العسف أن نسكت في المذكرات عن هذه الظاهرة إذ هي عنصر من عناصر الكتابة التي اختارها اختياراً وهي تحمل العلامات على تمكن الشابي من الكتابة المعهودة في مثل هذا الفن، ولن يحيل توفرها إلا على اهتداء إلى خاصية تثوب فيها السيرة الذاتية إلى الماضي أو إلى الحاضر فتنقل منه ما به تكشف عن الجوانب الضرورية في حياة الإنسان الاجتماعية. لا مهرب حينئذ من اللغة المباشرة في نص هو بالدرجة الأولى حفر في السيرة ولكن اللافت هو تخطي أبي القاسم في المذكرات لهذا المناخ الممعن في الحياة الذاتية، الضارب في الحياة الاجتماعية ليصل إلى كَوْن في الكتابة جديد وجدناه من رحم الإبداع الذي أحرم فيه شعراً ونثراً.

المدخل

اعتمدنا في مراجعة مذكرات الشابي طريقة التفصيل إلى فقرات مجزّأة تحمل أرقاماً تهدي السبيل إلى الإفصاح عن مفاصل المذكرات المختلفة وتنطق عن النَّفس الذي أعلنته وهو يرجع إلى طبيعة المسائل المطروحة وإلى الحال النفسية التي تعتري أبا القاسم وإلى الظروف المادية التي يعيش. فلا ضير أن تختلف المفاصل وأن تكتسب منطقاً في التفكيك يولي أهمية إلى الصورة الذهنية والنفسية ويعمد بدقة إلى استكناه المنعطفات.

ولعل لهذه الطريقة فضلاً يسهم في تأكيد الأهمية التي يجدها الباحث عندما يتصدّى لأعمال الشابي وعندما يسعى إلى إستنطاق مواقفه وأفكاره وعندما يجتهد في استجلاء الصياغة الفنية استجلاء مخبرياً يتعمق النصوص ويهفو إليها بلهفة الدارس الذي لا يستعجل النتائج قبل الغوص المتأني في رحم النص، سواء أكان شعراً أم نثراً. فللمفاصل وظيفة ذات بال إذ هي، في حدّ ذاتها، قراءة نجمت عن معاناة النص وعن مكابدة للمذكرات في ضوء الاعتبارات التي أسلفنا. ولها فضل آخر هو الكشف عن الوحدة العضوية التي تشدّ بنيان المذكرات بعضه إلى بعض. ولعلها تدعم ما ذهبنا إليه في التقديم وقد وجدنا مذكرات الشابي

أقرب إلى السيرة الفكرية منها إلى السيرة الذاتية إذ هي لم تَجُسْ خلال الحياة اليومية بكل مظاهرها ـ على قصر المذكرات وحدودها عنده ـ بقدر ما صدرت عن حرص واضح يبني الموقف وينحت الرؤية ويكشف عن النفسية وعن القيم والمبادىء. فلو أحصينا عدد المفاصل التي وقفت على جزئيات من حياة الشابي اليومية أو على الشذرات التي استدعى فيها «الأنا الراهن» صوراً عن «الأنا الماضي» من جهة وعدد المفاصل التي غاصت في لجج المواقف النقدية أو القيمية من جهة أخرى لتبيّنا الخلل بينهما ولأدركنا الخاصية الفكرية التي ميّزت الشابي في مذكراته.

ونحن لا نرى غرابة في هذا المنحى لأنّ أدب الشابي ـ بصفة عامة ـ خرج عن السَّنَن الجاري في عصره عند الشعراء الإحيائيين فضلاً عن التقليديين اللاهثين وراء النظم والتّصنع، لم يرسب شعر الشابي ـ بصفة خاصة ـ في العمود والعيار ولم ينحبس في النمطية لقد شقّ الطريق إلى ذائقة جديدة وفتح باباً في قول الشعر بقاع أسطوري علا به علواً شامخاً إلى تجربة نهضت على روح التأسيس ولم تقنع بالتجديد. وليس عزيزاً أن ينعتق عن التسجيل والمديح والإسفاف وأن يسمو إلى الفن وإلى الجمال وإلى القيم الإنسانية الأصيلة. ولا تثريب أن نوجد صلة القرابة بين أدب إبداعي اعتصر «الآني» وثاب إلى «الزماني» ـ بمعنى الانسلال عن قيود الواقع الماثل والانقياد إلى الواقع الممكن. الواقع الماثل هو الوجود أُنْعِم بؤساً ومذلة والواقع الممكن هو المنشود أقامه الشابي على الطهارة وعلى استرجاع

الصفات الإنسانية الأثيلة ـ وبين مذكرات أفقرت فيها جزئيات الحياة في الماضي، وزهد فيها صاحبها عن خصائص المذكرات المألوفة، ليسرع إلى تفجير ما في فؤاده صورة من الشعر نفاثة الصدر.

ولقد حرصنا عند مراجعة المذكرات إلى ثبت إحالات بها أردنا أن نفسّر ما قد يلوح غامضاً وأن نعرّف بالأعلام المذكورين وأن نربط بين عدد من مفاصل المذكرات والمواقف الإبداعية أو النقدية عند الشابي في آثاره الأخرى ولم نغض في هذه الإحالات عن الإلماع إلى طبيعة الحياة الأدبية والفكرية في الثلاثينات فقد تجري المذكرات إلى حقلين خطيرين هما الإشارات إلى قصة الإبداع عند أبي القاسم فتنكشف ظروف الميلاد الإنشائي بالقياس إلى الشعر أو بالقياس إلى المواقف النقدية والسوانح الذوقية. والحقل الثاني هو الحياة الفكرية في تونس ونوع العلاقة التي كانت تصل أبا القاسم إليها. تضيف المذكرات إلى رسائل الشابي حجة أخرى تؤكد إيمانه بالحياة الفكرية وبدورها في استطلاع مواطن الجمال والجلال والإحرام في معبد الإنسانية. ولم نسع في هذه الإحالات إلى الإطالة وإلى الإشباع إذ آثرنا أن نقتصد وأن نلمع إلماعاً إلى ما رأيناه مهماً جديراً بالانتباه.

المذكّرات

الأربعاء 1 جانفي 1930 [1]

١ ـ في سكون الليل، ها أنا جالس وحدي، في هاته الغرفة الصامتة إلى مكتبي الحزين، أفكّر بأيّامي الماضية التي كفّنتها الدموع والأحزان. . . وأستعرض[2] رسوم الحياة الخالية التي تناثرت من شريط لياليَّ وأيامي، وذهبت بها صروف الوجود إلى أودية النسيان البعيدة النائية. [3]

2 ـ أنا جالس وحدي في سكون الليل، أستعرض رسوم الحياة وأفتكر بأيّامي[4] الجميلة الضائعة، وأستثير أرواح الموتى من رموس الدهور.

---

(1) لاحظ تاريخ الشابي تأريخاً شمسياً.

(2) بنى الشابي مذكراته ـ في جانب كبير منها ـ على هذا الفعل «أستعرض» وهو يجمع بين معنيين، معنى ولّدته الصيغة وفيها طلب واستحضار ودعوة إلى الماضي البعيد أو القريب ومعنى العرض وهو ينبىء بالاختيار والتمحيص. فالفعل يمثل معجماً خطيراً من سجل الكلام الملائم لكتابة السيرة.

(3) لاحظ الشحنة الشعرية في لغة الشابي، وهذا المعجم مخصوص منحوت نحتاً إشجائياً لم يعدم التصوير الذي يستدعي إلى الذهن شعر أغاني الحياة.

(4) يقال فكّر فلاناً بالأمر: أخطره بباله. وافتكر تذكّر، وفي الأمر أعمل عقله فيه.

3 ـ ها أنا أنظر إلى غيابات الماضي، وأحدق بظلمات الأبد الغامض الرهيب.

4 ـ ها أنا أنظر، فأرى صوراً كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم الربيع، وتحرّكت حواليَّ كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي كأوراد الجبل... ثم أنظر فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلبّة كأمواج البحار، وأطياف ملوّنةٌ كقوس قزح، جميلةٌ كقلب الربيع تمرّ أمامي ثم تختفي، وتتراقص حواليَّ ثم تبتعد، ثم تتوارى في أعماق الظلام الدامسة؛ وأرى أحلاماً صغيرة ناشئةً تُغرِّدُ كطيور الغابات، وتنمو نموَّ الأعشاب، وتتفتَّح تفتُّحَ الورود، ثمّ تجفُّ وتذبُل وتتناثر فتذروها الرياح، ثمّ تضمحلّ وتتلاشى في سكون المنون.

5 ـ ها أنا أنظر، فإذا أصحابي المتوفَّون يعودون إلى الحياة ثانيةً كأجلِّ وأجمل ما عرفتهم أوّل مرّة، وإذا بنفسي تُمثّلُ معهم فصول الحياة الغابرة التي مثّلناها بالأمس وطوتها الدهور، وتنسى متاعب العيش وأحزان الحياة، وتحسب أنّها ما زالت تلك النفس التي عرفتها بالأمس مضحاكة فرحة كقبّرة الحقول، وتنسى أنّها قد أصبحت غريبة بين أشباح لا يفهمونها، وحيدةً بين أنصاب جامدة تحرّكهم بواعُث المادة وشهوات الجسد، بعيدةً جدّاً عن ذلك الملإ السعيد الذي عرفته في عهدها الماضي والذي ضربت بينها وبينه صروُف الحياة فاندفع في سبيل الخلود، فظلّت ههنا وحدها تندبهم وترثيهم[1].

---

(1) لا نقف في معجم الشابي على السباب والانتقاد والإسفاف، كما أنّنا نلحظ الصلة بين الدوال والمدلولات في هذا المعجم وهو يخترق سَنَن =

6 ـ ها هم أصدقاء طفولتي الحالمة الذين عرفتهم في بلاد كثيرة[1] ها هم يتراكضون بين المروج الخضراء ويجمعون باقات الشقيق والأقحوان، ثمّ يتسلّقون الجبال متتبّعين أعشاش الطيور الصيفيّة ومترنّمين بتلك الأغاني البريئة الطاهرة، ثمّ ها هم جالسون على ضفاف الأنهار الجميلة الهادرة يبنون من الرمال بيوتاً مسقوفة بأعشاب الحقول، ثمّ ها هم ينقسمون إلى فريقين يطارد أحدهما الآخر، وهم يمثّلون رواية الحياة الكبرى التي تمثّلها الليالي دواماً وهم لا يشعرون.

7 ـ ثم ها هي تلك الريحانة الجميلة التي أنْبَتْتها في سبيلي أناملُ الحياة. ها هي تنظر إلَيّ بعينيها الجميلتين الحالمتين بأحلام الملائكة، ثمّ تشيرُ إلَيّ براحتها الجميلة الساحرة وبأناملها الدقيقة الوردية. ثمّ ها هي تطبع على ثغري قبلة حلوة ساحرة بشفتيها المعسولتين برحيق الحياة.

8 ـ ثمّ ها هو أبي ينظر إليّ بوجهه الباسم الضحوك، ومن عينيه

= القول النثري ليحطّ الرحال في القول الشعري.

(1) أبرز المدن التي قضّى فيها الشابي حيناً من الدهر مدينة العاصمة ومدينة زغوان ومدينة عين الدراهم فضلاً عن مسقط رأسه توزر. ولعل عبارة «مدينة» بالنسبة إلى زغوان وإلى عين الدراهم ـ على وجه الخصوص ـ تحتاج إلى تدقيق لأنّ الاستعمار الفرنسي لم يُبح في ذلك التاريخ (الثلاثينات) إضفاء الطابع الحضاري على الواقع التونسي إلا على المواضع التي تخدم مصالحه، ولاحظ أنّ الشابي جاب البلاد التونسية من الجنوب (توزر) إلى الشمال على مشارف الوسط (زغوان) إلى الشمال الغربي (عين الدراهم).

تفيض عواطف الأبوة الراحمة الحنون. وها هو يحادثني بصوته الهادىء الرزين، ثم ها هو يماشيني في ضواحي «زغوان»[1]، ويصعد في سبل الجبل المحفوفة بأشجار الصنوبر ذي العطر الأريج. ثمّ ها هو يشير بيده إلى تلك السهول المخضرّة المترامية، ومن بينها تتناثر كثيرٌ من الأكواخ الجميلة والقصور الأنيقة التي تشابه حَمامَات بيضاء واقفة بين المروج.

9 ـ ثم ها أنا أنظر فلا أجد شيئاً ممّا رأيت. لقد ذهبوا كلهّم إلى عالم الموت البعيد... وتفرّقوا شيعاً في أودية المنون الصامتة. فما عدت أراهم حتى الأبد في مسالك هذا الوجود. وما عدت ألقاهم حتّى الموت في صحراء هذه الحياة. لقد احتجبوا عنّي حتّى الأبد وبقيت وحدي في هذا العالم، أناديهم من وراء الوجود. ولكن عبثاً أدعو، فإنّهم بعيدون عنّي لا يسمعون نداء روحي، ولا صرخات قلبي الغريب... لقد ذهبوا كُلهم، وبقيتُ ههنا وحدي أنا في وحدتي وانفرادي، في سكون الظلام.

---

(1) زغوان ـ مدينة جبلية بالشمال (الوسط) التونسي وهي تبعد عن الحاضرة حوالي 60 كلم إلى الجنوب. لهذه المدينة موقع جغرافي وتاريخي متميز جعلها موطناً للرومان منذ العصور الغابرة وقد عرفت «بالحنايا» التي تجلب الماء من العين وهي عين كانت تسقي الناس وتروي الأرض لزمن طويل.

الخميس 2 جانفي [يناير] 1930

10 ـ هي صورة سخيفة من رسوم الحياة. وهل في الحياة غيرُ السخف. ولكن حتّى في سخافات الحياة ما يُحزن ويقبض على القلب.

عرفته صديقاً، أبيّ النفس، عزيزاً، رصين الأخلاق، رزين الصوت، فصيح اللسان، يُحبّ الأدب ولكنّه لا يتّخذه صناعة، ويحفظ الشعر ولكنّه لا يقرضه. وغبت عن الحاضرة حيناً من الدهر، فسمعت أن الرجل قد جُنّ واختلط في عقله. فأسفت أسفاً ـ الله أدرى بمداه[1] ثمّ رجعت إلى الحاضرة، فإذا الرجل قد شُفي وعاد إليه صوابه. فكنت أجتمع به وكان يحادثني ولا يطيل الحديث. فإذا جرّ الحديث إلى عهد جنونه ذكَرَه في شيء من الأسى والمرارة. وأصبح كثيرَ الصمت إلا قليلا تُتعبه المحاورة، وطولُ الحديث. ثمّ سمعت أنه عاد إليه جنونه منذ أيام

(1) توفّر المذكرات أمارات عديدة تؤكد إيمان أبي القاسم الشابي بالصداقة وإخلاصه الصادق لكل من صاحبهم وحباهم بوده. إنّ في مذكراته باباً يفتح عن أقفال النفس ويفصح عن الخبايا، فالمذكرات من المصادر الضرورية لدراسة أبي القاسم سواء أتعلقت الدراسة بحياته أم بشعره أم بأفكاره.

بصورة أعنف من قبل. ومرّت أيام لم أره خلالها.

11 ـ وفي صبيحة اليوم بينما كنت نائماً، وإذا بالباب يطرق، فصحت من الطارق؟

فأجاب صوت أجشّ لم أعرف صاحبه: «أن افتح».

ولمّا فتحت الباب سمعت صوتاً خشناً لا عهد لأذني به يقول: السلام عليكم.

وعلى إثره دخل صديقي المجنون، وكان وجهه أصفر شاحباً يدلّ على آلام مبرّحة في أعصابه، وعيناه لا تستقرّان على حاجة لحظةً واحدة، مرّةً على السقف، وأخرى على الباب، وأخرى على المنضدة التي صُفّت فوقها كتب مختلفة، وطوراً على النافذة. وحيناً على خزانة الكتب الصغيرة.

بادرته بالتّحيّة فلم يأبه لها، كأنّما لم يسمع. تناول كتاباً من على المنضدة وأخذ يتلو ما فيه من الشعر بصوت غنائي غليظ، ثمّ يبدو له فيقذف به على الفراش ويتناول غيره ويفتحُه ويأخذ في قراءة ما يجد نثراً كان أو شعر بذلك الصوت الغنائي الذي بدأ به الشعر أول مرة. ثمّ يسأم الكتاب فيرمي به إلى ناحية من النواحي، ويأخذ في حديث مسترسل مستمرّ لا ينقطع إلا ريثما يتنفّس. ثمّ يعود متحدّثاً بتلك النغمة الغنائية التي بدأ بها تلاوة الشعر أوّل ما دخل. فكأنّما قد تدفّق عليه تيارٌ غنائي لا يستطيع دفعه. ولذلك فهو يتّخذه قالباً لكلّ ما تتحرّك به شفتاه من شعر ونثر وحديث..

12 ـ أمّا حديث صاحبنا فهو مزيج من قصص مختلفة تعاقبت عليه في أدوار الحياة، وآهات وزفرات وابتسامات، وقهقهة ونشيد وصفير، وسخرية، ورحمة وشدة، وقساوة. فربّما أخذ يحدّثُك عن قصة مضت عليها عشرون عاماً، فما يبلغ منتصَفها حتّى يأخذ في حديث آخر لا عهد لك به ولا ذكر، أو في قصة أخرى لم يمض على وقوعها إلا ساعات أو أيّام.

وذكرياتُ صاحبنا كثيرة مشوّشة تزدحمُ كلُّها على ذهنه. فيخرجها لسانه مبلبلة مضطربة مشوّشة يمتزج فيها الأولُ بالآخر. ويلتحم فيها القديم بالجديد. وما تصرّمت عليه السنون وعلى ما لم تمض عليه إلا ساعات. فكأنّما قد كانت ذكرياته سفراً ثميناً أنيق السفر جميل الورق. يطالع صفحاته من حين لآخر، فتمزّقَ السفر واختلطت الأوراق ولعبت بها رياح عاصفة.. فهو ينتقل بك في سرعة البرق من أدهم باشا ومصطفى كمال[1] إلى أشعة رونتجن[2]، ومن أن التجديد يجب أن يشمل كل شيء حتّى اللغةَ العاديةَ إلى أنه قد ملك مفاتيح الحياة. وكثيراً ما كنت أسمعه يقول: «يجب أن نصبر لما أراده الله» و«أنا نبي العالم» و«أنا فوق القدر» و«أنا كلمة الله التي تعِرف كيف تُرشدهم وتهديهم، والتي لا تصُّدها الحجُب». وكثيراً ما سمعته يلفظ «أشعة رونتجن» هي عند صاحبنا كلّ شيء،

---

(1) كمال أتاتورك 1881 ـ 1934.

(2) رونتجن (Rontgen) ولهايم، فيزيائي ألماني. 1845 ـ 1923.

فهو يستعملها تارة بمعنى القوّة المدبّرة لكلّ شيء، وتارة بمعنى الذكاء والعبقرية، وتارة بمعنى سر الحياة.

13 ـ وبينما يكون صاحبنا جادّاً في حديثه يحدّثك عن نفسه وأوجاعها:

«آه! كبيرٌ يا رب أن نعيش مثل هذا العذاب ست سنوات كاملة منذ أن كنت ابن عشر سنين، وأن أتحمَّلَ عذاب النفس، وتلاعب الناس وأحقاد الأقربين.

لقد حاول أخواي أن يقتلاني ويستحوذا على أموالي».

إذا به يقهقه قهقهة عالية! «ها. ها. ها! إن أشعة رونتجن التي ترتفع بالعبقريّ مثلي فوق مستوى البشر... عليك يا صديقي بأشعة رونتجن حتّى تكون عصرياً، وإيّاك أن تجهل منزلتي ومقامي. لا. إنّك تفهمني حقّ الفهم، أو بعضه. لا أدري. لا بأس. فالكلّ سواء، إن يد الله الكريم ترحمنا يا صاحبي. ثمّ ينظر إلى الباب فيرى طالباً مارّاً فيخاطبه: «ها ها هي، تعال يا ڤدع[1] كده. ها. ها. ها. هكذا تكون الحياة... ولكن لا».

14 ـ ثم يسكت قليلاً ويغمض عينيه بعد أن يوجههَما إلى السقف ويفركهما بأنامله القصيرة. ثمّ يقول لك وهو ما زال مغمض العينين:

(1) عبارة «ڤدع» تفيد في اللهجة التونسية معنى الفتوة والبأس.

«هات ذلك الكتاب يا ولد».

فتناولُه الكتاب. فيفتحُه، ثم يقرأ قليلاً بلهجته الغنائية الخشنة، ثمّ يقذف بالكتاب قذفة كبرى على الفراش.

وينـدفـع مسـرعـاً إلـى جمـاعـة الطلبـة وهـم يتبـاحثـون فـي مـرض الطـاعـون[1] وأكثـرهـم خـائـف. وبعضهـم عـازم على السفـر، فيصيـح فيهـم قـائـلاً: «أنـا ريكاردوس قلب الأسد[2] وأنت صلاح الدين[3]. لتقم بدورك لا بدّ. إن صلاح الدين وقلب الأسد، في آن واحد يصرخ بصوت تمثيلي قويّ:

«إن لم أصُنْ بمُهنّدي ويميني... الخ».

ثـمّ يلتفـت إليهـم قـائـلاً: «أنـا وأنتـم» و«القطاطس»[4] أحرار. أجل، كلُّنا أحرار، لأن أشعة رونتجن علّمتني كيف أتكلّم العربية الفصحى.

---

(1) اجتاح مرض الطاعون البلاد التونسية مرات عديدة انظر:
Dr Ed Bloch, la peste en Tunisie apercu historique et épidémiologie Tunis, 1929.

(2) ريكاردوس ملك انجلترا 1185 ـ 1199.

(3) صلاح الدين الأيوبي 1174 ـ 1193.

(4) «القطاطس» ج «قط» و«قطة» في اللهجة التونسية.

الجمعة 3 جانفي 1930

15 ـ أستعرض حوادث هذا اليوم لعلّي أجد فيها ما يستحق الذكر والتعليق، فلا أجد شيئاً يلفت النظر[1]، وإنّما هي حوادث سخيفة عادية، لا تقف عندها النفس ولا تثير الوجدان.

انتبهت الساعة العاشرة صباحاً. وقد كنت على اتفاق مع صديق على زيارة صديق لي في بعض المصطافات الجميلة بضواحي الحاضرة. ولكن الصديق أخلف وعده، وتركني أنتظر حتى انقضى على الأجل المضروب ساعة ونصف، وليس يهمني أكان صادقاً في عذره عن إخلافه الوعد وإخلاله بكرامة الصدق أم كان كاذباً فيما انتحله من عذر، وحسبي أنّه أخلف وكفى[2].

16 ـ ولمّا كانت الثالثة والنصف بالتدقيق تطّلعت إلى الأفق لأرى الجو وأعرف حال الغيوم التي كانت تغشيه، إذ قام بنفسي أن أقضي الأمسية في ذلك المنتزه الجميل الحبيب

---

(1) لم تكن مذكرات الشابي حشداً لأخبار غير ذات وظيفة. ولم يكن النظر عنده سوى إبحار في الأعماق.

(2) ألمعنا آنفاً إلى تعلق الشابي بالصداقة ونلحظ أيضاً أنّه يأخذ الصداقة بصرامة لا تقبل التهاون.

إلى نفسي «البلفيدير»[1] بعد أن عدلت عن زيارة صديقي خارج الحاضرة. فكّرت فيما ينبغي لي أن أحمله معي من الكتب في نزهتي الجميلة. وتلك عادة من عادات نفسي لا أستطيع أن أذهب إلى البريّة أو إلى بعض النزهات دون أن أستصحب كتاباً وسواء عليّ بعد ذلك قرأته أو لم أقرأ منه سطراً، فبدا لي أن أحمل معي ديوان العقاد ثم «تاييس» ثمّ التفت فرأيت على المنضدة كتاب «الآراء والمعتقدات لغوستاف لوبون» فعدلت عن الإثنين واتخذته سميري. وغادرت المدرسة بعد أن تطلّعت إلى السماء ثانية فرأيت الغيوم متفرّقة ممزّقة تبدو من خلالها زرقة السماء الجميلة. وأخذت سمتي إلى باب البحر لأركب عربة الترامواي. وقد كان أحبَّ إلي الذهاب على الأقدام ولكنّي أشفقت أن ينصرم الوقت في المسير فما أصل المنتزه إلا وعلى الكون نقاب من شعاع الأصيل.

وجدَدتُ في السير مخافة أن تذهب علي الساعات بداداً، فأقضي الوقت في المدينة التي كرهتها وملْتُ ضجتها الخاوية[2]. ولكن عبثاً كنت أدأب على المسير،

---

(1) البلفيدير (Le Belvédére) الحديقة الكبرى لمدينة تونس العاصمة، هي مقصد الناس طلباً للهدوء وللراحة، وهي في الفترة التي كتب فيها الشابي مذكراته على بعد قرابة كلم واحد من باب الخضراء أحد أبواب المدينة القديمة.

(2) أفصح الشابي بهذه الجملة عن مقوم من مقومات المذهب الرومنطيقي وهو التبّرم من المدينة والانصراف إلى الغاب، ولعل أبرز ما قال في هذا السياق: =

فإنّي ما وصلت إلى محطة التراموای حتّى رأيت الجوّ يكفهرّ ويربدّ، ورأيت الغيوم السود تتراكض من أقاصي الأفق.

17 ـ أعوذ بالله من السخط والنقمة! إلى أين أنا ذاهب وهذه الطبيعة تريد أن تسكب جام غضبها على العالم في هذه العشية.

أنا ما أردت الذهاب إلى البلفيدير إلا لأمتّع نفسي بتلك الطبيعة الجميلة الساحرة، وبأسراب الغواني المتخطّرات بين الغصون الوارفة وخلال الخمائل تُنمّقها أوراد الأشجار البنفسجية، ولكي أجلو عن نفسي ما ران عليها من أقذاء الاجتماع وما علق بها من أباطيل الناس وأوهامهم وظلال الجدران الكئيبة العابسة.

وأين أجد هذا، وهذا الجو المكفهرّ لا ينجلي إلا عن عاصفة هوجاء أو وابل هتّان.

إن منظر العاصفة تتأوّه بين الغصون وتهزّ جذوع الأشجار جميل رائع، ومرأى المطر يتساقط فوق الأعشاب ويقبّل أوراق الورود بهيج أنيق. ولكنّه ليس بهيجاً ولا

= ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات بين الصنوبر الميّاد
. . . وبعيداً عن المدينة، والناس، بعيداً عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك ومن ذلك الهراء العادي.
أحلام الشاعر، أغاني الحياة ص 114.

محبّباً لفتى يعتقد أنه إن شاهد هذا المشهد فلا يرجع إلا مهشم الرأس أو بليل الثياب كالطائر الطّريد.

لا تغامر يا شابي وارجع إلى عشّك، واستخلف الله في هذا التعب الضائع والخيبة المرّة[1].

18 ـ وهكذا رجعت إلى غرفتي الصامتة. وجلست إلى المنضدة وأنا ناقم أشدّ النقمة ساخط كلّ السخط. وذهبت أفكّر أفكاراً كثيرة مضطربة، ولكن عبثَ الطبيعة لم يقف عند هذا الحد. فإنّني ما جلست إلى المنضدة أفكّر حتى رأيت خيطاً من أشعة الشمس ينحدر إليَّ من النافذة فيُلقي على المكتب رواء جميلاً، ويغمر البيت كلّه بضياء بهيج.

لقد كانت آخر ابتسامة من بسمات الحياة الساخرة. وهكذا راق للقدر أن يعبث بي مرات ثلاثة، ما فرغت من واحدة حتى تلقّتني الأخرى بدون إنذار.

وبعد حين توارت الشمس وراء السحب الكثيفة المتراكمة. وكذلك غادرني ذلك الشعاع الجميل بعد أن سخر بي سخرية شيطانية قاسية. وتركني أكاد أتميّز من الغيظ.

«حينما أخذت أكتب لم أحسب أن الكتابة ستكون طويلة بهذا المقدار. وإنّما هي المعاني والصور قد كانت

---

(1) يمثل المطر قطباً دلالياً تواتر عند الشعراء القدامى وبه توسّلوا إلى تشكيل الصور الباعثة على الرجاء والأمل، وقد عرّد الشابي بعنايته عن هذا القطب وأكّد الانتماء إلى الرومنطيقية والبحث عن الجمال في الطبيعة.

تتابع نفسي آخذة برقاب بعضها»[1].

(1) يفصح الشابي في هذه الفقرة الوجيزة عن سبيل من السبل التي توخاها لتدوين مذكراته وهي لا تقف عند توفر الأخبار والأحداث بقدر ما تقترن بالحالة النفسية وبسلطان الكتابة على صاحبها. فليس للأدب من طاقة على الإزورار عن الدفق الشعوري وعن فيض الصور عندما تتمكن منه تمكناً. فالفقرة اعتراف من الاعترافات الموحية بلحظات المكاشفة وبالطرق التي تسلكها لتلحّ على الأديب إلحاحاً.

السبت 4 جانفي 1930

19 ـ النهار صحو جميل كأيّام الربيع، والشمس مشرقة سافرة، والسماء مجلوة صقيلة تغمرها أشعة الشمس، فتنعش النفس وتستهوي المشاعر. وفي النفس شوق إلى مناظر البرية الساحرة، فما الذي يصدّك عن الذهاب إليها وأنت بها المغرم المفتون؟

20 ـ هكذا حدّثتني النفس، وكانت الساعة الحادية عشرة، فاستشرت رفيقاً لي في اصطحابه لهاته النزهة الخلوية الجميلة[1]. فأجابني أنه يؤثر لو ذهبنا بعد تناول الغداء. فلبثت أنتظره. ولما أنهينا ما بقينا لأجله أخذت برنسي

---

(1) يحيل معجم الشابي في هذه المذكرات على المرجعية التي صدر عنها في كل إبداعه فقد جمع بين النزهة الجميلة والخلوية. وإذا كانت صفة «الجميلة» طبيعية في السياق الرومنطيقي فإنّ «الخلوية» صفة تختلف ـ في المعجم ـ عن الانفراد الذي أشار إليه سابقاً ـ إنها من سجل كلام تواتر عند المتصوفة وأهل الطرق. ولا نزعم البتة انتماء الشابي إلى الطُرُقيّة وإنما نشير إلى قدرته على إثراء المعجم الرومنطيقي بمعجم مغاير له فيصبح شكل التعبير ضارباً في مفاهيم الصوفية ولكنها لم تنجح به إلى عالم الملكوت بل أسرعت إلى الارتماء في أحضان الطبيعة ليستطلع خبر الإنسان من معادن الزمن البكر قبل أن تتراكم عليه الأدران والآثام.

بيميني. وأوصدت باب غرفتي. وذهبت إليه، وكانت الساعة الواحدة بعد الزوال، أستعجله لنزهة الظهيرة بين المروج. ولكن اعتذر بأنّه لا يستطيع أن يرافقني لهذا المكان البعيد حيث إنه ضرب موعداً على الساعة الثانية، وساعة واحدة لا تكفي للنزهة وموافاة صاحبه عند الوعد. فلم أزده كلمة وغادرته، وبي من السخريّة به أكثر مما بي من الغضب منه، لأنّني علمت أنه لا وعد ولا صديق. وإنّما هي وسيلة اتخذها ليتخلّص بها من جمال المروج، حيث إن صاحبنا لم يكن يشغف بما أشغف به، ولا يستخفّه من مناحي الحياة ما يستخفّ نفسي ويهزّ أوتارها. ولا أطيل فقد غادرته صامتاً، وأنا أسرع الخطى إلى حيث أجد المروج الخضراء والروابي الجميلة تموج بالعشب الجميل وتعبق بها الرياحين البرية.

21 ـ ذهبت ولمّا أصبحت بعيداً عن المدينة، وعن لاغية السابلة[1] وقرقعة العربات، تراءت لي البريةُ الساحرةُ الجميلةُ والحقولُ الخضراءُ الفاتنة. ولمّا اقتربت كانت المروج ساكنة هادئة تحلم بأحلام الربيع، وكان الفضاء ساجياً وادعاً يشابه بحيرة هادئة تُصغي لنجوى النسيم في ليلة مقمرة.

وفي وسط ذلك السكون الشامل المحفوف بالأحلام تنبعث إلى سمعك من حين لآخر أنشودةُ طائر أنيق يغرّد

(1) أسبلت الطريق كثرت سابلتها، السابلة الطريق المسلوك وهنا المارون.

فوق فرع من فروع الزعتر ذي العطر الأريج، أو تغريدةٌ مفردة تُرسلها قبّرةٌ ذاهبة في ذلك الأفق المسحور.

وكانت أزهار المروج المتناثرة بين المزارع غريرةً باسمة تشعشعها الشمس، وتحرّكهُا النّسمات. وكانت تُطَرِّز حواشي الأفق المنير غماماتٌ صغيرة متناثرة هنا وهناك...

22 ـ في هذا الوسط الشعريّ البديع جلست منفرداً على ربوة صغيرة تتصل بتلال كثيرة، أفكّر بأحلام الحياة، وأتملّى جمال الوجود وطافت بنفسي ذكريات كثيرة متتالية كأسراب الطيور. وغصت في عالم الذكري البعيد.

إلى هاته الربى الجميلة، والتلال الساحرة، منذ ست سنوات، قد كنت آتي منفرداً بنفسي، متتبّعاً هاتيك السبل الصغيرة بين المزارع، ومحاذراً أن أدوس زهرة يانعة، أو أكسّر غصناً يداعبه النسيم. فقد كنت أشعر في أعماق قلبي أنّني أرتكب جناية كبرى حينما أقطف زهرة ناضرة أو غصناً رطيباً.

ألست أرى تيّار الحياة يتسلل في أعماقها على مهل، وأراها ترمق الأفق الجميل؟

ألست أراها ترتعش بين أحضان النسيم ارتعاشة الغانية على صدر عاشقها السعيد؟

ألست أرى وُرَيقاتها الصغيرةَ تتحرّك حركة من يهمّ بالكلام، كأنّما تحاول أن ترتّل أغنية الحب والجمال؟

بلى! فكيف إذاً تُطاوعني نفسي على أن أقتطفها فتذوي وتموت. وأرى بعيني رفيف الحياة يغيض في أوراقها، وسحر الشباب يتلاشى من ثغرها الجميل، وَوُرَيقاتها الصغيرةَ الفاتنةَ تتناثر مضمحلّةً في أكفّ الرياح[1].

23 ـ أجل! فقد أرى أنّني أقترف جريمة تألم لها نفسي باقتطافي وردة يانعة، وأحسب أنّني قتلت نفساً بريئة، وأزهقت روحاً طاهرة، وقضيت على آمال فتيّة تحلم بفجر الربيع!

ليكن ذلك جنوناً أو فليكن هوساً. لا يهمنّي أيُّ شيء، يجب أن تُسمّي به تلك الحالة النفسية التي سيطرت على نفسي تلك الأيام. وإنّما الذي أريد أن أقول هو أنّني لبثت على مثل هاته الحال سنة كاملة، لا أجسر خلالها على إزهاق أرواح الورود، بل حسبي من كلّ ذلك أن تُسرّ نفسي بمرآها الأنيق، وأنا أمتّع نفسي بما تسبغه عليها من حياة.

24 ـ فقد كنت أحسّ بروح علويّة تجعلني أحسّ بوحدة الحياة في هذا الوجود[2] وأشعر بأنّنا في هذه الدنيا ـ سواء في

---

(1) لم تكن حساسية الشابي مقتصرة على علاقته بالناس إنها رؤية شاملة غذّتها عناصر الطبيعة وسقتها بنسغ المحبّة.

(2) تدعم هذه الملاحظة ما ألمعنا إليه من ثراء في المعجم الرومنطيقي عند الشابي وهو ما يؤهله للريادة في هذا السياق. فلم يكن أبو القاسم صدى لأصوات الرومنطيقيين، لقد ارتقى إلى التأسيس ومهّد ـ وإن كان هذا يحتاج إلى دراسات ـ لحركة الشعر الحداثي كما مهّد لها المنتمون إلى =

ذلك الزهرة الناضرة، أو الموجة الزاخرة، أو الغادة اللعوب ـ لسنا سوى آلات وترية تحرّكُها يدٌ واحدة، فتحدثُ أنغاماً مختلفة الرنّات، ولكنّها متّحدة المعاني، أو بعبارة أخرى أنّنا وحدةٌ عالمية تجيش بأمواج الحياة وإن اختلفت فينا قوالب هذا الوجود.

وذلك هو ما كان يجعلني أعطف على الزهرة الناضرة عطف الإنسان على الإنسان. ليكن ذلك جنوناً أو هَوساً كما قلت، ولكن ليت هذا القدر الأصّم يصاب بمثل هذا الهوس الذي يشفق على وردة تحلم بفجر الربيع، إذاً لكان العالَم سعيداً بهذا الهوس والجنون، وكانت الحياة أخف احتمالا . .

25 ـ كانت تضطرب في نفسي هاته الذكريات، وتعجّ في قلبي هاته الأفكار والصور، وأنا جالس بين تلك التلال الخرساء الناطقة في صمتها بأبلغ معاني الحياة. ولما فرغت من تأمّلاتي قطفت ثلاثة فروع من الزعتر ذي العطر البرّي الأريج، لا زالت على المنضدة أمامي تنفحني بعطر المروج، وتُعيد إلى نفسي جمال تلك الحقول، وصورَ ذلك الماضي البعيد.

= مجلة «أبولو» فضلاً عن الروافد الأخرى خارج دائرة الرومنطيقية والأدب بصفة أعّم.

الأحد 5 جانفي 1930

26 ـ أمسيّةٌ جميلةٌ هي التي قضيتها هذا النهار، جميلة بنوع خاص، لأنّها كانت في نزهة خلوية إلى البلفيدير، جميلةٌ بوجه أخص لأنّها لم تُصرف في تلك الأحاديث السخيفة المبتذلة. وإنّما صرفتْ في حوار، إن لم يكن فنّياً كلُّه، فإن فيه كثيراً من طابع الفن وميَسَمه.

27 ـ كانت النزهة مشياً على الأقدام، صحبةَ رفيقين من رفقائي في السنة الثانية من مدرسة الحقوق التونسية[1]. وفي ذلك الشارع الرحب الذي غرست على حافتيْه أشجار النخيل، قد كان أحد رفيقيّ يحدّثني حديثاً هادئاً رضيّاً عن الاحتفال المائوي باحتلال الجزائر[2] الذي ستقيمه فرنسا قريباً هناك، والذي خصّصت له نفقات ضخمة طائلة. وقد كان صاحبي

---

(1) مدرسة الحقوق: كانت هذه المدرسة إطاراً لعدد من طلبة جامع الزيتونة ـ ومنهم الشابي ـ لطلب العلوم القانونية. وكانت الدروس تُلقى باللّغة الفرنسية وجانب منها باللّغة العربية.

(2) بدأ احتلال الجزائر سنة 1830 وتمّ الاستقلال سنة 1962. لاحظ العُرى الوثيقة زمن الاستعمار بين التونسيين والجزائريين، انظر في هذا الصدد على سبيل المثال: أحمد توفيق المدني «حياة كفاح» ج 1 ص 13 ـ 28.

وهو يحدّثني عن ذلك يُبدي سخطه العنيف على كلّ من يذهب إلى الجزائر من التونسيين في مّدة الاحتفال. ويذهب إلى أن ذلك فقط يكفي في نظره لاعتبار فاعله خائناً ومن أسقط الناس. وفي شيء من المضض والإزدراء حدّثني رفيقي عن هاته الفرق التمثيلية التونسية التي تتسابق إلى تقديم رغباتها للمشاركة في عيد المظالم الاستعمارية. وقد ارتفعت قيمة صاحبي في نظري عمّا كانت عليه لمّا حدّثني بمثل تلك اللهجة الصادقة مع أنه من طائفة المتوظفين التي لم نعرف عنها إلا أنها أشباح خشبيّة في موكب الاستعمار العظيم.

وفي لهجة ملؤها السخريّة أخذ يحدّثني صاحبي عن طائفة أخرى من الناس. وهي هاته الطائفة التي تدّعي لنفسها الأدب، وتزعم أنّها خُلقت لقيادة الأفكار. ثمّ هي مع ذلك تتّخذ من مواهبها بخوراً تحرقه أمام العاهرات.

قال: «كنت ذاهباً يوماً في بعض شوارع العاصمة لغرض نسيته، وإذا بواحد من هاته الطائفة يقبل عليّ مصافحاً. ثمّ أخذ يماشيني وما هي إلاّ خطوات حتى قال لي:

هل تسمع؟

قلت ماذا؟

قال: خطبة جميلة.

ثم أخرج من جيبه ورقة كبيرة من ذلك النوع الفخم

الأنيق وأخذ يتلو عليّ في صوت تعبث به غنّة الطرب والإعجاب، ورأسه يترنّح ذات اليمين وذات الشمال، ووجهه يطفح بشراً، وعيناه ضاحكتان:

إلى إلهة الفن، وربّة النبوغ، إلى ذلك العصفور المغرّد فوق أفنان العبقرية الخ... من تلك الكلمات المرقّشة التي تجعل من الفن أغصاناً وأشجاراً بل وروضة كاملة، وتجعل من مومسته عصفوراً يتغرّد فوق أفنانها.

وبعد تلك المقدّمة الطويلة التي لا تنتهي من روضة إلا إلى غصن. ولا من شجرة إلا إلى طائر قال:

«إلى....

نتقدّم بمجهود سنة كاملة، وثمرات قريحة مخلصة دائبة...

نتقدم بمجموعة رواياتنا التي ترجمناها وأعددناها لسنتنا المقبلة»[1].

وبعد أن أتمّ صاحبي خطابه، طواه بعناية ووضعه في محفظة أنيقة أعدّت لذلك. ثم رفع إليَّ وجهه وقال:

ما رأيك؟

---

(1) توفّر هذه الحادثة عنصراً من العناصر التي دفعت بأبي القاسم إلى التمرّد على حركة الشعر في تونس وإلى النقمة على الشعراء، انظر ما قاله توفيق بكّار، مشاركة في دراسة أبي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية عدد 2 ص 175 ـ 179.

فقلت تسألني عن رأيي؟

قال: نعم.

قلت إنّك بعملك هذا تُهين كرامتك ويراعك وقريحتك، وتجعلها تنظر إليك كما تنظر إلى مهرّج معتوه، حسبها أن تلقي عليه نظرة راضية من وراء أهداب علقت بها شهوات كثيرة، حتى تستعيده إليها راضياً بكلّ ما تأمر.

ثم إنّك بهذا لا تطمئنّ إلى رضاها ولا تأمن غدرها، لأنّك تعلم أنّها أمةُ الدرهم والدينار، فلو عرض عليها غيركم مقداراً أوفر ممّا تعرضونه عليها لاتّبعته، ولسخرت بكل خطبكم المنسّقة ومجهوداتكم الفائقة. وبذلك تكونون قد خسرتم كرامتكم وكل ما لديكم، ولم تظفروا بشيء.

وقد هالت صاحبي كلّ هاته الصراحة، فلم يجب إلا بهزّة من كتفيه وبابتسامة ذاوية متصنّعة أردفها بقوله:

«لقد غلوت كثيراً، فإنها لا تتسفّل لمثل هاته الوهاد...».

فلم أجد فائدة في محادثته مرة أخرى. وسكتّ ساخراً، ثمّ أردت أن أصافحه مودّعاً، فأبى عليّ ذلك، وتمسّك بي متشبّثاً وأقسم أن أرافقه إلى أين هو ذاهب.

فرافقته مرغماً. وبعد يسير وصلنا منزل المومس. فتقدّم إلى الباب وضغط على الزرّ ولبث ينتظر. وظللت أنظر إلى الناس وهم غادون رائحون في الشارع الرحب

الفسيح. وبعد ساعة انفتح الباب، وظهرت من خلفه أخت المومس. فما كان من صاحبي إلا أن انحنى حتّى كاد يلامس الأرض. ثم تناول طرف ردائها وقبّله بخشوع كما يقبّل الناسك المتبتّل ستار المعبد المقدّس. فألقت عليه نظرة ساحرة وابتسامة ماكرة، يمتزج فيها الخبث بالمكر والازدراء. ثمّ تقدّمت إليّ مرحّبة. وتقدّمتنا إلى الطابق الثاني ثم أدخلتنا إلى غرفة نوم المومس. ولمّا دخلنا إلى مخدع «آلهة الفن»[1] كما يريد أن يقول صاحبي في خطابه، ألفيناها مضطجعة فوق سريرها بين المساند الحريرية واللحف المزركشة. فتقدّم إليها صاحبي، وفي نصف ركوع مدّ إليها يده مصافحاً. ولمّا أبصرتني حاولت أن تنهض لتصافحني. فابتدرها صديقي الأديب قائلا: لا تتعبي نفسك ولا تكلّفيها النهوض، فإنّه صديق كنفسي. فلمّا لم تستطع اعتذرت إليّ فأجبتها بما حضرني...

حديث سخيف لا طائل تحته. وقف صديقي إزاء السرّير ورأسه لا يكاد يتجاوز حشيّة السرير. وأخذ يتلو خطبة في صوت حاول أن يجعله رصيناً رنّاناً واضح المقاطع قويّ النبرات. ولمّا أتّم خطابه قدّمه إليها في شيء كثير من الاحترام والإجلال. ولا تسأل عن سرور صاحبنا

---

(1) اذا كانت «فينيس» (Vénus) أو «أفروديت» (Aphrodite) إلهة الحبّ والجمال فإنّ «أبولون» (Appollon) أو «فوبيس» (Phoebus) هو إله النور والشمس وإله الموسيقى والشعر والفنون: انظر

Dictionnaire encyclopédique: Alpha, volume 16 p 1993

حينما قالت له: «أحسنت» ووضعت خطابه بين نهديها كناية عن الرضاء.

لا تسأل عن فرحته فإنّني ما حسبت إلا أن المقعد سيثب به أو يطير. وهكذا تمّت تلك المهزلة البشرية. هاته المهزلة التي تضحك وتبكي في آن واحد، هاته المهزلة التي كان بطلها واحد من فئة تدّعي لنفسها الزعامة الفكرية في هاته البلاد، واحدٌ من طائفة أدباء البلاد التونسية...!

28 ـ إلى هنا ختم صاحبي قصته، وقال لي: ماذا ترى في هذا الأديب؟

فقلت: أرى فيه أنه لا يملك شيئاً من كرامة النفس الإنسانية، ولا عزّتها العريقة، هاته الكرامة والعزّة التي هي ذخر الإنسانية الثمين، والتي يحتاج إليها الأديب والفنان أكثر من كل إنسان، لأنها هي التي تخلق في نفسه تلك العزيمة الاستقلالية المنتجة. تلك النزعة التي تجعله أكثر شعوراً بنفسه واعتزازاً بها ممّا عداه. وبذلك تكتسب شخصيته الوضوح والجلاء في آثاره، وتتّخذ لها مسلكاً خاصاً بين المسالك، ومذهباً لها بين مذاهب الحياة[1].

والتماس هاته الحقيقة لا يكلّفنا عناء البحث. فإنّ أكبر الشخصيات في عالم الأدب والفنون إنّما هي تلك الرؤوس المفكّرة التي تعتزّ بما لها من مواهب، وبما عندها

(1) انظر دراسة لمحمّد قوبعة، الشعر في كتابات الشابي النثرية ضمن كتاب دراسات في الشعرية، الشابي نموذجاً ص 177 ـ 221.

من شعور، والتي تشعر أنّ لها كياناً مستقلاً لا يمكن أن يندمج في سواه، وأن لها عزّة لا ينبغي أن تهان، في حين أن أحقرها هي تلك التي يضعف شعورها بنفسها وبما لها من عزّة وكرامة فتزجّ بنفسها في سبيل المهانة والذلّ والتقليد، ولا تشقّ لنفسها سبيلاً بكراً للمجد والحياة.

فالمتنبي[1] قد كان عزيز النفس شاعراً بعزّته وكرامته رغم امتداحه الملوك، وبذلك تخطّى أعناق الدهور إلى سماء الخلود. والمعرّي[2] قد كان أكثر شعوراً بعزّته وكرامته، وبذلك ابتكر مذهباً جديداً في الفكر، ومدرسة حديثة في تفهم الحياة.

قد بقيت أحاديث أدبية كثيرة حال دون كتابتها هنا امتلاء الصحيفة.

---

(1) أبو الطيب المتنبي (303 ـ 354 هـ)، انظر الشعر المنسوج على طريقة المتنبي الشابي، أغاني الحياة ص 17.

(2) أبو العلاء المعري (363 ـ 449 هـ)، انظر الشعر المنسوج على طريقة المعري، الشابي، أغاني الحياة ص 101.

الإثنين 6 جانفي 1930

29 ـ كنّا جلوساً بقاعة المطالعة بجمعية قدماء الصادقية[1]. وكان الحديث يدور حول سي يوسف المحجوب[2] وإخلاله بالوعد الذي ضربه للناس في أنّه سيلقي مسامرته بالنادي الأدبي[3]، وتَرْكه النّاس ينتظرونه بدون طائل، ثمّ افتياته على رئيس القدماء ورئيس الخلدونية ونشره بالجرائد أن سيلقي مسامرته عن: «فرجسون[4] أو الروح والجسد» تحت إشراف القدماء بقاعة الخلدونية[5]. وقد كان أكثر الحاضرين لائماً عليه فيما عمل، والبعض منهم ناقم ساخط، والبعض الآخر صامت لا يبدي رأياً.

---

(1) جمعية قدماء الصادقية: تأسست يوم 23 ديسمبر 1905 برئاسة خيرالله بن مصطفى (1867 ـ 1965) انظر: Ali Mahjoubi, les Origines du mouvement national pp 119-122

(2) يوسف المحجوب (1867 ـ 1965). لم يكن له ذكر مخصوص متميز.

(3) النادي الأدبي: انظر ما يقوله محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص 97 ـ 132.

(4) فرجسون (Bergson) هنري، فيلسوف فرنسي (1859 ـ 1941).

(5) الخلدونية: تأسست يوم 22 ديسمبر 1986 ترأسها محمد الأصرم (1858 ـ 1925) حلّت الجمعية سنة 1958 انظر: Monji Sayadi, Al jam,iyya al Khaldunyya 1896 - 1958 p 73 - 76.

30 ـ وما هي إلا ساعة حتى دخل أمين مال القدماء فشارك الناس فيما هم فيه. ثمّ تطوّر الحديث وأخذ مجرى آخر غير ما كان عليه. طلب رئيس القدماء من السيد بوسن[1] أمين مال القدماء أن يدفع فرنكات 150 في مقابل تلقّي ابنه دروسه بالخلدونية ستة أشهر، وأن يبقيها أمانة عند رئيس القدماء إلى أن يقتطع باسمه وصلاً، فما كان منه إلا أن أدخل يده في جيبه وسلم المقدار إلى رئيس القدماء. وإذ ذاك صاح رئيس الخلدونية ضاحكاً: سترى اسمك في الجرائد معلناً عنه أنّه تبرّع على الخلدونية بمائة وخمسين فرنكاً لأن الخلدونية تعطي دروسها مجّاناً. وعندها قال رئيس القدماء: بل أحتجزها للقدماء كشيء متبرّع به عليها من أمين مالها.

فكانت مشادّة بين الأخوين الرئيسين فيها كثير من الدعابة والجدّ. كلٌّ يدّعي أن جمعيته جديرة به. ولم يُحسم الخلاف إلا بكلمة من سي بوسن بأنّه يتبرّع على كلّ من الجمعيتين بهذا المقدار. وهنا كان هتاف ودعوات وبسمات، انهالت على رأس أمين المال قُبَلُ الرئيسين الحاضرين ممزوجة بشيء من اللهو البريء. وإذ ذاك قام الأخ زين العابدين السنوسي[2] معلناً للجماعة نبأ جديداً عن

(1) حمودة بوسن، من أثرياء تونس الذين بذلوا الأموال لصالح النشاط الثقافي وهي ظاهرة منتشرة تفصح عن إيمان التونسيين زمن الاستعمار بالعمل الثقافي الفكري واعتقادهم أنه يعضد النضال السياسي.

(2) زين العابدين السنوسي (1898 ـ 1965) من رجالات الفكر والثقافة من =

سي حمودة بوسن كما يقول الأخ بتعبيره هذا النبأ هو أن «سي حمودة» تبرّع بمبلغ قدره ثلاثة آلاف فرنك لتكون جائزة تُخصّص لبحث أدبي يتسابق فيه الأدباء التونسيون، وزاد على ذلك مخاطباً أمين المال: «إنني يا سي حمودة العزيز، ويا نوبل تونس الكريم، سأخصّص لك ولجائزتك صحيفة من «العالم» تحلّى برسمك ويجعل عنوانها هكذا: «جائزة بوسن» كما يستعمل الغربيون «جائزة نوبل»، من دون تحلية ولا زيادة.

31 ـ ولقد هزّتني أريحية هذا الرجل الفاضل النبيل الطيب القلب بصورة لم أستطع طبع عواطفي، فنهضت من مكاني وجلست إزاءه أشكره على مبرّاته. وبعد ذلك أخذنا في تعداد أسماء الأفراد الذين يستحسن أن تتكوّن منهم لجنة التحكيم. فعددنا أفراداً كان من بينهم الأخ زين العابدين السنوسي بطلب منه وإلحاح في ذلك وإثر ذلك قال الأخ زين العابدين السنوسي: «سأحدّثكم بنبإ جائزة أخرى أدبية، ولكنّها دون هذه في المنزلة، هي جائزة مالية تبرّع بها فاضل آخر لتنشيط الأدب، وإن كان في استطاعة هذا الفاضل أن ينشّطه بأكثر مما نشّطه به، إذ أنه مثرٍ وفي الدرجة الأولى من الثراء[1]، ثمّ قال موجّهاً خطابه لحضرة أمين المال:

= مؤلفاته «عبد الرحمان بن خلدون» و«محمد بيرم الخامس» و«محمد قابادو» و«أبو القاسم الشابي» و«الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» وهو صاحب مجلة «العالم الأدبي».

(1) ظاهرة الجوائز من العلامات على النشاط الفكري في الثلاثينات وعلى =

«ولكن الله لم يرزقه ثراء في قلبه على نسبة ثراء جيبه. أمّا أنت يا سي حمودة الغالي، فقد أعطاك الله ثروة في القلب، وأخرى مثلها في الجيب». فقال له ذلك الرجل الطيّب القلب: «عدّي عن ذا يا سي الزين». ثمّ قال الأخ زين العابدين: وفي عزمي أن أفتح اكتتاباً حتى تصير الجائزة ثلاثة آلاف فرنك أخصّصها لمسابقة روائية تونسية، وتكون الجائزة جائزة «العالم»[1]. وفي ذلك الوقت تذكّر أنّه قد نبّهه قيّم القدماء إلى أن رجلاً يريد مقابلته فذهب.

32 ـ لمّا خرج التفت إليّ سي حمودة بوسن وقال: «إنّ سي زين العابدين يقول كثيراً وأنا أخاف من المكثرين». فقلت له: إن سي الزين يقول كثيراً ولا يعمل. ثم ندمت على تسرّعي بمثل تلك الجملة، لأنّ الأخ زين العابدين نشيط كالنملة، حريص كالأرض ولا يصبح قوّالاً غير عامل إلا اذا لم يجد مجالاً للعمل. فإنّه يندفع في القول الكثير وكأنّه يعلّل بذلك نفسه الظامئة، وآماله الفساح.

= إيمان أهل الأدب الحق ـ بوظيفة الإبداع في النهوض بالإنسان.

(1) العالم: مجلة العالم الأدبي، مجلة أدبية لخدمة المعرفة والأدب في الشمال الإفريقي، صاحبها زين العابدين السنوسي، صدر أول عدد منها في مارس 1930 وقد كانت تصدر بانتظام نسبي بين 1930 و1936. وصدر عددان سنة 1952 تعتبر هذه المجلة مجالاً رحباً احتضن الأدب الأدبي التونسي في المرحلة التي كانت تصدر فيها (لم يكن صدورها منتظماً) انظر: محمد حمدان، دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية ـ من سنة 1838 إلى 20 مارس 1956 ص 96 ـ 97.

33 ـ ولمّا عاد الأخ زين العابدين كان مبتهجاً ضاحكاً، وصاح بقيّم القدماء «هات أربع كاسات طرنجية والدفع عليّ». ولمّا شربناها خرجنا، وأنا مبتهج أعظم الابتهاج، إذ رأيت الناس في تونس قد أخذوا يشفقون على الأدب، ويعملون على تشجيعه والنهوض به إلى مستواه بمختلف الوسائل. ثم افترقنا ونفسي تفكّر بالأوساط التونسية فإذا بي ما التفت إلى ناحية من نواحي الحياة التونسية إلا وأجد فيها نشاطاً وحركة ونهوضاً ممّا يبشّر بأنّنا الآن في عصر انتقال وتطوّر ستشمل حركته كلّ ضروب الحياة في تونس. حقّق الله الأمل. فقد طال هذا الظلام!

الثلاثاء 7 جانفي 1930

34 ـ أشعر الآن أنّي غريب في هذا الوجود، وأنّني ما أزداد يوماً في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعوراً بمعاني هاته الغربة الأليمة.

35 ـ غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي يتحدث إلى قومه عن رحلاته البعيدة، فلا يجد واحداً منهم يفهم من لغة نفسه شيئاً[1].

36 ـ غربة الشاعر الذي استيقظ قلبُه في أسحار الحياة حينما تضطجع قلوب البشر على أسرّة النوم الناعمة، فإذا جاء الصباح وحدّثهم عن مخاوف الليل وأهوال الظلام، وحدّثهم في أناشيده[2] عن خلجات النجوم ورفرفة الأحلام الراقصة بين التلال، لم يجد من يفهم لغة قلبه ولا من يفقه أغاني روحه.

37 ـ الآن أدركت أنّني غريب بين أبناء بلادي. وليت شعري

---

(1) انظر التشابه بين هذه المعاني التي ابتدأ بها الشابي مذكراته وقصيدة النبي المجهول: أغاني الحياة ص 102.

(2) لاحظ الجوار بين الأناشيد وأغاني الحياة، العنوان الذي اختاره الشابي لديوانه.

هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوبَ البشر، فترتّل أغاني أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغةٌ مفكّرةٌ سيخلقها المستقبل البعيد. . .

أمّا الآن فقد يئست. إنني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة، ولا يفقهون صورة واحدة من صور الحياة الكثيرة التي تتدفّق بها موسيقى الوجود في أناشيده، الآن أيقنت أنني بلبل سماويّ قذفت به يد الألوهية في جحيم الحياة، فهو يبكي وينتحب بين أنصاب جامدة لا تدرك أشواق روحه، ولا تسمع أنّات قلبه الغريب. . . وتلك هي مأساة قلبي الدامية. .

يقولون حدّثنا عن الحقيقة، وخلّنا من خطرفة الخيال. . وهل حدّثهم قلبي عن غير الحقيقة منذ علّمته الحياة الكلام؟ ولكنّني حينما تحدّثت عن الحقيقة لم أتحدّث عنها بتلك الأحاديث التافهة التي ألفوا أن يسمعوها عن جدّاتهم في سكون الليل، وهم بين تهويم النوم ومناجاة الأحلام. . .

ويقولون: صف لنا الحياة، وهل وصفت لهم غير الحياة منذ غنيت لهم أناشيدي. ولكنّي حين وصفت لهم الحياة لم أصفها لهم من نواحيها القريبة الواضحة، وإنّما وصفتها من نواحيها البعيدة الغامضة المحجّبة بالضباب[1].

ويقولون: مالك لا تفكّر في شعرك؟ وإن لك في

---

(1) انظر ما يقوله الشابي في أغاني الحياة ص (102 ـ 105).

أسلوبك جمالاً ما نجده عند سواك! وليت شعري! ما هو التفكير إن لم أكن مفكّراً في أغانيّ. . . ! لست أدري حين يقولون ذلك هل أنا الشاعر المجنون الذي يترنّم منشداً بين القبور؟! أم هم الأغبياء الذين لا يفهمون أشواق الحياة. . . ؟!

38 ـ اجتمعت صباح هذا اليوم بأديبين أعرفهما كثيراً، ولا أريد أن أسمّيهما: أحدهما ملحد متجاهر بإلحاده، وثانيهما ملحد يكتم إلحاده إلا عن الخاصة من خلصائه الذين لا يخشى لهم مغبّة. وما أن أستقرّ بي المجلس حتّى قال ثانيهما يخاطبني:

«إنّ أدبك يا صديقي فنّ غريب لا أظنّه يعيش في تونس، فأنت في شعرك من الشعراء الذين يدينون بالمذهب الرمزي: «سانبوليزم»[1]، وإنني لعلى يقين من أن أدبك لا يفهمه في تونس إلا أفراد قلائل لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة على الأكثر.

فعارضه الأديب الأول قائلاً: أراك غلوت كثيراً في حكمك، وجاوزت حدّ الإنصاف وما أدراك أنّ أدب صديقنا لا يفهمه إلا مثل هذا العدد النزر اليسير. ولأبدأ بنفسي، فإنّني أفهم شعر صديقنا حقّ الفهم، وأدرك مراميه

(1) «سانبوليزم» Symbolisme: المذهب الرمزي، لاحظ الربط بين هذا الاتجاه والمدرسة الرومنطيقية في نظر معاصري الشابي وقد أشار الأستاذ توفيق بكار إلى الخلط بين الاتجاهات والمدارس: مشاركة في دراسة أبي القاسم الشابي ص 177 ـ 179.

البعيدة، وأشعر حين أقرأه بخيالات تجول في نفسي، وبعواطف تتحرّك في قلبي، وبآفاق تنفسح أمامي وتمتد. ولكنّي رغم كل ذلك ورغم إعجابي بأدب صديقنا وإكباره، فإنّني أودّ لو لم يقصر مواهبه على هذا اللون الوحيد من الأدب، ولو خاض معترك الحياة وعاد لنا بمثل عنه وصور وميزات.

فأجابه الآخر قائلاً: إنّني لا أزال مصرّاً على رأيي وأجزم به فإن أمير الشعراء مثلاً لا يفهم من شعر أبي القاسم الشابي شيئاً. أقول لك هذا وأنا على يقين ممّا أقول. إن هذا الفنّ من الأدب الذي يتّخذ من الطبيعة رموزاً لمعاني النفوس جميل جدّ جميل. ولكنّه سام جدّاً، وغامض في سموّه، بحيث إنه لا يفهمه إلا نفوس قليلة نادرة، حتّى أنّني لا أفهم من فنّ أبي القاسم ومراميه إلا قليلاً حينما تكون ليس لها من الغموض والرمز حظ كبير. وقصاراي فيما عدا ذلك أنني أحسّ بقوة غريبة تستحوذ عليّ حين أتلوه لا أستطيع لها فهماً. فأعجب به وأقول: لا بدّ أن وراء هذا الرنين حياة، ولا بّد أن خلف هاته الغيوم آفاقاً فسيحة».

39 ـ ولمّا انتهى صاحبي من كلمته، أحسست باليأس والقنوط يستحوذان عليّ، وقلت في نفسي كما قال يوليوس قيصر[1]

(1) يوليوس قيصر (Jules Cesar) (101 قبل المسيح ـ 44 قبل المسيح). قائد روماني ورجل سياسة أضحى صاحب السلطة على البحر المتوسط كلّه.

حين لعبت به السيوف: «حتى أنت يا أنطونيوس»[1] أجل! فقد كنت أحسب أنّه خير من فهمني، وأدْرَكَ أشواق قلبي وأفراحه، وأصغى لأغاني روحي، وأغانيها في ظلمة القفر البعيد... فإذا به شرٌّ من جهِل لغة نفسي، ولم يفهم منها إلا الساذج البسيط. وظللت صامتاً لا أتكلّم، وأنا أقول في نفسي: «لست والله غير طائر غريب يترنّم بين قوم لا يفهمون أغاني الطيور، ولكن هل يحفل الطائر بالوجود حين يترنّم؟ هل يسأل النّاس أيّكم يفهم أغاني الطيور؟ كلا! يا قلبي! كلا... سرْ في سبيلك يا قلبي، ولا تحفل بصفير الأبالسة، فإن وراءك أرواحاً تتّبع خُطاك.

---

(1) أنطونيوس (Antonius Marcus) 83 ـ 30 قبل المسيح وفي رواية «حتى أنت يا بروتس» (Brutus Marcus Junius) 85 ـ 42 قبل المسيح.

الأربعاء 8 جانفي 1930

40 ـ لم أغادر المدرسة سحابة هذا اليوم، فقد كان النهار كئيباً متجهّماً تلبّد في سمائه غيوم كثيرة. وكان العملة يعملون لتكليس غرف الطلبة، وكانت أدباش الطلبة وخريثهم مكردسة هنا وهناك، وكانت آلات العمل مبعثرة بالبيوت وأمام الجدران. وبالجملة، فقد كان منظر المدرسة على غاية من التشويش وسوء النظام، ولكنّني مع ذلك اخترت المكوث بالمدرسة كامل هذا اليوم على أن أغادرها فقضيت قسماً من الصباح في دراسة قانونية صحبة بعض رفاقي من طلبة الحقوق، زارنا في أثنائها ضيف ثقيل، كاد أن يكدّر علينا ما اجتمعنا لأجله، وأن ينغّص علينا الحياة.

41 ـ وقد كان زائرنا هو ناظر العملة الذين يعملون بالمدرسة. وهو رجل أشقر اللون، ممتلىء الجسد، تمتزج في نظرته غباوة الضبع بخبث الثعلب. وقد كان صاحبنا مهذاراً لا يكاد يكفّ عن التحدّث والتساؤل، حتّى لقد همس إليَّ بعض رفقائي ضاحكاً. «ما أجدره بصناعة حلاق، ولكن القدر ظلمه حين وضعه في وظيفة مراقب العملة».

دخل علينا صاحبنا وحيّا؛ ثم جلس على مقعد

والتفت إلى الشبّاك فرآه مفتوحاً، فأراد أن يلقي علينا نصيحة غالية.

فقال: «ما كان من حقّكم أن تفتحوا الشبّاك في حين أنّه مواجه لباب البيت، ألا ترون أنّه يحدث تيارات هوائية بالبيت ربّما أضرّت بكم وأضرّت بالجالسين».

فقال له ربّ البيت: «لقد فتحناه قصد إحداث هذا التّيار لجرف رائحة النوم وتصفية هواء البيت».

فلم يسكت وقال: «ولكن هواء البيت قد أصبح نقيّاً صافياً ولذا فالواجب غلق الشبّاك أليس كذلك؟».

فقال له صاحبي وكان أوسعنا صبراً: «لقد فتحناه عن إرادة وقصد، وغايتنا أن الهواء متجدّد على الدوام، خصوصاً ونحن بعيدون عن منطقة الخطر، إذ أنّ مجلسنا بعيد عن مصب التيّار الهوائي».

فلم يقتنع صاحبنا الثقيل، وأراد أن يطيل الحوار. ولكنّنا أغضينا عنه ولم نعره التفاتاً. وأخذت أسرد، وكأن صاحبنا لم يفهم، فزاد في حديثه الجميل، ثم التفت إلى أحدنا وكان يدخّن قائلاً:

«أليس حراماً عليك أن تدخّن، وأنت تدرس العلم، وكتب العلم أمامك مفتوحة؟».

فابتسمنا جميعاً، وأجابه المدخّن: حقّاً، ولكن هاته كتب قانونية ليس إلا؟ ثم أعقب الرفيق كلمته بابتسامة

فيها من السخريّة شيء كثير.

ولكنّ صاحبنا الثقيل لم يفهمها أو لم يرد أن يفهمها، بل قال ضاحكاً: «إذاً فناولني سكارة»[1] فلمّا ناوله قال: «بارك الله فيك» وما كان أغنى صاحبي عن دعواته، ثمّ أردف قائلاً: «حقاً إن التدخين جميل يدفع عن النفس ما يثقل عليها» وأتبع كلمته الذهبية بابتسامة بغيضة مستثقلة.

42 ـ وانتهزت فرصة سكوته وتناولت الكتاب وأخذت أتلو، ولكن صاحبنا أخذ يتحدّث من جديد مع بعض الرفقاء. فوضعت الكتاب ولبثت صامتاً أصغي لحديثه المملّ، وأعجب لروحه الثقيلة التي لا تفهم أنّها نقمة سلّطها الله علينا. ودخل في حديث طويل عن الوظيف والمتوظفين، وعمّا نقرأ من دروس وما لنا من مستقبل. ثم تساءل عن الرئيس الذي سيخلف رئيس الجمعية المتوفّى، فأجابه أحدنا: «بأنّه يشاع أنه سيكون فلاناً، فأخذ يحاوره: ثم أخذ يسأل عن سكنى فلان، في أيّ شارع هو؟ وعن الشارع في أيّ قسم من العاصمة هو؟ وما عدد المنزل؟ وما هي صفاته؟ ولم يبق له إلا أن يسأل عن عرضه؟ وطوله؟ وكم فيه من طابق؟ وكم فيه من لبنة؟

وهنا كان قد ضاق ذرعي به، ونفد كل ما معي من الصبر. فأخذت الكتاب بعنف وأخذت أتلو السطور

---

(1) السّكارة، باللهجة التونسية «القفل»، نوع من أقفال الأبواب.

والصفحات، وكأنّ صاحبنا قد شعر بأنّ مركز الثقل النوعي قد كان كامناً فيه فتحرّك وتحفّز وأخذ ينظر. ولمّا رأى أنّه لم يقسم عليه أحد ليطيل الجلوس نهض واقفاً ثم ودّع وانصرف.

43 ـ ولمّا خرج شعرت كأن ثقلاً قد أزيح عن عاتقي، وأخذت أتنفّس بملء رئتي من ذلك الهواء الذي كان ينفحنا به الشبّاك المفتوح، رغم أنف صاحبنا الثقيل، ثم قلت: الحمد لله على رحمته بعد نقمته، ونعمته بعد عذابه.

وأمّا المساء فقد قضيته بين التنقّل من بيت إلى بيت، ومن الوقوف مع هذا الطالب الذي يخاصم العامل ويتّهمه بأنّه غشّه ولم يخلص في عمله، ويهدّده بأنّه سيأتي بأمين يقدّر ما في عمله من نقص وغش، إلى الوقوف أمام صاحبنا الثقيل والاستماع إلى حكمه الثمينة الغالية، وقصصه الجميلة الفكهة التي تغشى على النفس وتكاد تقضي عليها، إلى دراسة قانونية مع رفاقي من طلبة الحقوق. وهكذا تصرّم العشي وانقضى.

44 ـ ولمّا تفرق جمع العملة وانقضى العمل، وذهب كلٌّ في سبيله وانتهى عملنا القانوني، جلست إلى المنضدة وأخذت أتلهى بتنظيم الكتب والعبث بالأوراق. وما هي إلا ساعة حتّى أقبل صديق أديب وبيده السياسة الأسبوعية، فتناولتها منه وأخذت أقرأ بعض فصول فيها، فوقع نظري فيها على فصل موجّه إلى الدكتور

هيكل[1] أذكرني بفكرة انتقاديّة وجّهتها على مقدمة هيكل التي كتبها لكتابه «تراجم مصريّة وغربيّة» التي اختصر فيها تاريخ مصر وذكر فيها آراء غريبة وطرقاً شاذة في التاريخ ودراسته؛ فصارحت صديقي بفكرتي، فألحّ عليّ في أن أكتبها وأنشرها على صفحات «العالم» فوعدته، ولكنّني لم أكتبها لحد الآن، ولا أدري هي أنا كاتبها أم لا؟ إن فكرة المقال جاهزة مهيأة لا تحتاج إلا لإجراء القلم، فإذا المقال حاضر، ولكنّني أشعر بتثاقل عن كتابة الفكرة لا أعلم مأتاه.

---

(1) هيكل: محمد حسنين هيكل 1888 ـ 1956. لاحظ الرؤية النقدية عند الشابي وهي تقنع بالأدب والإبداع واتّسعت للفكر بصفة عامة وللتاريخ بصفة خاصة في هذه النقطة. ولئن أوجز الشابي في الكلام واختصر وأشار فإنّ النقد يحوم حول تمجيد التاريخ الفرعوني عند طائفة من أدباء مصر في تلك الفترة ولم نجد عند أبي القاسم في كل ما كتب إلاّ روح الاعتزاز بالانتماء إلى التاريخ العربي الإسلامي. ولا يمكن أن نتوهّم ما يعكر صفو هذا الانتماء من خلال الخيال الشعري عند العرب، إذ الأفكار فيه وإن بدت حادة شديدة تخترق سكوناً جاثماً وتدعو إلى حركة إبداعية تقوم فيما تقوم على النبش في أعماق «النمطية» الآسرة وهي الخضوع للعيار وللعمود للعروج نحو قاع أسطوري يحرّر الشعر. فكان النقد قائماً على نسيج رومنطيقي يجدر أن يُراعى.

الخميس 9 جانفي 1930

45 ـ عرفته أديباً له حظ موفور من بُعد النظر ورجاحة التفكير وجمال الأسلوب. وعرفته شاعراً له روح حسّاسة شاعرة، وأحلام غريبة رائعة، وخيال قوي وثّاب.

46 ـ وكنت إذا جلست إلى الناس واستمعت أحاديثهم شعرت بالحاجة إلى ما يثير عواطفي، ويحرّك وجداني، ويؤجّج في داخلي نيران الحياة، لأنّني أرى الخمول يدبّ في مشاعري ويستحوذ على نفسي كأنّها انقلبت قبضة من رماد خابية، أمّا بجواره فإنّني أحس بعواطفي وإحساساتي تتّقد وتتوهّج وتندفع وتجيش كعاصفة من نار، وأشعر بأنّني شعلة حيّة نامية تضطرم في موقد هذا الوجود، لأنّه كان يحمل بين جنبيه عاصفة نارية مشبوبة تدوي بتيارات الحياة ولم يكن يحمل بركة آسنة تعكس على صفحاتها النائمة أشباح الجبال وظلال الغيوم، ولأنّني كنت أجد في صدره تلك النفس الحسّاسة الطموح الجيّاشة بشتّى المعاني والصور، وذلك القلب الشاعر الملتهب الذي يطبع كل ما يلامسه بطابع من نار.

نعم عرفته، ولكنّني في الحقيقة لم أعرفه، فإنّني لم

أكتشف مناجم قلبه الذهبية، ولم أطّلع على ما في روحه الشجيّة من كنوز غريبة قبل اليوم.

كان الوقت أصيلاً والشمس تلقي على أشجار البلفيدير حلّة ذهبية ساحرة، وفي السماء غيوم ملوّنة زاهية، وأنا ورفيقٌ لي جالسان إلى مقعد من مقاعد البلفيدير، وأمامنا سرب من عذارى الإفرنج يلعبن لعبة «التنس» في رشاقة وخفّة كالعصافير، وفي يميني كتاب «رافائيل»[1] الذي رسم فيه لامارتين[2] صوراً من شبابه الزاخر بالعواطف والأحلام، ورفيقي يطالع «تاييس»[3] وأنا أجيل بصري مرّة في جمال السماء التي توشّحها الغيوم، وأخرى في رقّة الشمس الذائبة على ذوائب الأشجار، وطوراً في فنّ الحياة الماثل في هؤلاء الغواني اللواتي ترنّح أعطافهن حُميا الشباب.

وأقبل صاحبنا الشاعر، وأنا أطالع صفحة من «رافائيل» ورفيقي غارق في «تاييس» إلى أذنيه. فقال بعد التحيّة يخاطبني وهو يجلس بيننا على المقعد:

«عجبت ألا يصرفك جمال الوجود وفتنة هؤلاء العذارى اللاّعبات عن أوراق الكتب؟! وقد عهدتك من

---

(1) رافائيل Raphäel رواية نشرها لامارتين Lamartine سنة 1849.

(2) لامارتين ألفونس دي، أديب رومنطيقي ورجل من رجالات السياسة الفرنسية 1790 ـ 1869.

(3) تاييس رواية لأناتول فرانس Anatole France 844 ـ 1924 نشرها سنة 1890 انظر: Dictionnaire des oeuvres, volume 6 p 393.

عبّاد الطبيعة والجمال. أو لا توافقني على أن الكتب رغم ما فيها أحياناً من غذاء شهي للفكر والعاطفة، كثيراً ما ظلّلت الناس وأركبتهم متن الشطط في أحكامهم؟ وإن خيراً لهم لو أخذوا دروسهم رأساً عن هذا الكون العجيب.

فأجبته: «لو كان كلّ الناس يستقون من منبع واحد هو هذا العالم الرائع لكان الناس أسعد حالاً مما هم عليه الآن، ولاستراحوا من كثير من الأضاليل والأوهام التي تثقل عقولهم وتنوء بها أرواحهم في أودية الزمان، ولكن الله ـ لشقاء البشر ـ لم يطبع الناس على غرار واحد في المواهب والملكات حتّى يمكّنهم كلّهم أن يتلقّوا دروس الحكمة عن هذا العالم الكبير. أما استصحاب الكتب فقد أصبحت عادة لي كلّما ذهبت إلى منتزه أطالعها حيناً، وأطالع الكون أحياناً، وأسترسل مع نفسي آونة في عالم كلّه أطياف وأحلام».

فالتفت إلى صاحبي، وكان قد رجع إلى الانكباب على «تاييس» وقال له: «وأنت ماذا تطالع يا صديقي؟ فإني أرى كتابك قد فتنك عن نفسك وملك عليك كلّ مشاعرك».

فقال وهو يبتسم: «تاييس».

فقال: «إنّ هذه القصة الفلسفيّة جميلة رائعة، ولكنّها لا تعدو ـ كآثار كل أولئك الذين ندعوهم فلاسفة وشعراء ومفكّرين ـ أن تكون ثرثرة نفس معذبة تحترق في جحيم الحياة».

فقلت: وكيف ذلك؟

قال: «لقد كتب هؤلاء الفلاسفة والشعراء والمفكّرون كثيراً، بل أكثر ممّا يتصور العقل، ولكنّ الإنسان ما زال في صميمه هو ذلك الإنسان الأول الذي يقضي أيّامه باحثاً عن طريدته بين الأدغال والأودية، وفي شعاب الجبال وأحشاء الكهوف، وما زالت الطبيعة كعهدها منذ الأزل، تلك الغابة الأبدة المرهبة التي يمشي في ظلماتها ركب الإنسانية التائهة بأقدام مهزولة وأجفان مطبقة»...

فقال له صاحبي ـ وهو يعابث صفحات الكتاب: «فما لك تنظم الشعر إذاً يا صديقي؟».

فأجابه في لهجة ملؤها المرارة والألم: «لأنني لم أجد دوراً أسخف من هذا أمثّله في رواية الحياة السّخيفة».

فابتسمنا حائرين، ثم صمتنا واجمين، ثم أطرقنا مكتئبين، وأخرج صاحبنا سيقارة أشعلها وانطلق يدخّن صامتاً. ثم وضع رجلاً على رجل وولّانا ظهره، وراح يغني أغنية رقيقة هادئة كثيراً ما يغنّيها حينما تكون نفسه هائمة، وأفكاره مضطربة ثائرة، ومرّت فترة من الزمن مثقلة بالحيرة والتشاؤم، وكان هو أثناءها يتغنّى بصوت خفيف كأنّما يناجي نفسه أو يخاطب روحاً هائمة، ثمّ نهض واقفاً وهو يقول:

«لقد مللت هذا المكان. فهل لكم في غيره».

فقلت له: «وكيف تَملّ يا صديقي وحولك هذا

المشهد الطبيعي الجميل، وأمامك هؤلاء الصبايا اللواتي لم تخلقهن الحياة إلا ليحرّكن في الناس عبادة الحب والجمال».

فقال متضجّراً: «الحب والجمال» «دعونا يا عبيد الحياة من هذه الكلمات الجوفاء ذات الرنين، فما الأفراح واللذات والأحلام والشهوات سوى أشراك ذهبية لامعة تنصبها لنا الحياة لتقودنا بها عبيداً مسخّرين إلى غاياتها البعيدة الغامضة».

فقلت: «وهل تدعونا أنت إلى التحرّر من عبوديّة الحياة؟».

قال: «كلا! فأنا لا أدعو إلى هذا لأن الانطلاق من عبودية الحياة معناه الموت، بل الموت نفسه ليس إلا لوناً آخر من ألوان هاته العبودية الخالدة، ولكنّني أكبر من العبد الأسير أن لا يحسب القيد حلية فيستقبله مهلّلاً شادياً محتفلاً بل يتلقّاه وهو عالم أنه ليس إلا قيداً برّاقاً وغلاً مموّهاً بالذهب.

فقلت له: «وما جدوى هذا؟ أليس هذا ممّا يجعل الحياة شديدة لا تطاق؟».

قال: «ما الجدوى وما الفائدة؟ تريدون لكل شيء فائدة، ولكنكم لا تسألون عن الفائدة من خلقكم في هذا الوجود.. ما الفائدة؟ حتّى الحقائق تريدون لها قيمة ذهبيّة..! تالله ما أسخفكم يا عبيد الحياة، الفائدة هي أننا

عرفنا الحقيقة ولو كانت مرّة، ولم نكن مخدوعين بشعوذة الحياة. . ، ولكنكم تفرّون من الحقيقة المرّة مؤثرين عليها حلاوة الأوهام».

ومرّ بنا صبي صغير يقتاد قرداً وهو يعرضه على النظّارة ليمثّل أدواراً علّمته إياها العادة والمران، فأشرت إليه في شيء من السّخريّة والجفاء والمرارة قائلاً: «يا للشقاء والخيبة على مثل هؤلاء تشيد الأمم صروح الأمل؟» فتأفّف قليلاً، ثم قال ثائراً وهو ينفث الدخان من فمه: «السخرية! الجفاء! الكلام! ذلك ما علّمتنا الأيّام، أمّا الحقائق فهي تبكي وحدها في ظلام الأسى. . ثمّ رماني بنظرة عطف وقال:

«لا تسخر يا صديقي! فإن كلّ واحد من أبناء الإنسان يجرّ من نفسه قرداً أو قردة في مسالك الحياة الوعرة. . ، فواحد من سخافاته وادّعاءاته، وواحد من غروره وكبريائه، وواحد من دناءة الطبع وخساسة النفس، وواحد من إقفار الذمّة وخراب الضمير، إلى كثير غير ذلك من أنواع القردة المعنويّة التي يجرّها الناس وهم لا يشعرون. . .»[1]

---

(1) عن رافائيل انظر مقال فؤاد الفرفوري، أثر رواية «رفائيل» للامارتين بترجمة أحمد حسن الزيات في قصيدة «صلوات في هيكل الحب» لأبي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية عدد 25 سنة 1986 ص 111 ـ 129.

الأحد 12 جانفي 1930

47 ـ ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا. ولعل خيراً لي أن أذهب إلى فراشي وأنام، لأنسى في عالم الأحلام مشاهد هذا الوجود السخيف وآلام القلب المرّة الموجعة[1].

48 ـ ولكنّني أدري أنني لا أنام إلا وبأجفاني خيالات الدموع وأشباح الأسى، سآوي إلى فراشي وستتجاذبني الأحلام المخيفة المزعجة والذكريات الأليمة الدامية، ذكريات الأمل الضائع والقلب الصديع، وسأرى أبي. آه نعم! ذلك الأب الذي قد شقّ له الناس لحده، وسوَّوا عليه التراب، وبقيت بعده في الحياة آلم وألذ، وأسر وأحزن. أجل سأراه كما قد رأيته في لياليّ الكثيرة الخالية حينما ينطفيء السراج ويشمل الغرفة ظلام الدجى... أراه وهو في حالة ساكنة هادئة، يحادثني في شؤون كثيرة بصوت هادىء مطمئن، وأراه وقد اشتدّت عليه وطأة الداء، وأصبح يُعالج ألم الموت ونزاع الحياة، والطبيب يفحصه

(1) انظر مقال: محمد فريد غازي، مرض أبي القاسم، بمجلة الفكر، ديسمبر 1959.

ويحقنه بأدوية كثيرة، ثمّ يخرج يائساً مخفياً يأسه عنّي أنا المسكين الصغير..

وأراه وقد شمله الموت براحته، فأصبح ساكن الطائر، متّزن النفس، تخاله في حلم النائم المطمئن، والنساء يبكين في قلب الليل ويملأن فجاج الأفق برنّات النياحة، وأنا كالطائر الذبيح أكاد أجنّ من الحزن والنّحيب، طوراً أقف عند رأسه، وأخرى عند رجليه، وأخرى أجلس عن يمينه، وأخرى عن شماله، وبيميني هاته أجرّعه من حين لآخر جُرَعاً من الماء يكاد يمازجها دمعي المنهّل، وتكاد تريقها هزّات تسبيحي، ثمّ رأيته التفت إليّ وأوقف مقلتيه، فحسبته يرنو إليّ فاقتربت منه قائلاً: أبي! أبي! ماذا تريد..؟ ولكن آه يا قلبي لقد كانت تلك نظرة الموت، وأنا لا أدري، أنا الطفل الصغير الذي لا يعرف مواقف الموت، حسبتها نظرات الحياة تدعوني. ثمّ لوى عنقه وشخص ببصره وارتجفت شفتاه بالشهادة التي لم يفتر عن ترددها، ولفظ النفس الأخير.

49 ـ لقد مات أبي أيها القلب! فماذا لك بعدُ في هذا العالم. مات أبي وظللت أنتحب وأنوح وأبكي بكاء النساء، ثم طبعت على جبينه البارد قبلة كانت آخر عهدي به. ﴿وسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيّاً﴾[1]، ورحم

(1) التعبير تضمين، انظر سورة مريم 19/ 15.

الله روحه بين الأرواح الطاهرة الكريمة.

كلّما آويت إلى فراشي طافت بي هاته الأشباح والرسوم. فلا أنام إلا وفي قلبي لذعة الذكريات، وفي أجفاني عبرات الأسى وها أنا ذاهب لأنام، وأنا أعلم أنني لن أنام إلا باكياً كثيباً.

* * *

الإثنين 13 جانفي 1930

50 ـ ذهبت أنا والأخ زين العابدين والأخ مصطفى خريف[1] مساء اليوم إلى النادي الأدبي لإلقاء محاضرتي عن كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى» الذي طلب مني النادي الأدبي أن أبسط لهم رأيي فيه. ولكنّنا لم نجد أحداً هناك. فجلسنا وأخذ الأخ زين العابدين يتلو علينا أقصوصة الحبيبة أو أحدوثة الحبيبة كما يريد أن يسميها الأخ عثمان الكعاك[2]، لأنه يرى كلمة أحدوثة أدق ترجمة لكلمة «نوفيل» الفرنسية.

وأحدوثة الحبيبة هاته قصّة صغرى كتبها الأخ زين العابدين بمشاركة شخص أبى أن يسميه، وأعدّها للعدد الثاني من مجلة «العالم» وهي قصّة تونسيّة حاول أن يمثّل فيها بعض العادات التونسيّة، وصور فيها بعض الأوهام الخرافيّة التي تستحوذ على عقول العذارى الشابات.

---

(1) مصطفى خريف (1910 ـ 1967) من الشعراء المعاصرين للشابي، كان له دور في الحركة الأدبية إلى مماته. من دواوينه «الشعاع»، «شوق وذوق».

(2) عثمان الكعاك (1903 ـ 1976) من رجالات التاريخ والثقافة من مؤلفاته «تاريخ الجزائر» ـ «الفلكلور التونسي» ـ «البربر».

واستعمل فيها طائفة من التعابير التونسيّة الخالصة التي لم تألفها العربيّة ولكنّها لا تأباها قواعدها. وفي أثناء تلاوة الأحدوثة أقبل الأخ المهيدي[1] ورفيق له. وبعدهما أقبل الأديب أبو الحسن بن شعبان[2]، وكانت الأحدوثة موشكة على الانتهاء. وظل الأخ زين العابدين يتلوها إلى أن انتهت في هاته الجملة: وظلت أمي حلّومة تشمّر عن ساعديها وتضحك إلى أذنيها؟

51 ـ وعلى إثرها دار الحديث حول الروايات الشعبيّة والأدب المحلي وكان مؤجّج هذا الحديث هو الأخ زين العابدين الذي كان يقول: «إن الروايات الشعبيّة والأدب المحلي ـ كما أنّها يجب أن تمثّل حياة الشّعب بما فيها من عادات وطباع وأخلاق ومميّزات ـ فإنها يجب أن تشتمل على كثير من تعابيره الفنيّة الدقيقة، وتراكيبه ومعانيه التي يستعملها في مخاطباته، لأن هاته أهم ناحية حيّة من نواحي الحياة الشعبيّة، ففيها تبدو صورٌ صادقة من نفسيّة الشعب التي تنم عنها فلتات قوله والتفاتات ذهنه».

52 ـ فقلت: إني أقرّك على رأيك هذا، ولكن على شرط أن يتسفَّل الأديب «للتحصيل على هاته الغاية» إلى أن يمزج أسلوبه العربي بالأسلوب العامّي المحرّف. كما يفعل بعض

---

(1) محمد صالح المهيدي (1902 ـ 1969) انظر: محفوظ تراجم المؤلفين التونسيين 4/ 410.

(2) ابو الحسن بن شعبان (1897 ـ 1963) انظر: محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين 3/ 198.

المصريين اليوم، فإن مثل هاته الطريقة السيّئة لقاضية على الأدب العربي الجميل، وماسخته إلى نوع من الأدب هجين، لا هو بالعربي البليغ ولا هو بالعامي الصميم، وإنما هو مسخ بين الإثنين. وإنما على الأديب الشعبي الذي يريد أن يكون موفّقاً أن يخضع اللغة العربيّة وأساليبها لاحتمال المعاني الشعبيّة التي تحمل طابع الشعب وميسمه. وبذلك تكون اللغة قد اكتسبت ثروة معنويّة طارفة تضيفها إلى ما لها من كنز تليد. أو أن يُدخل تعابير شعبيّة في اللغة العربيّة، على شرط أن لا تُخل بروح العربيّة، ولا بقواعدها الأصلية. وبذلك يكون الأديب مخلصاً للغة العربيّة، ومخلصاً لفنّه النزيه[1].

53 ـ فقال الأخ الزين: نعم إنها لفكرة قيّمة. وهذا ما حاولت أنا اتباعه في أحدوثة «الحبيبة». فإن كلمة «ضحكت لأذنيها» كلمة محليّة محضة لا تعرفها العربيّة من قبل، ولكنّها مع ذلك لا تنافي شيئاً من ضوابط اللغة، زيادة عمّا فيها من دقة التصوير لمعنى الضحك والإغراق فيه. ولا أعرف في العربية تعبيراً يضاهي هذا في دقّة التصوير لمعنى الإغراب في الضحك، إلا أنّني أعرف في الفرنسيّة تعبيراً قريباً من تعبيرنا في هاته الدقّة إلا أنّه دونه. وهو قولهم: «ضحك حتّى أفطس أنفه».

فقال الأخ ابرٰاهيم بورقعة[2]: «إن العرب يقولون

---

(1) انظر موقف الشابي: «الشعر والشاعر عندنا» ضمن كتاب أبي القاسم محمد كرو، آثار الشابي ص 141.

(2) إبراهيم بورقعة (1905 ـ 1982) رجل قانون ورجل ثقافة وهو من =

ضحك ملء شدقيه» وهو تعبير غير ظاهر المعنى، لأن الضاحك لا يمتلىء شدقاه.

فأجابه أبو الحسن بن شعبان بأنّ كيفيّة الضحك تختلف باختلاف الوجوه والأشكال. وظاهرتُه أنا على ذلك.

والذي يبدو لي الآن أن العرب لا يعنون بامتلاء الشدقين «انتفاخهما وإنما يريدون امتلاء الفم بصوت القهقهة كناية عن قوة الضحك ثم قلت لهم: «إن العرب يقولون ضحك حتّى بدت نواجذه» وهو تعبير قريب المعنى من تعبيرنا، لأن النواجذ قريبة من الآذان. وإذا انتفخ الفم من الضحك حتّى بدت النواجذ فقد قرب من الاذان».

54 ـ ثم انتقل الحديث إلى الأدب العامّي، فقال زين العابدين: «إن في أدبنا العامّي دقّةً في التعبير، وجمالاً في التصوير، وسعة في الخيال، بصورة توجب الإعجاب الكبير. أذكر أنني طالعت مرة أنا وأبو القاسم قطعة من هذا الفن، يصف فيها صاحبها البرق، فأعجبنا بها إعجاباً كبيراً إذ أنّه قد عبّر عنه بأبرع ممّا عبرت عنه ألفاظ شاعر، وأبدع ممّا صورته نفس فنّان».

55 ـ فقال أبو رقعة: إنني أعتقد أن الأدب العامّي بتونس أبلغ من الأدب العربي بها، وذلك لأن أدباء العربيّة بها تقيدهم كثيرٌ من التقاليد اللغويّة والأغلال الشعرية التي توجب

= أصدقاء الشابي.

عليهم احتذاء من تقدمهم من الشعراء، زيادة عن أنهم يكتبون بلغة ليست لغتهم، بخلاف من كانوا من قادة الأدب العامّي، فإنهم بعيدون عن مثل ما يتقيّد به الأديب العربي بتونس. ولذلك يكون من الفرق بين أدب هذا وذاك ما بين أدب الطبع وأدب التقليد.

وأنا أعرف واحداً من هؤلاء الذين يتملؤون بروح الشعب ولغته من يعمد إلى القطعة من الأدب العامّي ينقدها نقداً فنيّاً صحيحاً دقيقاً لو كسي الأسلوب العربي لكان خير أمثلة النقد الأدبي، إذ فيه تتجلى سلامة الطبع، ودقّة الحاسة الفنّية.

الثلاثاء 14 جانفي 1930

56 ـ أشعر اليوم بفتور في بدني، وبتوعّك في مزاجي، ولا أدري مأتاه. وأحسّ بكآبة[1] عميقة تستحوذ على مشاعري وتقبض على قلبي وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر والأقلام.

لا أريد أن أزيد أكثر ممّا ذكرت، لأنّني أرى النوم يغالبني والإعياء يدفعني للنعاس[2].

---

(1) انظر عن الكآبة دراسة منصف الجزار، مصادر الشعور بالكآبة في ديوان «أغاني الحياة» الفكر عدد 3، السنة 30، ديسمبر 1984 ص ص 131 ـ 137.

(2) لئن ذهبنا في تقديم المذكرات إلى شعرية العبارة عند الشابي وحصرنا الغاية الجوهرية في هذه الظاهرة فإنّ اللغة لم تجر على النحو ذاته في كل المذكرات فقد تصبح لغة عادية تجاري الواقع اليومي أو الحالة النفسية العرضية أو الوضع الصحّي المتقلب.

الخميس 16 جانفي 1930

57 ـ اعتزمت الذهاب إلى حديقة البلفيدير صحبة رفيق لي، فبريت القلم وأعددت القرطاس وتأبّطت كتاباً لما عسى أن تحّدثني به النفس من أفكار، أو يفيض به القلب من عواطف، لأنني لا أعلم متى تطغى عليّ الخواطر، وتزدحم عليّ الذكر، وتنهال عليّ الأفكار انهيالاً[1]،

فربّ نظرة بريئة من رعبوبة فاتنة أهاجت بقلبي ألف فكر، وابتعثت فيه ألف إدّكار غطّى عليه الزمن.

وربّ ابتسامة حالمة زوّقت لعيني مشاهد العيش، وأرتني جمال الحياة. . .

وربّ مرأى من مرائي هذا الوجود أضرم في قلبي نيران الشعور وأسكر نفسي برحيق الخيال، فأصبحت شعلة ناريّة تتّقد بين البشر.

58 ـ ولمّا صّح العزم اصطحبت رفيقي وسرنا، وقبل أن نتجاوز المدرسة التقينا ببعض الرفاق وخرجنا جميعاً وظللنا نسير

---

(1) نلمس في بداية المذكرة صورة عن المكاشفات التي تغرق أبا القاسم في عالم الشعر ـ انظر مقال محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية عند الشابي ص 55 ـ 175.

سويّة، ولمّا وصلنا مفترق الطرق سألونا إلى أين نذهب؟ فقلنا: إلى البلفيدير فعزموا علينا أن نرافقهم إلى أين هم ذاهبون، فقلنا: وما هي الغاية؟ فقال أحدهم: إنها مقهاة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها قريبة من البريّة، مكتنفة بالأشجار الجميلة والمشاهد المستحبّة، فاستهواني الوصف ورافقتهم، وما هي إلا ساعة حتّى كنّا نسير في المزارع التي تداعب الشمس أعشابها.

وكانت مشاهد كثيرة متباينة، ههنا صبية يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي[1] يتريضون في الهواء الطلق والسهل الجميل، ومن لي بأن أكون مثلهم! ولكن أنّى لي ذلك والطبيب يحظر عليّ ذلك، إن بقلبي ضعفاً.

آه يا قلبي! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنويّة والخارجيّة.

---

(1) الزيتوني نسبة إلى جامع الزيتونة والمدرسي نسبة إلى الذين يطلبون العلم في المدارس وأوّل مدرسة تونسية هي المدرسة الصادقية أسسها خيرالدين (ت 1890) وهي نسبة إلى الصادق الباي، وذلك سنة 1875.

السبت 18 جانفي 1930

59 ـ في هذا اليوم قد بدأت حياةً جديدة، ودخلت في طور من عمري جديد، طور المتاعب والمشاغل والمادة الصمّاء التي لا تعي ولا تسمع، ولا تفقه غير لغة المال.

جرت عادة العدلية مع تلامذة السنة الثانية من دروس الحقوق أن يدخلوهم إلى دوائر العدليّة بصفة مُعينين للكتبة لكي يستفيدوا من ذلك المران دروساً تطبيقية مفيدة تكون عتاداً لهم في مُقتبل أعمارهم حين يُصبحون حكّاماً.

وبالله، كم تشرئب لمثل هذا المنصب نفوس، وتتحرّق له قلوب مسكينة. ويا لله، ما أبغضه إليّ وأكرهه!.

60 ـ وكان يومنا هذا هو يوم توزيعنا على الدوائر المختلفة. وفي الساعة التاسعة والنصف كنّا أمام بيت أستاذنا محمد المالقي[1]. وما هو إلا قليل حتّى خرج الأستاذ. وبعد التحيّة سار بنا في منعرجات العدليّة، وصعد بنا في طباقها إلى أن وصل بنا إلى مكتب أحد أساتذتنا الفرنسيين ليقدم

(1) محمد المالقي: كان رئيساً لقدماء الصادقية 1932 ـ 1933، فهو من رجالات القانون التونسي في البلاد التونسية.

إليه أسماءنا. وبعد قليل كنّا راجعين أدراجنا وراءه إلى أن وصلنا أين كنّا جالسين. فدخل الأستاذ إلى مكتبه ليستخرج الورقة التي نُظّمت فيها كيفيّة توزيعنا. وبعد يسير خرج الأستاذ يحمل في يده ورقة، واستند إلى الحائط وأخذ يتلو على التلامذة المحيطين به أسماءهم، وكيفيّة ترتيبهم فكنت ورفاقاً لي ثلاثة بالدائرة المدنيّة. ولا تسل عن غضب هذا، واشمئزاز ذاك، وتألّم ذلك، لأنّه لم يحرز على المركز الذي كان يرجوه، إما لقلّة العمل فيه، أو لغزارة فائدته، أو لغير ذلك من الأسباب التي كانت تملأ أدمغة كثيرة. وأحسب أن مركزنا كان مغبوطاً من أكثر رفاقنا، قد اضطر أن يعقّب ذلك التصريح بقوله: «إنني أعلم أن كثيراً منكم سيغضب لأنني لم أرشّحه في الدائرة المدنيّة، ولكن من المعقول أن تعلموا أن هاته الدائرة لا تسع جميعكم. على أنني أقول لكم: إنه لا بد أن يقع تبادلكم المراكز كلما يمرّ عليكم حين من الدهر، لتكون الفائدة أشمل، والإنتفاع أكمل».

ولكن هذا لم يكفكف ممّا في أنفس البعض.

61 ـ ولمّا أتّم الأستاذ سردَ الأسماء أخذ يحمل كل طائفة ليقدمها إلى رئيس الدائرة التي ستتعاطى العمل فيها. وكم كنت مشفقاً على هذا الأستاذ الكريم من كل ذلك النصب الذي يجشّم به نفسه. فمن دائرة العدليّة، إلى دوائر الدريبة. ومن هذه إلى تلك، وهو يذرع منعرجات المعابر ويقطع درج الإدارة بسرعة تكاد تكون عدْواً. حتى لقد

صارحت رفيقاً من رفقائي بإشفاقي على الأستاذ.

وبدأ الأستاذ عمل التقدمة بالطائفة التي أنا منها. ودخلنا إلى الرئيس الذي سيكون إليه مرجع نظرنا. فقدم إليه واحداً إثر واحد مكتفياً بقوله أقدم لك فلاناً أو بزيادة ابن فلان. ولمّا وصل الدور إليّ قال: «أقدم لك أبا القاسم الشابي المؤلف الشهير. ولا إخالكم إلا قد سمعتم باسمه». فأخجلني جدّاً، فلم أستطع أن أجيبه إلا بالتبرؤ من مثل هذا الوصف[1].

62 ـ وفي الحقيقة فإنّ هذا الأستاذ الكريم قد أصبح لي من ذلك اليوم الذي أهديت له فيه كتابي نصيراً. فإنّه كثيراً ما نوّه باسمي في دروسه بين رفقائي، وكثيراً ما كال لي أوصاف المدح والإطراء حتّى أخجلني.

ولمّا تمّت تقدمتُنا انفردت أنا وصديق لي ببيت خاص نعمل فيه وحدنا. فابتهجت كثيراً، إذ أن أبغض شيء إليّ هو أن أبقى إلى جانب الرئيس الذي ربّما لا تلائم نفسه نفسي، ولا توافق أخلاقه طباعي، ربّما كان متكبّراً يحبّ السيطرة والعنف، وأنا رجل عصبي لا أحتمل الذل، ولا أستطيع أن أخمد غضبي، فتنجلي الثورة عن شيء جميل جداً.. ! الله أدرى بنتائجه.. !

ولقد أخذت اليوم أتمرّن على هاته الأعمال الثقيلة،

---

(1) يعبّر هذا الموقف عن صورة من الصدى الذي كان يلقاه شعر الشابي في عصره وهو صدى الإعجاب والتقدير عند طائفة مستنيرة آمنت بالتجديد.

أخذت ألخّص أوراق الملف، فإذا الورقة الأولى منه مكتوبة بخط من أردإ ما رأيت، ومحررة بأسلوب لا أدري ماذا أسمّيه، ومرسومة رسماً لا أعلم أي شيطان نزل به على قلب كاتبه. ولا أريد أن أطيل، فحسبي أن أقول: إنه أراد أن يقول: «فطلب منها أداء منابها» فكتب: فطلب منها أداء من بها». . !

وعلى مثل هذا يستفتح المرء عمله. فماذا هو صانع؟ أتراه يسخر. أم يكفر؟

الإثنين 20 جانفي 1930

63 ـ . . . وبعد أن أنهيت أعمالي الإداريّة نحو الساعة الخامسة، ذهبت أنا والأخ المهيدي إلى مطبعة الأخ زين العابدين. فألفيناه يصفّف حروف «العالم» مع المُصفّفين. وألفينا الأخ مصطفى خريف واقفاً بجواره، يطالع بعض الشيء. وبعد حديث مختلف أراني الأخ زين العابدين مقالتي «الشعر، ماذا يجب أن يفهم منه وما هو مقياسه الصحيح؟». ثم لاحظ لي أنه يخالفني في بعض ما ورد بالمقال من الآراء، وأنه كان يودّ لو قابلني قبل طبعه ليعرض عليّ رأيه، عسى أن يدخل به تعديل على المقال. ثم قال: «ولكن وجود بعض ما يخالف آرائي لا يمنعني من نشره، إذ أنَّ مسؤولية ما فيه من الأفكار محمولة عليك وحدك». فأجبته بالإيجاب. ثمّ أبنت له أن ما يلاحظه على المقال، ويود وجوده في المقال، هو موجود فيه وأردت أن أريه إيّاه، فلم أتمكّن من ذلك لكثرة أعماله ووفرة حركاته. ثم قال لي: إنك تريد أن تبعث المذهب الرمزي «سانبوليزم» من مرقده، وهو مذهب قضى عليه الزمن، ولم يتّبعه في فرنسا إلا شاعران أو ثلاثة. فقلت له: «لك أن تسمّي طريقي بأيّ الأسماء التي تشاء، فأنا لا أعرف كيف أسمّي، ولا يهمّني

معرفة أسمائها. وسواء عليّ أكانت تسميتها كما قلت أم خلافاً له. وإنّما الذي يهّمني والذي أوّد أن تعرفه، هو أن أدعو إلى الطريقة التي تسكن إليها نفسي، ويرتضيها ضميري ما استطعت إلى الدعوة سبيلاً»[1].

64 ـ وبعد ذلك أطلعني على مقال للسيد التيجاني بن سالم[2] عنوانه: «التجدد الأدبي عندنا». وهو مقال قيّم مفيد أعجبت به، وإن كنت لم آخذ منه إلا صورة مجملة. وبعد قليل اصطحبت الأخ المهيدي والأخ خريف بعد أن اعتذر الأخ الزين عن الذهاب معنا إلى النادي الأدبي بتراكم الأعمال عليه.

ولما وصلنا إليه ألفيناهُ مُغلَقاً، مع أنَّ موعد الاجتماع قد مرّ عليه نحو العشرة دقائق. وبعد أن قرعت الباب قرعاً عنيفاً بدون جدوى، رجعنا وفي أنفسنا حسرة وأسى على المشاريع التونسية المسكينة التي لا تجد من أبناء تونس من يخلص لها حتى النهاية.

فقد حاولنا في العام المنصرم أن ننظّم سيره ببرنامج

---

(1) يعلن الشابي في هذه الفقرة عن موقف نقدي يكشف عن غوص لافت في عالم الإبداع، فهو أديب ينشىء إنشاءً وحسبه أن يخلق خلقاً وحسب النقاد أن ينقدوا. الأدب عند الشابي يقترن بصدق العبارة وبصدق التجربة قبل كل شيء.

(2) التيجاني بن سالم من رجال الأدب الذين نشطوا نشاطاً مذكوراً، ذكر له محمد فريد غازي بعض أعماله انظر: Mohamed Ferid Ghazi le roman et la nouvelle en Tunisie p 16.

معيّن عينّاه رغم المعارضة الكبيرة من أنصار الأساليب القديمة، فأنتج نتاجاً حسناً كان فوق ما يؤمّل منه. ثم قامت ضجّة «الأب سلام»[1] إثر مسامرة امرىء القيس التي أنكر فيها الأخ المهيدي وجود امرىء القيس[2]، «ومسامرة الخيال الشعري عند العرب» التي جاهرتُ فيها بآراء لم تُسْغها أفكارُ بعض أدعياء الأدب، وعدّوها ثورة على الآداب العربية وجحوداً لمزايا العرب. وتطوّرت هاته الفكرة في نفس الناس، والتفّت حولها الأراجيف والإشاعات الكاذبة، حتّى عدّها بعض الجهلة زندقة وكفراً![3]

---

(1) الأب يوسف ابراهيم سلام ولد في الإسكندرية من أسرة مسلمة يوم 30 أكتوبر 1877 تلقى التعليم الأوليّ عن الآباء البيض بالإسكندرية، هرب من مسقط رأسه بعد أن تنصّر وهو في سن 18 حّط الرحال بالجزائر ثم بجزيرة جربة (تونس) ثم انتقل إلى روما حيث درس الفلسفة ودرس اللاهوت بقرطاج. أرسل إلى أوغندا لتدريس اللغة اللاتينية. ارتقى إلى رتبة قسّ سنة 1907 اقام ثانية بالجزائر 1925 ثم قضى سنة ببيت المقدس ليعود إلى تونس ويقيم بقرطاج (بوخريص) وبهذا الموضع نشأ معهد الآباء البيض وقد كانت للأب سلام علاقة مع عدد غير قليل من التونسيين وقد نهل من العلوم الإسلامية على يَدَيْ شيخ زيتوني وأسهم بصفة لافتة في الحركة الفكرية بالبلاد التونسية وأثر عنه اختصاص في فكر ديكارت والمحاضرة التي أشار إليها الشابي في هذه المذكرة تتعلق بالطريقة الكارتزيانية عند طه حسين. توفي الأب سلام يوم 27 أوت سنة 1947 بالجزائر.

(2) لا يخفى في هذا الموقف الصدى الذى وجده موقف طه حسين من الشعر الجاهلي.

(3) اللافت في هذه الفقرة معجم الشابي وهو أقرب إلى تأسيس النظرة =

قامت تلك الضجّة[1] حول المسامرات الثلاثة وحول مسامرة «سلام» بالأخص، فاهتبلها بعضُ المغرضين فرصة لتشويه سمعة النادي ورميه بالزيغ والإلحاد إلى آخر تلك السهام التي تعلّم المفسدون تسديدها إلى كلّ عمل راموا إحباطه في البلاد الإسلاميّة. فكانت تلك الحملات الكبيرة المنظّمة قاضية على حركات النادي قضاء ما كنت أتصوّره. فقد فتّت تلك الحملات في أعضاد الأكثرية من أعضائه، ورمت في قلوبهم الرعب والهلع والجبن، فانقطعوا عن المجيء إليه إلا واحداً أو اثنين كانت لهما عزيمة صادقة، وشجاعة أدبيّة تحتقر صيحات الحروب وتهزأ بسهام المغرضين. ولكنّهما أعرضا عن الذهاب إليه. وما الفائدة منهما وكل أعضائه غائبون؟!

65 ـ وهكذا كانت خاتمة العام الماضي محزنة كابية. ثم جاءت السنة الحالية فاقترح الأخ عثمان الكعاك أن تكون طريقة النادي إنما هي إثارة المواضيع لدراستها، ومن كانت له دراسة عرضها على النادي لتلقى مسامرة عامّة أيام الجُمع. وقرّرت الأغلبية هذا ولكن لم يمض على الاتفاق شهر ونصف قام خلالها كلٌّ منّي والأخ عثمان الكعاك بمحاضرة: واحدةٌ منهما تعرّضت لنقد كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، والأخرى تعرّضت لطريقة البحث

= العلمية المشبعة بروح النقد المعرضة عن السباب والأسفاف.

(1) انظر ما يقوله أبو القاسم محمد كرو: آثار الشابي وصداه في الشرق ص 13 وص 21 ـ 23.

في الثقافة الشرقيّة عند المشرقيين[1] وعند المسلمين في الوقت الحاضر. وقد أغضبت كلٌّ منهما طائفة من الناس. أقول لم يمض على فتح النادي شهر ونصف حتّى أخذت علائم الهرم تدبّ فيه. وبدأ الانحلال يأخذ منه. وتلك هي مصيبة المشاريع التونسية، يندفع القائمون بها في العمل اندفاعاً كلّه شغف وشوق وإخلاص، ولكنّه لا يدوم. فإنّه لا يلبث إلا قليلاً حتّى يخبو أواره، وتركد ريحه، وينصدع شمل الجميع. تلك هي مصيبة المشاريع التونسية[2].

(1) لعل الصواب «عند المستشرقين».
(2) ردّد الشابي هذا الموقف في رسائله: رسائل الشابي ص 62 ـ 63.

الثلاثاء 21 جانفي 1930

66 ـ ألقى إليَّ البريد البارحة تنبيهاً باستلام رسالة. وفي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم ذهبت واستلمتها بعد أن دفعت عليها معلوماً خاصاً. لأنّها كانت أثقل مّما ينبغي أن تكون. تناولت الرسالة من آنسة البريد. فإذا هي مكتوبة بخط صديقي الأديب النابغ الأستاذ محمّد الحليوي[1]. فسارعت بحلّها لعلمي أنّها لا بدّ أن تحتوي على شيء بهيج. لأنني أعجب بكتابة هذا الصديق الأديب التي لا تخلو من فكرة ناضجة وأسلوب حيّ. وإن كنت لا أعجب بشعره.

67 ـ وتلوتها فإذا هي رسالة منه كلّها لطف وموّدة ودماثة أخلاق، ربّما بلغت غايتها القصوى. وقد أرفقها بمقال كتبه في انتقاد بعض الآراء التي وردت في كتابي «الخيال الشعري عند العرب». ولكن لطفه ومودته أبيا عليه إلا أن يوجّه بانتقاده إليَّ، وأن يفوّض إليّ النظر في نشره أو إهماله. كلّ ذلك حرصاً على موّدة يشفق أن تذروها

---

(1) محمد الحليوي (1907 ـ 1978) من أصدقاء الشابي ومن الذين أسهموا في إثراء الحياة الفكرية في تونس ـ انظر: رسائل الشابي ص 63. انظر محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين 2/ 168 ـ 170.

عواصف النقد. كأنّه يحسب سامحه الله أنّ انتقاده عليَّ ربّما يثير حفيظتي. ويحرك في نفسي عوامل الغضب. مع أنني لست من هاته الطائفة التي لا تفهم من النقد إلا عداء وسباباً. ولا ترفع قلمها إلا لغاية سافلة وغرض دنيء. لست والحمد لله من هاته الطائفة. ولكنني ممّن ﴿يستمعون القول فيتّبعون أحسنه﴾[1]. وممّن يُسرون بكل انتقاد لا تكون غايته غير الحقيقة، ولا مصدره غير الإخلاص، كانتقاد صديقي الأعز. يقول في رسالته التي صاحبها برسالة النقد على كتابي بعد التحيّة:

«...وعلى كلٍّ فها أنا فوّضت أمرها إليك. فما شئت فعلت بها.

لو تدري يا أخي كم تنازعت مع نفسي في شأن هذا الإنتقاد لعذرتني عن التأخير والتواني في إتمامه حتى اليوم. فقد كنت حريصاً جدَّ الحرص على صداقتك، ضنيناً بها ضنّ البخيل بالدينار. وكنت أخاف أن تبدو منّي كلمة أو رأي يكون سبباً في سوء التفاهم بيننا. ذلك لأنّ «شيطان النقد» لا وظيفة له في الدنيا إلا زرع بذور الشقاق بين الأحبّاء. وأنا من الذين يحرّمون هذا النوع من النقد بين الأصدقاء المتحابّين.

فبربّك دعني «أيها الأخ» أتمتّع بصداقتك وأتبادل ودك. ودعني أعجب بأدبك عن بعد، دون أن ندخل

---

(1) في العبارة تضمين، انظر: الزمر 39/ 18.

جمهور القراء فيما بيننا. واقنع مني بأني شريكك في جلّ آرائك، ولا تلمني إذا رأيتني أعدل في آخر وقت عن الكلمة الثانية التي وعدت بها في آخر المقال...».

يريد بها وعده في مقاله بأنه سينشر كلمة أخرى في بعض مآخذه على الكتاب من جهات أخرى.

أتحسب يا صديقي إذا أن «شيطان الانتقاد» ما خلق إلا لزرع بذور الشقاق بين الأحبّاء؟ أو تخال أنني بانتقادك على بعض آرائي ربّما أبُثُّ أسباب المودّة التي بيننا؟ لتسمح لي يا صديقي أن أخالفك.

فإنّ رأيي في الانتقاد أنه ليس «شيطاناً» يبثّ بذور الشقاق وإنّما هو ملاك يحمل سراج الحقيقة في سبيل الإنسان[1]. وإنّ رأيي في الصداقة أنّها ليست بمعنى عبودية الفكر، ولكنّها حريّة «النفس». فإنني حينما أجلس إلى صديق أحسّ بإشعاع الحياة في نفسي. وحينما أجلس إلى عدوّ أحسّ بضيق الحياة فيها. وهاته الحريّة التي تحسّ بها النفس بجوار الصديق ليس معناها عبودية الفكر وتكبيل الضمير، لأن الحريّة لا تنتج الاستعباد. ولأنّ صديقي الذي يحترم نفسه ويقدّر عقله الذي وهبته الحياة إياه هو الرجل الذي يكون جديراً بمحبتي واحترامي. أمّا الرجل الذي أحبّه واستعبده بحيث يصبح ظلاً لكلّ أفكاري وخواطري، فإنني أشفق عليه أكثر مما أحبّه، وأرثي له أكثر ممّا

(1) انظر: أغاني الحياة ص 122 ـ 123.

أحترمه[1].

68 ـ وبعد ذلك، فقد رأيت رسالته الانتقادية. وهي رسالة قيّمة قد لخّصت الأدوار الأدبيّة التي مرّت بها الآداب الفرنسيّة من عهد النهضة «الرينيسانس» إلى عهد الأدب الواقعي بصورة لم أر من كتب بمثلها في دقّة تصوير الحالة، وبراعة التحليل، رغم إيجازها. وقد وَددت لو أعطيتها إلى الأخ زين العابدين يوم التاريخ لينشرها في «العالم». ولكن ليس في الإمكان أن يتسلّمها اليوم. وإذاً فإلى الغد وسأبذُلنَّ جهدي حتّى تنشر في هذا العدد الوشيك الظهور.

(1) يفصح الشابي عن موقف من الصداقة يؤكد الصرامة التي عرف بها والجّد الذي تحلّى به.

السبت 25 جانفي 1930

69 ـ خرجت اليوم من إدارة العدلية قبل الوقت الذي ألفت أن أخرج فيه، وذلك لكي أذهب إلى الأخ زين العابدين، وأسَلّمه مقال الأخ الحليوي الذي ضمنّه نقداً على بعض آرائي الواردة في «الخيال الشعري عند العرب»[1].

دخلت المطبعة فإذا به يصحّح بعض مسودّات «مجلة العالم» وبإزائه الأخ مصطفى خريف يتصفّح مجموعة السياسة الأسبوعيّة. وقلت: السلام عليكم. فقالا: وعليك السلام. وعلى إثرها ابتدرني الأخ زين العابدين وعلى ثغره تلك الابتسامة التي لا تفهم قائلاً:

«لقد كنّا نغتابك» فأجبته قائلاً: عجيب! حسن! بارك الله فيكما، وإن كنت إلى الآن لا أدري ماذا يعني بالاغتياب، لأنّه تارة يستعمله بمعناه العربي الصحيح، وأخرى بمعنى المدح والإطراء، ولكن هذا لا يهمّ، وعلى كلٍّ فهي دعابة صديق.

---

(1) يؤكد هذا الموقف العقلية الرحبة التي كان بها الشابي ينشد الرقيّ بالمستوى الأدبي حتّى وإن كان النقد يتصدّى لمواقف كان يؤمن بها. فالاختلاف متى بُني على أدب الاختلاف لا يفضي إلا إلى إثراء الفكر.

وتقدّمت منهما، وناولته رسالة الحليوي، وسألته أن تنشر في هذا العدد من «العالم». فقال: «لقد سلّمنا لصاحبك تسليماً أعمى، رغم أنّنا لا نعرفه، وعلى كلٍّ فسننشرها رغم طولها لأنها تتعلّق بكتابك. ثم عقّب على ذلك باسماً: ولا تحسب أنّ كونها في كتابك هو الذي جعلني أغتفر ما فيها من طول، ولكنّ الذي جعلني أتسامح فيها هذا التسامح، هو كونها كتابة عن كتاب تونسي حديث فضحكنا جميعاً، ثم أخذنا في حديث مختلف الألوان والمطاعم، وفارقتهما مسرعاً.

70 ـ وانقضى نصف النهار الأخير بين أعمال إدارية غثّة باردة متراكمة كالجبال، ومحادثة مع بعض الرفاق خلال ذلك، واستماع لدرس قانوني تتخلّله قصص ممتعة ودعابات مستحبّة من دعابات الأستاذ «لاموت»، ومطالعة قانونية مع بعض رفقائي يتوسّطها جدال وحوار، يلين حيناً، ويشتّد أحياناً، ويعتدل آونة، ويعنف أخرى حتّى ليخالنا الأجنبي سنثب إلى بعضنا لطماً ولكماً وركلاً وصفعاً، وما هي من ذلك في شيء. وفي مثل هاته الأشياء انقضى نصف النهار الأخير.

الأحد 26 جانفي 1930

71 ـ «إنّ لك من معارف أبيك، وسمعته الحسنة، وصيته البعيد، وشهرة اسمك، ضماناً لاسترجاع منصب أبيك إليك لو تسعى. . .».

هاته هي الكلمة التي كثيراً ما أسمعُها من أقاربي وأنسبائي ومن يمتّون إليّ من الصداقة بسبب متين. يقولون ذلك دائماً بلهجة من يغبطُني على مثل هاته الأمور وتجمُّعها لديّ، ويعنّفني في شيء من العنف على تضييعي لمِثل هاته الأسباب التي لو وجدها غيري لصعد منها بسلم إلى سماء المناصب، كأنّهم يحسبون أن المناصب هي كلّ شيء في هذا العالم، وأنّ منصب القضاء هو سيّدها. ولو علموا ما الذي يبغّض إليّ المناصب على اختلافها، ويبغّض إليّ المناصب الشرعيّة بالأخص لعذروني.

72 ـ إنّني شاعر. وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف قليلاً أو كثيراً مذاهب الناس فيها. وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة أحسّ أنا به حين أكون بين النّاس. . . يجعلني أتبّع سنناً ورسوماً تحبّها نفسي، وربّما لا يحبّها الناس. وأفعل أفعالاً قد لا يراها الناس شيئاً محبوباً، وألبس ألبسة ربّما

يعدها الناس شاذة عن مألوفاتهم.

أنا شاعر. والشاعر عبد نفسه، وعبد ما توحي إليه الحياة، لا ما يوحي إليه البشر[1].

وفي المناصب الشرعيّة بالأخص قيود، وطقوس، وسنن متعارفة، اصطلح عليها الناس، وألِفوها، فأصبحت مقدّسة عندهم لا يمكن أن تمسّ بسوء. وأنا أعلم أن نفسي تأباها وتنكرها ولا تخضع إليها.

أنا شاعر. والشاعر يجبُ أن يكون حرّاً كالطائر في الغاب، والزهرة في الحقل، والموجة في البحار، وفي المناصب «والشرعيّة بالأخص» خنق لروح النفس، وقضاء على أغاني القلب، وإجهاز على راحة الضمير.

كيف يمكن لشاعر يحبّ أن يحسّ بالحياة إحساساً كاملاً، وأن يتحدّث إلى الناس بأصوات قلبه الكثيرة، أن يسكن إلى حياة «الوظيف» تلك الحياة الخاملة الآسنة التي تشابه غدران الفلاة، والتي تقضي على صاحبها أن يحيا كما يحبّ الناس لا كما يحبّ هو أن يعيش؟

«إنّك لو أردت أنت منصب أبيك، فإنّ لك من أصدقاء أبيك، وشهرته الطائرة، وخدماته الطاهرة، ومعارفك وصيتك، ما يحقّق لك هاته الأمنية في أسرع من لمح البصر».

---

(1) قارن ما يقوله في هذه المذكرة بقصيدة «شعري» ص 33، يا شعر ص 35، أحلام الشاعر ص 114.

73 ـ هاته الكلمة التي كثيراً ما سمِعتها من معارفي وبعض إخواني، والتي كنت لا أجيب عليها إلا بالصمت الطويل، لأنّي أعلم أنّني إن أجبتهم بما تحدّثني نفسي هزأوا بي وعدّوني صغير العقل سخيفاً.. هاته الكلمة قد ردّدها على سمعي نسيب لي حينما كنّا ذاهبين لزيارة الوزير الأكبر[1] في شأن خاص بي، فلم أجبه إلا بذلك السكوت، وبتلك الابتسامة التي كثيراً ما أجبت بها مثل هؤلاء.

وذهبنا إلى الوزير الأكبر فنبأونا أنه مع بعض الناس في مفاهمة لغرض خاص. وبعد قليل رجعنا فألفيناه واقفاً جوار بستانيّه، يوصيه بالعناية بنخلة عيّنها له، وهو في ثياب عربيّة بسيطة جدّاً يلبسها عادة متوسطو الحال. وبعد التحيّة صعد بنا إلى مقعده وجلسنا.

فأخذ يحّدثنا عن الوالد المنعّم بصوت ملؤه الأسى والحزن. قال: «رحم الله أباك. لقد كان أخاً لي منذ عهد الدراسة. فقد قرأنا كثيراً من الدروس سويّة. ولكن من قرأت معهم قد ماتوا. وكان آخرهم أباك رحمه الله. لقد كان أبي يعتقد أن التلاميذ إخوان لنا وأبناء له، بل كان كثيراً ما يؤثرهم علينا، وإذا زاروه في محلّه فذلك هو اليوم السعيد. إنه ينسى بذلك الحوار العلمي الذي يثيرونه كّل شيء، ينسى غذاءه ولا يكاد يذكره. وبذلك قد جعل لنا إخواناً روحيين منتشرين بالبلاد التونسيّة.

(1) كان خليل بوحاجب الوزير الأكبر سنة 1930.

ثمّ لامني على أنني لم أزره بمجرد وفاة والدي المنعّم قائلاً: «أنا أبوك، وأنت ابن أخي، إنني لائم عليك إذ لم تزرني إلا الآن ولم تأتني من قبل...» فاعتذرت بما حضرني إذ ذاك.

وبعد حديث طويل، تناول كثيراً من الشؤون من بينها سوء سيرة أهل هذا الزمان، وكيف أنهم لا يحبُّون إلا المظالم والدناءة. وتعرّض إلى ما قاساه والدي من مظالمهم جزاء وقوفه عند حدود العدالة، وتصلّبه في وجوه العتاة المتجبرين.

الإثنين 27 جانفي 1930

74 ـ ذهبت عشيّة اليوم إلى النّادي الأدبي بجمعية قدماء الصادقيّة، إذ كان اليوم يوم الإثنين، وهو موعد اجتماع النادي ولكن وجدته مقفلاً رغم أنّ الساعة كانت إذ ذاك الخامسة وخمسا وأربعين دقيقة، مع أنّ الموعد الخامسة والنصف. ورغم صفعة الأسبوع الماضي التي تلقّتنا بها أبواب النادي المقفلة، فقد عدت مرة ثانية بعد ربع ساعة، فوجدت «قيّم» القدماء يدير بعض الشؤون هناك. وسألته هل جاء أحد؟ فأجابني بالنفي. فدخلت وجلست بقاعة المطالعة. ولمّا أردت إنارتها بالكهرباء أعلمني أنّ التيار منقطع، فانتظرت قليلاً. ولمّا لم يأت أحد رجعت أسوان آسفاً.

75 ـ لست أدري والله أي لعنة حلّت على النادي هذا العام فأوهت قواه وحلّت عصبته وشتّتت شمله. فإنني أراه ما ازداد يوماً إلا ازداد تأخراً وانحطاطاً وهرماً وخموداً، بدل أن يزداد فتوّة وشباباً وتوقّداً ونشاطاً. وما تراخى عليه الزمن إلا وضربت عليه الذلّة، والمسكنة، وخيّمت عليه كآبة الوحشة وجمود الانفراد.

إنّني أراه يهرم ويشيخ، ولست أدري هل تعود إلى الشيخ قواه.

76 ـ لقد أصبحت يائساً من المشاريع التونسيّة، ناقماً على التونسيين، لأنّني أراهم يقولون كثيراً ولا يعملون إلا قليلاً، وإنّني أراهم نبغاء في بسط آرائهم ونظرياتهم. والتحمس لها يدفعك إلى أن تؤمل الأمال الكبار، وتعتقد أنك تخاطب روحاً متجسّدة في فكرة تلتهب، حتى إذا جاء دور العمل تمزّقت تلك البراقع، وخمدت تلك النزوات، وتكشّف البرقع البرّاق عن وجه الحقيقة الأربد، وانجاب طلاء الشباب ونضارة الفتوّة المستعارة عن تجعّدات الشيخوخة وقبور الخمول.

إنّ التونسيين الآن ذوو نظريّات فسيحة واسعة، ولكنّهم يدورون في منطقة ضيّقة من الأعمال لا تكاد تنتج شيئاً.

حدّث من شئت من الشباب التونسي فلا تلقى إلا حماساً وعزماً وأفكاراً ومشاريع، ولكن ثق أنّك حين تدعوه للعمل فلا تجد إلا عزائم خابيّة وشباباً هرماً يغطّ في سُبات الأحلام اللذيذة!![1]

---

(1) لا يفهم هذا الموقف إلاّ في ضوء حالتين.
الحالة الأولى هي السياسة الاستعمارية التي أسرعت إلى زرع مجال الإحباط فهو موقف لاذع من هذه السياسة التي كادت تذهب بما أثِر عن التونسي من عزم وإقبال.
الحالة الثانية هي ما ارتضاه الشابي في شعره من صرامة تعصف بالأدران المحدقة بالتونسي والسماجات التي كانت تلجم فيه طاقة الإرادة فكانت الحدّة وكان السخط يحجبان حبّاً وتوقاً إلى الطهارة، طهارة التونسي.

الثلاثاء 28 جانفي 1930

77 ـ مسكينة هاته النفوس ما أصغرها وأحقرها وأضيق آفاقها! كنّا اليوم بدروس الأستاذ «مسيو لاموت» الذي ندرس عليه دروس «العقود المسمّاة». ولمّا جاء الأستاذ، وأراد الشروع في درسه، أراد أن يحدّثنا عن «العقل الباطن» و«العقل الواعي» اللّذين طالما حدّثنا عنهما. وفَتح جريدة «السياسة الأسبوعية» ودعا أجهرنا صوتاً لتلاوة فصل بها يتعلّق بالموضوع وبسطه. وما أن أخذ التلميذ في تلاوة الفصل، وأخذ الأستاذ في تبيينه حتّى رأيت بسمات هازئة ووجوهاً سائمة وملامح متضجّرة. ذلك لأنّها نفوس أَلِفت أن تعيش في منطقة ضيّقة من مناطق الحياة والتفكير، لا تستطيعَ أن تحيا في سواها أو تعدوها. لم تألف غير علوم «جامع الزيتونة» وأساليبه. ولم تقرأ من غير ذلك إلا دروس الحقوق. مسكينة هاته النفوس مسكينة..!

78 ـ وبعد أن أتمّ الأستاذ درسه، خرجت صحبة رفيقين أحدهما مدرسي مثقّف ثقافة عربيّة طيبّة. والآخر زيتوني. وأخذنا نتحدّث عن أعمال العقل الباطن في الحلم[1].

---

(1) تشير هذه المذكرة إلى مصادر الثقافة التي أتيحت للشابي سواء أكانت =

فقال صاحبي: إنه حلّ مسألة هندسية غامضة في نومه، مع أنّه لم يستطع حلّها في يقظته، رغماً عن تفكيره فيها أسبوعاً كاملاً. فحدّثته أنا عن نظمي الشعر في المنام، وقصصت عليه أنّني نمت مرّة فرأيت منظراً غاية في الروعة والبهاء وسحر الجمال، دفعني إلى أن أقول الشعر فيه.

رأيت أوّلاً أن في الأفق قطعاً من الغيوم منثورة، ويحيط بكّل قطعة إطار من نور كلون الشفق، ثم تلاشى هذا المنظر، فإذا بي في قصر منفرد وبجانبي غادة رُعبوب مرخاة الذوائب، وعلى السماء حجاب من غمامة كثيفة بيضاء. ثم انهلّ المطر من السماء وفاض من الأرض، ولكن بكيفية غريبة لم أشاهدها ولن أشاهدها. ذلك أن السماء لم تكن تمطر مطراً عادياً، ولكنّه مطر يشابه رغوة الموج في بياضه، وكانت الأرض تفيض بمثل تلك الأمواج التي تخالط ما تنزله السماء، فكان من اختلاطهما منظر عجيب رائع لا أستطيع أن أصفه ولا أن أنساه.

79 ـ وقال صديقي: إنه كثيراً ما شاهد النجوم قد تألّفت وتراكبت وتألف منها كلام مسطور يخيّل إليه أنه يحتوي سرّ العالم.

فقلت له يا صديقي: «إنّني لا أظن الأحلام إلا ضرباً من تعلاّت الحياة التي تكون لنا في يقظتنا آمالاً وفي سناتنا أحلاماً. فالعقل الباطن الذي نختزن فيه صورة من صور

= بالحضور في الندوات أم بالمشاركة والمطالعة أو بالحوارات والمناقشات.

الآمال البعيدة، لا بدّ أن يحتال على إظهارها كشيء حقيقي، ولو في عالم الأحلام. فالنجوم والتفكير المتواصل فيها، ومسألة نفسك عن سرّ العالم، هو الذي جعلك تشاهد في أحلامك ذلك المشهد الغريب. وشغفي بجمال الطبيعة وأهوالها هو الذي أعطاني في الحلم تلك الصورة الغريبة وذلك المرأى البهيج».

ثمّ انتقل بنا الحديث إلى «السدم»[1] وأقسامها، وجاذبيات النجوم، ثم إلى فلسفة أنشتاين[2] الفيلسوف الألماني الكبير، هاته الفلسفة التي تحاول أن تقلب ما اطمأنّت إليه أدمغة الفلاسفة والطبيعيين رأساً على عقب، هاته الفلسفة التي مثلُها في الفلسفة المادية مثل الفلسفة «اللاّأدرية»[3] في مذاهب الفلسفة الأخرى.

---

(1) السدم، السديم، بقع في الكرة السماوية، منها ما هو تجمع غازات مضيئة ومنها يضمّ العديد من الكواكب (المنجد) بقع سحابية متوهجة أو مغيّمة في الفضاء ناشئة عن تكاثف أو تصادم عدد لا يحصى من الأجرام السماوية ومنه المجرة، ج سدم. (المعجم الوسيط).

(2) أنشتاين Enstein (1879 ـ 1955).

(3) اللاّأدرية مذهب يرغب عن الغموض وعن كل معرفة باطنية ويعتبر أن كلّ ما يتخطّى التجربة والاختبار أي أنّ عالم الميتافزيقا لا يمكن أن يعرف.

الاربعاء 5 فيفري 1930[1]

80 ـ ذهبت إلى القدماء صحبة بعض الرفاق الأدباء، فوجدت هناك طائفة من الإخوان. وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث عن تلك المعركة التي حمى وطيسها ليلة الأمس. وحدّثنا الأخ عثمان الكعاك عن المواضيع التي عيّنتها كلية الآداب بفرنسا لمن يريدون الإحراز على شهادة التبريز «اقريقاسيون» في الآداب العربية ومن بينها:

1 ـ الشعر الغرامي في الأدب الجاهلي. وما هي ميزاته وخصائصه؟

2 ـ خصومة القدماء والمحدثين في القرن الثالث هـ.

3 ـ أنواع الحيوانات الوحشيّة التي وردت في الشعر الجاهلي.

4 ـ كثير عزة.

5 ـ مؤرخو الإسلام ومذاهبهم في التاريخ ومواردها[2].

---

(1) هو الشهر الثاني من السنة.

(2) لعله لا يكفي الإلماع إلى قيمة المسائل التي كانت تطرح على طلبة التبريز بفرنسا بقدر ما يجدر الإلحاح على النهم الذي ميّز الشابي ومَنْ حوله في اقتحام القضايا الأدبية والعلمية والنقدية كما يجدر تأكيد المستوى الذهني الذي عرفت به الجماعة وهم الذين خاضوا مواضيع خطيرة تحتاج إلى معرفة دقيقة وإلى إحاطة موضوعية وإلى عودة متأنيّة إلى المصادر وإلى المراجع الضرورية لإنجاز أعمال جادة. ولا نشك في =

81 ـ وقال: «لو كنت اطّلعت على هذه المواضيع قبل رمضان لكنت اقترحت أن تكون من بين مسامراتنا» ثم قال: «وما رأيكم لو توزّعنا هذه الأبحاث فيما بيننا، على أن نلقيها في مسامرات بعد رمضان». فوافق الجماعة على ذلك.

فأخذ الأخ محمد الصالح المهيدي الخصومة الأدبية بين القدماء والمحدثين في القرن الثالث الهجري.

وأخذ الأخ عثمان الكعاك.....

واقترحوا عليّ أن أتحدّث عن الشعر الغرامي في الآداب الجاهلية. وما هي ميزاته وخصائصه؟

فأخذته بعد ممانعة وإلحاح. ولا أدري هل أبرّ بوعدي فيه أم لا؟ لأنّ الأشغال الكثيرة المختلفة التي تملك كّل وقتي في هذا العام لا أحسبها تترك لي فرصة البحث والدرس، وتكوين فكرة جازمة في هذا الموضوع الكبير.

82 ـ وطلب إليّ الأخ عثمان الكعاك أن أكتب إعلانين إلى

= مستوى الجّد والدّقة لأنّ العمل يعرض على النقاش ولأنّ النماذج التي عرفت وانبثقت عن المجالس الأدبية وعن المحاضرات (انظر محاضرة الشابي: الخيال الشعري عند العرب). نطقت عن اجتهاد في الدراسة وعن جرأة في البحث يقول محمد البشروش (1911 ـ 1944) وهو أديب صديق لأبي القاسم... «كتاب الخيال الشعري عند العرب» فيه دعوة فقيدنا العزيز الشابي إلى ضرورة تجديد فهمنا للخيال والفن والشعر: جريدة «الزهرة» عدد (10504) 6 مارس 1944.

جريدتي «الزهرة»[1] و«النهضة»[2] عن مسامرته التي اعتزم إلقاءها يوم الجمعة على الساعة الثامنة والنصف، والتي عنوانها «المجتمع التونسي على عهد دولة بني خراسان»، والتي هي المسامرة الثانية من المسامرات التي اعتزم النادي الأدبي أن يقوم بإلقائها في شهر رمضان. فكتبت الإعلانين، وانصرفت صحبة رفيقي اللّذين صحبتهما إلى القدماء. وإلى هنا ينتهي الثلث الأول من سهرة الليلة.

83 ـ أمّا الثلث الثاني، فقد صرفناه في جمعية «التمثيل العربي»[3] أين يتمرّن الممثلون بهاته الفرقة على استظهار أدوارهم وإتقان تمثيلها. ذهبنا إليهم عن وعد سابق، صدر مني بالذهاب إليهم بعد إلحاح كبير منهم. فقاموا ببعض الأدوار التمثيليّة من رواية «على المائدة الخضراء» التي ينوون القيام بها قريباً. وقمت ورفيقيّ بدور المرشد الذي يقوّم ما اعوجّ من كلماتهم، ويثقّف ما انحرف من ألسنتهم. وكانوا يتقبّلون إرشادنا بكل مسرة وشوق وامتنان. وربّما شجر فيما بينهم خلاف في كيفية النطق ببعض الكلمات فإذا جئنا

---

(1) «الزهرة» جريدة أسّسها عبد الرحمان الصنادلي (ت1935) صدر أوّل عدد في 20 جويلية 1890 وآخر عدد في 9 أفريل 1959.

(2) «النهضة» صاحبها الشاذلي القسطلي (ت 1953) صدر أوّل عدد في 1 أكتوبر 1923 واحتجبت سنة 1955.

(3) «جمعية التمثيل العربي» 1922 ـ 1936 كان محمد الورتاني رئيساً لهذه الجمعية انتخب لمدة ثلاث سنوات. وكان مصطفى صفر نائباً للرئيس وعبد الستار البحري كاتباً عاماً وحمودة بوسن أمين المال. وكان إبراهيم الأكودي مديراً فنياً لهذه الجمعية.

عرضوا علينا. وما قلنا لهم أخذوه بلا ممانعة. ولقد رأيت فيهم من الشوق واللهف لمجالسنا ما قلب فكري في تمثيلنا رأساً على عقب، فإنّني ما كنت أحسبهم بتلك الصفة من الشّعف بالعربيّة والمحبّة لمن يقوّم ألسنتهم ويصلح خطأهم[1].

وبعد أن أتمّوا أدوارهم انصرفوا. ولم يبق إلاّ المدير الفنّي للفرقة واثنان من ممثّليها. وحاولنا أن ننصرف فتشبّثوا بنا ورغبوا إلينا أن نؤانسهم قليلاً. فلبثنا وأخذنا نتحدّث أحاديث كثيرة. وقد كان هذا المجلس مغيّراً لرأيي في الممثلين التونسيين من ناحية أخرى[2]. لقد أخذ

---

(1) لا غرابة أن يبدي الشابي إعجاباً بالممثلين وقد كان المسرح في تونس في الثلاثينات على وجه الخصوص نشيطاً وكانت النصوص المسرحية تكتب بالعربية الفصحى ـ غالباً ـ وكان رجال المسرح حريصين على سلامة اللغة. ولا شّك في أنّ الإصرار على الفصحى انعكاس لحس قومي ولانتماء وطني يتشبثان بالجذور ويتمسكان بالأصول. فقد كانت اللّغة العربية من أبرز العناصر التي حافظت على الهوية العربية الإسلامية ولا ريب في أن موقف الشابي في هذه الفقرة يدعم اعتزازه بالحضارة العربية الإسلامية ويؤكد أن القسوة على «الشعب» لم تكن سوى رحمة تسعى إلى إخراجه من المحنة ـ محنة الاستعمار ـ إلى المنحة ـ منحة الذاتية والأصالة والارتقاء إلى الإنسانية المحض.

(2) أسهمت الفرق المسرحية على عهد الشابي وبعد عصره ـ إلى الظفر بالإستقلال ـ في النضال الوطني وفي هذه المذكرة الدليل على النضج السياسي والفكري لدى رجال المسرح ولا عجب أن تزهر المسرحيات التاريخية باللغة الفصحى إذ للتاريخ وظيفة حضارية ذات شأن لا تغذّي الوجدان فحسب بل تزكي العقول أيضاً أليست تجارب المتقدمين مرايا المتأخرين؟ أليس في الماضي السبيل إلى نحت الآتي؟

يتحدّث معنا المدير الفني لهاته الفرقة أحاديث كثيرة في مختلف الشؤون الاجتماعيّة والسيّاسيّة، فأبان عن رأي لا بأس به، ما كنت أحسب أنّ له مثله. وإلى هنا ينتهي الثلث الثاني من سهرة الليلة.

84 ـ ثم غادرنا المحل إلى منتدى آخر ألفنا أن نجتمع به ببعض رفاقنا الأدباء، وأن نقضي فيه شطراً من الليل في حديث أدبي واجتماعي وسياسي وعلمي، من كل لون وطبق. ودخلنا المكان. فإذا صنف آخر من الناس، ولون آخر من الأفكار والخلائق تفهم الأدب أفهاماً معكوسة إلا الأقل منهم، وتحسب أن ما جاء به من سبقنا ليس بمستطاع لأهل هذا الزمن. وكان أكثرهم جموداً وغباوة وحدة كهلٌ يلمع الوضح في وجهه ويديه. فقد كان صاحبنا يعتقد أن «قبادو»[1] أشعر الشعراء جميعاً، وأنّه أوتي الشعر لصلاحه، وأنه لم يجد في العصر الحاضر من يستطيع أن يأتي ببعض ما أتى به الأسبقون من التواشيح. ولا يطرب للشعر إلا اذا كان جناساً أو تورية وما إلى ذلك من كلف البديع.

ولقد أضجرني هذا الرجل بحديثه السمج المستثقل. فتآمرت[2] وصديقاً من إخواني على العبث. فتجاذبنا

---

(1) قبادو: محمود قابادو (1815 ـ 1871) شاعر أسهم في حركة الإصلاح وقد كان شعره إحيائياً: انظر عمر بن سالم: قابادو، حياته، آثاره وتفكيره الاصلاحي ـ تونس 1975.

(2) عرف عن الشابي طبع ذو مزاج حاد انفعالي وأشدّ ما يكون في مسائل النقد والإبداع. إنّ فعل «تآمرت» يفصح عن نموذج من ذلك الانفعال.

حديث الخطابة والاجتماع الذي عقدناه لأجلها، واستشاره أحدنا في رأيه في هذا المشروع فقابله ببرود. فاندفعت مبيّناً فائدة هذا المشروع، منددّاً على خطباء المساجد الذين أضاعوا لهجة الخطابة ومغزاها. وصاحبنا من هؤلاء ـ ولا تسأل عن غضب الرجل وانفعاله حينما أنحيت باللائمة على هاته الطائفة، وجرَّدتها من كل مزيّة وفضل. فقد أخذ يدافع عنها جهده، محمّلاً وزر ذلك الحكومة والأمة.

وقد تعمّدت إهاجته، فأخذت أفنّد كلّ رأي يقوله، وكّل كلمة يلفظها. حتى لقد غضب غضباً أصبح معه لا يبين كلاماً. ثم حلف على أن لا يجادلنا بعدها. ويتناول كتاباً يتشاغل به عنّا. فنأبى إلا الإغراق في النقد. فلا يستطيع سكوتاً، فتثور ثائرته ويرمينا ببعض كلمات. ثم يأخذ في الاعتذار عنها. وقد استحالت قلوبنا عليه حديداً لا تشفق ولا ترحم. فدخلنا في مواضيع أخرى كلّها نقد وشّدة. ومن بينها مسألة الزوايا و«البندير» فقد تشددنا في هاته المسألة وهجمنا عليها هجوماً عنيفاً. ثم خرجنا وتركناه يغلي كالمرجل.

ولما خرجنا حدّثني صديق أن صاحبنا رئيس عصابة من عصابات «الشطح والردح والبندير»[1].

---

(1) كانت ظاهرة الزوايا منتشرة في الثلاثينات بشكل واضح وكان أصحابها يحظون بالجاه وبالمال. ولكن النخبة المستنيرة تصدت لهذه الظاهرة وأنكرت على أصحابها الزيغ: انظر التليلي العجيلي الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 ـ 1939)منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس 1992.

الخميس 6 فيفري 1930

85 ـ صور كثيرة متباينة في هذا اليوم وليلته. «. . . ولكن أين هو الفكر الذي يستطيع استحضارها؟ فإنني ما شرعت أكتب، وكلّفت ابن عمي الصغير أن يسخّن سحورنا على البابور[1] حتى اضطربت حركاته، وتلعثم لسانه، فلم يستطع أن يبين.

فقلت له: «ماذا؟».

فقال: «لم أجد البابور».

فقلت: «أنسيته خارج البيت؟».

فقال: «كلاّ بل أدخلته».

ـ وكيف فقد إذا؟ أسرقته الشياطين؟ إنّك نسيته خارجاً يا مجنون.

ـ كلاّ بل أدخلته.

ـ لا تقل أدخلته يا كلب. وهل سرقته الجنّة لو كنت صادقاً؟ اذهب وابحث عنه خارجاً علّك تلفيه.

---

(1) البابور: المَوْقد.

فخرج الصبيّ، وقد أعمى النوم والخوف بصره، فلم يجده وعاد، والخيبة تغشي وجهه فسألته:

ـ هل وجدته؟

فقال بانكسار: «كلا. ولكنّني أدخلته والله».

ـ اسكت يا كذّاب!

وظلّ صامتاً وظللت صامتاً أفكّر. ثم اندفعت عليه ضرباً وشتماً في ثورة الغضب العنيف[1] ثمّ أفاق أخو الخطيبة، فأعطيته حقّه من الشّتم والتقريع. ثم سكت سكوت الغاب إثر العاصفة وظللت كذلك حيناً. ثمّ التفت إلى أخي الخطيبة، وأمرته أن يذهب إلى فلان ليأتي ببابوره. فما خرج حتى ولىّ قائلاً: ولماذا أستعير من الناس وهذا بابورنا. فقلت هل وجدته؟

قال: نعم.

فالتفت إلى الآخر قائلاً: أيها الأعمى! أرأيت كيف أنّك أدخلت البابور وأخرجتْه الشياطين إلى الخارج؟

فلم يجب بحرف.

---

(1) في هذه المذكرة صورة عن المزاج الغضبي الذي عرف به الشابي ولعله يفسر توقه المتواصل إلى الاحتماء بالطبيعة طلباً للطمأنينة وللسكينة. ولكن هذا النوع من المذكرات قليل جدّاً فيما كتب أبو القاسم ولا يمكن أن نعزو ذلك إلا إلى الإنتقاء وهو علامة على الارتفاع إلى مستوى الأفكار والمواقف والإزورار عن جزئيات الحياة العادية.

وهكذا شاء الشيطان أن يهزأ بنا قليلاً، فهزأ ما شاء له الهزء: «أنسي الصبيَ إدخال البابور، ثم أعماه أن يراه لمّا ذهب للتفتيش عنه، ثمّ أبداه لما يئسنا، واعتمدنا على سواه».

86 ـ والآن وقد فرغت من هذا الحادث العارض الذي أوقفني عن متابعة الكتابة في مذكرة اليوم ورسم ما فيه من رسوم فلآخذ فيما جلست لكتبه:

بعد أن غادرت الإدارة، وودّعت ابن عمّتي، رجعت وجلست على المنضدة وأخذت أكتب... وجاء الأخ زين العابدين «وأنا أكتب» فحيّاه أخي، واقتحم البيت ولمّا رآني أكتب وقف في الباب يتأمّلني. ولكنّني لم أنتبه له رغم وقوفه وتحيّة أخي إليه. ولم أشعر إلا وصوت يقول:

«لا أراك إلا تكتب أدباً أليس كذلك؟»

فالتفتّ، فإذا به الأخ زين العابدين.

فقلت له: لا أكتب أدباً الآن، ولكنّني أكتب مذكّرات.

فقال: وهل تجد الوقت الكافي لكتابتها؟

فقلت: أجده يوماً، ولا أجد آخر.

ثم جلسنا وتحدّثنا أحاديث شتّى. وكان من بين ما حدّثني به «أن المحدّث» و«يعني به نفسه» قد شرع في قصّتين رائعتين: إحداهما تتوقّف على زورة إلى نابل حتى

يرى الشخص أو ينظر العذارى اللواتي يسقين الماء في البساتين. والأخرى تتعلّق بفكرة الزواج، والمرأة التي كثيراً ما كانت سلعة تباع في سوق المطامع والشهوات، وخلاصتها.

* * *

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر.

الشابي أبو القاسم

أ ـ أغاني الحياة ـ الطبعة الأولى، دار الكتب الشرقية ـ دار مصر للطباعة الفجالة ـ القاهرة 1955.

ب ـ الخيال الشعري عند العرب، الشركة القومية للنشر والتوزيع ـ تونس 1961.

ج ـ المذكرات: الدار التونسية للنشر ـ 1966. الدار التونسية للنشر، النشرة الرابعة ـ 1983.

2 ـ المراجع

ـ ابن سالم عمر، قابادو، حياته آثاره وتفكيره الإصلاحي مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ـ تونس 1975.

ـ ابن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر تونس 1983.

ـ بكار توفيق، مشاركة في دراسة ابي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية عدد 2، 1965.

ـ الجابري محمد صالح، الشعر التونسي 1870 ـ 1970، تونس 1974.

ـ الجزار المنصف: مصادر الشعور بالكآبة في ديوان «أغاني

الحيـاة» ـ مجلـة الفكـر عـدد 3، السنـة 30، ديسمبـر 1984 (تونس).
ـ الحليوي محمد، رسائل الشابي، دار المغرب العربي تونس 1966.
ـ حمدان محمد، دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من سنة 1838 الى 20 مارس 1956 ـ بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1989.
ـ الريفي هشام، الخط والدائرة، ضمن كتاب: دراسات في الشعرية، الشابي نموذجاً.
ـ العجيلي التليلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1811 ـ 1939 ـ منشورات كلية الآداب بمنوبة ـ تونس 1992.
ـ غازي محمد فريد، مرض أبي القاسم الشابي، مجلة الفكر، ديسمبر 1959 (تونس).
ـ قوبعة محمد، الشعر في كتابات الشابي النثرية ضمن كتاب دراسات في الشعرية الشابي نموذجاً.
ـ القرقوري فؤاد، أثر رواية «رفائيل» للامارتين بترجمة أحمد حسن الزيات في قصيدة «صلوات في هيكل الحبّ» لأبي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية عدد 25 سنة 1986.
ـ كرو أبو القاسم، آثار الشابي وصداه في الشرق، دار المغرب العربي، تونس/ بيروت 1988.
ـ ماي جورج، السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي، عبدالله صولة، بيت الحكمة قرطاج، تونس 1992.

- محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1986.
- المدني أحمد توفيق، حياة كفاح (3 أجزاء) - المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988.

3 - Barthes Roland: Critique et vérité, ed du seuil, Paris 1966.

- Bloch, La peste en Tunisie, apercu historique et épidémiologique, Tunis 1929.

- B.Hlima Hamadi, Un demi-siécle de théatre arabe en Tunisie 1907-1957 publication de l'université de Tunis, 1974.

- Chabbi Abul Qasim, Journal traduit par chamli Monji et Ben Ismail Mohamed, Beit El Hikma Cartage Tunis, 1988.

- Ghazi Mohamed ferid, Le roman et la nouvelle en Tunisie, maison tunisienne de l'édition Tunis, 1970.

- Mahjoubi Ali, les Origines du mouvement national en Tunisie, 1904 - 1934 publications de Tunis, 1982.

- Sayadi Mongi, Al jam'iyya khaldouniyya 1896 - 1958, Maison tunisienne se l'édition, 1974.

4 - Dictionnaires:

- Encyclopédique, Alpha, Gesal, Espagne 1984.

- Dictionaire des oeuvres de tous les temps et de tout les pays, Robert Laffont, Grande bretagne 1981.

- Le petit Robert 2 - Paris 1974.

مطبعة الكويت
KUWAIT PRINTING PRESS
تلفون : 4747518 - 4744412 - 4726322 (965)
فاكس : 4762405 (965)